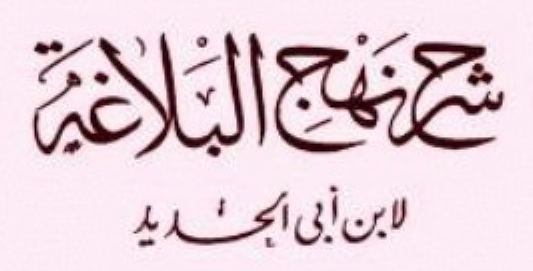


شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

دار إحياء الكتب العربية

عيسى البابي الحلبي وشركاه

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق

محمد أبو الفضل ابراهيم

الجزء الثالث

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

الطبعة الثانية

١٣٨٠ هـ ـ ١٩٦٠ م

منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي

قم - ايران ١٤٠٤ هـ ق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد العدل الكريم .

واعلم أن الذى ذكره المرتضى رحمه الله تعالى ، وأورده على قاضى القضاة[1] جيد ولازم ؛ متى ادعى قاضى القضاة أن العدالة إذا ثبتت ظنا أو قطعا لم يجز العدول عنها والتبرؤ إلا بما يوجب القطع ، ويعلم به علما يقينيا زوالها ؛ فأما إذا ادعى أن المعلوم لا يزول إلا بما يوجب العلم ، فلا يرد عليه ماذكره المرتضى رحمه الله تعالى .

وله أن يقول : قد ثبتت بالإجماع إمامة عثمان ، والإجماع دليل قطعى عند أصحابنا ، وكل من ثبتت إمامته ثبتت عدالته بالطريق التى بها ثبتت إمامته ، لأنه لا يجوز أن تكون إمامته معلومة وشرائطها مظنونة ؛ لأن الموقوف على المظنون مظنون ، فتكون إمامته مظنونة ، وقد فرضناها معلومة ، وهذا خلف ومحال . وإذا كانت عدالته معلومة لم يجز القول بانتفائها وزوالها إلا بأمر معلوم .

والأخبار التى رويت فى أحداثه أخبار آحاد لا تفيد العلم ، فلا يجوز العدول عن المعلوم بها ، فهذا الكلام إذا رتب هذا الترتيب اندفع به ما اعترض به المرتضى رحمه الله تعالى .

* * *

---

(١) انظر ص ٢٤ من الجزء الثانى ، وما بعدها .

[بقية رد المرتضى على ماأورده القاضى عبد الجبار من الدفاع عن عثمان][*]

فأمّا كلامُ المرتضى رحمه الله تعالى عَلَى الفصل الثانى من كلام قاضى القضاة ، وهو الفصلُ المحكىّ عن شيخنا أبى علىّ رحمه الله تعالى ، فنحن نورده . قال رحمه الله تعالى[1] :

أما قوله : لوكان ماذُكِرَ من الأحداث قادِحاً لوجب من الوقت الذى ظهرت الأحداث فيه أن يطلبوا رجلًا ينصبونه فى الإمامة ، لأنّ ظهورَ الحدَث كموته،فلمّا رأيناهم طلبوا إماماً بعد قتله دلّ على بطلان ماأضافوه إليه من الأحداث . فليس بشىء معتَمد ؛ لأنّ تلك الأحداثَ وإن كانت مزيلةً عندهم لإمامته ، وفاسخةً لها ، ومقتضية لأنْ يعقدوا لغيره الإمامة ، [2]إلا أنهم لم يكونوا قادرين على أن يتفقوا على نَصْب غيره ،[2] مع تشبّثه بالأمر ؛ خوفا من الفتنة والتنازع والتجاذُب ، وأرادوا أن يخلعَ نفسَه ،حتى تزولَ الشبهة، وينشَط مَنْ يصلُح للأمر لقبول العَقْد والتكفّل بالأمر . وليس يجرِى ذلك مجرَى موته؛ لأنّ موته يحسِم الطمع فى استمرار ولايته ، ولاتبقى شبهة فى خلوّ الزمان من إمام . وليس كذلك حَدَثه الذى يَسُوغ فيه التأويل عَلَى بُعْده ، وتبقى معه الشّبهة فى استمرار أمره . وليس نقول[3] : إنهم لم يتمكنوا من ذلك كما سأل نفسَه ، بل الوجه فى عدولهم ماذكرناه من إرادتهم حَسْمَ[4] المواد وإزالة الشبهة وقطع أسباب الفتنة .

(*) تابع لما ورد فى الجزء الثانى ص ٣٢٨ وما بعدها .

(١) الشافى ٢٦٦ وما بعدها ؛ وعبارته فى أول هذا الفصل : « فأما عد الأحداث التى نقمت عليه ، فنحن نتكلم عليها وعلى ما أورده من المعاذير فيها بمشيئة الله تعالى عند ذكره لها ؛ فأما ماحكاه عن أبى على من قوله : لو كان ماذكره من الأحداث قادحا . . . . » . وانظر ص ٣٦٢ من الجزء الثانى .

(٢ ــ ٢) كذا فى ا ، ج ، وفى ب والشافى : « فإنهم لم يقدموا على نصب غيره . . » .

(٣) الشافى : « ليس نقول » .

(٤) ا : « لحسم » ، وكذلك فى الشافى .

قال : فأمّا قوله : إنه معلوم من حال هـذه الأحداث أنّها لم تحصل أجمع فى الأيام التى حُصِر فيها وقُتِل ؛ بل كانت تقعُ حالاً بعد حال ، فلو كانت توجبُ الخلعَ والبراءة ، لما تأخّر من المسلمين الإنكارُ عليه ، ولـكان المقيمون من الصحابة بالمدينة أوْلَى بذلك من الواردين من البلاد ؛ فلا شكّ أنّ الأحداثَ لم تحصُل فى وقت واحد ؛ إلّا أنه غيرُ منكَر أن يكونَ نكيرُهم إنّما تأخّر لأنهم تأوّلوا ماورد عليهم من أفعاله على أجمل الوجوه ؛ حتى زاد الأمرُ وتفاقم ، وبَعُدَ التأويل ، وتعذّر التخريج ، ولم يبق للظنّ الجميل طريق ، فحينئذ أنكروا ، وهذا مستمرّ عَلَى ماقدّمنا ذكره ، من أنّ العدالة والطريقة الجميلة يُتأوّل لها فى الفعل والأفعال القليلة ، بحسب ماتقدّم من حُسْن الظن به ، ثم ينتهى الأمر [بعد ذلك][1] إلى بُعْدِ التأويل ، والعمل على الظاهر القبيح .

قال : عَلَى أنّ الوجهَ الصحيح فى هذا الباب أنّ أهل الحقّ كانوا معتقدين بخلعه من أول حَدَث ، بل معتقدين أنّ إمامته لم تثبت وقتا من الأوقات ، وإنما منعهم من إظهار مافى نفوسهم ماقدّمناه من أسباب الخوف والتقيّة ؛ لأنّ الاعتذارَ بالوجَل[2] كان عامًّا ، فلما تبيّنَ أمره حالاً بعد حال ، وأعرضت الوجوهُ عنه ، وقلّ العاذرُ له ، قويت الـكلمة فى خَلعه . وهذا إنما كان فى آخر الأمر دونَ أوّلهِ ، فليس يقتضى الإمساك عنه إلى الوقت الذى وقع الـكلام فيه نِسْبة الخطأ إلى الجميع ؛ على ماظنّه .

قال : فأما دفعهُ بأن تكون الأمّة أجمعت على خلعه بخروجه[3] نفسه وخروج مَنْ كان فى حيّزه عن القوم ، فليس بشىء ، لأنّه إذا ثبتَ أنّ مَنْ عَداه وعَدَا عبيده والرَّهْط من فُجّار أهله وفُسّاقهم ، كمَرْوان ومَنْ جرى مجراه ، كانوا مجمعين على خلعه، فلاشبهة

---

(١) من كتاب الشافى .

(٢) كذا فى ج ، وفى حاشيتها : « يعنى أكثر الناس يعتذرون بالخوف » ، وفى ا ، ب : « لأن الإعذار بالرجل » ، وفى الشافى : « لأن الاغترار بالرجل » .

(٣) ب : « بإخراجه » .

فى أنّ الحقّ فى غير حَيِّزه ، لأنه لا يجوز أن يكون هو المصيب ، وجميعُ الأمة مبطل ؛ وإنّما يدّعى أنّه على الحق لمن ينازع فى إجماع مَنْ عداه ، فأمّا مع التسليم لذلك ، فليس يبقى شبهة ، وما نجد مخالفينا يعتبرون فى باب الإجماع بإجماع الشّذّاذ والنفر القليل الخارجين من الإجماع ، ألا ترى أنّهم لا يحفِلون[1] بخلاف سعدٍ[2] وأهله وولده فى بَيْعة أبى بكر لقلّتهم وكثرة مَنْ بإزائهم ؛ ولذلك لا يعتدّون بخلاف مَن امتنع من بَيْعة أمير المؤمنين عليه السلام ، ويجعلونَه شاذًّا ؛ لا تأثير بخلافه[3] ، فكيف فارقوا هذه الطريقة فى خَلْع عثمان! وهل هذا إلّا تقلّب وَتَلَوّن !

***

قلت : أما إذا احتجّ أصحابُنا على إمامة أبى بكر بالإجماع ، فاعتراض حُجّتهم بخلاف سعد وولده وأهله اعتراض جيّد ، وليس يقول أصحابنا فى جوابه : هؤلاء شذّاذ فلا نحفِل بخلافهم ؛ وإنما المعتبر بالكثرة التى بإزائهم . وكيف يقولون هذا ، وحجّتهم الإجماع ولا إجماعَ ! ولكنّهم يُجيبون عن ذلك بأنّ سعدا مات فى خلافة عمر ، فلم يبق مَنْ يخالف فى خلافة عمر ، فانعقد الإجماع عليها ، وبايع ولد سعد وأهله من قَبْل ؛ وإذا صحّت خلافة عمر صحّت خلافة أبى بكر ؛ لأنها فرع عليها ؛ ومحال أن يصحّ الفرع ، ويكون الأصلُ فاسدا ؛ فهكذا يجيب أصحابُنا عن الاعتراض بخلاف سعد إذا احتجّوا بالإجماع ؛ فأمّا إذا احتجّوا بالاختيار فلا يتوجّه نحوَهم الاعتراض بخلاف سعد وأهله وولده ؛ لأنّه ليس من شرط ثبوت الإمامة بالاختيار إجماعُ الأمة على الاختيار ؛ وإنما يكفى فيه بَيْعة خمسة من أهل الحلّ والعقد على الترتيب الذى يرتّب أصحابُنا الدّلالة عليه ؛ وبهذا الطريق يثبت عندهم إمامةُ علىّ عليه السلام ، ولم يُحْفَل بخلاف معاوية وأهل الشام فيها .

***

(١) يقال : لم يحفل بالأمر ؛ إذا لم يبال به .
(٢) هو سعد بن عبادة الأنصارى ، وانظر حديث السقيفة فى تاريخ الطبرى (حوادث السنة الحادية عشرة).
(٣) ا ، ج : « لا تأثير له » .

قال رحمه الله تعالى : فأمّا قوله : إنّ الصحابة كانت بَيْن فريقين : مَنْ نصره[1] كزيد بن ثابت وابن عمر وفلان وفلان ، والباقون ممتنعون انتظاراً لزوال العارض ولأنه ماضيّق عليهم الأمر فى الدفع عنه ، فعجيب ، لأنّ الظاهر أنّ أنصاره هم الذين كانوا معه فى الدار ، يقاتلون عنه[2] ، ويدفعون الهاجمين عليه .

فأمّا مَنْ كان فى منزله ما أغنى عنه فتيلا ، فلا يُعدّ ناصرا ، وكيف يجوز ممّن أراد نُصرَته ، وكان معتقِداً لصوابه ، وخطأ المطالبين له بالخلع ، أن يتوقّف عن النصرة طلبا لزوال العارض ! وهلْ تُرادُ النّصرة إلّا لدفع العارض ، وبَعْدَ زواله لا حاجة إليها ! وليس يحتاج فى نصرته إلى أن يضيّق هو عليهم الأمر فيها ، بل مَنْ كان معتقدا لما لا يحتاج حله إلى إذنه فيها ، ولا يُحفَل بنهيه عنها ، لأنّ المنكر مما قد تقدّم أمر الله تعالى بالنهى عنه ، فليس يحتاج فى إنكاره إلى أمر غيره .

قال : فأمّا زيد بن ثابت ، فقد رُوِي ميلُه إلى عثمان ، وما يغنى ذلك وبإزائه جميعُ المهاجرين والأنصار ! ولميله إليه سبب معروف، فإن الواقدى روى فى ‹‹كتاب الدّار›› أنّ مَرْوان بن الحكم لما حُصِرَ عثمان الحصْر الأخير أتى زيدَ بن ثابت فاستصحبَه إلى عائشة ليكلّما فى هذا الأمر ، فمضيا إليها وهي عازمة على الحجّ ، فكلّماها فى أن تُقيمَ وتَذُبّ عنه ، فأقبلتْ على زيد بن ثابت ، فقالت : وما منعك يابن ثابت ولك الأشاريف قد اقتطعكها[3] عثمان ، ولك كذا وكذا ، وأعطاك عُثمان من بيت المال عشرة آلاف دينار ! قال زيد : فلم أرْجعْ عليها حرفا واحدا ، وأشارت إلى مروان بالقيام ، فقام مَرْوان وهو يقول :

---

(١) الشافى : « من ينصره » .
(٢) ب : « يقاتلون غيره » .
(٣) الشافى : « قد قطعها » .

حَرّق قَيْسٌ عَلَيّ البلا دَ حتى إذا اضطرمَتْ أجذَما[1]

فناداه عائشة ، وقد خرج من العتبة : يابن الحكم ، أعلَيّ تُمثِّل الأشعار ! قد والله سمعتُ ماقلتَ ، أتراني في شكٍّ من صاحبك ! والذي نفسي بيده لوددت أنّه الآن في غِرارة من غرائري تخيط عليه ، فألقيه في البحر الأخضر ، قال زيد بن ثابت : فخرجنا من عندها[2] على اليأس منها[2] .

ورَوى الواقديّ أن زيد بن ثابت اجتمع عليه عِصابة من الأنصار، وهو يدعوهم إلى نُصْرة عثمان . فوقف عليه جَبَلة بن عمرو بن حَبّة المازنيّ ، فقال له : وما يمنعُك يازيدُ أن تذُبّ عنه ؟ أعطاك عشرة آلاف دينار وحدائق من نخل لم تَرِثْ عن أبيك مثل حديقة منها .

فأمّا ابنُ عمر فإنّ الواقديّ روى أيضا عنه أنه قال : والله ما كانَ فينا إلا خاذلٌ أو قاتل . والأمر على هذا أوضحُ من أن يخفى .

فأما ماذكره من إنفاذ أمير المؤمنين عليه السلام الحسَن والحسين عليهما السلام، فإنما أنفذهما — إنْ كان أنفذَهما — ليمنعا من انتهاك حريمه وتعمّد قتله ، ومنع حُرَمِه[3] ونسائه من الطعام والشراب، ولم يُنفذهما ليمنعا من مطالبته بالخلع ، وكيف وهو عليه السلام مصرّح بأنّه يستحقّ بأحداثه الخلْع ، والقوم الذين سعَوْا في ذلك إليه كانوا يغدُون ويروحون ، ومعلوم منه ضرورةً أنه كان مساعِداً على خلْعه ونقض أمره ، لا سيّما في المرة الأخيرة .

فأما ادعاؤه أنّه عليه السلام لَعَن قَتَلَتَه ، فهو يعلم مافي هذا من الروايات المختلفة التي

---

(١) الإجذام : الإقلاع ؛ والبيت للربيع بن زياد ؛ من أبيات في الحماسة ٢ — ٤٨٤ — ٤٨٧ ، بشرح المرزوقي . وفي الشطر الأول من البيت زحاف بالخرم ؛ وهو جائز في أول المتقارب والطويل ، ورواية اللسان : « وحرق » ؛ بلا خرم . وقيل هو ابن زياد العبسي .

(٢ — ٢) الشافي : « على الناس » .

(٣) ب : « حريمه » ، وما أثبته من ا ، وكتاب الشافي .

هي أظهر من هذه الرواية ، وإن صحّت فيجوز أن تكونَ محمولة على لَعْن مَنْ قتله متعمِّدا قتلَه ، قاصدا إليه ، فإنّ ذلك لم يكن لهم .

فأما ادّعاؤه أنّ طلحة رجعَ لما ناشده عثمان يوم الدّار ، فظاهرُ البطلان وغير معروف في الرواية ، والظاهر المعروف أنه لم يكن على عثمان أشدُّ من طلحة ، ولا أغلظَ منه .

قال : ولو حكينا من كلامه فيه ماقد رُوي لأفنينا قِطْعة كثيرة من هذا الكتاب ، وقد رُوِي أنّ عثمان كان يقول يوم الدار : اللهم اكفِني طلحة ، ويكرّر ذلك، علماً بأنه أشدُّ القوم عليه . ورُوِيَ أنّ طلحةَ كانَ عليه يومَ الدار دِرْعٌ وهو يُرامى الناس ، ولم ينزِعْ عن القتال حتى قتل الرّجُل[1] .

فأما ادّعاؤه الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله : «ستكون فتنة ، وإنّ عثمان وأصحابه يومئذ على الهدى » ، فهو يعلم أنّ هذه الرواية الشاذّة لا تكون في مقابلة المعلوم ضرورة من إجماع الأمة على خَلْعه وخَذْله ، وكلام وجوه المهاجرين والأنصار فيه ، وبإزاء هذه الرواية مايملأُ الطروس عن النبيّ صلى الله عليه وآله وغيره ، مما يتضمّن ماتضمّنَتْه .

ولو كانت هذه الرواية معروفةً لكان عثمانُ أولى الناس بالاحتجاج بها يوم الدار، وقد احتجَّ عليهم بكلّ غثّ وسمين ، وقبل ذلك لما خُوصم وطولب بأنْ يخلع نفسه ، ولاحتجّ بها عنه بعض أصحابه وأنصاره ، وفي علمنا بأنّ شيئا من ذلك لم يكُنْ ، دلالة على أنّها مصنوعة موضوعة .

فأما مارواه عن عائشة من قولها: «قُتِل والله مظلوما» فأقوال عائشة فيه معروفة ومعلومة، وإخراجُها قميصَ رسول الله صلى الله عليه وآله وهي تقول : « هذا قميصه لم يَبْلَ ، وقد أبْلَى عثمانُ سنّتَه » ، إلى غير ذلك مما لا يُحصى كثرة .

---

(١) ب : « الرجال » ، وما أثبته عن ا ، ج ، وكتاب الشافي .

فأما مدحُها له وثناؤُها عليه ؛ فإنّمـا كانا عَقِيب عِلْمها بانتقال الأمر إلى مَن انتقل إليه ، والسببُ فيه معروف ، وقد وقفت عليه ، وقُوبل بين كلامها فيه متقدما ومتأخرا .

فأما قوله : لا يمتنع أن يتعلّق بأخبار الآحاد فى ذلك لأنّها فى مقابلة مايدّعونه مما طريقه أيضاً الآحاد ، فواضح البطلان ، لأن إطباق الصحابة وأهل المدينة ـ إلّا مَنْ كان فى الدار معه على خلافه ، فإنهم كانوا بين مجاهد ومقاتلْ مبارز ، وبين متقاعد خاذل ـ معلومٌ ضرورة لـكلّ مَنْ سمع الأخبار ، وكيف يدّعى أنّها من جهـة الآحاد حتى يمـارض بأخبار شاذة نادرة ! وهل هذا إلّا مكابرة ظاهرة !

فأمّا قوله : إنا لا نعدل عن ولايته بأمور محتَملة ، فقد مضى الكلام فى هذا المعنى ، وقلنا إن المحتمل هو مالا ظاهر له ، ويتجاذبه أمورر محتملة ، فأمّا ماله ظاهر فلا يسمّى محتملا وإن سماه بهذه التسمية ، فقد بينا أنّه مما يُعْدَل من أجله عن الولاية ، وفصّلنا ذلك تفصيلا بيّناً .

وأما قوله : إنّ للإمام أن يجتهد برأيه فى الأمور المَنُوطة به ، ويكون مصيبـا وإن أفضت إلى عاقبة مذمومة ، فأوّل مافيه أنّه ليس للإمام ولا غيره أن يجتهد فى الأحكام ، ولا يجوز أن يعمل فيها إلّا على النصّ ، ثم إذا سلّمنا الاجتهاد ، فلا شكّ أنّ هاهنا أموراً لا يسوغ فيها الاجتهاد ، حتى يكون مَنْ خبّرناعنه بأنه اجتهد فيها غير مصوّب[1] ، وتفصيل هذه الجملة يبيّن عند الكلام على ماتعاطاه من الأعذار عن إحداثه[2] على جهة التفصيل .

* * *

قلت : الـكلام فى هذا الموضع على سبيل الاستقصاء إنما يكون فى الـكتب الكلاميّة المبسوطة فى مسألة الإمامة ، وليس هذا موضع ذاك ، ولـكن يكفى قاضى القضاة أن يقول:

---

(١) كذا فى الأصول ، وفى كتاب الشافى : « غير مصدق » .

(٢) الشافى : « فى أحداثه » .

قد ثبت بالإجماع صحّة إمامة عثمان ؛ فلا يجوز الرجوع عن هذا الإجماع إلا بإجماع معلوم على خَلْعه وإباحة قَتْله ، ولم يُجمع المسلمون على ذلك ، لأنّه قد كان بالمدينة مَنْ يُنكر ذلك وإنْ قلّوا ، وقد كان أهلُ الأمصار يُنكرُون ذلك ، كالشام والبَصْرة والحجاز واليمن ومكّة وخراسان ، وكثير من أهل الكوفة ، وهؤلاء مسلمون ، فيجب أن تُعتبَر أقوالهم فى الإجماع ، فإذا لم يدخلوا فيمن أجْلَب عليه لم ينعقد الإجماع على خلعه ولا على إباحة دمه ، فوجب البقاء على ما اقتضاه الإجماع الأوّل .

* * *

[ذكر المطاعن التى طُعِن بها على عثمان والردّ عليها]

فأمّا الكلام فى المطاعن المفصّلة التى طُعِن بها فيه ، فنحن نذكرها ، ونحكى ماذكره قاضى القضاة وما اعترضه به المرتضى رحمه الله تعالى [١] .

الطعن الأوّل :

قال قاضى القضاة فى " المغنى " : فممّا طُعِن به عليه قولهم: إنّه ولى أمورَ المسلمين مَنْ لا يصلحُ لذلك ولا يؤتمَن عليه، ومَنْ ظهر منه الفسق والفساد ، ومَنْ لا علمَ عنده، مراعاةً منه لحرمة القرابة ، وعدولًا عن مراعاة حرمة الدّين والنظر للمسلمين؛ حتى ظهر ذلك منه وتكرّر ؛ وقد كان عمرُ حذّره من ذلك؛ حيث وصفه بأنّه كلِفٌ بأقاربه ، وقال له : إذا وُلّيتَ هذا الأمرَ فلا تسلّط بنى أبى مُعَيْط على رقاب الناس . فوقع منه ماحذّره إياه ، وعُوتب فى ذلك فلم ينفع العتبُ ، وذلك نحو استعماله الوليد بن عُقْبة [٢] ، وتقليده إياه ،

---

(١) نقله المرتضى فى الشافى ٢٦٧ وما بعدها .

(٢) هو الوليد بن عقبة بن أبى معيط أخو عثمان لأمه ، وأمهما أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب ابن عبد شمس . ولاه عثمان الكوفة بعد عزل سعد بن أبى وقاص ؛ ثم عزله عنها بعد أن ثبت عليه شرب الخمر ؛ فى خبر مشهور . الإصابة ٣ : ٦٠١ .

حتى ظهر منه شربُ الخمر ؛ واستعماله سعيد بن العاص (١) حتى ظهرتْ منه الأمور التى عندها أخرجَه أهل الكوفة ، وتوليتُه عبد الله بن أبى سَرْح (٢) ، وعبد الله بن عامر بن كُريز (٣) ؛ حتى رُوِى عنه فى أمر ابن أبى سَرْح أنّه لما تظلّم منه أهلُ مصر وصَرَفه عنهم بمحمد بن أبى بكر ، كاتَبه بأنْ يستمرّ على ولايته، فأبطن خلافَ ماأظهر، فِعْل من غرضه خلاف الدين . ويقال : إنه كاتبَه بقتل محمد بن أبى بكر وغيره ممّن يرِد عليه، وظفِر بذلك الكتاب ، ولذلك عَظُم التظلّم من بعد ، وكَثر الجمع ، وكان سبب الحِصار والقتل ؛ حتى كان من أمرِ مَرْوان وتسلّطه عليه وعلى أموره ما قُتل بسببه ؛ وذلك ظاهر لا يمكن دَفْعُه .

قال رحمه الله تعالى: وجوابُنا عن ذلك أن نقول: أمّا ما ذُكِر من تَوْليته مَنْ لايجوز أن يُستعمل، فقد علمنا أنّه لا يمكنُ أنْ يُدّعى أنه حين استعملَهم عَلِمَ من أحوالهم خلافَ الستر والصلاح؛لأنّ الذى ثبتَ عنهم من الأمور القَبيحة حَدَث من بعد، ولا يمتنع كونُهم فى الأوّل مستورين فى الحقيقة أو مستورين عنده ؛ وإنّما كان يجب تخطئته لو استعملهم وهم فى الحال لا يصلحون لذلك .

فإنْ قيل ، فلمّا علم بحالهم كان يجب أن يعزلهم !

قيل : كذلك فعَل ؛ لأنه إنما استعمل الوليد بن عُقْبة قبل ظهور شرب الخمر عنه

---

(١) هو سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية القرشى الأموى . ولاه عثمان الكوفة بعد الوليد ابن عقبة ؛ ثم شكاه أهل الكوفة ؛ لتجبر وغلظة فيه ، وكتبوا إلى عثمان : لا حاجة لنا فى وليدك ولا سعيدك ؛ فعزله . الاستيعاب لابن عبد البر ٦٢١ .

(٢) هو عبدالله بن سعد بن أبى سرح بن الحارث بن حبيب القرشى العامرى ، أخو عثمان من الرضاعة ؛ كان على الصعيد فى زمن عمر ، ثم ضم إليه عثمان مصر كلها ؛ وافتتح إفريقية ، الإصابة ٣ : ٣٠٩ .

(٣) هو عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى القرشى العبشمى ، ابن خال عثمان بن عفان. عزل عثمان أبا موسى الأشعرى عن البصرة وعثمان بن أبى العاص عن فارس ؛ وجمع ذلك كله لعبد الله بن عامر . الاستيعاب لابن عبد البر ٩٣١ .

فلما شُهِد عليه بذلك جَلَده الحدّ وصرَفه . وقد رُوى مثلُه عن عمر ، فإنّه ولّى قُدامة بن مَظْعون بعضَ أعماله، فشهِدوا عليه بشرب الخمر ، أشخصه وجلَده الحدّ ؛ فإذا عُدّ ذلك فى فضائلِ عمر لم يجزْ أن يعدّ ماذكروه فى الوليدِ من معايب عثمان . ويقال : إنّه لما أشخصه أقام عليه الحدّ بمشهد أمير المؤمنين عليه السلام .

وقد اعتذر من عَزْله سعد بن أبى وقّاص بالوليد ؛ بأنّ سعداً شكاه أهلُ الكوفة ، فأدّاه اجتهادُه إلى عزله بالوليد .

فأمّا سعيد بن العاص فإنه عزله عن الكوفة وولّى مكانه أبا موسى، وكذلك عبدالله ابن أبى سَرْح عزله وولّى مكانه محمد بن أبى بكر، ولم يظهر له من مَرْوان[1] مايوجب أن يصرِفَه عمّا كان مستعملا فيه، ولو كان ذلك طَعْناً لوجب مثلُه فى كلّ مَنْ ولّى، وقد علمنا أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله ولّى الوليد بن عُقْبة ، فحدث منه ماحدث . وحَدَث من بعض أمراء أمير المؤمنين عليه السلام الخيانة ، كالقَعقاع بن شور ، لأنه ولاه على مَيْسان فأخذ مالها ولحق بمعاوية، وكذلك فعل الأشعث بن قيس بمال أذْرَبيجان. وولّى أبا موسى الحَكَم ، فكان منه ما كان، ولا يجب أن يُعاب أحد بفعل غيره ؛ وإذا لم يلحقه عيب فى ابتداء ولايته فقد زال العيبُ فيا بعده .

وقولهم : إنّه قسم أكثر الولايات فى أقاربه، وزال عن طريقة الاحتياط للمسلمين، وقد كان عمر حذّره من ذلك، فليس بعيب ؛ لأنّ توليةَ الأقارب كتولية الأباعد؛ فى أنّه يحسُن إذا كانوا على صفات مخصوصة. ولو قِيلَ إنّ تقديمهم أولى لم يمتنع، إذا كان للوالى لهم أشدّ تمكنا من عزلهم، والاستبدال بهم ، وقد ولّى أمير المؤمنين عليه السلام عبدالله بن العباس البصرة، وعُبيدالله بن العباس اليمن، وقُثَم بن العباس مكّة؛ حتى قال مالك الأشتر عند ذلك :

---

(١) كذا فى ج ، وفى ب والشافى : « فى بابه مروان » .

عَلَى ماذا قتلنا الشيخ أمس ! فيما يُرْوَى ؛ ولم يكن ذلك بعيب إذا أدّى ماوجب عليه في اجتهاده .

فأمّا قولهم : إنّه كتب إلى ابن أبي سَرْح حيث ولّى محمد بن أبي بكر بأنّه يقتلُه ويقتل أصحابه ، فقد أنكرَ ذلك أشدّ إنكار ، حتى حلف عليه، وبيّن أن الكتاب الذي ظهر ليس كتابه ولا الغلام غلامه ولا الراحلة راحلته ؛ وكان في جُمْلة مَنْ خاطبه في ذلك أميرُ المؤمنين عليه السلام،فقبِل عذره . وذلك بيّن ؛ لأنّ قول كلّ أحد مقبول في مثل ذلك، وقد علم أنّ الكتاب يجوز فيه التزوير ، فهو بمنزلة الخبَر الذي يجوز فيه الكذب .

فإن قيل : فقد علم أنّ مروان هو الذي زَوّر الكتاب ، لأنه هو الذي كان يكتب عنه ، فهلّا أقام فيه الحدّ !

قيل : ليس يجب بهذا القدر أن يُقطَع على أنّ مروان هو الذي فعل ذلك،لأنّه وإن غلب ذلك في الظّنّ،فلا يجوز أن يحكم به ، وقد كان القوم يسومونَه تسليمَ مروان إليهم؛ وذلك ظلم ؛ لأنّ الواجب على الإمام أن يُقيم الحدّ على مَنْ يستحقه أو التأديب ، ولايحلّ له تسليمُه إلى غيره ؛ فقد كان الواجب أن يُثبِتُوا عنده مايوجب فيمروان الحدّ والتأديب ليفعَله به ؛ وكان إذا لم يفعل والحال هذه يستحقّ التعنيف.وقد ذكر الفقهاء في كتبهم أن الأمر بالقتل لايُوجب قَوَداً ولا ديةولا حدّاً،فلو ثبت فيمَرْوان ماذكروه لم يستحقّ القتل،وإن استحق التعزير،لكنّه عدل عن تعزيره؛لأنّه لم يثبت؛وقد يجوز أن يكونَ عثمانُ ظنَّ أنّ هذا الفعل فِعْلُ بعض من يعادي مَرْوان تقبيحا لأمره؛لأن ذلك يجوز ، كما يجوز أن يكون من فعله؛ولا يعلَم كيف كان اجتهاده وظنه،وبعد فإنّ هذا الحدَث من أجل مانقموا عليه؛ فإن كان شيء من ذلك يُوجب خَلْع عثمان وقتله ؛ فليس إلّا هذا ؛ وقد علمنا أنّ هذا الأمرَ لو ثبت ما كان يُوجب القتل؛ لأنّ الأمر بالقتل لا يوجب القتل ؛ سيما قَبل وقوع القتل للمأمور به ؛ فنقول[1] لهم : لو ثبت ذلك على عثمان أكان يجبُ قتله؟فلا يمكنهم ادّعاء

(١) الشاق « فيقال لهم » .

ذلك ، لأنه بخلاف الدّين ؛ ولابد أن يقولوا : إنّ قتله ظلم ، وكذلك حبْسُه فى الدار ، ومنعه من الماء ، فقد كان يجب أن يدفع القومُ عن كلّ ذلك ، وأن يقال : إنّ من لم يدفعهم وينكر عليهم يكون مخطئاً .

وفى القول بأنّ الصحابة اجتمعوا على ذلك كلّهم تخطئة لجميع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ وذلك غير جائز ، وقد عُلِم أيضا أنّ المستحقّ للقتل والخلْع لايحلّ أن يُمنَع الطعامَ والشرابَ ، وعُلِم أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يمنعْ أهل الشام من الماء فى صِفِّين ؛ وقد تمكن من منعهم ؛ وكلّ ذلك يدلُّ على كوْن عثمان مظلوما ، وأنّ ذلك من صُنْع الجهّال ، وأنّ أعيانَ الصحابة كانوا كارهين لذلك . وأيضا فإنّ قتله لو وجب لم يَجُزْ أن يتولّاه العوامُّ من الناس ؛ ولا شبْهَة أنّ الذين أقدَموا على قتله كانوا بهذه الصّفة ؛ وإذا صحّ أن قتله لم يكنْ لهم ، فمنْعُهم والنكيرُ عليهم واجب .

وأيضاً فقد عُلم أنه لم يكن من عثمان مايستحقّ به القتل ؛ من كُفرٍ بعد إيمان ، أوزناً بعد إحصان ، أو قتلِ نفسٍ بغير حقّ ؛ وأنه لو كان منه ما يوجِب القتل لكان الواجبُ أن يتولّاه الإمام ؛ فقتلُه على كلّ حالٍ منكَر ، وإنكارُ المنكرِ واجب .

وليس لأحدٍ أن يقولَ : إنّه أباح قتلَ نفسه ، من حيث امتنع من دَفْع الظلم عنهم ، لأنّه لم يمتنع من ذلك ؛ بل أنصفهم ، ونظر فى حالهم ، ولأنه لو لم يفعلْ ذلك لم يحلّ لهم قتلُه ، لأنه إنّما يحلّ قتلُ الظالم إذا كان على وجه الدّفع ؛ وللمرويّ أنهم أحرقوا بابه ، وهجموا عليه فى منزله ، وبَعجُوه بالسيف والمشاقِص[1] ، وضربوا يَدَ زوجته لما وقعتْ عليه ، وانتهبوا متاعَ داره ؛ ومِثْلُ هذه القِتْلة لا تحلّ فى الكافر والمرتدّ ، فكيف يُظنّ أنّ الصحابة لم ينكِرُوا ذلك ، ولم يعدّوه ظلما ؛ حتى يقال إنّه مستحقٌّ من حيث لم يَدْفع القوم عنه ! وقد تظاهرَ الخبر بما جرَى من تجمّع القوم عليه ، وتوسّط أمير المؤمنين عليه السلام لأمرهم ، وأنّه

---

(١) المشاقص : جمع مشقص ؛ وهو النصل العريض .

بذل لهم ما أرادوه ، وأعتبهم(١) وأشهدَ على نفسه بذلك ؛ وإن الكتاب الموجودَ بعد ذلك المتضمّن لقتل القوم ، ووقف عليه — وممّن أوقفه عليه أمير المؤمنين عليه السلام(٢) — لحلفَ أنّه ما كتبه ، ولا أمرَ به ؛ فقال له : فمَنْ تتّهم ؟ قال : ما أتّهم أحدا ، وإنّ للناس لحِيَلاً .

والرواية ظاهرة أيضا بقوله : إن كنت أخطأتُ أو تعمّدت فإنى تائب ومستغفر ؛ فكيف يجوز والحال هذه أن تُهتَك فيه حرمةُ الإسلام وحرمةُ البلد الحرام ! ولاشبهةَ فى أنّ القتل على وجه الغِيلة لايحلّ فيمن يستحقّ القتل ، فكيف فيمن لايستحقّه ! ولو لا أنّه كان يمنع من محاربة القوم ظنًّا منه أنّ ذلك يؤدّى إلى القتل الذّريع لكَثُر أنصاره .

وقد جاء فى الرواية أن الأنصارَ بدأت بمعونته ونُصرته،وأنّ أمير المؤمنين عليه السلام قد بعث إليه ابنه الحسن عليه السلام ، فقال له : قل لأبيك فلتأتنى ؛ فأراد أميرُ المؤمنين عليه السلام المصير إليه ، فمنعَه من ذلك محمد ابنه ، واستعان بالنّساء عليه ، حتى جاء الصريخ(٣) بقتل عثمان ، فمدّ يده إلى القبلة ، وقال : اللّهم إنى أبرأ إليك من دم عثمان .

فإنْ قالوا : إنّهم اعتقدُوا أنه من المفسدين فى الأرضِ ، وأنّه داخل تحت آية المحاربين .

قيل : فقد كان يجب أن يتولّى الإمام هذا الفعل ، لأنّ ذلك يجرى مجرى الحدّ ، وكيف يُدّعى ذلك ، والمشهور عنه أنه كان يمنع من مقاتلتهم ، حتى رُوِى أنّه قال لعبيده ومواليه ، وقد همّوا بالقتال : مَنْ أغمد سيفه فهو حرّ ! ولقد كان مؤثراً لتكير ذلك الأمر بما لايؤدى إلى إراقة الدماء والفتنة ، ولذلك لم يستعنْ بأصحاب الرسول صلى الله عليه وآله وإن كان لما اشتدّ الأمر ، أعانَه مَنْ أعان ، لأنّ عند ذلك تجب النُّصْرة والمعونة ، فحيث

---

(١) أعتبهم : أرضاهم .
(٢) عبارة الشافى : « وذكر أن أمير المؤمنين عليه السلام واقفه على الكتاب » .
(٣) الصريخ : المستغيث .

كانت الحال متماسكة ، وكان ينهى عن إنجاده وإعانته بالحرب امتنعوا وتوقفوا ، وحيثُ اشتدّ الأمر أعانه ونصره مَنْ أدركه ، دون من لم يغلِب ذلك فى ظنه .

***

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هـذا الـكلام ، فقال[1] : أما قوله : لم يكن عالماً بحال الفَسَقة الذين ولّام قبل الولاية ؛ فلا تعويلَ عليه ؛ لأنّه لم يولِّ هؤلاء النفَر إلّا وحالُهم مشهورة فى الخلاعة والمجانة والتجرّم والتهتك ؛ ولم يختلف اثنان فى أنّ الوليد بن عُقبة لم يستأنف التظاهر بشرب الخمر والاستخفاف بالدّين على استقبال ولايته للكوفة؛ بل هذه كانت سنّتَه والعادةَ المعروفة منه ؛ وكيف يخفَى عَلَى عثمان ـ وهو قريبه ولصيقُه وأخوه لأمّه ـ مِنْ حاله مالا يخفى عَلَى الأجانب الأباعد ! ولهذا قال له سعد بن أبى وقاص ـ فى رواية الواقدىّ ، وقد دخل الـكوفة ـ : ياأبا وهب[2] ، أمير أم زائر ؟ قال : بل أمير ، فقال سعد : ماأدرى أحَمُقْتُ بعدك أم كِستَ[3] بعدى ! قال : ماحَمُقْتَ بعدى ولا كِسْتُ بعدك ، ولـكنّ القوم ملـكوا[4] فاستأثروا ، فقال سعد : ماأراك إلّا صادقا .

وفى رواية أبى مِخنف لوط بن يحيى الأزدىّ أنّ الوليد لما دخل الـكوفة مرّ عَلَى مجلس عمرو بن زُرارة النَّخعىّ ، فوقف ، فقال عمرو : يامعشرَ بنى أسد ، بئسما استقبلَنا به أخوكم ابنُ عفّان ! أمِنْ عـدله أن ينزِعَ عنّا ابنَ أبى وقاص ، الهيّن الليّن السّهل القريب ، ويبعثَ بَدَله أخاه الوليد ، الأحمق الماجن الفاجر قديما وحـديثا ! واستعظم الناسُ مقدَمه ، وعَزْلَ سعد به ، وقالوا : أرادعثمان كرامةَ أخيه بهوانأمّة محمد صلى الله عليه ! وهذا تحقيقُ ماذكرناه من أنّ حاله كانتْ مشهورة قبل الولاية ، لاريب فيها عنـد أحدٍ ، فـكيف

---

(١) الشافى ص ٢٦٩

(٢) أبو وهب كنية الوليد بن عقبة .

(٣) من الـكيس ، وهو خلاف الحمق .

(٤) كذا فى ج والشافى ، وفى ب : « ولوا » .

يقال : إنه كان مستوراً حتى ظهر منه ما ظهر ! وفي الوليد نزل قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لا يَسْتَوُونَ ﴾ (١) ، فالمؤمن ها هنا أمير المؤمنين عليه السلام ، والفاسق الوليد ، على ما ذكره أهل التأويل . وفيه نزل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ (٢) ، والسبب في ذلك أنه كذب على بني المصطلق عند رسول الله صلى الله عليه وآله ، وادّعى أنهم منعوه الصّدقة . ولو قصصنا مخازيه المتقدّمة ومساويه لطال بها الشرح.

وأما شربُه الخمر بالكوفة وسُكْره ، حتى دخل عليه [مَنْ دخل] (٣) وأخذ خاتمه من إصبعه ، وهو لا يعلم ، فظاهر ، وقد سارت به الرّكبان . وكذلك كلامه في الصلاة ، والتفاته إلى مَنْ يقتدى به فيها وهو سكران ، وقوله لهم : أأزيدكم ؟ فقالوا : لا ، قد قضينا صلواتنا ، حتى قال الحطيئة في ذلك :

شَهِدَ الْحُطَيْئَةُ يَوْمَ يَلْقَى رَبَّهُ ... أَنَّ الْوَلِيدَ أَحَقُّ بِالْعُذْرِ (٤)

---

(١) سورة السجدة ١٨ . (٢) سورة الحجرات ٦ .

(٣) تكملة من كتاب الشافي .

(٤) كذا وردت الرواية في الأصول والشافي ؛ وروى صاحب الأغاني ٤ : ١٧٦ (ساسي) بسنده عن مصعب الزبيري ، قال : قال الوليد بن عقبة بعدما جلد : اللهم إنهم شهدوا علي بزور ، فلا ترضهم عن أمير ، ولا ترض عنهم أميراً ؛ فقال الحطيئة يكذب عنه :

شهد الحطيئة يومَ يلقى ربَّهُ ... أنَّ الوليدَ أحقُّ بالعُذْرِ

خلعوا عنانَك إذْ جريتَ ولَوْ ... تركوا عنانَك لم تزل تجري

ورأوْا شمائل ماجدٍ أنِفٍ ... يُعطي على الميسورِ والعُسْرِ

فنُزِعتَ مكذوباً عليك ولمْ ... تنزَعْ إلى طمعٍ ولا فقرِ

فقال رجل من بني عجل يرد على الحطيئة :

نادَى وقدْ تمّت صلاتُهُمُ ... أأزيدكم - ثملاً - وما يدري

ليزيدكُمْ خيراً ولو قبلُوا ... لقرَنْتَ بين الشفعِ والوترِ =

نادَى وَقَدْ نَفِدَتْ صلاتُهُمُ ... أأزيدكم - ثَمِلاً - وما يدرى
ليزيدهمُ خَيْراً وَلَوْ قَبِلُوا ... منه لقادهمُ على عَشْرِ
فأبوْا أبا وهبٍ ولو فعلوا ... لقرنتَ بين الشَّفْعِ والوَتْرِ
حَبَسُوا عِنانك إذ جريت ولو ... خَلَّوْا عِنانك لم تَزَلْ تجرِى

وقال فيه أيضا :

تَكَلّمَ فى الصَّلاةِ وَزادَ فِيها ... عَلَانِيَةً وجاهَرَ بالنفاق[1]
وَمَجّ الخمرَ فِى سَنَنِ المصلَّى ... ونادَى والجميعُ إلى افتراق
أزيدكمُ عَلَى أن تحمدُونى ... فما لكمُ ومالىَ مِنْ خَلَاقِ

وأما قوله : إنه جلده الحدّ وعزله ، فبعدَ أيّ شيء كان ذلك ، ولم يعزله إلّا بعد أن دافع ومانع ، واحتجّ عنه وناضل ! ولو لم يقهره أمير المؤمنين عليه السلام على رأيه لما عَزَله ، ولا أمكن من جَلْده . وقد روى الواقدىّ أنّ عثمان لما جاءه الشهود يشهدون على الوليد بشرب الخمر أو عدهم وتهدّدهم .

قال الواقدىّ : ويقال إنه ضربَ بعضَ الشهود أيضاً أسواطاً ، فأتوْا أميرَ المؤمنين عليه السلام ، فشكوْا إليه ، فأتى عثمان ، فقال : عطّلت الحدود ، وضربت قوما شهدوا على أخيك ، فقلَبت الحُكْم ، وقد قال لك عمر : لا تحملْ بنى أمية وآل أبى مُعَيط على رقاب الناسِ ! قال : فما ترى ؟ قال : أرى أن تعزِله ولا تولّيه شيئا من أمور المسلمين ، وأن تسأل عن الشهود ؛ فإن لم يكونوا أهلَ ظِنّة ولا عداوة ، أقمت على صاحبك الحدّ . وتكلّم فى مثل ذلك طلحة والزّبير وعائشة ، وقالوا أقوالا شديدة ، وأخذته الألسنُ من كلّ جانب ، فحينئذ عزَله ، ومكّن من إقامة الحدّ عليه .

= فأبوْا أبا وهبٍ ولو فعلوا ... وصلتْ صلاتَهمُ إلى العشْرِ

وانظر ديوان الحطيئة ٨٥ .

(١) ديوانه ١١٩

وقد روى[1] الواقدىّ أنّ الشهود لما شَهدوا عليه فى وجهه ،وأرادعثمان أن يحدّه ألبسه جُبّة خزّ ، وأدخله بيتا ، فجعل إذا بعث إليه رجلا من قريش ليضرِبه ،قال له الوليد:أنشدُك الله أن تقطَع رحمى وتُغضب أميرالمؤمنين ! فلمّا رأى علىّ عليه السلام ذلك ، أخذَ السوطَ ودخل عليه ، فجلده به . فأىّ عذر لعثمان فى عزله وجلْده بعد هــذه الممانعة الطويلة ، والمدافعة الشديدة !

وقصّة الوليد ــ مع الساحر الذى كان يلعبُ بين يديه ، ويغرّ الناس بمكرِه وخديعته ، وأن جُندَب بن عبد الله الأزدىّ امتعض من ذلك ودخل عليه فقتله ، وقال له : احيِ نفسك إن كنت صادقا ، وأن الوليد أراد أن يقتل جُندبا بالساحر ، حتى أنكر الأزد ذلك عليه ، فحبسه وطال حبسُه حتى هرب من السجن ــ معروفة مشهورة .

فإن قيل : فقد ولّى رسول الله صلى الله عليه وآله الوليد بن عُقْبة هذا صَدَقةَ بنى المصْطَلق ، وولّاه عمر صــدقةَ تَغلب ، فكيف تدّعون أنّ حاله فى أنّه لا يصلح للولاية ظاهرة !

قلنا : لا جَرَم ، إنه غرّ رسول الله صلى الله عليه وآله ، وكَذَب على القوم حتى نزلت فيه الآية التى قدمنا ذكرها ، فعزله . وليس خَطْب ولاية الصدقة مثل خَطْب ولاية الكوفة ، فأما عمر فإنه لما بلغه قوله :

إذا ماشــددتُ الرأس منى بِمِشْوَذٍ فويلَكِ منى تغلبَ ابنةَ وائِل[2]

عزَله .

وأما عَزْلُ أمير المؤمنين عليه السلام بعضَ أمرائه لمــا ظهر من الحدَث كالقَعقاع ابن شُور وغيره ، و كذلك عَزْلُ عُمر قدامةَ بن مظعون لما شُهِد عليه بشرْب الخمر ، وجَلْده له ؛ فإنه لا يشبِه ماتقدّم ؛ لأن كلّ واحد ممن ذكرناه لم يولّ إلا مَن هو حَسَنُ الظاهر عنده وعند الناس ، غير معروف باللعب ولا مشهور بالفساد. ثم لما ظهر منه ماظهر

---

(١) كذا فى ا ، ج ، وفى ب والشافى : « وروى » .

(٢) اللسان ٥ : ٣١ وروايته : « فبيك » ، والمشوذ : العمامة .

لم يحامِ عنه ولا كذّب الشهودَ عليه وكابرهم ، بل عزله مختارا غير مضطرّ ، وكلّ هذا لم يجرِ فى أمراء عثمان ، وقد بينا كيف كان عَزْل الوليد وإقامة الحدّ عليه .

فأمّا أبو موسى فإنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام لم يولّه الحُكم مختاراً ، لكنه غُلِب على رأيه وقُهِر عَلَى أمره ، ولا رأىَ لمقهور .

فأمّا قوله : إن ولايةَ الأقارب كولاية الأباعد ؛[1] بل الأقارب أولى[1] ؛ من حيث كان التمكّن من عزلهم أشدّ . وذكْر توليةِ أمير المؤمنين عليه السلام[2] أولادَ العباس رحمه الله تعالى[2] وغيرهم ـ فليس بشىء ؛ لأنّ عثمان لم يُنقَمْ عليه توليةُ الأقارب من حيث كانوا أقاربَ ، بل من حيث كانوا أهل بيت الظِّنَّة والتهمة ، ولهذا حذّره عمرُ وأشعرَ بأنه يحمِلُهم عَلَى رقاب الناس . وأميرُ المؤمنين عليه السلام لم يولِّ مِنْ أقاربه متّهما ولا ظَنِينا ؛ وحين أحسّ من ابن العباس ببعض الرِّيبة لم يمهلْه ولا احتمله ، وكاتَبه بما هو شائع ظاهر ؛ ولو لم يجِبْ على عثمان أن يعدِل عن ولاية أقاربه إلا من حيثُ جعل عمر ذلك سببَ عدوله عن النصّ عليه ، وشرط عليه يوم الشورى ألا يحمل أقارِبَه عَلَى رقاب الناس ، ولا يؤثرَهم لمكان القرابة بما لا يُؤثِرُ به غيرَهم ـ لكان صارفاً قويًّا ، فضلا عن أن ينضاف إلى ذلك ما انضاف من خِصالهم الذميمة وطرائقهم القبيحة .

فأما سعيد بن أبى العاص ؛ فإنّه قال فى الكوفة : إنّما السوادُ بستانٌ لقريش، تأخذ منه ماشاءت وتترك، حتى قالوا له : أتجعلُ ما أفاء الله علينا بستانا لك ولقومك ! ونابذوه، وأفضَى الأمر إلى تسييره مَنْ سَيّر عن الكوفة ؛ والقصة مشهورة ، ثم انتهى الأمر إلى منع أهل الكوفة سعيدا من دخولها ، وتكلّموا فيه وفى عثمان كلاما ظاهرا ، حتى

(١ ـ ١) كذا فى الأصول. وفى الشافى : « بل الأباعد أولى أن يقدم الأقارب عليهم » .
(٢ ـ ٢) الشافى : « عبد الله وعبيد الله وقثما بنى العباس وغيرهم » .

كادوا يخلعون عثمان ؛ فاضطُر حينئذ إلى إجابتهم إلى ولاية أبى موسى ، فلم يصرف سعيداً مختاراً ، بل ماصرفه جُمْلة ؛ وإنما صرّفه أهلُ الكوفة عنهم [١]

فأما قوله : إنه أنكر الكتاب المتضمّن لقتل محمد بن أبى بكر وأصحابه ، وحلَف على أنّ الكتاب ليس بكتابه ، ولا الغلام غلامه ، ولا الراحلة راحلته ، وأنّ أمير المؤمنين عليه السلام قَبِل عذره ؛ فأوّل مافيه أنّه حكَى القصّة بخلاف ماجرت عليه ؛ لأنّ جميعَ مَنْ يروِي هذه القصة ذكر أنّه اعترف بالخاتم والغلام والرّاحلة ، وإنما أنكر أن يكون أمرَ بالكتابة ؛ لأنه روى أنّ القوم لما ظَفِروا بالكتاب قَدِموا المدينة ، فجمعوا أمير المؤمنين عليه السلام وطلحة والزبير وسعدا وجماعة الأصحاب ، ثم فكّوا الكتاب بمحضر منهم ، وأخبروهم بقصّة الغلام ، فدخلوا على عثمان والكتاب مع أمير المؤمنين ، فقال له : أهذا الغلامُ غلامك؟ قال : نعم ، قال : والبعيرُ بعيرك ؟ قال : نعم ، قال : أفأنت كتبتَ هذا الكتاب ؟ قال : لا ، وحلف بالله أنّه ماكتب الكتاب ، ولا أمَر به ؛ فقال له : فالخاتم خاتمك ؟ قال : نعم ، قال : فكيف يخرجُ غلامُك على بعيرك بكتاب عليه خاتمك ، ولا تعلم به !

وفى رواية أخرى أنّه لما وَاقَفه عليه ، قال عثمان : أما الخطّ فخط كاتبي ، وأما الخاتم فعلَى [٢] خاتَمِي ، قال : فمن تتّهمَ ؟ قال : أتّهمك وأتّهم كاتبي ؛ فخرج أميرُ المؤمنين عليه السلام مغضَباً ، وهو يقول : بل بأمرك ، ولزِم داره ، وبَعُد عن توسّط أمره ، حتى جرى عليه ماجرى .

وأعجبُ الأمور قوله لأمير المؤمنين عليه السلام : « إنّى أتّهمك » وتظاهرُه بذلك وتلقيه إياه فى وجهه بهذا القول ؛ مع بعده من التّهمة والظِّنّة فى كلّ شيء ، وفى أمره خاصة ؛ فإنّ القوم فى الدّفعة الأولى أرادوا أن يعجّلوا له ما أخبروه ؛ حتى قام أمير المؤمنين عليه السلام بأمره وتوسّطه وأصلحه ، وأشار عليه بأن يقارِبَهم ويعتِبَهم ؛ حتى انصرفوا عنه ، وهذا

---

(١) ساقطة من ا ، ج ، وهى فى ب والشاق .

(٢) ا : « فهو » .

فعل النَّصيح المشفق الحدِب المتحنِّن ، ولو كان عليه السلام — وحُوشِيَ من ذلك — متّهما عليه لما كان للتهمة عليه مجال فى أمر الكتاب خاصة؛ لأنّ الكِتاب بخطّ عدوّه مرْوان[1]؛ وفى يد غلام عثمان ، ومحمول عَلَى بعيرِه ، ومختوم بخاتَمه ، فأىّ ظن تعلّق بأمير المؤمنين عليه السلام فى هذا المكان ، لولا العداوةُ وقِلّة الشكر للنعمة !

ولقد قال له المصريون لما جَحَد أن يكون الكتاب كتابَه شيئا لا زيادة عليه فى باب الحجّة ؛ لأنّهم قالوا له : إذا كنتَ ما كتبتَ ولا أمرتَ به ، فأنت ضعيف ؛ من حيثُ تمّ عليك أنْ يَكْتُبَ كاتبُك بما تختِمه بخاتَمك ، ويُنفذه بيد غلامِك وعلى بعيرك بغير أمرك ؛ ومَنْ تمّ عليه ذلك لا يصلُح أن يكون واليا على أمور المسلمين . فاختلِعْ عن الخلافة على كلّ حال .

قال : ولقد كان يجب عَلَى صاحب "المغنى" أن يستحيِىَ من قوله : إنّ أمير المؤمنين عليه السلام قَبِلَ عذرَه ؛ وكيف يقبل عذرَ مَنْ يتّهمه ويستغِشُّه ؛ وهو له ناصح ! وما قاله أمير المؤمنين عليه السلام بعد سماع هذا القول منه معروف .

وقوله : إنّ الكتاب يجوز فيه التزوير ، ليس بشىء ، لأنه لا يجوز التزويرُ فى الكتاب والغلام والبعير ؛ وهذه الأمور إذا انضاف بعضُها إلى بعض ، بَعُدَ فيها التزويرُ؛ وقد كان يجب عَلَى كل حالٍ أن يبحثَ عن القِصّة وعَمّن زوّر الكِتاب ، وأنفذ الرسولَ، ولا ينام عن ذلك ؛ حتى يَعْرِف من أين دُهِى ؛ وكيف تمّت الحيلة عليه ، فيحترز من مثلها ، ولا يُغضى عن ذلك إغضاء ساترٍ له ، خائف من بحثه وكشفه .

فأما قوله : إنه وإن غلبَ عَلَى الظّن أنّ مرْوان كتب الكتاب ، فإنّ الحكم بالظنّ لا يجوزُ ، وتسليمه إلى القوم على ماسألوه إيّاه ظلم ، لأنّ الحدّ والأدب إذا وجبَ عليه ، فالإمام يُقيمه دونهم ؛ فتعلُّلٌ بما لا يجدِى ، لأنّا لا نعمل إلا على قوله فى أنّه لم يعلم أنّ

---

(١) الشافى : « بخط عدو الله وعدو رسوله وعدو أمير المؤمنين » .

مرْوان هو الذى كتب الكتاب ، وإنما غلب على ظنّه ؛ أما كان يستحقّ مروان بهذا الظنّ بعض التعنيف والزجر والتهديد ! أو ما كان يجب مع وقوع التهمة عليه ، وقوة الأمارات فى أنّه جالب الفتنة وسببُ الفُرقة أن يُبْعِده عنه ، ويطرُده من داره ويسلبَه ما كان يخصّه به من إكرامه ! وما فى هذه الأمور أظهر من أن ينبّه له .

فأما قوله : إنّ الأمر بالقتل لا يوجب قوَداً ولا دِيَةً ، سيّما قبل وقوع القتل المأمور به ، فهب أن ذلك على ما قال ، أما أوجبَ[1] الله تعالى على الأمر بقتل المسلمين تأديباً ولا تعزيراً ولا طردا ولا إبعادا !

وقوله : لم يثبت ذلك ، قد مضى ما فيه ، وبيّن أنه لم يستعمل فيه مايجبُ استعماله من البحث والكشف ، وتهديدِ المتّهم وطرْده وإبعاده والتبرُّؤ من التهمة بما يُتبرّأ به من مثلها .

فأما قوله : إن قتله ظلم وكذلك حبسُه فى الدار ، ومنعه من الماء ، وأنه لو استحق القتل أوالخلع لا يحلّ أن يُمنَع الطعامَ والشراب ، وقوله : إن من لم يدفع عن ذلك من الصّحابة يجب أن يكون مخطئا ، وقوله : إنّ قتله لو وجب لم يجُزْ أن يتولّاه العوامّ من الناس ، فباطل ، لأنّ الذين قتلوه غيرُ منكَرٍ أن يكونوا تعمّدُوا قتله ، وإنما طالبوه بأنْ يخلَع نفسه لما ظهر لهم من أحداثه ، ويعتزل عن[2] الأمر اعتزالا يتمكّنون معه من إقامة غيره ، فلجّ وصمّ على الامتناع ، وأقام على أمرٍ واحد ؛ فقصد القوم بحصْرِه أن يُلْجِئُوه إلى خلع نفسه ، فاعتصَم بداره ، واجتمع إليه نفر من أوْباش بنى أميّة ، يدفعون عنه ، ويرمون مَنْ دنا إلى الدار ، فانتهى الأمرُ إلى القتال بتدريج ؛ ثم إلى القتل ؛ ولم يكن القتال ولا القتل مقصوديْن فى الأصل ، وإنما أفضى الأمرُ إليهما على ترتيب ، وجرى ذلك مجرى

---

(١) الشاق : « يوجب »

(٢) ج والشاق : « يعتزل الأمر » .

ظالم غلب إنسانا على رَحْله أو متاعِه ، فالواجبُ على المغلوب أن يُمانعه ويدافعه ليخلّص مالَه من يده ، ولا يقصدَ إلى إتلافه ولا قتله ، فإنْ أفضى الأمرُ إلى ذلك بلا قصد كان معذورا ، وإنّما خاف القومُ — فى التأنى به ، والصبر عليه ، إلى أن يخلع نفسَه — من كُتُبِه التى طارت فى الآفاق ، يستنصر عليهم ويستقدِم الجيوش إليهم ، ولم يأمنوا أن يَرِدَ بعض مَنْ يدفع عنه فيؤدّى ذلك إلى الفتنة الكبرى والبليّة العظمى .

وأما منع الماء والطعام فما فُعِل ذلك إلا تضييقا عليه ؛ ليخرُج ويَحوَج إلى الخلع الواجب عليه . وقد يُستعمل فى الشريعة مثل ذلك فيمن لجأ إلى الحرَم من ذوى الجنايات ، وتعذّر إقامة الحدّ عليه لمكانِ الحرَم . على أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قد أنكرمنعَ الماء والطعام ، وأنفذ مَنْ مكّن مَنْ حَمَل ذلك ، لأنّه قد كان فى الدار من الحُرَم والنّسوان والصبيان مَنْ لا يحلّ منعُه من الطعام والشراب . ولو كان حكم المطالبة بالخلع والتجمع عليه والتضافر فيه حكم منع الطعام والشراب فى القُبْحِ والمنكر ، لأنكره أميرُ المؤمنين عليه السلام ، ومنَع منه كما منع من غيره ، فقد رُوى عنه عليه السلام أنّه لما بلَغه أنّ القوم قدْ منعوا الدار من الماء ، قال : لا أرى ذلك ، إنّ فى الدار صبيانا وعِيالا ، لا أرى أن يقتل هؤلاء عطشا بجُرْم عثمان . فصرّح بالمعنى الذى ذكرناه ، ومعلوم أنّ أمير المؤمنين عليه السلام ما أنكر المطالبة بالخلْع ، بل كان مساعدا على ذلك ومشاوِرا فيه .

فأما قوله : إن قتل الظالم إنّما يحلّ على سبيل الدفع ؛ فقد بيّنا أنه لا ينكَر أن يكون قتله وقع على ذلك[1] الوجه ، لأنه فى تمسّكه بالولاية عليهم وهو لا يستحقها ، فى حكم الظالم لهم ، فمدافعته واجبة .

---

(١) ا : « هــذا » .

وأما قصّة الكتاب الموجود ؛ فلم يَحْكِها على الوجه ؛ وقد شرحنا نحن الرواية الواردة بها .

وأما قوله : إنّه قال : إنْ كنتُ أخطأتُ أو تعمّدت ؛ فإني تائب مستغفر ؛ فقد أجابَهُ القوم عن هذا ، وقالوا : هكذا قُلْتَ في المرّة الأولى ؛ وخطبْتَ على المِنْبَر بالتوبة والاستغفار ؛ ثم وجدْنا كتابَك بما يقتضي الإصرار على أقبح ماعتبنا منه[1] ؛ فكيفَ نثق بتوبتك واستغفارك !

فأما قوله : إنّ القتل على وجهِ الغِيلة لا يحلّ فيمن يستحقّ القتل ، فكيف فيمن لا يستحقه ! فقد بينا أنّه لم يكن على سبيل الغِيلة ؛ وأنه لا يمتنع أن يكونَ إنّما وقع على سبيل المدافعة .

فأمّا ادعاؤه أنّه منَع من نُصرته ، وأقسم على عبيده بترْك القتال ؛ فقد كان ذلك لَعَمْرِى في ابتداء الأمر ظنًّا منه أنّ الأمر يتصلّح ؛ والقوم يرجعون عمّا همّوا به ؛ فلما اشتدّ الأمر ، ووقع اليأس من الرجوع والنزوع ، لم يمنع أحداً من نُصْرته والمحاربة عنه ، وكيف يمنع من ذلك ، وقد بعث إلى أمير المؤمنين عليه السلام يستنصِرُهُ ويستصرخه !

والّذى يدلّ على أنّه لم يمنع في الابتداء من محاربتهم إلا للوجه الذى ذكرناه دون غيره ، أنّه لاخلافَ بينأهلِ الرواية في أنّ كتبه تفرّقت في الآفاق يستنصِرُ ويستدعِي الجيوش ؛ فكيف يرغب عن نُصرة الحاضر مَنْ يستدعى نصرة الغائب !

فأما قوله : إنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام أراد أن يأتيَه ، حتى منعه ابنه محمد ، فقولٌ بعيد مما جاءت به الرواية جدًّا ، لأنه لا إشكالَ في أنّ أميرَ المؤمنين عليه السّلام لما واجه عثمان بأنّه يتّهمه ويستغِشّه ، انصرف مغضَبا عامدا ، على أنه لا يأتيه أبدا ، قائلا فيه ما يستحقّه من الأقوال .

---

(١) ب « فيه » .

فأما قوله فى جواب سؤال مَنْ قال إنّهم اعتقدوا فيه أنّه من المفسدين فى الأرض؛ وأنّ آية المحاربة تتناوله ، وأنّه قد كان يجب أن يتولى الإمام ذلك الفعل بنفسه ؛ لأنّ ذلك يجرى مجرى الحدّ ؛ فطريف ؛ لأنّ الإمام يتولّى مايجرى هذا المجرى إذا كان منصوبا ثابتا ، ولم يكن على مذهب القوم هناك إمامٌ يجوز أن يتولّى ما يجرى مَجرَى الحدود ؛ ومتى لم يكنْ إمام يقوم بالدّفع عن الدين والذّبّ عن الأمّة ؛ جاز أن تتولّى الأمّة ذلك بنفوسها .

قال : وما رأيتُ أعجبَ من ادّعاء مخالفينا أنّ أصحابَ الرّسول صلى الله عليه وآله كانُوا كارهين لماجرى على عثمان ، وأنّهم كانوا يعتقدونه منكرا وظُلما ، وهذا يجرى عند من تأمّله مجرى دفع الضرورات قبل النظر فى الأخبار ، وسماع ماورد من شَرْح هذه القصّة؛ لأنّه معلوم أنّ مايكرهُهُ جميع الصحابة أو أكثرهم فى دار عِزّهم ، وبحيث ينفذُ أمرُهم ونهيهم لا يجوزأن يتمّ . ومعلوم أنّ نفرا من أهل مصر لا يجوز أن يقدّموا المدينة فيغلبوا جميعَ المسلمين على آرائهم ، ويفعلوا بإمامهم مايكرهونه بمرأى منهم ومسمع ، وهذا معلومٌ بُطلانه بالبداهة والضرورات قبل تصفح الأخبار وتأمّلها . وقد روَى الواقدىّ عن ابن أبى الزّناد ، عن أبى جعفر القارىّ مولى بنى مخزوم ، قال : كان المصريّون الذين حَصَروا عثمان ستمائة ، عليهم عبد الرحمن بن عديس البلوىّ ، وكنانة بن بشر الكِندىّ ، وعمرو بن الحِمق الخزاعىّ . والذين قدموا المدينة من الكوفة مائتين ، عليهم مالك الأشتر النّخَعىّ . والذين قدِموا من البصرة مائة رجل ، رئيسهم حكيم بن جبلة العبدىّ ، وكان أصحابُ النبى صلى الله عليه وآله الذين خذلوه لا يرون أنّ الأمر يبلغ به القتل ، ولعمرى لو قام بعضُهم فحثا التراب فى وجوه أولئك لانصرفوا ، وهذه الرواية تضمّنت من عدد القوم الوافدين فى هذا الباب أكثر مما تضمّنه غيرها .

وروى شُعْبة بن الحجاج عن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ، قال : قلت له :

كيف لم يمنعْ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم عَنْ عثمان ؟ فقال : إنما قَتَله أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وآله .

ورُوِيَ عن أبي سعيد الخُدْرِيّ ، أنه سُئِل عن مقتل عثمان : هل شَهِده أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه ؟ فقال : نعم ، شهده ثمانمائة .

وكيف يقال : إن القوم كانوا كارهين ، وهؤلاء المصريون كانوا يَغْدُون إلى كل واحد منهم ، ويروحون ويشاورونه فيما يصنعونه ! وهذا عبد الرحمن بن عوف وهو عاقِدُ الأمرِ لعثمان ، وجالبه إليه ، ومُصَيِّرُه في يده ، يقول ـ على ماروأه الواقديّ ، وقدذُكِر له عثمانُ في مرضه الذي مات فيه ـ : عاجلوه قبل أن يتمادَى في مُلكه ؛ فبلغ ذلك عثمانَ فبَعثَ إلى بئرٍ كان عبدالرحمن يَسْقِي منها نَعَمه ، فمنع منها ، ووصّى عبدُ الرحمن ألّا يصلّيَ عليه عثمان ؛ فصلّى عليه الزبير ـ أو سعد بن أبي وقّاص ـ وقد كان حَلَف لما تتابعتْ أحداثُ عثمان ألّا يكلّمَه أبدا .

وروى الواقديّ ، قال : لمّا تُوُفِّي أبو ذرّ بالرَّبَذة[1] تذاكر أميرُ المؤمنين عليه السلام وعبدُالرحمن فعلَ عثمان ، فقال أمير المؤمنين عليه السلام له : هذا عملُك ! فقال عبدُالرحمن : فإذا شئت فخذ سيفَك وآخذُ سيفي ، إنه خالف ماأعطاني .

فأما محمد بن مسلمة ؛ فإنه أرسلَ إليه عثمانُ يقول له عند قدوم المصريين في الدّفعة الثانية : اردُدْ عنّي ، فقال : لا والله لا أكذبُ اللهَ في سنة مرتين ؛ وإنما عَنَى بذلك أنه كان أحدَ من كلّمَ المصريين في الدفعة الأولى ، وضمن لهم عن عثمان الرضا .

وفي رواية الواقديّ أنّ محمد بن مسلمة ، كان يموت وعثمان محصور ، فيقال له : عثمان مقتول ، فيقول : هو قتَلَ نفسه .

---

(١) الربذة : من قرى المدينة على ثلاثة أميال ؛ قريبة من ذات عرق ؛ على طريق الحجاز ؛ بها قبر أبي ذر الغفاري ـ واسمه جندب بن جنادة ، وقد كان خرج إليها مغاضبا لعثمان بن عفان رضي الله عنه ؛ فأقام بها إلى أن مات سنة ٣٢ . ياقوت .

فأمّا كلامُ أمير المؤمنين عليه السلام ، وطلحة والزُّبير وعائشة ، وجميع الصحابة واحدا واحدا ؛ فلو تعاطينا ذِكْرَه لطال به الشَّرْح ؛ ومن أراد أن يقف على أقوالهم مفصّلة ، وما صرّحوا به من خَلْعه والإجلاب عليه ؛ فعليه بكتاب الواقدي[1] ، فقد ذكرَ هو وغيرُه من ذلك مالا زيادة عليه .

* * *

الطعن الثاني :

كونه ردّ الحكَم بن أبي العاص[2] إلى المدينة ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله طرَده ، وامتنع أبو بكرٍ من ردّه ، فصار بذلك مخالفاً للسنّة ولسيرة مَنْ تقدّمه ، مدّعيا على رسول الله صلى الله عليه وآله ، عاملا بدعواه من غير بيّنة .

قال قاضي القضاة رحمه الله : وجوابُنا عن ذلك أنّ المروِيّ في الأخبار أنّه لما عُوتب في ذلك ذكر أنّه استأذن رسولَ الله صلى الله عليه وسلّم فيه ؛ وإنما لم يقبل أبو بكر وعمر قوله لأنه شاهد واحد ، وكذلك روى عنهما ، فكأنهما جعلا ذلك بمنزلة الحقوق التي تختصّ ، فلم يقبلا فيه خَبَر الواحد ، وأجرياه مَجْرى الشهادة ، فلما صار الأمر إليه حكَم بعلمه ، لأنّ للحاكِم أن يحكُم بعلمه في هذا الباب وفي غيره عند شيخينا ، ولا يفصلان بين حدّ وحق ، ولا بين أن يكونَ العلم قبل الولاية أو حال الولاية ، ويقولان : إنه أقوى من البيّنة والإقرار .

وقال شيخنا أبو عليّ رحمه الله تعالى : إنّه لا وجهَ يقطع به على كذب روايته في إذن

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدي ؛ نقل ابن النديم أنه خلف بعد وفاته ستمائة قمطر كتبا ؛ كل قمطر منها حمل رجلين ؛ وكان له غلامان مملوكان يكتبان الليل والنهار ؛ وقبل ذلك بيع له كتب بألفي دينار . ثم أورد أسماء كتبه ؛ منها كتاب التاريخ الكبير . توفي سنة ٢٠٧ . الفهرست ٩٨ ، ٩٩ .

(٢) هو الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس الأموي ، عم عثمان بن عفان ؛ وانظر ترجمته وأخباره في أسد الغابة ٣ : ٣٤ .

النبيّ صلى الله عليه وسلّم فى ردّه ، ولابدّ من تجويز كونه صادقا ؛ وفى تجويز ذلك كونه معذورا .

فإن قيل : الحاكم إنما يحكم بعلمه مع زوال التهمة ، وقد كانت التهمة فى ردّ الحكم قوية لقرابته !

قيل : الواجب على غيره ألّا يتّهمه ؛ إذا كان لفعله وجه يصحّ عليه ؛ لأنه قد نصب منصبا يقتضى زوالَ التهمة عنه،وحَمْل أفعاله على الصحّة،ومتى طرقنا عليه التهمة أدّى إلى بطلان كثير من الأحكام . وقد قال الشيخ أبو الحسين الخيّاط رحمه الله تعالى : إنه لو لم يكن فى ردّه إذن من رسول الله صلى الله عليه وسلّم لجاز أن يكون طريقه الاجتهاد ؛ لأن النفىَ إذا كان صلاحا فى الحال لا يمتنع [١] أن يتغيّر حكمه باختلاف الأوقات وتغيّر حال المنفىّ ؛ وإذا كان لأبى بكر أن يستردّ عمرَ من جيش أسامة للحاجة إليه ــ وإن كان قد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلّم بنفوذه ــ من حيث تغيرت الحال ، فغير ممتنع مثله فى الحكم .

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى على هذا،فقال : أمّا دعواه أنّ عثمان ادّعى أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أذن فى رَدّ الحكَم فشىء لم يُسمع إلا من قاضى القضاة ، ولا يُدْرَى من أين نقله ، ولا فى أىّ كتاب وجده ! والذى رواه الناس كلّهم خلاف ذلك ؛ روى الواقدىّ من طرق مختلفة وغيره أنّ الحكَم بن أبى العاص لما قدِم المدينة بعد الفتح، أخرجه النبى صلى الله عليه وسلّم إلى الطائف،وقال : لا تساكنّى فى بلد أبدا ، فجاءه عثمان فكلّمه فأبى ، ثم كان من أبى بكر مثل ذلك ، ثم كان من عمر مثل ذلك ، فلما قام عثمان أدخله ووصله وأكرمه ، فمشى فى ذلك علىّ والزبير وطلحة وسعد وعبدالرحمن بن عوف

---

(١) ب : « فلا يمتنع » .

وعمّار بن ياسر ؛ حتى دخلوا على عثمان فقالوا له : إنك قد أدخلتَ هؤلاء القوم ـ يعنون الحكَم ومن معه ـ وقد كان النبيّ صلى الله عليه وسلّم أخرجهم؛ وإنا نذكّرك الله والإسلام ومَعادك ؛ فإن لك معاداً ومُنقلَبا ، وقد أبت ذلك الولاةُ قبلك، ولم يطمع أحد أن يكلّمها فيهم ؛ وهذا شيء نخاف الله فيه عليك . فقال عثمان : إنّ قرابتَهم منّى ماتعلمون ؛ وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلّم حيثُ كلّمته أطمَعنى فى أن يأذن لهم ، وإنما أخرجهم لـكلمةٍ بلغته عن الحكَم ؛ ولم يضرَّ كم مكانهم شيئا، وفى الناس مَنْ هو شرّ منهم. فقال علىّ عليه السلام : لا أجدُ شرًّا منه ولا منهم، ثم قال : هل تعلم عمر يقول : والله ليحملَنّ بنى أبى مُعيط على رقاب الناس ! والله إن فعل ليقتلُنّه ، فقال عثمان : ما كان منكم أحد ليـكون بينه وبينه من القرابة مابينى وبينه، وينال من المقدرة مانلتُ إلا قد كان سيُدخلُه، وفى الناس مَنْ هو شرّ منه. قال : فغضب علىّ عليه السلام ، وقال : والله لتأتينا بشرّ من هذا إن سلِمت ، وسترى ياعثمان غِبّ ماتفعل ! ثم خرجوا من عنده .

وهذا كما ترى خلاف ما ادّعاه صاحب " المغنى " لأنّ الرجل لما احتفلَ ادّعى أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان أطمَعه فى ردّه ، ثم صَرّح بأنّ رِعايته فيه القرابة هى الموجِبة لردّه ومخالفة الرسول عليه السلام . وقد روى من طرق مختلفة أنّ عثمان لمّا كلم أبا بكر وعمر فى ردّ الحكَم أغلظا له وزبَراه ، وقال له عمر : يخرجه رسول الله صلى الله عليه وسلّم وتأمرنى أن أدخله ! والله لو أدخلته لم آمن أن يقول قائل : غَيّر عهدَ رسول الله صلى الله عليه وسلّم، والله لأَنْ أشقّ باثنتين كما تُشقّ الأبلُمة[1] أحبّ إلىّ من أن أخالِف لرسول الله أمرا ، وإياك يابن عفان أن تعاوِدَنى فيه بعد اليوم ؛ وما رأينا

---

(١) الأبلم : خوص المقل ؛ والمثل : « المـال بينى وبينك شق الأبلمة » مثل يضرب فى المساواة والمشاركة فى الأمر .

عثمان قال فى جواب هذا التعنيف والتوبيخ من أبى بكر وعمر: إنّ عندى عهداً من رسول الله صلى الله عليه وسلّم فيه، لا أستحقّ معه عتاباً ولا تهجيناً، وكيف تطيب نفس مُسلم موقّر لرسول الله صلى الله عليه وسلّم معظّم له، أنْ يأتىَ إلى عدوّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم، مصرِّح بعداوته والوقيعة فيه؛ حتّى بلغ به الأمرُ إلى أنْ كان يحكى مِشْيَته، طرده رسول الله، وأبعده ولعنه؛ حتى صار مشهورا بأنه طريدُ رسول الله صلى الله عليه وسلّم؛ فيكرِمه ويردّه إلى حيث أخرج منه، ويصِلُه بالمال العظيم: إما من مال المسلمين أو مِنْ ماله! إنّ هذا لعظيم كبير قبل التصفّح والتأمّل والتعلّل بالتأويل الباطل!

فأمّا قولُ صاحب ’’ المغنى ‘‘: إنّ أبا بكر وعمر لم يقبلا قوله لأنّه شاهِد واحد، وجعلا ذلك بمنزلة الحقوق التى تخصّ، فأوّل مافيه أنّه لم يشهدْ عندهما بشىء واحد فى باب الحكم على ماروواه جميع الناس؛ ثم ليس هــذا من باب الذى يُحتاج فيه إلى الشاهدين، بل هو بمنزلة كلّ مايقبَلُ فيه أخبارُ الآحاد. وكيف يجوز أن يُجرِىَ أبو بكر وعمر مَجْرَى الحقوق ماليس منهـا! وقوله: لابدّ من تجويز كونه صادقا فى روايته؛ لأنّ القطعَ على كذب روايته لاسبيل إليه ليس بشىء؛ لأنا قد بيناّ أنّه لم يَرْوِ عن الرسول صلى الله عليه وسلم إذنا، إنما ادّعى أنه أطمَعه فى ذلك. وإذا جوّزنا كونَه صادقا فى هــذه الرواية؛ بل قطعْنا على صدقه لم يكن معذورا.

فأمّا قوله: الواجبُ على غيرِه ألّا يتهِمَه إذا كان لفعله وجهٌ يصحّ عليه؛ لانتصابه منصباً يُزيل التهمة؛ فأوّل مافيه أنّ الحاكِم لايجوز أن يحكم بعلمه مع التّهمة، والتّهمة قد تــكون لها أمارات وعلامات؛ فما وقع منها عن أمارات وأسباب تتّهم فى العادة كان مؤثّرا؛ ومالم يكنْ كذلك فلا تأثيرَ له، والحــكَم هو عمّ عثمان، وقريبه ونسيبه، ومن

قد تكلّم فى ردّه مرة بعد أخرى ، ولوالٍ بعد والٍ ؛ وهذه كلها أسباب التّهمة ، فقد كان يجب أنْ يتجنّب الحكم بعلمه فى هذا الباب خاصّة ؛ لتطرّق التهمة إليه .

فأما ماحكاه عن أبى الحسين الخيّاط من أنّ الرسولَ صلى الله عليه وآله لولم يأذن فى رَدّه لجاز أن يَرُدّه إذا أدّاه اجتهادُه إلى ذلك ؛ لأنّ الأحوالَ قد تتغيّر — فظاهر البُطْلان ؛ لأن الرّسولَ عليه السلام إذا حَظر شيئا أو أباحه لم يكن لأحدٍ أنْ يجتهد فى إباحة المحظور أو حَظْر المباح ، ومَنْ يجوّز الاجتهادَ فى الشريعة لايُقْدِم على مثلِ هذا ؛لأنه إنما يجوز عندهم فيما لانصّ فيه . ولو سوّغنا الاجتهادَ فى مخالفة ماتناوله النصّ لم يؤمَن أن يؤدّىَ اجتهاد مجتهد إلى تحليل الخمر وإسقاط الصلاة ، بأن تتغير الحال ، وهذا هَدْمٌ للشريعة . فأما الاستشهاد باسترداد عمر من جيش أسامة فالكلام فى الأمرين واحد(١) .

* * *

الطعن الثالث :

أنه كان يؤثر أهلَ بيتِه بالأموال العظيمة التى هى عُدّة المسلمين ، نحو مارُوِى أنّه دفع إلى أربعة أنفسٍ من قريش زوّجهم بناتِه أربعمائة ألف دينار ، وأعطى مَرْوان مائة ألف عند فتح إفريقيّة ، ويروى خُمْس إفريقيّة ، وغير ذلك ، وهذا بخلاف سيرة مَنْ تقدمه فى القِسْمة على النّاس بقدر الاستحقاق ، وإيثار الأباعد على الأقارب .

قال قاضى القضاة : وجوابُنا عن ذلك أنّ من الظاهر المشهور أنّ عثمانَ كان عظيمَ اليَسار ، كثير المال ، فلا يمتنع أن يكون إنما أعطى أهلَ بيتِه من مالِه ، وإذا احتمل ذلك وجب حملُه على الصحّة .

وقد قال شيخُنا أبو علىّ رحمه الله تعالى : إنّ الذى رُوِى من دَفْعه إلى ثلاثة نفر من قريش زَوّجهم بناتِه ؛إلى كلّ واحد منهم مائة ألف دينار ، إنما هو من ماله ، ولارواية

(١) بعدها فى الشافى ١٧٦ : « وقد مضى ما فيه » .

تصحّ أنه أعطاهم ذلك من بيت المال ، ولوصحّ ذلك لكان لايمتنع أن يكونَ أعطاهم من بيت المال ليردّ عِوَضه من ماله ، لأنّ للإمام عند الحاجة أن يفعل ذلك ، كما له أنْ يُقرض غيره .

وقال شيخُنا أبو عليّ أيضا : إن ماروِيَ من دفعه خُمس إفريقيّة لَمّا فُتِحت إلى مروان ؛ ليس بمحفوظ ولا منقول على وجهٍ يجب قبوله ؛ وإنما يَرْويه مَنْ يقصد التشنيع .
وقد قال الشيخُ أبو الحسين الخياط : إن ابن أبي سَرْح لما غزا البحر ، ومعه مَرْوان في الجيش ، ففتَح الله عليهم ، وغنموا غنيمةً عظيمة ، اشترى مَرْوان من ابن أبي سَرْح الُخمس بمائة ألف ، وأعطاه أكثرها ؛ ثم قَدِم على عثمان بشيراً بالفَتْح ، وقد كانتْ قلوب المسلمين تعلّقت بأمر ذلك الجيش ؛ فرأى عثمان أن يَهَب له مابقيَ عليه من المال ، وللإمام فِعلُ مثل ذلك ، ترغيبا في مثل هذه الأمور .

قال : وهذا الصُّنع كان منه في السّنَة الأولى من إمامته ، ولم يبرأ أحد منه فيها ، فلا وجهَ للتعلّق بذلك .

وذكر أبو الحسين الخياط أيضا فيما أعطاه أقاربه أنّه وصلهم لحاجتهم ، فلا يمتنع مثلُه في الإمام إذا رآه صلاحا . وذكر في إقطاعه القطائع لبني أميّة ، أنّ الأئمة قد تحصُل في أيديهم الضّياع لامالكَ لها ، ويعلمون أنّها لابدّ فيها ممّن يقوم بإصلاحها وعمارتها ، ويؤدّي عنها مايجب من الحقّ ، فله أن يصرف من ذلك إلى مَنْ يقوم به ، وله أيضا أن يهدّ بعضها على بعض بحسب مايعلم من الصلاح والتألّف ، وطريقُ ذلك الاجتهاد .

* * *

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام ، فقال : أماقوله : يجوز أن يكون إنما أعطاهم من ماله ، فالرواية بخلاف ذلك ، وقد صرّح الرجلُ بأنّه كان يعطي من بيت المال

صلة لِرحمه ، ولما عوتب على ذلك لم يعتذر عنه بهذا الضَّرْب من العذر ، ولا قال : إنّ هذه العطايا من مالى ، فلا اعتراضَ لأحد فيها . روَى الواقدىّ بإسناده عن المِسْوَر بن عُتْبة ، قال : سمعتُ عثمانَ يقول : إنّ أبا بكرٍ وعمر كانا يتأوّلان فى هذا المال ظَلَف[1] أنفسهما وذَوِى أرحامهما ، وإنّى تأوّلتُ فيه صِلَةَ رحمى .

ورُوِى عنه أيضا أنه كان بحضرته زياد بن عبيد ، مولى الحارث بن كَلَدة الثقفىّ ، وقد بعث إليه أبو موسى بمال عظيم من البَصْرة ، فجعل عثمان يقسمه بين ولده وأهله بالصِّحاف ، فبكى زياد ، فقال: لا تبكِ ، فإنّ عمر كان يمنع أهلَه وذوى قرابته ابتغاء وجه الله ، وأنا أعطى أهلى وولدى وقرابتى ابتغاء وجه الله .

وقد رُوِىَ هذا المعنى عنه من عدة طرق بألفاظ مختلفة .

وروى الواقدىّ أيضا بإسناده ، قال : قَدِمَتْ إبلٌ من إبل الصدقة على عثمان ، فوهَبَها للحارث بن الحكَم بن أبى العاص .

وروى أيضا أنّه ولّى الحكم بن أبى العاص صدقاتِ قُضَاعة ، فبلغت ثلاثمائة ألف فوَهَبها له حين أتاه بها .

وروى أبو مِخْنف والواقدىّ أنّ الناس أنكروا على عثمان إعطاء سعيد بن العاص مائة ألف ، وكلّمه علىّ والزبير وطلحة وسعد وعبدالرحمن فى ذلك ،فقال : إن له قرابةً ورَحِما، قالوا : فما كان لأبى بكر وعمر قرابة وذَوُو رحم ؟ فقال : إن أبا بكر وعمر كانا يحتسبان فى منع قرابتهما ، وأنا أحتسِبُ فى إعطاء قرابتى ، قالوا : فهَدْيُهما ــ والله ــ أحبُّ إلينا من هَدْيك .

وروى أبو مِخْنف أنّ عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبى العِيص بن أمية ، قدم على عثمان من مكة ،ومعه ناس ،فأمر لعبدالله بثلاثمائة ألف ،ولكلّ واحد من القوم بمائة ألف

---

(١) ظلف نفسه عن الشيء : منعها ، وفى الأصول : « ظلاق » ، والصواب ما أثبته من كتاب الشافى.

وصَكَّ[١] بذلك على عبد الله بن الأرقم ـ وكان خازنَ بيت المال ـ فاستكثره وردّ الصكّ به . ويقال: إنه سأل عثمان أن يكتبَ عليه بذلك كتابا ، فأبى وامتنع ابن الأرقم أن يدفَع المال إلى القوم ، فقال له عثمان : إنما أنت خازن لنا ، فاحملك على مافعلت ؟ فقال ابن الأرقم : كنت أرانى خازنَ المسلمين ، وإنما خازنكْ غلامُك ، والله لا أَلِي لك بيتَ المال أبدا ، وجاء بالمفاتيح فعلّقها على المِنبر ، ويقال : بل ألقاها إلى عثمان ، فرفعها إلى نائل مولاه .

وروى الواقدىّ ان عثمان أمر زيد بن ثابت أن يحمِل من بيت مال المسلمين إلى عبد الله بن الأرقم فى عَقِيب هذا الفعل ثلاثمائة ألف درهم ، فلما دخل بها عليه ، قال له : يا أبا محمد ، إن أميرَ المؤمنين أرسل إليك يقول : إنا قد شغلناك عن التجارة ، ولك ذَوو رحم أهلُ حاجة ، ففرّقْ هذا المال فيهم ، واستعنْ به على عيالك ، فقال عبد الله بن الأرقم : مالى إليه حاجة ، وما عملت لأنْ يُثيبَنى عثمان ، والله إن كان هذا من بيت مال المسلمين ما بلغ قَدْرُ عملى أنْ أُعطَى ثلاثمائة ألف ، ولئن كان من مال عثمان ما أحبُّ أنْ أرزأه[٢] من ماله شيئاً . وما فى هذه الأمور أوضحُ من أن يشار إليه ويُنبّه عليه .

فأما قوله : ولو صح أنه أعطاهم من بيت المال لجاز أن يكونَ ذلك على طريق القَرْض ؛ فليس بشىء ؛ لأنّ الروايات أولا تخالف ماذكره ، وقد كان يجبُ لمّا نقم عليه وجوهُ الصحابة إعطاء أقاربه من بيت المال، أنْ يقول لهم : هذا على سبيل القَرْض، وأنا أردّ عِوَضه ، ولا يقول ماتقدم ذكره ، من أنّى أصِلُ به رَحِمِى ؛ على أنّه ليس للإمام أن يقترِض[٣] من بيت مال المسلمين إلا ماينصَرِف فى مصلحة لهم مهمّة ؛ يعودُ عليهم نفعها ، أو فى سَدّ خَلّة وفاقة لا يتمكنون من القيام بالأمر معها ؛ فأمّا أنْ يُقرِض المال ليتّسع به ،

---

(١) صك : كتب ، والصك : الكتاب .
(٢) ماأحب أن أرزأه ، أى ما أحب أن أصيب منه شيئاً .
(٣) أى يقترض هوليعطى ، وأن يدفع عوضه له من ماله ، وانظر س ١ـ٣ من ص ٣٤ من هذا الجزء

ويُصرّح فيه مترَفي بني أمية وفُسّاقهم فلا أحدَ يجيز ذلك .

فأما قوله حاكياً عن أبي عليّ : إنّ دَفْعه خمس إفريقيّة إلى مروان ليس بمحفوظ ولا منقول ـ فباطل ؛ لأنّ العلم بذلك يجرى مجرى العلم بسائر ماتقدم ، ومَنْ قرأ الأخبار علم ذلك على وجه لا يعترض فيه شكّ ، كما يعلم نظائره .

روى الواقديّ عن أسامة بن زيد ، عن نافع مولى الزبير ، عن عبد الله بن الزبير ، قال : أغزانا عثمان سنة سبع وعشرين إفريقيّة ، فأصاب عبدُ الله بن سعد بن أبي سَرْح غنائم جليلة ، فأعطى عثمانُ مَرْوان بن الحكم تلك الغنائم . وهذا كما ترى يتضمّن الزيادة عن إعطاء الخمس ، ويتجاوزه إلى إعطاء الأصل .

وروى الواقديّ ، عن عبد الله بن جعفر ، عن أم بكر بنت المِسْوَر ، قالت : لما بنى مَرْوانُ داره بالمدينة ، دعا الناس إلى طعامه ، وكان المِسْوَر ممن دعاه ، فقال مروان وهو يحدّثهم : والله ما أنفقتُ في داري هذه من مال المسلمين دِرهما فما فوقه ، فقال المِسْوَر : لو أكلتَ طعامك وسكتّ كان خيرا لك . لقد غزوتَ معنا إفريقيّة ، وإنك لأقلّنا مالا ورقيقا وأعوانا ، وأخفّنا ثَقَلا ، فأعطاك ابنُ عمّكَ خُمس إفريقيّة ، وعملت على الصدقات ، فأخذت أموال المسلمين .

وروى الكلبيّ عن أبيه ، عن أبي مخنف أنّ مروان ابتاعَ خُمس إفريقيّة بمائتي ألف درهم ومائتي ألف دينار ، وكلّم عثمان ، فوهبها له ، فأنكر الناس ذلك على عثمان . وهذا بعينه هو الذى اعترف به أبو الحسين الخياط واعتذر عنه بأنّ قلوب المسلمين تعلقت بأمر ذلك الجيش ، فرأى عثمان أن يهبَ لمروان ثُمنَ ماابتاعه من الخُمس لما جاءه بشيرا بالفتح على سبيل الترغيب . وهذا الاعتذار ليس بشيء ؛ لأنّ الذى رويناه من الأخبار في هذا الباب خالٍ من البشارة ، وإنما يقتضى أنّه سأله تَرْكَ ذلك عليه ، فتركه وابتدأ هو بصلته ، ولو أتى بشيرا بالفتح كما ادّعَوْا لما جاز أن يترك عليه خمس الغنيمة العائدَ نفعهُ على المسلمين ،

لأنّ تلك البشارة لاتبلغُ إلى أن يستحق البشير بها مائتى ألف درهم ، ولااجتهادَ فى مثل هذا ، ولا فرق بين من جَوّز أن يؤدىَ الاجتهاد إلى مثله ومَنْ جوّز أن يؤدّىَ الاجتهاد إلى دفع أصل الغنيمة إلى البشير بها ، ومن ارتكب ذلك ألزم جوازَ أن يُؤدىَ الاجتهاد إلى إعطاء هذا البشير جميعَ أموال المسلمين فى الشرق والغرب .

فأمّا قوله : إنه وصَلَ بنى عمّه لحاجتهم ، ورأى فى ذلك صلاحا ؛ فقد بيّنا أن صِلاته لهم كانت أكثرَ مما تقتضيه الخَلّة والحاجة ، وأنّه كان يصلُ فيهم المياسيرَ . ثم الصلاحُ الذى زعم أنّه رآه : لايخلو إمّا أن يكون عائداً على المسلمين ، أو على أقاربه ؛ فإن كان على المسلمين فمعلومٌ ضرورةً أنّه لاصلاحَ لأحد من المسلمين فى إعطاء مَرْوان مائتى ألف دينار ، والحكَم بن أبى العاص ثلثمائة ألف درهم ، وابن أسِيد ثلثمائة ألف درهم ؛ إلى غير ماذكرنا ، بل على المسلمين فى ذلك غاية الضرر . وإن أراد الصّلاح الراجع إلى الأقارب فليس له أن يُصلح أمرَ أقاربه بفساد أمر المسلمين ، وينفعهم بما يضرّ به المسلمين .

وأما قوله : إنّ القطائعَ التى أقطَعها بنى أميّة ؛ إنمـا أقطعهم إياها لمصلحة تعودُ على المسلمين ؛ لأنّ تلك الضياع كانت خَرابا لاعامر لها ، فسلّمها إلى من يعمّرها ويؤدّى الحقّ عنه ؛ فأول مافيه أنّه لوكان الأمر على ماذكره ، ولم تكن هذه القطائع على سبيل الصّلة والمعونة لأقاربه لمـا خَفِيَ ذلك على الحاضرين ، ولـكانوا لايعدّون ذلك من مثالبه ، ولا يوافقونه عليه فى جملة ماواقفوه عليه من إحداثه . ثم كان يجب لوفعلوا ذلك أن يكون جوابُه بخلاف ماروى من جوابه ؛ لأنّه كان يجب أن يقول لهم : وأىّ منفعة فى هـذه القطائع عائدة على قَرابتى حتى تعدّوا ذلك من جملة صِلاتى لهم ؛ وإيصالى للمنافع إليهم ! وإنما جعلتُهم فيها بمنزلة الأكَرة الذين يُنتفع بهم أكثر من انتفاعهم أنفسهم ، وما كان

يجب أن يقول ما تقدمت روايته ؛ من أنى محتسب فى إعطاء قرابتى ، وأن ذلك على سبيل الصلة لرحمى ، إلى غير ذلك مما هو خالٍ من المعنى الذى ذكره .

* * *

الطعن الرابع :

أنه حَمَى الحِمَى عن المسلمين ، مع أن رسول الله صلى الله عليه وآله جعلهم سواء فى الماء والكلأ .

قال قاضى القضاة : وجوابنا عن ذلك أنه لم يحمِ الكلأ لنفسه ، ولا استأثر به ، لكنه حماه لإبل الصدقة التى منفعتها تعود على المسلمين . وقد رُوى عنه هذا الكلام بعينه ، وأنه قال : إنما فعلت ذلك لإبل الصدقة ، وقد أطلقته الآن ، وأنا أستغفر الله ، وليس فى الاعتذار ما يزيد عن ذلك .

* * *

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام ، فقال : أما أولاً فالمرويّ بخلاف ما ذكر ، لأنّ الواقدىّ روى بإسناده ، قال : كان عثمان يحمى الرَّبَذَة والشرف[1] والبقيع ، فكان لا يدخل الحمى بعيرٌ له ولا فرس ، ولا لبنى أمية حتى كان آخر الزمان ، فكان يحمى الشَّرف لإبله وكانت ألفَ بعير ، ولإبل الحكَم بن أبى العاص ، ويحمى الرَّبذة لإبل الصدقة ، ويحمى البَقِيع لخيل المسلمين وخيله وخَيْلِ بنى أمية .

قال : على أنه لو كان إنما حماه لإبل الصدقة لم يكنْ بذلك مصيبا ؛ لأنّ الله تعالى ورسولَه أباحا الكلأ ؛ وجعلاه مشتركاً ؛ فليس لأحدٍ أن يغيِّر هذه الإباحة . ولو كان

(١) فى معجم البلدان : قال الأصمعى : « الشرف : كبد نجد ؛ وكانت من منازل بنى آكل المرار من كندة الملوك وفيها اليوم حمى ضرية ، وفيه الربذة ؛ وهى الحمى الأيمن » .

فى هذا الفعل مُصيبا ، وأنه إنما حماه لمصلحة تعود على المسلمين لما جاز أنْ يستغفر الله منه ويعتذر ، لأن الاعتذار إنما يكون من الخطأ دون الصواب .

***

الطعن الخامس :

أنه أعطى من بيت مال الصدقة المقاتلة وغيرها ، وذلك مما لا يحلّ فى الدين .

قال قاضى القضاة : وجوابنا عن ذلك أنّه إنما جاز له ذلك لعلمه بحاجة المقاتلة ، واستغناء أهل الصدقة ، ففعل ذلك عَلَى سبيل الإقراض ، وقد فعل رسول الله صلى الله عليه وآله مثلَه ، وللإمام فى مثل هذه الأمور أن يفعل ما جرى هذا المجرى ؛ لأنّ عند الحاجة ربّما يجوز له أن يقترض[1] من الناس ، فأن يجوز له أن يتناول من مالٍ فى يده ، ليردّ عوّضه من المال الآخر أوْلَى .

***

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام ، فقال : إنّ المال الذى جعل الله تعالى له جهة مخصوصة ، لا يجوز أن يُعدَل به عن جهته بالاجتهاد ، ولو كانت المصلحة فى ذلك موقوفة عَلَى الحاجة لشرَطها الله تعالى فى هذا الحُكم ، لأنه سبحانه أعلمُ بالمصالح واختلافها مِنّا ، ولكان لا يجعل لأهل الصدقة منها القسْط مطلقا .

وأما قوله : إنّ الرسول صلى الله عليه وسلم فَعَل مثله ، فهى دَعْوَى مجرّدة من برهان ، وقد كان يجب أن يروِى ما ذُكر فى ذلك . وأما ما ذكره من الاقتراض، فأين كان عثمان عن هذا العذر لمّا وُوقف عليه !

***

الطعن السادس :

أنه ضرب عبدَ الله بن مسعود حتى كَسرَ بعض أضلاعه .

---

(١) كذا فى ج ؛ وهو الصواب ، وفى ب : « يقرض » ، تحريف .

قال قاضي القضاة : قال شيخنا أبو عليّ رحمه الله تعالى : لم يثبُتْ عندنا ولا صحّ عندنا ما يقال من طَعْنِ عبد الله عليه ، وإكفاره له ، والذى يصحّ من ذلك أنّ عبد الله كَرِه منه جمْعَه الناسَ على قراءة زيد بن ثابت وإحراقَه المصاحف ، وثَقُل ذلك عليه كما يثقُل على الواحد مِنّا تقديمُ غيره عليه .

وقد قيل : إنّ بعضَ موالى عثمان ضربه لمّا سمع منه الوقيعة فى عثمان ، ولو صحّ أنه أمَرَ بضربه لم يكن بأنْ يكون طعناً فى عثمان بأوْلى من أن يكون طعنًا فى ابن مسعود ؛ لأنّ للإمام تأديبَ غيره ، وليس لغيره الوقيعةُ فيه إلا بعد البيان . وقد ذكر الشيخُ أبو الحسين الخيّاط أنّ ابن مسعود إنما عابه لعزْله إياه ؛ وقد رُوِى أنّ عثمان اعتذر إليه فلم يقبل عذرَه ، ولمـا أحضر إليه عطاءه فى مرضه ، قال ابن مسعود : منعتَنى إياه إذ كان ينفعُنى ، وجئتَنى به عند الموت ! لا أقبله . وأنه وسّط أم حبيبة زوج النبىّ صلى الله عليه وسلم ليزيل مافى نفسه فلم يجب ؛ وهذا يوجب ذمّ ابن مسعود إذ لم يقبل الندم ، ويوجب براءة عثمان من هذا العيب ، لو صحّ ما صحّ مما رووه من ضربه .

* * *

اعترض المرتضَى رحمه الله تعالى هذا الكلام ، فقال : المعلوم المروىّ خلاف ما ذكره أبو عليّ ، ولا يختلف أهلُ النقل فى طعن ابن مسعود على عثمان ، وقوله فيه أشدّ الأقوال وأعظمها ، والعلم بذلك كالعلم بكل ما يدّعى فيه الضرورة ، وقد رَوَى كلّ مَنْ رَوَى السيرة من أصحاب الحديث على اختلاف طرُقهم أنّ ابن مسعود كان يقول : ليتنى وعثمان برملِ عالِج[1] يحثُو علَىّ وأحثو عليه حتى يموتَ الأعجز منى ومنه !

ورووا أنه كان يطعن عليه ، فيقال له : ألا خرجْتَ عليه ، ليخرج معك ! فيقولُ : لَأنْ أزاولَ جبلا راسيا أحبُّ إلىّ من أن أزاول مُلْـكا مؤجلا .

---

(١) عالج : رمال بين فيد والقريات ، ينزلها بعض طىء ، متصلة بالثعلبية . مراصد الأطلاع ٢ : ٩١١ .

وكان يقول كلَّ يوم جمعة بالكوفة جاهراً معلنا : « إنّ أصدقَ القول كتابُ الله، وأحسنَ الهدى هدىُ محمد ، وشرّ الأمور محدَثاتها ، وكلّ محدَث بِدْعة ، وكل بِدْعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار » . وإنما كان يقول ذلك معرّضا بعثمان ، حتى غضِب الوليد ابن عُقْبة من استمرار تعريضه، ونهاه عن خطبته هذه ، فأبَى أن ينتهيَ، فكتب إلى عثمان فيه ، فكتب عثمان يستقدِمه عليه .

وروى أنّه لما خرج عبدُ الله بن مسعود إلى المدينة مزعَجا عن الكوفة خرج الناس معه يشيّعونه ، وقالوا له : يا أبا عبد الرحمن ، ارجع ، فوالله لا نوصله إليك أبدا ؛ فإنا لا نأمنه عليك ، فقال : أمر سيكون ، ولا أحبّ أن أكون أوّلَ مَنْ فتحه .

وقد روى عنه أيضا من طرق لا تحصى كثرةً أنه كان يقول : مايزنُ عثمانُ عندَ الله جَناح ذباب ، وتَعَاطِي مارُوِيَ عنه في هذا الباب يطول ، وهو أظهر من أن يحتاج إلى الاستشهاد عليه ؛ وإنه بلَغ من إضرار عبدالله على مظاهرته بالعداوة أنْ قال لما حضره الموت : مَنْ يتقبّلْ مِنّى وصيةً أوصِيه بها عَلَى مافيها ! فسكت القومُ ، وعرفوا الذى يريد ، فأعادها ، فقال عمّار بن ياسر رحمه الله تعالى: أنا أقبلها ، فقال ابن مسعود: ألّا يصلّيَ عَلَيّ عثمان ، قال : ذلك لك ، فيقال : إنّه لما دُفِن جاء عثمان منكِرا لذلك، فقال له قائل: إن عماراً ولِيَ الأمر، فقال لعمّار : ماحملك عَلَى أنْ لم تؤذِنِّى؟ فقال : عهِد إلىّ ألّا أوذِنك، فوقف على قبره وأثنى عليه، ثم انصرف وهو يقول: رفعتم والله أيديَكم عن خَيْرِ مَنْ بَقِى، فتمثّل الزبير بقول الشاعر :

لَا ألفينّكَ بَعْدَ الموتِ تَنْدُبنِى ... وفى حياتِىَ مازَوّدْتنِى زَادِى[1]

ولما مَرِض ابنُ مسعود مرضَه الذى مات فيه ، أتاه عثمان عائدا ، فقال : ما تشتكى ؟ فقال : ذنوبى ، قال : فما تشتهى ؟ قال : رحمة ربى ، قال : ألا أدعو لك طبيبا ؟ قال :

---

(١) البيت لعبيد بن الأبرص ، ديوانه ٤٨ .

الطبيبُ أمرضني ، قال : أفلا آمر لك بعطائِك ؟ قال : منعتَنيه وأنا محتاج إليه ، وتُعطينيه وأنا مستغنٍ عنه ! قال : يكونُ لولدك ، قال : رزقُهم على الله تعالى ، قال : استغفرْ لي يا أبا عبد الرحمن ، قال : أسألُ اللهَ أنْ يأخذَ لي منك حقي .

قال : وصاحبُ " المغنى " قد حكى بعض هذا الخبر في آخر الفصل الذي حكاه من كلامه ، وقال : هذا يوجب ذمّ ابن مسعود من حيث لم يقبل العذر ؛ وهذا منه طريف ؛ لأنّ مذهبَه لا يقتضي قبولَ كلّ عذر ظاهر ، وإنما يجب قبولُ العذر الصادق ، الذي يغلب في الظن أن الباطن فيه كالظاهر ، فمن أينَ لصاحب " المغنى " أنّ اعتذار عثمانَ إلى ابن مسعود كان مستوفيا للشرائط التي يجب معها القبول ! وإذا جازَ ماذكرناه لم يكن على ابن مسعود لومٌ في الامتناع من قبول عُذْره .

فأما قوله: إن عثمان لم يضربه،وإنما ضربه بعضُ مواليه لما سمع وقيعتَه فيه،فالأمر بخلاف ذلك ، وكلّ مَنْ قرأ الأخبار علم أنّ عثمان أمر بإخراجه عن المسجد على أعنفِ الوجوه ، وبأمرِه جرى ماجرى عليه، ولو لم يكن بأمره ورضاه لوجب أن ينكر على مولاه كسْر ضلعه، ويعتذر إلى مَنْ عاتبه على فعله بابن مسعود بأن يقول : إني لم آمر بذلك ، ولا رضيته من فاعله ، وقد أنكرت عليه فعله .

وفي علمنا بأنّ ذلك لم يكن دليل على ماقلنا ، وقد روى الواقديّ بإسناده وغيرُه أنّ ابن مسعود لما استقدم المدينة،دخلها ليلة جمعة،فلما علم عثمانُ بدخوله ، قال : أيها الناس،إنه قد طرقكم الليلة دُوَيبّة، مَنْ تمشي على طعامه يقيء ويسلح.فقال ابن مسعود : لست كذلك، ولكنني صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلّم يومَ بدر ، وصاحبُه يوم أُحُد،وصاحبُه يوم بيعة الرضوان،وصاحبُه يوم الخندق،وصاحبُه يوم حُنين . قال : وصاحت عائشة:ياعثمان! أتقول هذا لصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلّم ! فقال عثمان : اسكتي ؛ ثم قال لعبدالله ابن زَمْعة بن الأسود بن المطلب بن عبد العزّى بن قصيّ : أخرِجْه إخراجا عنيفا ، فأخذه

ابنُ زمعة ، فاحتمله حتى جاء به باب مسجد ، فضرب به الأرض ، فكسر ضِلَعاً من أضلاعه ، فقال ابن مسعود: قتلنى ابنُ زمعة الكافر بأمر عثمان وفى رواية أخرى إنّ ابنَ زمعة الذى فعل به مافعل كان مولًى لعثمان أسود مُسَدَّماً[1] طُوالا. وفى رواية أخرى: إن فاعل ذلك يَحْمُوم مولى عثمان. وفى رواية، إنه لما احتمله ليخرجه من المسجد ناداه عبدالله: أنشدك الله، ألا تخرِجَنى من مسجد خليلى صلى الله عليه وسلّم .

قال الرّاوى : فكأنى أنظر إلى حُمُوشة[2] ساقَىْ عبدالله بن مسعود ورجلاه تختلفان على عنق مولى عثمان حتى أخرج من المسجد، وهو الذى يقول فيه رسول الله صلى الله عليه وسلّم: « لَساقا ابن أمّ عبد أثقلُ فى الميزان يوم القيامة من جبل أُحُد » .

وقد روى محمد بن إسحاق عن محمد بن كعب القُرظىّ أن عثمان ضرب ابن مسعود أربعين سوطا فى دفنِه أبا ذَرّ. وهذه قصة أخرى؛ وذلك أن أبا ذرّ رحمه الله تعالى لما حضرته الوفاة بالرّبذة، وليس معه إلا امرأته وغلامُه عَهِد إليهما أن غَسّلانى ثم كفّنانى، ثم ضعانى على قارعة الطريق، فأوّل ركب يمرّون بكم قولوا لهم: هذا أبو ذَرّ صاحب رسول الله صلى الله عليـه ، فأعينونا على دَفْنِه ، فلما مات فعلوا ذلك ، وأقبل ابنُ مسعود فى ركب من العراق معتمرين ، فلم يرعْهمْ إلا الجنازة على قارعة الطريق ، قد كادت الإبل تطؤها ، فقام إليهم العبد، فقال : هذا أبو ذَرّ صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، فأعينونا على دفنه ، فانهلّ ابنُ مسعود باكيًا ، وقال : صدق رسول الله صلى الله عليـه ، قال له : « تمشى وحدَك ، وتموت وحدَك ، وتُبْعث وحدَك » ، ثم نزل هو وأصحابه ، فواروه .

قال : فأما قوله إن ذلك ليس بأنْ يكون طعناً فى عثمان بأولى من أنْ يكون طعنا فى ابن مسعود ، فواضح البطلان ، وإنما كان طعناً فى عثمان دون ابن مسعود؛ لأنه لاخلاف

---

(١) المسدم : الأهوج .
(٢) الحموشة : دقة الساقين .

بين الأمة فى طهارة ابن مسعود وفضله وإيمانه ، ومدح رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، وثنائه عليه ، وأنّه مات على الجملة المحمودة منه ، وفى جميع هذا خلاف بين المسلمين فى عثمان .

فأما قوله : إن ابن مسعود كره جَمْعَ عثمان النّاس على قراءة زيد ، وإحراقَه المصاحف؛ فلا شك أنّ عبد الله كره ذلك ، كما كرهه جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، وتكلّموا فيه ، وقد ذكر الرواة كلامَ كل واحد منهم فى ذلك مفصّلا ، وما كره عبدالله من ذلك إلا مكروهًا ، وهو الذى يقول رسول الله صلى الله عليه وسلّم فى حقه : «مَنْ سرّه أن يقرأ القرآن غضًّا كما أنزل، فليقرأه على قراءة ابن أم عبد» . ورُوِيَ عن ابن عباس رحمه الله تعالى أنه قال: «قراءة ابن أم عبد هى القراءة الأخيرة »؛ إن رسول الله صلى الله عليه كان يُعرَض عليه القرآن فى كلّ سنة من شهر رمضان ، فلما كان العام الذى توفّى فيه عُرِض عليه دفعتين ، فشهد عبد الله مانُسِخ منه ، وما صحّ فهى القراءة الأخيرة .

ورُوِيَ عن الأعمش ، قال : قال ابن مسعود : لقد أخذتُ القرآن مِنْ فِي رسول الله صلى الله عليه ، سبعين سُورة ، وإن زيد بن ثابت لغُلام فى الكتّاب ، له ذؤابة .

فأما حكايتهُ عن أبى الحسين الخياط أنّ ابنَ مسعود إنما عاب عثمان لعزله إياه ، فعبد الله عِندَ كلِّ مَنْ عرفه بخلاف هذه الصورة، وأنه لم يكن ممّنْ يخرج على عثمان ويطعن فى إمامته بأمرٍ يعود إلى منفعة الدنيا ، وإن كان عزلُه بما لاشبهة فيه فى دين ولا أمانة عيبا لاشكّ فيه .

• • •

الطعن السابع :

أنه جمع الناس على قراءة زيد بن ثابت خاصة ، وأحرق المصاحف ، وأبطل مالاشك أنه نزل من القرآن ؛ وأنه مأخوذ عن الرسول صلى الله عليه ، ولو كان ذلك مما يسوغُ لسبق إليه رسول الله صلى الله عليه ، ولفعله أبو بكر وعمر .

قال قاضي القضاة : وجوابُنـا عن ذلك أنّ الوجهَ في جمع القرآن على قراءة واحدة تحصينُ القرآن وضبطه ، وقطع المنازعة والاختلافِ فيه . وقولهم : لوكان ذلك واجبـاً لفعله الرسول صلى الله عليه وسلّم غيرلازم ؛ لأنّ الإمام إذا فعله صار كأنّ الرسول صلى الله عليه وسلّم فعله ، ولأنّ الأحوالَ في ذلك تختلف ، وقد روى أنّ عمر كان عزم على ذلك فمات دونه . وليس لأحد أن يقول : إن إحراقه المصاحف استخفافٌ بالدين، وذلك لأنه إذا جاز من الرسول صلىّ الله عليه وسلم أن يخرب المسجد الذى بُنِيَ ضراراً وكفراً ، فغير ممتنع إحراق المصاحف .

***

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام ، فقال : إن اختلاف الناس في القراءة ليس بموجب لما صنعه ؛ لأنهم يروُون أنّ النبي صلى الله عليه وسلّم قال : « نزل القرآن على سبعة أحرف ، كلّها شافٍ كافٍ » ، فهذا الاختـلاف عندهم في القرآن مباحٌ مسند عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، فـكيف يحظر عليهم عثمان من التوسّع في الحروف ماهو مباح! فلو كان في القراءة الواحدة تحصين القرآن كما ادّعى ؛ لما أباح النبي صلى الله عليه وسلم في الأصل إلا القراءة الواحدة ؛ لأنه أعلم بوجوه المصالح من جميع أمته ، من حيث كان مؤيّدا بالوحي ، موفّقا في كلّ مايأتي ويذَر . وليس له أن يقول : حَدَث من الاختلاف في أيام عثمان مالم يكنْ في أيام الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا ماأباحــه ؛ وذلك لأنّ الأمر

لوكان على هذا لوجبَ أن ينهى عن القراءة الحادثة ، والأمر المبتدع ، ولا يحمله ما أحدث من القراءة على تحريم المتقدّم بلا شبهة .

وقوله : إن الإمام إذا فعل ذلك ؛ فكأنّ الرسول صلى الله عليه وسلّم فَعَلَه تعلّل بالباطل ؛ وكيف يكون كما ادّعى ، وهذا الاختلاف بعينه قد كان موجوداً فى أيام الرسول صلى الله عليه وسلّم ، فلو كان سبب الانتشار الزيادة فى القرآن ، وفى قطعه تحصين له ، لكان عليه السلام بالنهى عن هذا الاختلاف أوْلى من غيره ؛ اللهم إلا أن يقال : حدث اختلاف لم يكن ؛ فقد قُلْنا فيه ما كفى .

وأما قوله : إن عمر قد كان عزم على ذلك فمات دونه ؛ فما سمعناه إلا منه ؛ ولو فعل ذلك أىّ فاعل كان لكان مُنْكَراً .

فأما الاعتذار عن كون إحراق المصاحف لا يكون استخفافاً بالدين ، بحمله إياه على تخريب مسجد الضِّرار ، فبيْن الأمرين بَوْنٌ بعيد ؛ لأنّ البنيان إنما يكون مسجدا وبيتا لله تعالى بنية البانى وقصده ، ولولا ذلك لم يكن بعضُ البنيان بأن يكون مسجدا أوْلى من بعض ، ولما كان قصد البانى لذلك الموضع غير القُرْبة والعبادة ، بل خلافُها وضدّها من الفساد والمكيدة . لم يكن فى الحقيقة مسجدا ، وإن سمى بذلك مجازا على ظاهر الأمر ، فهدْمُه لاحرجَ فيه ، وليس كذلك مابين الدّفّتين ؛ لأنه كلام الله تعالى الموقّر المعظّم ، الذى يجب صيانته عن البِذلة والاستخفاف ، فأىّ نسبة بين الأمرين !

* * *

الطعن الثامن :

أنه أقدم على عمار بن ياسر بالضرب ، حتى حَدَث به فَتْق ، ولهذا صار أحد مَنْ ظاهر المتظلّمين من أهل الأمصار على قتله ، وكان يقول : قتلناه كافرا .

قال قاضى القضاة : وقد أجاب شيخنا أبو على رحمه الله تعالى عن ذلك، فقال : إن ضرب عمار غير ثابت ، ولو ثبت أنه ضربه للقول العظيم الذى كان يقوله لم يجب أن يكون طعناً عليه ؛ لأن للإمام تأديب من يستحق التأديب . ومما يبعد صحة ذلك أن عمارا لا يجوز أن يكفره ، ولما يقع منه مايستوجب به الكفر ؛ لأن الذى يكفر به الكافر معلوم ؛ ولأنه لو كان قد وقع ذلك لكان غيره من الصحابة أولى بذلك، ولوجب أن يجتمعوا على خلعه، ولوجب أن يكون قتله مباحا لهم ، بل كان يجب أن يقيموا إماما ليقتله على ماقدمناه . وليس لأحد أن يقول : إنما كفره عمار من حيث وثب على الخلافة ، ولم يكن لها أهلا ؛ لأنا قد بينا القول فى ذلك ؛ ولأنه كان منصوبا لأبى بكر وعمر على ماتقدم ، وقد بينا أن صحة إمامتهما تقتضى صحة إمامة عثمان .

وقد روى أن عماراً نازع الحسن بن على عليهما السلام فى أمر عثمان فقال عمار : قتل عثمان كافرا ، وقال الحسن عليه السلام : قتل مؤمنا ؛ وتعلق بعضهما ببعض ، فصارا إلى أمير المؤمنين عليه السلام ، فقال : ماذا تريد من ابن أخيك ؟ فقال : إنى قلت كذا، وقال كذا ، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام : أتكفر برب كان يؤمن به عثمان ! فسكت عمار ؛ وقد ذكر الشيخ أبو الحسين الخياط أن عثمان لما نقم عليه ضربه عمارا احتج لنفسه، فقال : جاءنى[1] سعد وعمار، فأرسلا إلى أن ائتنا ، فإنا نريد أن نذاكرك أشياء فعلتها، فأرسلت إليهما : إنى مشغول ، فانصرفا ، فموعدكما يوم كذا ، فانصرف سعد وأبى عمار أن ينصرف ، فأعدت الرسول إليه فأبى أن ينصرف ، فتناوله بغير أمرى؛ ووالله ما أمرت به ولا رضيت ؛ وها أنا ، فليقتص منى .

قال : وهذا من أنصف قول وأعدله .

***

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام ، فقال : أما الدفع لضرب عمار ، فهو

(١) كذا فى الأصول وكتاب الشافى ٢٧٧ ، ولعل الصواب : « جاء سعد » .

كالإنكار لطلوع الشمس ظهورا وانتشارا ، وكلُّ من قرأ الأخبار ، وتصفّح السيَر ، يعلم من هذا الأمر مالا تثنيه عنه مكابرةٌ ولا مدافعة ؛ وهذا الفعل ـ أعنى ضربَ عمار ـ لم تختلف الرواة فيه ؛ وإنما اختلفوا فى سببه ، فروَى عباس بن هشام الكلبيّ عن أبى مِخْنف ، فى إسناده أنه كان فى بيت المال بالمدينة سَفَط فيه حَلى وجوهر ، فأخذ منه عثمان ماحَلّى به بعضَ أهله ، فأظهر الناسُ الطعنَ عليه فى ذلك ، وكلّموه فيه بكلّ كلام شديد ؛ حتى أغضبوه ، فخطب فقال : لنأخذَنّ حاجتنا من هذا الفىء ؛ وإن رَغِمَتْ به أنوف أقوام ! فقال له علىٌّ عليه السلام : إذَنْ تُمنعَ من ذلك ، ويحالَ بينك وبينه ، فقال عمار : أُشهِد اللهَ أنى أوّلُ راغم من ذلك ؛ فقال عثمان : أعلىّ يابن ياسر تجترئ ! خذوه ، فأُخِذ ، ودخل عثمان ، فدعا به فضرب به حتى غُشِى عليه ، ثم أخرج فحمل حتى أُتِىَ به منزلَ أم سلمة رضى الله تعالى عنها ، فلم يصلّ الظهر والعصر والمغرب ، فلما أفاق توضأ وصلّى ، وقال : الحمدُ لله ، ليس هذا أول يوم أوذِينا فى الله تعالى ! فقال هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومىّ ـ وكان عمّار حليفا لبنى مخزوم ـ : ياعثمان ، أمّا علىّ فاتقيتَه ، وأما نحن فاجترأت علينا ، وضربتَ أخانا حتى أشفَيْتَ به[1] على التلف ؛ أما والله لئن مات لأقتلَنّ به رجلا من بنى أميّة عظيم الشأن ! فقال عثمان : وإنّك لهاهنا يابن القَسْريّة ، قال : فإنهما قَسْرِيتانِ ـ وكانت أم هشام وجدّته قَسْرِيّتين[2] من بَجيلة ـ فشتمه عثمان ، وأمرَ به فأخرج ، فأتى به أمّ سلمة رضى الله تعالى عنها ، فإذا هى قد غَضِبت لعمار ، وبلغ عائشة رضى الله تعالى عنها ماصَنَع بعمار ، فغضبتْ أيضا ، وأخرجت شَعَراً من شَعَر رسول الله صلى الله عليه وآله ، ونعلا من نعاله ، وثوبا من ثيابه ، وقالت : ماأسرع ماتركتُم سُنّة نبيكم ، وهذا شعره وثوبه ونعله لم يبْل بعد !

---

(١) أشفيت به ، أى جعلته مشرفا على الهلاك . (٢) قسر : بطن فى بجيلة .

وروى آخرون أن السببَ في ذلك أنَّ عثمان مَرَّ بقبر جديد، فسأل عنه، فقيل: عبد الله بن مسعود؛ فغضب عَلَى عمار لكتمانه إياه موته، إذ كان المتولّيَ للصلاة عليه، والقيام بشأنه، فعندها وطئ عثمان عمَّاراً حتى أصابه الفتق.

وروى آخرون أنَّ المقداد وعمّارا وطلحة والزبير وعِدَّة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله كتبوا كتاباً عدّدوا فيه أحداث عثمان، وخوّفوه به، وأعلموه أنهم مُواثبوه إن لم يُقلِع، فأخذ عمار الكتاب، فأتاه به. فقرأ منه صَدْراً، ثم قال له: أعلَيَّ تقدمُ من بينهم! فقال: لأنِّي أنصحهُم لك، قال: كذبت يابن سُميّة! فقال: أنا والله ابن سُمَيّة، وابن ياسر! فأمر عثمان غلمانا له، فمدّوا بيديه ورجليه، ثم ضربه عثمان برجليه — وهي في الخفَّين — على مَذا كيره، فأصابه الفتق، وكان ضعيفا كبيراً فغُشِي عليه.

قال: فضربُ عمار عَلَى ماترى غير مختلف فيه بين الرواة، وإنما اختلفوا في سببه، والخبرُ الذى رواه صاحب "المغنى"، وحكاه عن أبى الحسين الخياط مانعرفه، وكتبُ السيرة المعلومة خالية منه ومن نظيره، وقد كان يجب أن يُضيفه إلى الموضع الذى أخذ منه، فإنّ قوله وقول من أسند إليه ليس بحجة؛ ولو كان صحيحا لكان يجب أن يقول بدل قوله: «ها أنا فليقتصَّ مني» — إذا كان ما أمرَ بذلك، ولا رضى عنه، وإنما ضربه الغلام الجانى — «فليقتصَّ منه»، فإنّه أولى وأعدل.

وبعد؛ فلا تنافيَ بين الروايتين لو كان ما رواه معروفا، لأنه يجوز أن يكونَ غلامه ضربه في حال، وضربه هو في حال أخرى، والروايات إذا لم تتعارضْ لم يجز إسقاط شيء منها.

فأما قوله: إن عمارا لا يجوز أن يكفِّره، ولم يقع منه ما يوجب الكفر؛ فإن تكفيرَ عمار وغير عمار له معروف، وقد[1] جاءت به الروايات، وقد رُوِي من طرق مختلفة وبأسانيد كثيرة أنّ عمارا كان يقول: ثلاثة يشهدون عَلَى عثمان بالكفر وأنا الرابع، وأنا شرّ

(١) ا: «قد».

الأربعة ، ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾[1] ،وأناأشهدأنه قد حَكَم بغير ما أنزل الله .

وروى عن زيد بن أرقم من طرق مختلفة أنه قيل له : بأيّ شيء كفرتم[2] عثمان ؟ فقال : بثلاث : جَعَل المالَ دُولةً بين الأغنياء ، وجَعَل للمهاجرين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنزلة مَنْ حارب الله ورسوله ، وعَمِل بغير كتاب الله .

ورُوِيَ عن حُذَيفة أنه كان يقول: مافي عثمان بحمدالله أشكّ ،لكني أشكّ في قاتله ، لا أدرى أكافر قتل كافرا ،أم مؤمن خاض إليه الفتنة حتى قتله؛وهوأفضلُ المؤمنين إيمانا!

فأمّا مارَواه من منازعة الحسن عليه السلام عمّاراً في ذلك ، وترافعهما إلى أمير المؤمنين عليه السلام ؛ فهو أوّلا غيرُ دافع لكونِ عمار مكفّرًا له ، بل شاهد بذلك من قوله عليه السلام . ثم إنْ كان الخبر صحيحافالوجهُ فيه أنّ عمّاراً كان يعلم من لَحْن كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، وعُدوله عن أن يقضيَ بينهما بصريح من القول أنه متمسك بالتقيّة ، فأمسك عمار متابعة لغرضه[3] .

فأما قوله : لا يجوز أن يكفّره من حيث وثب على الخلافة ، لأنّه كان مصوّبا لأبي بكر وعمر لما تقدم من كلامه في ذلك ؛ فإنا لا نسلّم له أن عمّارا كان مصوّبا لهما ،وماتقدّم من كلامه قد تقدّم كلامنا عليه .

فأما قوله عن أبي عليّ : إنه لو ثبت أنه ضربه للقول العظيم الذى كان يقوله فيه لم يكن طعناً ، لأنّ للإمام تأديبَ من يستحق ذلك ، فقد كان يجب أن يستوحش صاحب كتاب «المغنى» ، أو من حكى كلامه من أبي عليّ وغيره من أن يعتذر — من ضرب عمار ووقذه حتى لحقه من الغَشْى ماترَك له الصلاة ، ووطئه بالأقدام امتهانا واستخفافا — بشيء من العذر ،

---

(١) سورة المائدة ٤٤ .
(٢) ا : « أكفرتم » .
(٣) الشافي : « لما فهم من غرضه » .

فلا عذر يُسمع من إيقاع نهاية المكروه بمن رُوِي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال فيه : « عمار جِلْدة ما بين العين والأنف ومتى تُنْكأ الجلدة يَدْمَ الأنف » . وروى أنه قال عليه السلام « ما لهم ولعمار ! يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار » . وروى العوّام بن حَوْشب عن سلمة بن كُهَيل عن علقمة عن خالد بن الوليد أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « مَنْ عادى عمارا عاداه الله ، ومن أبغض عمارا أبغضه الله » ؛ وأيّ كلام غليظ سمعه عثمان من عمّار يستحق به ذلك المكروه العظيم الذى يجاوز مقدار مافرضه الله تعالى فى الحدود ! وإنما كان عمار وغيره أثبتُوا عليه أحداثه ومعايبه أحيانا على ما يظهر من سيِّئ أفعاله . وقد كان يجب عليه أحدُ أمرين : إما أن ينزع عمّا يواقف عليه من تلك الأفعال ، أو يبين مِنْ عذره عنها وبراءته منها ما يظهر ويشتهر ؛ فإن أقام مقيم بعد ذلك على توبيخه وتفسيقه زجَره عن ذلك بوعظ أو غيره ، ولا يُقدم على ما يفعله الجبابرة والأكاسرة من شفاء الغيظ بغير ما أنزل الله تعالى وحكم به .

* * *

الطعن التاسع :

إقدامه على أبى ذرّ مع تقدّمه فى الإسلام ، حتى سيّره إلى الرَّبَذة ونفاه ، وقيل : إنه ضَرَبه .

قال قاضى القضاة فى الجواب عن ذلك : إنّ شيخنا أبا علىّ رحمه الله تعالى قال : إنّ الناس اختلفُوا فى أمر أبى ذرّ رحمه الله تعالى . ورُوِىَ أنه قيل لأبى ذرّ : عثمانُ أنزلك الرَّبَذة ؟ فقال : لا ؛ بل اخترتُ لنفسِي ذلك .

ورِوى أنّ معاوية كتب يشكوه وهو بالشام ، فكتب عثمان إليه أنْ صِرْ إلى المدينة ، فلما صار إليها قال : ما أخرجَك إلى الشام ؟ قال : لأنى سمعتُ رسول الله صلى الله عليه

وسلم يقول : « إذا بلغتْ عِمارةُ المدينة موضعَ كذا فاخرج عنها » ؛ فلذلك خرجتُ ، فقال : فأيّ البلاد أحبُّ إليك بعد الشام ؟ قال : الرَّبَذة ، فقال : صِرْ إليها .

قال : وإذا تكافأتِ الأخبارُ لم يكن لهم فى ذلك حجّة ، ولو ثبت ذلك لكان لا يمتنع أن يُخرجه إلى الرَّبذة لصلاح يرجع إلى الدين ، فلا يكون ظُلْمًا لأبى ذرّ ؛ بل يكون إشفاقا عليه ، وخوفًا من أن يناله من بعضِ أهل المدينة مكروه ، فقد رُوِىَ أنه كان يُغْلِظ فى القول ويخشن الكلام ، فيقول : لم يبقَ أصحابُ محمد على ماعَهِد ، ويُنَفِّر[1] بهذا القول ؛ فرأى إخراجَه أصلحَ لما يرجع إليه وإليهم وإلى الدين ؛ وقد رُوِى أن عمر أخرَجَ عن المدينة نصرَ بن الحجاج لما خافَ ناحيته ، وقد ندَب اللهُ سبحانه إلى خفض الجناح للمؤمنين ، وإلى القول اللّين للكافرين ، وبيّن للرسول صلى الله عليه وسلم أنه لو استعمل الفظاظة لانفضُّوا من حوله ، فلما رأى عثمانُ من خُشونة كلام أبى ذرّ ، وما كان يُورِده مما يخشَى منه التنفير فَعَلَ ما فَعَل .

قال : وقد رُوِى عن زيد بن وهب ، قال : قلتُ لأبى ذرّ رحمه الله تعالى ، وهو بالرَّبذة : ما أنزلك هذا المنزل ؟ قال : أخبِرُك ؛ إنى كنتُ بالشام فى أيام معاوية ، وقد ذكرت هذه الآية : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[2] ، فقال معاوية : هذه فى أهلِ الكتاب ، فقلت : هى فيهم وفينا ؛ فكتب معاوية إلى عثمان فى ذلك ، فكتب إلىَّ أن اقدم عَلَىَّ ، فقدمت عليه ؛ فانثال الناسُ إلىَّ كأنهم لم يعرفونى ، فشكوت ذلك إلى عثمان ، فخيّرنى وقال : انزِلْ حيث شئت ، فنزلت الرَّبَذة .

---

(١) ينفر : يصيح .
(٢) سورة التوبة آية ٣٤ .

وقد ذكر الشيخُ أبو الحسين الخياط قريباً مما تقدّم ، من أنّ إخراج أبي ذرّ إلى الرَّبذة كان باختياره ، وروى في ذلك خبرا ، قال : وأقلُّ ما في ذلك أنْ تختلف الأخبار فتطرَح ، ويُرجع إلى الأمر الأوّل في صحة إمامة عثمان وسلامة أحواله .

* * *

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام ، فقال :

أمّا قول أبي عليّ إنّ الأخبار في سبب خروج أبي ذرّ إلى الرَّبَذة متكافئة ، فمعاذ الله أن تتكافأ في ذلك ! بل المعروفُ والظاهر أنّه نفاه أولا إلى الشام ، ثم استقدمه إلى المدينة لما شكا منه معاوية ، ثم نفاه من المدينة إلى الرَّبَذة. وقد روَى جميعُ أهلِ السِّيَر علَى اختلاف طُرقهم وأسانيدهم أنّ عثمانَ لما أعطى مرْوان بن الحكم ما أعطاه ، وأعطى الحارث بن الحكَم بن أبي العاص ثلثمائة ألف درهم ، وأعطى زيد بن ثابت مائة ألف درهم ، جعل أبو ذرّ يقول : بشِّر الكانزين بعذاب أليم ، ويتلو قول الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ فرفع ذلك مرْوان إلى عثمان ، فأرسل إلى أبي ذرّ نائلا مولاه : أنِ انتهِ عمّا يبلغني عنك ، فقال : أينهاني عثمان عن قراءة كتاب الله ، وعَيب مَنْ ترك أمر الله ! فوالله لأن أُرضيَ الله بسخَط عثمان أحبّ إليّ وخيرٌ لي من أن أُسخِطَ الله برضاه . فأغضب عثمان ذلك ، وأحفظه فتصابر .

وقال يوما : أيجوز للإمام أن يأخذَ من المال ، فإذا أيسر قضى ؟ فقال كعبُ الأحبار : لا بأس بذلك ، فقال له أبو ذرّ : يابن اليهوديين ، أتعلّمنا ديننا ! فقال عثمان : قد كثر أذاك لِي وتولُّعك بأصحابي ، الحقْ بالشام . فأخرجه إليها ، فكان أبو ذرّ يُنكِر على معاوية أشياء يفعلها ، فبعث إليه معاوية ثلثمائة دينار ؛ فقال أبو ذرّ : إنْ كانتْ هذه

من عطائى الذى حرمتُمُونيه عاى هذا قبلْتُها ، وإن كانتْ صِلةً فلا حاجة لى فيها ، وردّها عليه .

وبنى معاوية الخضراء بدمشق ، فقال أبو ذَرّ : يا معاوية ، إن كانت هذه من مال الله فهى الخيانة ، وإن كانتْ من مالك فهو الإسراف .

وكان أبو ذَرّ رحمه الله تعالى يقول : والله لقدْ حدثَتْ أعمالٌ ماأعرِفها ، والله ماهى فى كتاب الله ولا سنة نبيه ، والله إنى لأرَى حقا يُطفأ وباطلا يُحْيا ؛ وصادقا مكذَّبا ، وأثَرَة بغير تُقَى ، وصالحًا مستأثَراً عليه ؛ فقال حَبيب بن مسلمة الفِهْرىّ لمعاوية : إن أبا ذَرّ لمُفْسِدٌ عليكم الشام ، فتداركْ أهلَه إن كانت لكم حاجة فيه . فكتب معاوية إلى عثمان فيه ، فكتب عثمان إلى معاوية : أما بعد ؛ فاحمل جُنْدباً[1] إلىّ على أغلظِ مَرْكب وأوعرِه ، فوجّه به مع مَنْ سار به الليل والنهار ؛ وحمله على شارف[2] ليس عليها إلا قَتَب[3] ، حتى قدِم به المدينة ، وقد سقط لحمُ فَخِذَيْه من الجهد ؛ فلما قدم أبو ذرّ المدينة ؛ بعث إليه عثمان أنِ الحقْ بأىّ أرضٍ شئتَ ، فقال : بمكة ؟ قال : لا ، قال : فبيت المقدس ؟ قال : لا ، قال : فأحدُ المِصْرين[4] ؟ قال : لا ؛ ولكنّى مسيِّرُك إلى الرَّبَذة ، فسيّره إليها ، فلم يزلْ بها حتى مات .

وفى رواية الواقدىّ أنّ أبا ذَرّ لما دخل على عثمان ، قال له : لا أنعمَ الله بك عينا يا جُنَيْدِب ! فقال أبو ذَرّ : أنا جُنَيْدِب وسمّانى رسول الله صلى الله عليه عبدَ الله ، فاخترتُ اسمَ رسول الله الذى سمّانى به على اسمى ؛ فقال عثمان : أنت الذى تزعُم أنّا نقول إن يدَ الله مغلولة ؛ وإن الله فقير ونحن أغنياء ! فقال أبو ذَرّ : لو كنتم لا تزعمون لأنفقتم

---

(١) جندب : اسم أبى ذر الغفارى .

(٢) الشارف : الناقة المسنة الهرمة .

(٣) القتب : الإكاف الصغير على قدر سنام البعير .

(٤) المصران : هما الكوفة والبصرة .

مالَ الله على عباده ؛ ولكنّى أشهدُ لسمعت رسول الله صلى الله عليه يقول : « إذا بلغ بَنو أبى العاص ثلاثين رجلا جعلوا مالَ الله دولًا ، وعبادَ الله خَوَلًا ، ودينَ الله دَخَلا » ، فقال عثمان لمَنْ حضَره : أسمعتموها من نبىّ الله ؟ فقالوا : ماسمعناه ، فقال عثمان : ويلك يا أبا ذرّ ! أتكذِب على رسول الله ! فقال أبو ذرّ لِمَنْ حضَر : أما تظنّون أنى صدقت ! قالوا : لا والله ما ندرى ، فقال عثمان : ادعُوا لى عليًّا ، فدعى ، فلما جاء قال عثمان لأبى ذرّ : اقصُصْ عليه حديثك فى بنى أبى العاص ، فحدّثه ، فقال عثمان لعلىّ : هل سمعتَ هذا من رسول الله صلى الله عليه ؟ فقال علىّ عليه السلام : لا ، وقد صدق أبو ذرّ ، قال عثمان : بمَ[1] عرفتَ صِدْقه ؟ قال : لأنى سمعتُ رسول الله صلى الله عليه يقول : « ما أظلّت الخضراء ولا أقلّت الغبراء من ذى لَهْجة أصدق من أبى ذرّ » ، فقال جميعُ مَنْ حضَر من أصحاب النبى صلى الله عليه : لقد صدق أبو ذرّ ، فقال أبو ذرّ : أحدّثكم أنى سمعتُ هذا من رسول الله صلى الله عليه ثم تتّهمونَنى ! ما كنت أظنّ أنى أعيشُ حتى أسمعَ هذا من أصحاب محمد صلى الله عليه !

وروى الواقدىّ فى خبر آخر بإسناده عن صُهْبان مولى الأسلميين ، قال : رأيتُ أبا ذرّ يوم دُخِلَ به على عثمان ، فقال له : أنتَ الذى فعلت وفعلت ! فقال له أبو ذرّ : نصحتُكَ فاستغششتَنِى ، ونصحتُ صاحبك فاستغشّنى ؛ فقال عثمان : كذبت ؛ ولكنك تريد الفتنة وتحبّها ، قد أنغَلْتَ[2] الشامَ علينا ، فقال له أبو ذرّ : اتبعْ سُنّة صاحِبَيْك ، لا يكن لأحدٍ عليك كلام ، قال عثمان : مالك وذلك لا أمّ لك ! قال أبو ذرّ : والله ما وجدتُ لى عذرا إلا الأمرَ بالمعروف والنهىَ عن المنكر ؛ فغضب عثمان وقال : أشيروا علَىّ فى هذا الشيخ الكذّاب ، إمّا أن أضربَه أو أحبِسه أو أقتله ؛ فإنه قد فرّق جماعة المسلمين ، أو أنفيَه من أرض الإسلام . فتكلّم علىّ عليه السلام — وكان حاضرا — وقال : أشيرُ عليك

---

(١) الشافى : « كيف » .

(٢) أنغلت الشام : أى أفسدت أهله ؛ وأصله فى الأديم ؛ يقال : أنغل الأديم ؛ إذا أفسده فى الدباغ . وفى الشافى : « قلبت » .

بما قاله مؤمنُ آل فرعون: ﴿ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ (١)، قال: فأجابه عثمان بجوابٍ غليظ، لا أحبّ ذكره، وأجابه عليه السلام بمثله، قال: ثمّ إن عثمانَ حَظَرَ على النّاس أن يقاعِدُوا أبا ذرّ، أو يكلموه؛ فمكثَ كذلك أياماً، ثم أمرَ أن يؤتَى به، فلما أُتِيَ به وقف بين يديه، قال: ويحَك ياعثمان! أما رأيتَ رسول الله صلى الله عليه ورأيتَ أبا بكر وعمر! هل رأيتَ هـذا هديَهم! إنك لَتَبْطِشُ بي بَطْشَ جبار؛ فقال: اخرُج عنّا من بلادنا، فقال أبو ذرّ: ماأبغض إليّ جوارك! فإلى أين أخرج؟ قال: حيث شئتَ، قال: فأخرج إلى الشامِ أرض الجهاد؟ قال: إنما جلبتُك من الشام لِما قد أفسدتَها أفأردّك إليها! قال: أفأخرُج إلى العراق؟ قال: لا، قال: ولِم؟ قال: تقدَم على قوم أهل شُبَهٍ وطعن فى الأئمة، قال: أفأخرج إلى مصر؟ قال: لا، قال: فإلى أين أخرج؟ قال: حيث شئت، قال أبو ذَرّ: فهو إذن التعرّب (٢) بعد الهجرة؛ أأخرُج إلى نجد؟ فقال عثمان: الشرف الأبعدُ أقصى فأقصى، امضِ على وجهك هذا، ولا تعدوَنَّ الرَّبذة.

فخرج إليها.

وروى الواقديّ عن مالك بن أبي الرجال، عن موسى بن ميسرة أنّ أبا الأسود الدؤليّ، قال: كنتُ أحبّ لقاء أبي ذرّ لأسأله عن سبب خُروجه، فنزلت الرَّبَذة، فقلت له: ألا تخبرني؟ أخرجتَ من المدينة طائعا أم أخرجت مكرَها؟ فقال: كنت فى ثغر من ثغور المسلمين، أُغْنِي عنهم، فأخرِجتُ إلى مدينة الرسول عليه السلام، فقلت: أصحابي ودارُ هجرتي، فأخرِجت منها إلى ماترى، ثم قال: بينا أنا ذاتَ ليلة نائم فى المسجد إذ مرّ بي رسول الله صلى الله عليه، فضربني برجْله وقال: لا أراك نائما فى المسجد، فقلت: بأبي أنت

---

(١) سورة غافر ٢٨.

(٢) التعرّب: الإقامة بالبادية.

وأمى ! غلبتنى عينى، فنمتُ فيه ، فقال : كيف تصنع إذا أخرجوك منه؟فقلت : إذن ألحق بالشام ، فإنها أرض مقدسة، وأرض بقية الإسلام،وأرض الجهاد ؛ فقال : فكيف تصنع إذا أخرجت منها ؟ فقلت : أرجع إلى المسجد ، قال : فكيف تصنع إذا أخرجوك منه ؟ قلت : آخذ سيفى فأضرب به ، فقال صلى الله عليه وآله : « ألا أدلّك على خيرٍ من ذلك،انسَقْ معهم حيث ساقوك ، وتسمَعُ وتطيع » ، فسمعت وأطعت وأنا أسمع وأطيع؛ والله ليلقَيَنّ اللهَ عثمان وهو آثم فى جَنْبى .

وكان يقول بالرَّبذة : ماترك الحقّ لى صديقا . وكان يقول : فيها ردَّنى عثمانُ بعد الهجرة أعرابيا .

والأخبار فى هذا الباب أكثر من أن تحصر وأوسع من أن نذكرها . ومايحمِلُ نفسَه على ادّعاء أنّ أبا ذرّ خرج مختارا إلى الرَّبَذة إلا مكابر . ولسنا ننكر أن يكون ما أورده صاحب كتاب « المغنى » من أنه خرج مختارا قد رُوِىَ ، إلا أنه من الشاذّ النادر . وبإزاء هذه الرواية الفَذّة كلّ الروايات التى تتضمّن خلافها ؛ ومن تصفَّح الأخبار عَلِم أنّها غير متكافِئة على ماظنّ صاحب المغنِى ؛ وكيف يجوز خروجُه عن اختيار ! وإنما أشخِص من الشام على الوجه الذى أشخص عليه : من خشونة المركب ، وقُبْح السَّيْر به للموجدة عليه. ثم لما قدِم مُنِع الناس من كلامه، وأغلظ له فى القول؛وكلّ هذا لا يشبه أن يكون خروجه إلى الرَّبَذة باختياره . وكيف يظنّ عاقل أنّ أبا ذرّ يختار الرَّبذة منزِلًا مع جَدْبها وقَحْطها وبُعْدها عن الخيرات؛ ولم تكن بمنزِل مثله !

فأما قوله : إنه أشفَق عليه من أن يناله بعضُ أهلِ المدينة بمكروه من حيث كان يُغلِظ لهم القول،فليس بشىء ؛ لأنه لم يكن فى أهل المدينة إلا من كان راضيا بقوله ، عاتبا بمثل عتبه ؛ إلّا أنهم كانوا بين مجاهرٍ بما فى نفسه، ومخفٍ ماعنده ؛ وما فى أهلِ المدينة إلّا

من رَثى لأبى ذرّ ممـا حدَث عليـه ، ومن استفظعه ؛ ومَنْ رجع إلى كتب السيرة عرف ماذكرناه .

فأما قوله : إن عمرأخرَج من المدينة نصر بن حجاج،فيابُعْدَ مابين الأمرين!وما كنّا نظن أن أحداً يسوّى بين أبى ذَرّ وهو وَجْهُ الصحابة وعينُهم ، ومَنْ أجمع المسلمون على توقيره وتعظيمه،وأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله مدَحه من صِدْق اللَّهجَة بما لم يمدحْ به أحداً،وبين نصر بن الحجّاج الحدَث الذى كان خاف عمر من افتتان النساء بشبابه؛ولا حَظّ له فى فَضْلٍ ولا دِين!على أنّ عمر قد ذُمّ بإخراجه نَصْر بن الحجاج من غير ذنب كان منه، فإذا كان مَنْ أخرج نصر بن حجاج مذموما ، فكيف مَنْ أخرج أبا ذرّ !

فأما قوله : إنّ الله تعالى والرسول قد ندَبا إلى خفض الجناح ، ولين القول للمؤمن والكافر ، فهو كما قال ؛ إلا أنّ هـذا أدب كان ينبغى أن يتأدّب به عثمان فى أبى ذرّ ، ولا يقابله بالتكذيب ، وقد قطع رسول الله صلى الله عليه وآله على صِدْقه ؛ ولا يسمعه مكروهَ الكلام؛فإنّما نصح له،وأهدى إليه عيوبَه،وعاتبه على مالو نزع عنه لكان خَيْراً له فى الدنيا والآخرة .

* * *

الطعن العاشر :

تعطيلُه الحدّ الواجب على عُبَيدالله بن عُمَرَ بن الخطاب ، فإنه قَتَل الهُرْمُزان مُسْلِما فلم يَقُدْه به ، وقد كان أميرُ المؤمنين عليه السلام يطلُبه لذلك .

قال قاضى القضاة فى الجواب عن ذلك : إنّ شيخنا أبا علىّ رحمه الله تعالى قال : إنّه لم يكن للهُرْمزان ولىّ يطلب بدمه ، والإمام ولِىّ مَنْ لا ولِىّ له ، وللولىّ أن يعفوَ كما له أنْ يقتُل ، وقد رُوِىَ أنّه سأل المسلمين أن يعفُوا عنه ، فأجابوا عنه إلى ذلك .

قال : وإنما أراد عثمانُ بالعفو عنه مايعودُ إلى عزِّ الدين ، لأنّه خاف أن يبلغ العدوَّ قتلُه ؛ فيقال : قَتَلوا إمامهم وقتلوا ولَدَه ولا يعرفون الحـال فى ذلك فيكون فيه شماتة ؛ وقد قال الشيخُ أبو الحسين الخيّاط : إن عامّة المهاجرين أجمعُوا على أنه لا يُقادبالهرمزان، وقالوا لعثمان : هـذا دم سُفِكَ فى غير ولايتك ، وليس له ولّى يطالب به ، وأمْرُهُ إلى الإمام ، فاقْبَل منه الدِّية ، فذلك صلاح للمسلمين .

قال : ولم يثبت أنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام كان يطلبُه ليقتلَه بالهرْمزان ، لأنّه لا يجوز قتلُ مَنْ عفـا عنه ولىّ المقتول ؛ وإنما كان يطلبه ليضعَ من قدره ، ويصغِّر من شأنه .

قال : ويجوز أن يكون مارُوِى عن علىّ عليه السلام من أنه قال : لو كنتُ بدَل عثمان لقتلته ، يعنى أنه كان يرى ذلك أقوَى فى الاجتهاد ، وأقرب إلى التشدد فى دين الله سبحانه .

* * *

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام ، قال :

أماقوله : لم يكن للهرْمزان ولىّ يطلب بدمه ، فالإمام يكون وليّه ، وله أن يعفوَ عنه، كماله أن يقتصّ ؛ فليس بمعتمَد ، لأنّ الهرمزان رجلٌ من أهل فارس ، ولم يكن له ولىّ حاضر يطالب بدمه ، وقد كان الواجب أن يبذَل الإنصاف لأوليائه ويؤمّنوا مَتَى حضروا، حتى إنه لو كان له ولىّ يريد المطالبة حضر وطالب . ثم لو لم يكن له ولىّ لم يكنْ عثمان ولىّ دمه ، لأنه قُتِل فى أيام عمر ، فصار عمر ولىّ دمه ، وقد أوصى عمر على ماجاءت به الروايات الظاهرة بقتل ابنه عبيدالله إن لم تقم البيّنة العادلة على الهرْمزان وجُفَينة ،⁽¹⁾ أنهما أمرا أبالؤلؤة غلامَ المغيرة بن شعبة بقتله ، وكانت وصيتُه بذلك إلى أهل الشورى ، فقال : أيُّكم ولّى هذا الأمر فليفعل كذا وكذا مما ذكرناه، فلما مات عُمر ، طلب المسلمون إلى عثمان إمضاء

---

(١) جفينة ؛ كان نصرانيا من أهل الحيرة وكان ظئرا لسعد بن أبي وقاص ؛ أقدمه إلى المدينة للصلح الذى بينه وبينهم ؛ وليعلم بالمدينة الكتاب . تاريخ الطبرى ٥ : ٤٢ .

الوصيّة في عبيد الله بن عمر ، فدافع عن ذلك وعلّلهم ؛ ولو كان هو وليّ الدم على ما ذكروا لم يكن له أن يعفوَ وأن يُبطِل حدًّا من حدود الله تعالى ، وأيّ شماتة للعدوّ في إقامة حدّ من حدود الله تعالى ! وإنما الشماتةُ كلّها من أعداء الإسلام في تعطيل الحدود . وأيّ حرَج في الجمع بين قتل الإمام وابنه ، حتى يقال : كَرِه أن ينتشر الخبرُ بأنّ الإمام وابنه قُتلا ، وإنما قُتِل أحدُهما ظالما ، والآخر عَدْلا ، أو أحدهما بغير أمرِ الله ، والآخر بأمره سبحانه!

وقد روى زياد بن عبد الله البَكائيّ عن محمد بن إسحاق عن أبان بن صالح أنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام أتى عثمان ؛ بعد ما استخلف ، فكلّمه في عُبيد الله ولم يكلّمْه أحدٌ غيره ؛ فقال : اقتلْ هذا الفاسقَ الخبيثَ الذي قتل أميرا مسلما ؛ فقال عثمان : قتلوا أباه بالأمس ، وأقتله اليوم ! وإنما هو رجلٌ من أهل الأرض ؛ فلما أبى عليه مرّ عُبيد الله على عليّ عليه السلام ، فقال له : إيهٍ يا فاسق! أما والله لئن ظفرتُ بك يوماً من الدهر لأضربنّ عنقك؛ فلذلك خرج مع معاوية عليه .

وروى القنّاد ، عن الحسن بن عيسى بن زيد ، عن أبيه ، أنّ المسلمين لما قال عثمان: إني قد عفوتُ عن عبيد الله بن عمر ، قالوا : ليس لك أن تعفوَ عنه ، قال : بلى إنه ليس لجُفينة والهُرْمُزان قرابة من أهل الإسلام ؛ وأنا وليّ أمر المسلمين ، وأنا أولى بهما ، وقد عفوتُ ، فقال عليّ عليه السلام: إنه ليس كما تقول، إنما أنت في أمرهما بمنزلة أقصى المسلمين؛ إنه قتلهما في إمرة غيرك ، وقد حكم الوالي الذي قُتِلا في إمارته بقتله ؛ ولو كان قتلهما في إمارتك لم يكن لك العفو عنه ، فاتق الله ؛ فإنّ الله سائلُك عن هذا ! فلما رأى عثمان أنّ المسلمين قد أبوْا إلا قتلَ عبيد الله ، أمره فارتحل إلى الكوفة ، وأقطعه بها دارا وأرضا ؛ وهي التي يقال لها : كُوَيفة[1] ابن عمر ، فعظُم ذلك عند المسلمين وأكبروه ؛ وكثر كلامهم فيه .

---

(١) الكويفة ، ذكرها ياقوت ، فقال : « كويفة ابن عمر منسوبة إلى عبيد الله بن عمر بن الخطاب ؛ نزلها حين قتل بنت أبي لؤلؤة والهرمزان وجفينة العبادي » . معجم البلدان ٧ : ٣٠٤ .

وروِىَ عن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علىّ بن أبى طالب عليه السلام أنه قال: ما أمسى عثمان يَوْمَ وَلِى حتى نقَموا عليه فى أمر عبيد الله بن عمر ؛ حيث لم يقتله بالُهرمزان.

فأما قوله : إنّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يطلبه ليقتلَه ؛ بل ليضَع من قَدْره ؛ فهو بخلاف ما صرّح به عليه السلام من أنّه إن تمكن لَيضرِبنّ عنقه .

وبعد ؛ فإن ولىّ الدم إذا عَفَا عنه على ماادَّعَوْا لم يكن لأحدٍ أن يستخفّ به ، ولا يضعَ من قدرِه كما ليس له أن يقتله .

وأما قوله: إن أمير المؤمنين عليه السلام لا يجوزُ أن يتوعّده مع عفو الإمام عنه؛ فإنما يكون صحيحاً لو كان ذلك العفو مؤثرا ؛ وقد بيّنا أنه غير مؤثر .

وأما قوله : يجوز أن يكون عليه السلام رأى أنّ قتله أقوى فى الاجتهاد، وأقربُ إلى التشدد فى دين الله ؛ فلا شكّ أنه كذلك ، وهذا بناء منه على أنّ كلّ مجتهد مصيب ؛ وقد بينا أنّ الأمر بخلاف ذلك ؛ وإذا كان اجتهاد أمير المؤمنين عليه السلام يقتضى قتلَه ، فهو الذى لا يسوغُ خلافُه .

* * *

الطعن الحادى عشر

وهو إجمالىّ ؛ قالوا : وجدنا أحوالَ الصحابة دالَّةً على تصديقهم المطاعِنَ فيه ، وبراءتهم منه ؛ والدليل على ذلك أنّهم تركوه بعد قتلِه ثلاثة أيام لم يدفنوه، ولا أنكروا على مَنْ أجلب عليه من أهل الأمصار ؛ بل أسلموه ولم يدفعوا عنه ؛ ولكنّهم أعانوا عليه، ولم يمنعوا من حَصْره ولا من مَنْع الماء عنه ؛ ولا من قَتْلِه ، مع تمكّنهم من خلاف ذلك، وهذا من أقوى الدّلائل على ماقلْناه ؛ ولو لم يدلّ على أمره عندهم إلاماروى عن علىّ عليه السلام أنه قال : الله قتله وأنا معه ، وأنّه كان فى أصحابه عليه السلام مَنْ يصرّح بأنّه قتل

عثمان ؛ ومع ذلك لا يُقيدهم بل ولا ينكر عليهم ، وكان أهلُ الشام يصرِّحون بأن مع أمير المؤمنين قتلةَ عثمان ، ويجعلون ذلك مِنْ أوكد الشُّبه ، ولا ينكر ذلك عليهم ؛ مع أنّا نعلم أن أمير المؤمنين عليه السلام لو أراد أن يتعاضد هو وأصحابُه على المنع عنه لما وقع في حقه ماوقع ؛ فصار كَفُّهُ وكفُّ غيره عن ذلك من أدلّ الدلائل على أنّهم صدّقوا عليه مانسب إليه من الأحداث ؛ وأنهم لم يقبلوا منه ماجعله عذرا .

وأجاب قاضى القضاة عن هذا ، فقال :

أما تركه بعد القتل ثلاثة أيام لم يدفن فليس بثابت ، ولو صح لـكان طعنا على مَنْ لزمه القيامُ به ، وقد قال شيخنا أبو عَلِيّ رحمه الله تعالى : إنّه لا يمتنع أن يشتغلوا بإبرام البيعة لأمير المؤمنين عليه السلام خَوْفًا على الإسلام من الفتنة ، فيؤخروا دفنَه .

قال : وبعيدٌ مع حضورِ قريش وقبائل العرب وسائر بنى أمية ومواليهم أن يُترَك عثمان ولا يُدفَن هذه المدة ، وبعيدٌ أن يكونَ أمير المؤمنين عليه السلام لا يتقدّم بدفنه ، ولو مات فى جواره يهودى أو نصرانى ولم يكن له مَنْ يواريه ماتركه أمير المؤمنين ألّا يدفن ، فكيف يجوز مثل ذلك فى عُثمان ؛ وقد رُوِىَ أنه دفن فى تلك الليلة ؛ وهذا هو الأولى .

فأمّا التعلق بأنّ الصحابة لم تنكر على القوم ، ولا دفعت عنه ، فقد سبق القول فى ذلك ؛ والصحيحُ عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه تبرّأ من قَتْلِ عثمان ، ولَعَن قَتَلته فى البرّ والبحر والسّهل والجبل ؛ وإنما كان يجرى من جيشه هذا القول منه على جهة المجاز ؛ لأنّا نعلمُ أنّ جميعَ مَنْ كان يقول : نحن قتلناه لم يقتُله ؛ لأن فى الخبر أنّ العدد الـكثير كانوا يصرِّحُون بذلك ؛ والذين دخلوا عليه وقتلوه اثنان أو ثلاثة ؛ وإنما كانوا يقصدون بهذا القول ؛ أى احسبوا أنّا قتلناه فما لـكم ! وذلك أنّ الإمام هو الذى يقوم بأمر القَوَد ، وليس للخارج عليه أنْ يطالب بذلك ؛ ولم يكن لأمير المؤمنين عليه السلام أن يقتلَ قتلَته لو عرَفهم ببيّنة أو إقرار ، وميّزهم من غيرهم إلا عندَ مطالبة ولىّ الدم ، والذين كانو أولياء

الدّم لم يكونوا يطالبونه ، ولا كانتْ صفتهم صفة مَنْ يطالب ؛ لأنهم كانوا كلّهم أو بعضهم يدّعون أنّ عليا عليه السلام ليس بإمام ، ولا يحلّ لوليّ الدم مع هذا الاعتقاد أنّ يطالب بالقَوَد ، فلذلك لم يقتلهم عليه السلام ؛ هذا لو صَحّ أنه كان يميّزهم ، فكيف وذلك غير صحيح .

فأما مارُوِيَ عنه من قوله عليه السلام : « قتله الله وأنا معه » ! فإنْ صحّ فمعناه مستقيم ؛ يريد أنّ الله أماته وسيميتني وسائر العباد .

ثم قال سائلا نفسه : كيف يقول ذلك وعثمان ماتَ مقتولا من جهة المكلّفين ! وأجاب بأنّه وإن قُتِل ، فالإماتة من قِبَل الله تعالى . ويجوز أنْ يكون مانالَه من الجراح لا يوجِبُ انتفاء الحياة لا محالة ، فإذا مات صَحّت الإماتة على طريق الحقيقة .

***

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام فقال .

أما تضعيفُه أن يكونَ عثمانُ تُرِكَ بعد القَتْل ثلاثة أيام لم يُدْفن ؛ فليس بحجة ؛ لأنّ ذلك قد رَواه جماعةُ الرواة ، وليس يخالف في مثله أحدٌ يعرّف بالرواية ؛ وقد ذكر ذلك الواقديّ وغيره ؛ وروى أنّ أهل المدينة مَنَعُوا الصلاة عليه ، حتى حُمِل بين المغرب والعَتمة ، ولم يشهد جَنازته غير مَرْوان وثلاثة من مواليه ، ولما أحسّوا بذلك رَمَوْه بالحجارة وذكروه بأسوأ الذّكر ، ولم يقع التمكّنُ من دَفْنه إلا بعد أن أنكر أمير المؤمنين عليه السلام المنع من دَفْنه ، وأمر أهله بتولّي ذلك منه .

فأما قوله : إنّ ذلك إن صحّ كان طعناً على مَنْ لزمه القيامُ بأمره ، فليس الأمرُ على ماظنه ، بل يكون طعنا على عثمان من حيث لا يجوز أن يمنَع أهل المدينة ـ وفيها وجوهُ الصحابة ـ من دَفْنه والصلاة عليه إلا لاعتقادٍ قبيح ؛ أو لأنّ أكثرهم وجمهورهم يعتقد ذلك ؛ وهذا طعن لا شُبْهَة فيه ؛ واستبعاد صاحب "المغني" لذلك ؛ مع ظهور الرواية به

لا يلتفت إليه ؛ فأما أميرُ المؤمنين عليه السلام واستبعاد صاحب " المغنى " منه ألّا يتقدم بدفنه ؛ فقد بيّنا أنّه تقدم بذلك بعد مماكسة ومراوضة. وأعجب من كلّ شيء قولُ صاحب " المغنى " : إنهم أخّرُوا دفنه تشاغلا بالبَيْعة لأمير المؤمنين عليه السلام ؛ وأىّ شُغل فى البيعة لأمير المؤمنين يمنع من دَفْنه، والدفن فرضٌ على الكفاية، لو قام به البعضُ وتشاغل الباقون بالبيْعة لجاز ! وليس الدّفنُ ولا البيعة أيضا مفتقرة إلى تشاغل جميع أهل المدينة بها.

فأما قوله: إنّه قد رُوِىَ أنّ عثمان دُفِن تلك الليلة، فما نُعرَفُ هذه الرواية ؛ وقد كان يجب أن يُسندها وَ يعزُوَها إلى راويها، أو الكتاب الذى أخذها منه؛ فالذى ظَهر فى الرواية هو ماذكرناه.

فأمّا إحالته على ماتقدّم فى معنى الإنكار من الصّحابة على القوم المجْلِبين على عثمان؛ فقد سبق القول فى ذلك.

فأما روايته عن أمير المؤمنين عليه السلام تبرؤه من قتل عثمان، ولعنه قَتَلَته فى البرّ والبحر، والسهل والجبل؛ فلا شكّ فى أنّه عليه السلام كان بريئا من قتله، وقد روى عنه عليه السلام أنه قال: والله ماقتلتُ عثمان، ولا مالأت فى قتله ؛ والمالأة هى المعاونة والموازرة، وقد صدق عليه السلام فى أنّه ماقتَل ولا وَازر على القتل.

فأما لعنهُ قَتَلَته[1] فضعيف فى الرواية، وإن كان قد رُوِى؛ فأظهر منه مارواه الواقدىّ، عن الحكَم بن الصَّلْت، عن محمد بن عمار بن ياسر، عن أبيه، قال: رأيتُ عليًّا عليه السلام على مِنبر رسول الله صلى الله عليه وآله حِينَ قُتِل، وهو يقول: ما أحببتُ قَتله ولا كرِهتُه، ولا أمرت به، ولا نهيت عنه.

وقد روى محمد بن سعد، عن عفّان بن جرير بن بشير، عن أبى جَلْدة، أنّه سمع عليًّا

---

(١) ا، ج: « قتلة عثمان »

عليه السلام، يقول وهو يخطب ، فذكر عثمان ، وقال : والله الذى لا إله إلا هو ؛ ماقتلتُه ولا مالأتُ على قتله ولا ساءنِى [1] .

وروى ابن بشير ، عن عُبيدة السلمانىّ ، قال : سمعت عليًا عليه السلام يقول : مَنْ كان سائلى عن دم عثمان ؛ فإنّ الله قتله وأنا معه . وقد رُوِىَ هذا اللفظ من طُرُق كثيرة .

وقد روى شعبة عن أبى حمزة الضّبعىّ ، قال : قلتُ لابن عباس : إنّ أبى أخبرنى أنه سمع عليًا ، يقول : ألَا مَنْ كان سائلى عن دم عثمان ، فإنّ الله قتله وأنا معه ــ فقال : صدق أبوك ؛ هل تدرى ما معنى قوله ! إنما عَنَى : الله قتله وأنا مع الله .

قال : فإن قيل : كيف يصحّ الجمع بين معانى هذه الأخبار ؟

قلنا : لا تنافىَ بينها ، لأنه عليه السلام تبرّأ من مباشرة قتله والمؤازرة عليه ، ثم قال: ما أمرتُ بذلك ولا نهيتُ عنه ؛ يريد أن قاتِليه لم يرجِعُوا إلىّ ، ولم يكن منّى قول فى ذلك بأمر ولا نهى . فأما قوله : « الله قتله وأنا معه » ، فيجوز أن يكون المراد به : الله حَكَم بقتله وأوجبه وأنا كذلك ؛ لأنّ من المعلوم أنّ الله تعالى لم يقتله على الحقيقة ، فإضافةُ القتل إليه لا تكون إلا بمعنى الُحكم والرّضا ؛ وليس يمتنع أنْ يكونَ مِمّا حكم الله تعالى به ، مالم يتولّه بنفسه ، ولا آزر عليه ، ولا شايع فيه .

فإن قال قائل : هذا ينافِى مارُوِى عنه من قوله : « ما أحببت قتلَه ، ولا كرهتُه »، وكيف يكون مِنْ حُكْم الله وحكمه أن يُقتل وهو لا يحبّ قَتْله !

قلنا : يجوز أن يريد بقوله : «ما أحببت قتله ولا كرهته» أنّ ذلك لم يكن منّى على سبيل التفصيل،ولا خطر لى ببال؛ وإن كان على سبيل الُجملة يحبّ قتل مَنْ غاب المسلمين

---

(١) كذا فى ا ، ج ، والشافى ، وفى ب : « ولا سأل » .

على أمورهم، وطالبوه بأن يعتزل، لأنه [(١] مستولٍ عليهم بغير حق [١)] فامتنع من ذلك، ويكون فائدة هذا الكلام التبرؤ من مباشرة قتله، والأمر به على سبيل التفصيل أو النهي عنه. ويجوز أنْ يريد أنني ما أحببتُ قتله ؛ إن كانوا تعمّدوا القتل؛ ولم يقع على سبيل الممانعة وهو غير مقصود . ويريد بقوله : « ما كرهتُه » أنّي لم أكرهه على كل حال ، ومن كلّ وجه .

فأما لعنه قتلَتَه فقد بيّنّا أنّه ليس بظاهر ظهور ماذكرناه ؛ وإن صحّ فهو مشروط بوقوع القتل على الوجه المحظور من تعمّدٍ له ، وقصدٍ إليه وغير ذلك؛ على أن المتولّيَ للقتل على ماصحّت به الرواية كنانة بن بَشير التُّجِيبيّ ، وسُودان بن حمران المراديّ ؛ وما منهما مَنْ كان غرضُه صحيحا في القتل ، ولا له أن يقدم عليه ، فهو ملعون به . فأما محمدُ بن أبي بكر ؛ فما تولى قتْله؛ وإنما رُوِي أنّه لما جثا بين يديه قابضا على لحيته ، قال له : ياابن أخي؛ دَعْ لحيتي ؛ فإن أباك لو كان حيًّا لم يقعدْ مني هذا المقْعد ؛ فقال محمد : إن أبي لو كان حيًّا ثم يراك تفعل ماتفعل لأنكره عليك ، ثم وجأه [(٢)] بجماعة قِدَاح كانت في يده فحزّت في جِلْده ولم تَقْطَع ، وبادره مَنْ ذكرناه في قتله بما كان فيه قتلُه .

فأما تأويله قول أمير المؤمنين عليه السلام: «قتلَه الله وأنا معه» ؛ على أنّ المراد به؛ الله أماته وسيُميتني؛ فبعيد من الصواب، لأن لفظة « أنا » لا تكونُ كناية عن المفعول، وإنما تكون كناية عن الفاعل ؛ ولو أراد ماذكره لكان يقول : « وإياي معه » ؛ وليس له أن يقول : إنّنا نجعل قوله : « وأنا معه » مبتدأ محذوف الخبر ، ويكون تقدير الكلام: « وأنا معه مقتول » ؛ وذلك لأنّ هذا ترك للظاهر وإحالة على ماليس فيه ؛ والكلام إذا أمكن حملُه على معنى يستقلّ ظاهرُه به من غير تقدير وحذف كان أوْلَى مما يتعلّق بمحذوف؛ على أنّهم إذا جعلوه مبتدأ وقدّروا خبراً لم يكونوا بأنْ يقدِّرُوا مايوافق مذهبَهم بأوْلى من تقدير خلافه، ويجعل بدلا من لفظة «المقتول» المحذوفة لفظة «مُعين» أو «ظهير».

(١ ــ ١) ب : « لأنه مستول عليه بحق » وما أثبته من ا ، ج وكتاب الشافي .
(٢) وجأه : ضربه .

وإذا تكافأ القولان فى التقدير وتعارضا سَقَطا، ووجب الرجوع إلى ظاهر الخبر ؛ على أنّ عثمان مضى مقتولا ، فكيف يقال : إنّ الله تعالى أماته ، والقتل كافٍ فى انتفاء الحياة ؛ وليس يحتاج معه إلى نافٍ للحياة يسمى موتا .

وقول صاحب " المغنى " : يجوز أن يكون ما ناله من الجراح لا يوجب انتفاء الحياة ؛ ليس بشىء ؛ لأنّ المروىّ أنه ضُرِب على رأسه بعمود عظيم من حديد ، وأنّ أحدَ قَتلته قال : جلست على صدره فوجأته تسع طعنات ، علمت أنه مات فى ثلاث ، ووجأته السّتّ الأُخَر لما كان فى نفسى عليه من الحَنَق .

وبعد : فإذا كان جائزا ، فمن أين عَلِمَ أمير المؤمنين عليه السلام حتى يقول : إن الله أماته ؟ وإنّ الحياة لم تَنْتَفِ بما فعله القاتلون[1] ، وإنما انتفت بشىء زاد على فعلهم من قِبَل الله تعالى مِمّا[2] لا يعلمه على سبيل التفصيل إلّا علّامُ الغيوب سبحانه .

* * *

والجوابُ عن هذه المطاعن على وجهين ؛ إجمالًا وتفصيلا :

أما الوجه الإجمالىّ ، فهو أننا لا نُنكر أنّ عثمان أحْدَث أحداثاً أنكرَها كثيرٌ من المسلمين ، ولكنا ندّعى مع ذلك أنّها لم تبلغْ درجة الفِسْق ، ولا أحبطَتْ ثوابَه ، وأنّها من الصغائر التى وقعت مكفَّرة[3] ؛ وذلك لأنّا قد علمنا أنه مغفور له ، وأنه مِنْ أهل الجنة لثلاثة أوجه :

أحدُها : أنّه من أهل بَدْر ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إنّ الله اطّلع على أهل بَدْر ، فقال : اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم » ؛ ولا يقال : إن عثمانَ لم يشهَدْ بدْراً ؛ لأنا نقول : صدقتم ، إنه لم يشهدْها ، ولكنه تخلّف على رُقَيّة ابنة رسول الله

---

(١) الشافى : « القتلة » ، وفى ب : « القاتلون » تحريف .
(٢) كذا فى ا ، ج والشافى ، وفى ب : « فيما » .
(٣) الصغائر المكفرة : التى يمحى إثمها .

صلى الله عليه وآله بالمدينة لمرضها،وضرب له رسول الله صلى الله عليه وآله بسَهْمِهِ وأجْرِه باتفاق سائر الناس .

وثانيها : أنه من أهل بَيْعة الرضوان الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ (١) . ولا يقال : إنه لم يشهد البَيْعة تحت الشجرة ، لأنّا نقول : صدقتم ، إنه لم يشهدها،ولـكنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسَله إلى أهل مكة ، ولأجله كانت بيعةُ الرضوان ، حيث أُرْجِفَ (٢) بأن قريشا قتلتْ عثمان،فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : «إن كانوا قَتَلُوه؛لأضرِمَنّها عليهم نارا» ؛ ثم جلس تحت الشجرة ، وبايع الناسَ على الموت ، ثم قال : « إن كان عثمان حيا فأنا أبايع عنه »،فصفح بشماله على يمينه ، وقال:«شمالى خير من يمين عثمان» روى ذلك جميعُ أرباب أهل السيرة متفقا عليه .

وثالثها : أنه من جملة العشرة الذين تظاهرت الأخبار بأنهم من أهل الجنّة .

وإذا كانت الوجوهُ الثلاثة دالةً على أنه مغفور له،وأنّ الله تعالى قد رَضِيَ عنه؛وهو من أهل الجنّة،بطل أن يكونَ فاسقا؛لأن الفاسق يخرُج عندنا من الإيمان ، ويُحْبَطُ (٣) ثوابه، ويُحْـكم له بالنار ولا يُغفر له ، ولا يُرضَى عنه ، ولا يرَى الجنة ولا يدخلها ، فاقتضتْ هذه الوجوه الصحيحة الثابتة أنْ يُحْـكَم بأنّ كلّ ماوقع منه فهو من باب الصغائر المكفَّرة ، توفيقًا بين هذه الوجوه ، وبين روايات الأحداث المذكورة .

وأما الوجه التفصيليّ فهو مذكور فى كتب أصحابنا المطوّلة فى الإمامة ؛ فليُطْلَبْ من مَظانّه ، فإنهم قد استقصَوْا فى الجواب عن هذه المطاعن استقصاء لامزيد عليه .

---

(١) سورة الفتح ١٨

(٢) يقال : أرجف القوم ؛ إذا خاضوا فى الأخبار السيئة وذكر الفتن على أن يوقعوا الناس فى الاضطراب.

(٣) ب ، ج : « ينحبط » ، وما أثبته عن ا .

[بيعة جرير بن عبد الله البَجَلِيّ لعليّ]

فأما خبر جرير بن عبد الله البَجَلِيّ، وبعث أمير المؤمنين عليه السلام إياه إلى معاوية، فنحن نذكره نقلا من "كتاب صِفّين" لنصر بن مُزاحم بن بَشّار المِنقرى؛ ونذكر حالَ أميرِ المؤمنين عليه السلام، منذ قَدِم الكوفة بعد وقعة الجمل، ومراسلته معاوية وغيره، ومراسلة معاوية له ولغيره، وما كان من ذلك فى مبدأ حالهما إلى أن سار علىّ عليه السلام إلى صفين.

قال نصر [(١)]: حدّثنى محمد بن عُبيدالله عن الجرجانىّ، قال: لما قَدِم علىّ عليه السلام الكوفة بعد انقضاء أمْرِ الجمل، كاتَب العمّال، فكتب إلى جرير بن عبدالله البَجَلىّ مع زَحْر بن قيس الجُعْفىّ - وكان جرير عاملا لعثمان على ثغر هَمَذان - [(٢)]:

أما بعد، فـ ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴾ [(٣)]. وإنى أخبرك عن نبإ [(٤)] مَنْ سرنا إليه من جُموع طلحة والزبير، عند نكْثهم بيعتى [(٥)]، وماصنعوا بعاملى عثمان ابن حُنَيف. إنّى نهضت من المدينة بالمهاجرين والأنصار؛ حتى إذا كنت بالعُذَيب [(٦)]، بعثتُ إلى أهل الكوفة الحسنَ بن علىّ، وعبدَ الله بن عباس، وعمّار بن ياسر، وقيس ابن عبادة، فاستنفرتُهم فأجابوا، فسِرْت بهم حتى نزلت بظهر البصرة، فأعذرت فى

---

(١) وقعة صفين للمنقرى ص ١٩ وما بعدها.
(٢) همذان؛ بالإعجام: مدينة ببلاد الجبال من فارس.
(٣) سورة الرعد ١١.
(٤) ب: «أنباء».
(٥) كتاب صفين: «بيعتهم».
(٦) العذيب: ماء عن يمين القادسية لبنى تميم، بينه وبين القادسية أربعة أميال (مراصد الاطلاع).

الدعاء ، وأقلتُ العثرة ، وناشدتهم عهدَ[1] بيعتهم ؛ فأبوْا إلا قتالى ، فاستعنتُ الله عليهم ، فقتِل مَنْ قتل ، وولّوا مدبرين إلى مصرهم ، وسألونى ما كنتُ دعوتهم إليه قبل اللقاء ، فقبلت العافية ، ورفعتُ السيف ، واستعملت عليهم عبدَ الله بن العباس ، وسرتُ إلى الكوفة ؛ وقد بعثت إليك زَحْر بن قيس ، فاسأله عمّا بدا لك . والسلام .

قال : فلما قرأ جريرٌ الكتاب ، قام فقال : أيها الناس ، هذا كتاب أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب عليه السّلام ؛ وهو المأمون على الدّين والدنيا ، وقد كان من أمْرِه وأمر عدوّه ما تَحْمَدُ الله عليه ، وقد بايعه الناس الأولون من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان ، ولو جُعِل هذا الأمر شورى بين المسلمين كان أحقّهم بها . ألا وإنّ البقاء فى الجماعة ، والفَناء فى الفُرقة ، وإنّ عليًا حاملُكم على الحق ما استقمتم ؛ فإنْ ملتم أقام ميلَكم .

فقال الناس : سمعا وطاعة ، رضينا رضينا .

فكتب جرير إلى علىّ عليه السلام جواب كتابه بالطاعة .

* * *

قال نصر : وكان[2] مع علىّ رجل من طيّء ، ابن أخت لجرير ، فحمّل زَحر بن قيس شعراً له إلى خاله جرير ؛ وهو :

جَريرَ بن عبدِ الله لا تردُدِ الهدَى ... وبايع عليًّا إننى لك ناصِحُ

فإنّ عليًّا خيرُ مَنْ وطِئَ الحصا ... سوى أحمدٍ ، والموت غادٍ ورائحُ

وَدَعْ عنك قولَ النّاكثين فإنما ... أولاك ـ أبا عَمْرو ـ كلابٌ نوابحُ[3]

وبايعْ إذا بايعتَه بنصيحةٍ ... وَلَا يَكُ مِنْها فى ضَميرك قادِحُ

فإنك إنْ تطلُبْ بها الدين تُعْطَهُ ... وإن تطلب الدنيا فإنك رابحُ[4]

---

(١) صفين « عقد » .

(٢) صفين : ٢٠ ، ٢١ .

(٣) أبو عمرو ، كنية جرير بن عبد الله البجلى .

(٤) وقعة صفين : « فبيعك رابح » .

وإن قلتَ عثمان بن عفان حقُّــــه … عليَّ عظيمٌ والشكورُ مُناصِحُ
فحقُّ عليٍّ إذ وَلِيــــكَ كَحَقِّهِ … وشكرك ما أوليتَ فى النَّاسِ صالِحُ
وإن قلت لا أرضى عليًّا إمامَنــا … فدعْ عنك بحراً ضلَّ فيه السوابحُ
أبى الله إلا أنهُ خـــيرُ دَهْرِهِ … وأفضل مَنْ ضُمَّتْ عَلَيْهِ الأباطحُ[1]

***

قال نصر : ثم إن جريراً قام فى أهل هَمَذان خطيبا ، فقال : الحمد لله الذى اختار لنفسه الحمد ، وتولّاه دون خَلْقه ؛ لا شريكَ له فى الحمد ، ولا نظير له فى المجْد ، ولا إله إلا الله وَحْدَه ، الدائم القائم ، إله السماء والأرض ؛ وأشهدُ أنّ محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالنور الواضح ، والحق الناطق ؛ داعياً إلى الخير ، وقائدا إلى الهُدَى ، ثم قال : أيّها الناس ؛ إنّ عليا قد كتبَ إليكم كتابا لا يقال بعده إلا رجيعٌ من القول ، ولكنْ لا بدّ من ردّ الكلام . إن الناس بايعوا عليا بالمدينة عَنْ غيرِ محاباة له ببيعتهم ؛ لعلمه بكتاب الله وسنن الحق ؛ وإنّ طلحة والزُّبيرَ نقضا بيعتَه على غير محاباة حدثتْ[2] ، وألّبا عليه الناس ، ثم لم يرضَيا حتى نَصَبا له الحرب ، وأخرجا أمَّ المؤمنين ، فلقيَهما فأعذر فى الدعاء ، وأحسن فى البقيّة ، وحَمَل الناس على ما يعرفون ، فهذا عِيان ما غاب عنكم ؛ وإن سألتم الزيادة زدناكم ، ولا قوة إلا بالله ، ثم قال :

أتانا كِتابُ عَــلِيٍّ فلَمْ … نَرُدَّ الكتاب بأرضِ العجَمْ
ولَمْ نَعْصِ ما فيهِ لمّا أتى … ولَمْــا نُذَمّ ولَمّا نُلَمْ
ونَحْنُ وُلاةٌ على ثغرِنَا … نَضيمُ العزيزَ ونَحْمِى الذِّمَمْ
نُساقِيهمُ الموتَ عِنْد اللقاء … بكأسِ المنايا ونَشْفِى القرَمْ

---

(١) يريد بهم قريش البطاح ؛ وهم الذين ينزلون بين أخشبى مكة ؛ والأخشبان جبلان بها .

(٢) ب : « على غير حدث » .

فصلى الإلهُ على أحمـــدٍ رسولِ المليكِ تمامِ النِّعَمْ[1]
رسولِ المليكِ ومَنْ بعــده خليفتنا القـــائم المدَّعَمْ
عَليًّا عنيتُ وصيَّ النبيِّ نُجالدُ عنه غُواةَ الأُمَمْ
له الفَضْلُ والسَّبْقُ والمكرُماتُ وبيت النبوَّة لا يُهْتَضَمْ

قال نصر : فسرَّ الناسُ بخطبة جرير وشعره .

وقال ابن الأزور القَسْرِيّ في جرير يمدحه بذلك :

لَعَمْرُ أبيكَ والأنبـاء تَنْمِي لقَدْ جَــلَّى بخطبتِهِ جَرِيرُ
وَقَالَ مقـالةً جَدَعَتْ رِجَالاً من الحَيَّيْنِ خطبهمُ كَبيرُ
بدا بِكَ قبـــلَ أمته عليٌّ وَمُخُّكَ إنْ رَدَدْتَ الحَقَّ رِيرُ[2]
أتاكَ بأمرِهِ زَحْرُ بن قَيْسٍ وزَحْرٌ بالتي حَدَّثْتَ خَبِيرُ
فكُنْتَ لما أتاكَ به سَنِيماً وكِدتَ إليه من فَرَحٍ تطيرُ
فأنت بمـا سعدتَ به وليٌّ وأنت لمـا تعدُّ له نصيرُ
وأحرزتَ الثَّوابَ ورُبَّ حادٍ حَدَا بالرَّكْبِ ليس له بعيرُ[3]

[بيعة الأشعث لعليّ]

قال نصر:[4] وكتب عليٌّ عليه السلام إلى الأشعث ـ وكان عاملَ عثمان على أذْرَبيجان ـ

---

(١) لم يذكر هذا البيت في كتاب صفين ، وذكر موضعه :

طَحَنَّاهُمُ طَحْنَـــةً بالقَنَا وَضَرْبِ سُيوفٍ تُطِيرُ اللِّمَمْ
مَضَيْنَا يقيناً على دِينِنـــا ودينِ النبيِّ مُجَلِّي الظُّلَمْ
أمينِ الإلهِ وَبُرْهَانِهِ خليفتِنا القـــائمِ المدَّعَمْ

(٢) يقال : مخ رير ، إذا كان فاسدا .

(٣) بعده في كتاب صفين :

لِيَهْنِكَ ما سَبَقْتَ بِهِ رِجالاً من العلياء والفضلِ الكبيرِ

(٤) وقعة صفين ٢٤ .

عوه إلى البَيْعة والطاعة ، وكتَبَ جرير بن عبد الله البجليّ إلى الأشعث ، ، يحضهّ على طاعة أمير المؤمنين عليه السلام ، وقبولِ كتابه : أما بَعْد ؛ فإنى أتتنِى بَيْعة علىّ ، فقبلتها ولم أجِدْ إلى دفعها سبيلا ؛ لأنى نظرتُ فيا غابَ عَنّى من أمر عثمان، فلم أجدْه يلزمنى، وقد شهد المهاجرون والأنصار ؛ فكان أوفقُ أمرهم فيه الوقوف ؛ فاقْبَلْ بيعَته ؛ فإنك لاتنقلِب إلى خير منه ؛ واعلم أنّ بيعةَ علىّ خيرٌ من مَصَارع أهل البصرة . والسلام .

قال نصر : فقبل الأشعثُ البيعة ، وسمِع وأطاع ، وأقبل جريرٌ سائرا من ثَغْر همذان حتى وَرَد علىٌ عليه السلام الكوفة فبايعه ، ودخل فيما دخل فيه الناس من[1] طاعته ولزوم أمره .

[دعوة علىّ معاويةَ إلى البيعة والطاعة ، وردّ معاوية عليه]

قال نصر :[2] فلما أرادَ علىّ عليه السلام أن يبعث إلى معاوية رسولاً ، قال له جرير : ابعثنى يا أمير المؤمنين إليه ؛ فإنه لم يزَلْ لى مُسْتخصِا[3] ووُدًّا[4] ، آتيه[5] فأدعوه ؛ على أنْ يسلّم لك هذا الأمر ، ويجامعك على الحق ، على أن يكون أميرا من أمرائك ، وعاملا من عُمّالك ، ما عمِل بطاعة الله ، واتبع ما فى كتاب الله ، وأدعُو أهلَ الشام إلى طاعتك وولايتك ؛ فجلّهم قومى وأهلُ بلادى ، وقد رجوت ألاّ يعصونى .

فقال له الأشتر : لاتبعثْه ولاتصدّقه ؛ فوالله إنى لأظنّ هواهُ هواهم ، ونيّته نيّتهم .

فقال له علىّ عليه السلام : دعْه حتى ننظر مايرجع به إلينا . فبعثه على عليه السلام ، وقال له عليه السلام حين أراد أن يبعثه : إنّ حولى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم من أهل الرأى والدِّين مَنْ قد رأيت ، وقد اخترتُك عليهم لقولِ رسول الله فيك :

(١) ب : « ى » .
(٢) وقعة صفين المنقرى ٣٢ وما بعدها .
(٣) كذا فى الأصول ، وفى صفين . « مستنصحاً » .
(٤) ودا ، بضم الواو ؛ أى ذا ود ؛ على حذف المضاف .
(٥) كتاب صفين . « نأتيه » .

« إنك من خير ذى يَمَن »[1] ، ائت معاوية بكتابى ، فإن دخل فيما دخل فيه المسلمون ، وإلا فانْبِذْ[2] إليه وأعلِمْه أنى لا أرضى به أميرا ، وأنّ العامّة لا ترضى به خليفة .

فانطلق جرير حتى أتى الشامَ ، ونزل بمعاوية ، فلما دخل عليه حمِد الله وأثنى عليه ، وقال : أمّا بعد يامعاوية ، فإنه قداجتمع لابن عمّك أهلُ الحرَمين ، وأهلُ المِصْرين ، وأهل الحجاز ، وأهل اليمن ، وأهل مِصْر ، وأهل العَروض ، والعَروض عُمَان ـ وأهلُ البحرين واليمامة ؛ فلم يبق إلّا هذه الحصون التى أنت فيها ، لو سال عليها سيل من أوديته غرّقها ، وقد أتيتُك أدعوك إلى مايرشدُك ويهديك إلى مبايعة هذا الرجل . ودفع إليه كتابَ علىّ عليه السلام ، وفيه :

أما بعدُ ؛ فإنّ بيعتى بالمدينة لزِمَتْك وأنت بالشام ، لأنه بايعنى القومُ الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان ، على مابُويعوا عليه ، فلم يكن للشاهد أن يختار ، ولا للغائب أن يَرُدّ ؛ وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار ، إذا اجتمعوا عَلَى رجل فسمَّوْه[3] إماما، كان ذلك لله رضًا ؛ فإن خرج من أمرهم خارج بطعنٍ أو رغبة ردّوه إلى ماخرج منه ، فإن أَبَى قاتلوه على اتّباع سبيل المؤمنين ، وولّاه اللهُ ماتولّى، ويُصليه جهنّم وساءت مصيرا . وإنّ طلحةَ والزبير بايعانى ثم نقضا بيعتى ، فكان نقضُهما كرِدّتهما ، فجاهدتُهما على ذلك،حتى جاء الحقّ ، وظهر أمر الله وهم كارهون . فادخُلْ فيما دخل فيه المسلمون ، فإنّ أحبّ الأمور إلىّ فيك العافية ، إلا أن تتعرّض للبلاء ، فإن تعرّضتَ له قاتلتُك ، واستعنت بالله عليك . وقد أكثرتَ فى قَتَلةِ عثمان ، فادخُل فيما دخل فيه الناس ، ثم حاكِم القوم إلىّ أحملك

---

(١) أى من خير أهل اليمن .

(٢) فانبذ إليه ؛ فى اللسان : « المنابذة : أن يكون بين فريقين مختلفين عهد وهدنة بعد القتال ؛ ثم أرادا نقض ذلك العهد ، فينبذ كل فريق منهما إلى صاحبه العهد الذى تهادنا عليه ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ .

(٣) ب : « وسموه » .

وإيام على كتاب الله ؛ فأمّا تلك التي تُريدها تُخدْعة الصبيّ عن اللبن . ولَعمري لئن نظرت بعقلك دون هواك ، لتجدنّى أبرأ قريش من دم عثمان . واعلم أنك من الطُّلَقاء[1] الذين لا يحلّ لهم الخلافة ، ولا تعرّض فيهم الشورى . وقد أرسلتُ إليك [وإلى من قِبَلك][2] جرير بن عبد الله البَجَليّ ، وهو من أهل الإيمان والهِجْرة ، فبايع ، ولا قوة إلا بالله .

* * *

فلما قرأ الكتاب ، قام جرير فخطب ، فقال :

الحمد لله المحمود بالعوائد ، والمأمول منه الزوائد ، المرتجَى منه الثواب ، المستعان على النوائب ؛ أحمَده وأستعينهُ فى الأمور التى تحيّرُ دونها الألباب ، [وتضمحلّ عندها الأسباب][2] ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، كلّ شيء هالك إلا وجهه ، له الحكم وإليه تُرجعون . وأشهد أنّ محمدا عبده ورسوله ، أرسلَه بعد فَتْرةٍ من الرّسل الماضية ، والقرون الخالية ، [والأبدان البالية ، والجِبِلّة الطاغية][2] ، فبلّغ الرسالة ، ونصَح للأمة ، وأدّى الحق الذى استودعه الله ، وأمره بأدائه إلى أمته صلى الله عليه وسلّم ، من رسول ومبتَعث ومنتجَب[3] .

أيّها الناس ؛ إنّ أمرَ عثمان قد أعيا مَنْ شهده ، فكيف بمن غاب عنه ! وإنّ الناسَ بايعوا عليًّا غير واترٍ ولا موتور ؛ وكان طلحة والزبير مِمّن بايعاه ثم نكثا بيعتَه على غير حَدَث ، ألا وإنّ هذا الدين لا يحتمل الفِتَن ؛ [ألا وإن العرب لا تحتمل الفتن][2] ، وقد كانتْ بالبصرة أمس روعة ملحمة إن يَشْفَع البلاء بمثلها فلا بقاء للناس .

---

(١) الطلقاء : جمع طليق ؛ وهم الأسارى الذين أطلقهم الرسول عليه السلام يوم فتح مكة ولم يسترقهم .
(٢) تكملة من كتاب صفين .
(٣) المنتجب : المصطفى المختار .

وقد بايعت الأمة[1] عليًا ، ولو ملكنا والله الأمور[2] ، لم نختر لها غيره [ومن خالف هذا استعتب][3] فادخل يامعاوية فيما دخل فيه الناس .

فإن قلت : استعملني عثمان ثم لم يعزلني ؛ فإن هذا قول لو جاز لم يقم لله دين ،وكان لكل امرئ ما في يديه ؛ولكن الله جعل للآخر من الولاة حق الأول ، وجعل الأمور موطأة ينسخ بعضها بعضا

ثم قعد .

* * *

قال نصر : فقال معاوية : أنظر وتنظر ؛ وأستطلع رأي أهل الشام .

فمضت أيام ، وأمر معاوية مناديا ينادي : الصلاة جامعة ! فلما اجتمع الناس صعد المنبر ، ثم قال :

الحمد لله الذي جعل الدعائم للإسلام أركانا ، والشرائع للإيمان برهانا ، يتوقد قبسه في الأرض المقدسة ؛ جعلها الله محل الأنبياء والصالحين من عباده ؛ فأحلهم أرض الشام[4] ، ورضيهم لها ، ورضيها لهم ؛ لما سبق في مكنون علمه من طاعتهم ومناصحتهم خلفاءه ، والقوام بأمره ، والذابين عن دينه وحرماته ، ثم جعلهم لهذه الأمة نظاما ، وفي سبيل الخيرات أعلاما ، يردع الله بهم الناكثين ، ويجمع بهم ألفة المؤمنين ، والله نستعين على ما تشعب من أمر المسلمين بعد الالتئام ،وتباعد بعد القرب . اللهم انصرنا على أقوام يوقظون نائمنا ، ويخيفون آمننا ، ويريدون إراقة[5] دمائنا ، وإخافة سبلنا . وقد علم الله أنا لا نريد لهم[6] عقابا ، ولا نهتك لهم حجابا ، ولا نوطئهم زلقا ، غير أن الله الحميد كسانا

---

(١) صفين : « العامة » .

(٢) صفين : « أمورنا » .

(٣) من صفين .

(٤) صفين : « فأحلها أهل الشام » .

(٥) صفين : « هراقة دمائنا » ، وهما بمعنى .

(٦) صفين : « لم نرد بهم عقابا » .

من الكرامة ثوْبا لن ننزِعه طوْعاً ؛ ما جاوب الصَّدَى ، وسقَط الندى ، وعرِف المدَى؛ حملهم على ذلك البغيُ والحسد ، فنستعين الله عليهم . أيها الناس ، قد علمتم أنى خليفة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وخليفة أمير المؤمنين عثمان بن عفان عليكم ، وأنى لم أقم رجلا منكم على خزاية[1] قطّ ، وأنى وليُّ عثمانَ ، وقد قُتل مظلوما ، والله تعالى يقول : ﴿ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً ﴾[2] ، وأنا أحبّ أن تُعلِمونى ذاتَ أنفسكم فى قتل عثمان .

فقام أهل الشام بأجمعهم ، فأجابوا إلى الطلب بدم عثمان ، وبايعوه على ذلك ، وأوثقوا له على أن يبذُلوا بين يديه أموالهم وأنفسهم ؛ حتى يدركوا بثأره أو تلتحق أرواحهم بالله .

قال نصر : فلما أمسى معاوية اغتمّ بما هو فيه ، وجَنّه الليل وعنده أهل بيته ، فقال :

تَطَاوَلَ لَيلِي واعتَرَتْني وَسَاوِسِي ... لِآتٍ أتى بالتُّرَّهاتِ البَسَابِسِ[3]

أتانى جريرٌ والحوادث جَمّةٌ ... بتلك التى فيها اجتداعُ المعاطسِ

أكايدُه والسيف بينى وبينه ... ولستُ لأثوابِ الدنىء بِلَابِسِ

إنِ الشامُ أعطتْ طاعةً يمنيّةً ... تواصَفَها أشياخُها فى المجالِسِ

فإنْ يفعلُوا أصدِمْ عليا بجبهَةٍ ... تفتُّ عليه كلَّ رطب ويابس

وإنى لأرجو خير مانال نائلٌ ... وما أنا مِن مُلْكِ العراق بآيس[4]

قلت : الجبهة هاهنا : الخيل ، ومنه قول النبى صلى الله عليه وآله : « ليس فى الجبْهة صَدَقة » ، أى زكاة .

***

(١) أقامهم على الخزاية ؛ أى حملهم على أمر يستحيا منه .

(٢) سورة الإسراء ٣٣ .

(٣) البسابس : الأمور الباطلة . والأبيات والخبر فى الكامل ١ : ٣٢٦ .

(٤) الكامل : « بيائس » .

قال نصر : فاستحثّه[1] جرير بالبَيْعة ، فقال : يا جرير ؛ إنها ليست بخِلْسة ، وإنه أمر له ما بعده ؛ فأبلِعْني ريقي [حتى أنظر][2] ، ودعا ثقاته [3] ؛ فأشار عليه أخوه بعمرو ابن العاص ، وقال له : إنه مَنْ قد عرفتَ ، وقد اعتزل عثمانَ في حياته ؛ وهو لأمرِك أشدّ اعتزالا إلا أن يثمّن له دينُه[3] .

وقد ذكرنا فيما تقدّم خبر استدعائه عمراً ، وما شَرَط له من ولاية مصر ، واستقدامِه شُرَحبيل بن السِّمط رئيس اليمنيّة وشيخها والمقدّم عليها ، وتدسيس الرجال إليه يُغرونه بعليّ عليه السلام ، ويشهدون عنده أنّه قتل عثمان ، حتى ملئوا صدرَه وقلبه حقْداً وَتِرَةً وإحْنة عَلَى عليّ عليه السلام وأصحابه بما لا حاجة إلى إعادته[4] .

* * *

قال نصر : فحدّثني محمد بن عُبيد الله عن الجرجانيّ ، قال :

[5] جاء شُرَحْبيل إلى حُصَين بن نُمير ، فقال : ابعث إلى جرير فليأتنا ، فبعث حُصين ابن نمير إلى جرير : أن زُرْنا فعندنا شُرَحبيل ، فاجتمعا عند حصين ، فتكلّم شرحبيل ،

---

(١) وقعة صفين ٢٤٩

(٢) من كتاب وقعة صفين

(٣ ـ ٣)وقعة صفين : « فقال له عتبة بن أبي سفيان ـ وكان نظيره ـ :اجتمعن على هذا الأمر بعمرو ابن العاص ، وأثمن له بدينه ؛ فإنه من قد عرفت ، وقد اعتزل أمر عثمان في حياته ؛ وهو لأمرك أشد اعتزالا إلا أن يرى فرصة » .

(٤) الجزء الثاني في ص ٦١ وما بعدها .

(٥) صدر هذا الخبر كما ورد في كتاب وقعة صفين ٥٢ : « لما قدم شرحبيل على معاوية تلقاه الناس فأعظموه ، ودخل على معاوية ؛ فتكلم معاوية فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : ياشرحبيل ، إن جرير بن عبد الله يدعونا إلى بيعة علي ، وعلي خير الناس لولا أنه قتل عثمان بن عفان ، وقد حبست نفسي عليك ؛ وإنما أنا رجل من أهل الشام ، أرضى مارضوا ، وأكره ما كرهوا ؛ فقال شرحبيل : أخرج فأنظر ؛ فخرج فلقيه هؤلاء النفر الموطئون له ؛ فكلهم يخبره بأن عليا قتل عثمان بن عفان . فخرج مغضبا إلى معاوية فقال : يامعاوية ؛ أبي الناس إلا أن عليا قتل عثمان ؛ ووالله لئن بايعت لنخرجنك من الشام أو لنقتلنك . قال معاوية :ما كنت لأخالف عليكم ؛ وما أنا إلا رجل أهل الشام . قال : فرد هذا الرجل إلى صاحبه إذا قال ، فعرف معاوية أن شرحبيل قد نفذت بصيرته في حرب أهل العراق ؛ وأن الشام كله مع شرحبيل ؛ فخرج شرحبيل فأتى حصين بن نمير ... » ؛ وقد نقله المؤلف مختصراً فيما سبق في الجزء الثاني ص ٥٢ ـ ٥٣ .

فقال : ياجرير أتيتنا بأمر ملفَّفٍ[1] لِتُلقيَنا فى لَهَوَات الأسد ، وأردتَ أن تَخلِطَ الشام بالعراق ، وأطريت[2] عليًا ، وهو قاتل عثمان ، والله سائِلك عمَّا قلت يوم القيامة .

فأقبل عليه جريرٌ وقال : يا شُرَحبيل ، أما قولك : إنى جئت بأمر ملفَّفٍ ؛ فكيف يكون ملففاً وقد اجتمع عليه المهاجرون والأنصار ، وقوتل على رَدِّه طلحة والزبير !

وأمّا قولك : إنى أُلقيك فى لَهَوات الأسْد ، ففى لَهَواتِها ألقيتَ نفسك .

وأما خلطُ أهلِ الشام بأهلِ العِراق ، فخلطُهُما على حقٍّ خيرٌ مِنْ فُرقتهما على باطل .

وأما قولُك : إنّ عليًّا قتَل عثمان ، فو الله ما فى يديك من ذلك إلا القذف بالغَيْبِ مِنْ مكان بعيد ؛ ولكنكَ مِلْتَ إلى الدنيا ؛ وشىء كان فى نفسك على زمن سعد ابن أبى وقّاص .

فبلَغ ما قالاه إلى معاوية ، فبعث إلى جرير فزجرَه . قال نصر : وكُتِب إلى شرحبيل كتاب لا يعرف كاتبه[3] فيه :

شُرَحْبيل يابنَ السِّمْط : لا تَتْبَعِ الهوى ... فمالَكَ فى الدُّنيَا مِنَ الدِّين مِنْ بَدَلْ

وَلَا تَكُ كالمُجْرَى إلى شَرِّ غايَةٍ ... فَقَدْ خُرِّقَ السِّرْبالُ واسْتَنْوَقَ الجمَلْ

وَقُلْ لابن حَرْبٍ : مالكَ اليومَ خَلَّةٌ ... تَرومُ بها ما رُمْتَ واقطَعْ لَهُ الأمل[4]

شُرَحْبِيلُ : إنّ الحقَّ قَدْ جَدَّ جِدُّهُ ... فَكُنْ فيه مأمونَ الأديم من النَّغَلْ

وَأَرْوِدْ ولا تُفْرِطْ بشىء تخافُهُ ... عَلَيْكَ ، ولا تَعْجَلْ ، فلا خَيْرَ فِى العَجَلْ[5]

---

(١) أى جلب من هنا وهاهنا .
(٢) صفين : « أطرأت » ، وهما بمعى : « مدحت » .
(٣) وقعة صفين : « وكتب جرير إلى شرحبيل » .
(٤) وقعة صفين : « مالك اليوم حرمة . . . واقطع » .
(٥) الإرواد : الإمهال ، والفرط : السبق .

مقالُ ابنَ هندٍ فى علىّ عضيهةٌ ... وَلَلّهُ فِى صَدْرِ بن أبى طالبٍ أجَلُّ[1]

وَمَا مِنْ علىّ فى ابن عفانَ سَقْطَةٌ ... بقولٍ ، ولا مالا عليه ولا قتلُ[2]

وَمَا كَانَ إلَّا لازماً قعرَ بَيْتِهِ ... إلى أن أتى عثمانَ فى داره الأجلُ

فَمَنْ قال قَوْلًا غيرَ هذا فحسبُه ... من الزُّور والبهتان بعضُ الذى احتَمَلْ[3]

وصىّ رسول الله مِنْ دونِ أهلِه ... ومَنْ باسمِه فى فَضْلِهِ يُضْرَبُ المثلْ

قال نصر : فلما قرأ شُرَحْبيل الكتاب ذُعِر وفكّر ، وقال : هذه نصيحةٌ لى فى دينى ، ولا والله لا أعجّل فى هذا الأمر بشىء [وفى نفسى منه حاجة][4] ، وكاد[5] يحولُ عن نصر معاوية ويتوقف[5] ، فَلَفّق[6] له معاوية الرجالَ يدخلون إليه ويخرجون ، ويعظّمون عنده قتل عثمان ، ويرمُون به عليًّا ، ويقيمون الشهادة الباطلة ، والكتبَ المختلقة ؛ حتى أعادوا رأيَه ، وشحَذوا عزمه[7].

***

(١) العضيهة : الإفك والبهتان . وفى ب : « وقال ابن هند » ، والوجه ما أثبته من ج .
(٢) مالا عليه ، أصله : « مالأ » بالهمز ؛ والمالأة : المعاونة . وفى صفين : « ولا جلب عليه » .
(٣) فى صفين :

* من الزّورِ وَالْبُهتَانِ قَوْلُ الّذى احتَمَلْ *

(٤) من كتاب وقعة صفين .
(٥ - ٥) فى وقعة صفين : « واستتر له القوم » .
(٦) كذا فى ج ، وفى ا ، ب ، « فلفوله » تصحيف ، وفى صفين : « فلفف » .
(٧) بقية الخبر فى كتاب كتاب وقعة صفين : « وبلغ ذلك قومه ، فبعث ابن أخت له من بارق - وكان يرى رأى على بن أبى طالب - فبايعه بعد ، وكان ممن لحق من أهل الشام ، وكان ناسكا ، فقال :

لعمرُ أبى الأشقى ابنِ هندٍ لقد رَمَى ... شُرَحْبيلَ بالسّهم الذى هو قاتِلُه

وَلَفّفَ قوماً يَسْحَبُونَ ذيولَهُم ... جميعاً وأولَى الناسِ بالذنبِ فاعِلُه

فألفَى يمانيًا ضعيفاً نخاعُه ... إلى كلّ مايَهْوَوْنَ تُحْدَى رواحِلُه

فطأطأ لها لما رَمَوْه بثِقْلها ... ولا يرزقُ التقوى من الله خاذِلُه =

قال نصر : وحدثنا(١) عمر بن سعد بإسناده قال :(٢) بعث معاوية إلى شُرَحْبِيل ابن السِّمْط :

إنّه قد كان من إجابتك إلى الحقّ ، وما وقع فيه أجرُك على الله ، وقَبِله عنك صُلَحاء الناس ماعلمت ؛ وإنّ هذا الأمر الذى نحن فيه لايتمّ إلا برضا العامّة ، فسِرْ فى مدائن الشام ، ونادِ فيهم بأنّ عليا قَتَل عثمان ، وأنه يجب على المسلمين أن يطلبوا بدمه .

فسار شُرَحبيل ، فبدأ بأهل حِمْص ، فقام فيهم خطيبا ـ وكان مأمونا فى أهل الشام ناسكا مُتألِّها ، فقال :

أيها الناسُ ، إن عليا قتل عثمان ، فغضِب له قوم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه، فلقيَهم فهزم الجمع ، وقتل صلحاءهم وغلب على الأرض، فلم يبق إلا الشام ؛ وهو واضع سيفه على عاتقه ، ثم خائض غمرات(٣) الموت ، حتى يأتيَكم أو يحدث الله أمرا ، ولا نجد أحدا أقوى على قتاله من معاوية ، فجِدّوا وانهضوا .

فأجابه الناس كلّهم إلا نُسّاكا من أهل حِمْص ؛ فإنهم قالوا له : بيوتُنا قبورنا ومساجدنا ، وأنت أعلم بما ترى .

قال : وجعل شُرَحبيل يستنهض مدائن الشام حتى استفرغها ، لايأتى على قوم إلّا قبلوا

=ليأكل دنيا لابن هندٍ بدينهِ ألا وابنُ هندٍ قبلَ ذلكَ آكلُهْ

وقالوا علىّ فى ابن عفان خدعةً ودبّتْ إليه بالشنانِ غوائلُهْ

وَلَا والذى أرسَى ثبيراً مكانَهُ لقَدْ كفّ عنهُ كفّهَ ووسائلُهْ

وَمَا كانَ إلا من صحابِ محمّدٍ وَكُلّهُمْ تغلِي عَلَيْهِ مراجِلُهْ

فلما بلغ شرحبيل هذا القول قال : هذا بعيث الشيطان ؛ الآن امتحن الله قلبي ؛ والله لأسيرن صاحب هذا الشعر أو ليفوتني ؛ فهرب الفتى إلى الكوفة ـ وكان أصله منها ـ وكاد أهل الشام أن يرتابوا .

(١) صفين ٥٦ ، ٥٧ .

(٢) فى صفين : « محمد بن عبيد الله وعمر بن سعد بإسناده ، قال » .

(٣) صفين : « غمار الموت » .

ما أتاهم به ، فبعث إليه النجاشيّ بن الحارث[1] ـ وكان له صديقا :

شُرَحْبِيلُ ما للدِّين فارقتَ ديننا[2] ولكِنْ لبغض المالكيِّ جريرِ
وَشَحْنَاء دَبَّتْ بين سعدٍ وبَيْنَهُ فأصبحتَ كالحادِي بغيرِ بَعيرِ
[وما أنت إذ كانت بجيلة عاتبتْ قريشًا فيالله بُعْدُ نصيرِ][3]
أتفصِل أمراً غِبْتَ عنه بشبهةٍ وقد حارَ فيه عقلُ كلِّ بَصيرِ
بِقَوْلِ رجالٍ لم يكونوا أئمةً ولا للتى لقَّوْكَهَا بحضُورِ
[وما قولُ قَومٍ غائبين تقاذفوا من الغيب ما دَلّاهمُ بغرورِ][3]
وتترك أنّ الناسَ أعطَوْا عهودهُم عليًا على أُنسٍ به وسرورِ
إذا قيل هاتُوا واحدا يقتدى به[4] نظيراً له لم يُفصِحُوا بنظيرِ
لعلك أن تشقى الغداة بحربه فليس الذى قد جئته بصغيرِ

* * *

قال نصر: وحدّثنا[5] عمر بن سعد عن نمير بن وعلة، عن الشّعبيّ، أن شُرَحبيل بن السِّمْط ابن الأسود بن جَبَلة [الكنديّ][3] دخل على معاوية ، فقال له: أنت عاملُ أمير المؤمنين وابن عمّه ، ونحن المؤمنون ، فإن كنتَ رجلا تُجاهِد عليا وقتلة عثمان حتى ندرِك ثأرنا أو تذهب أرواحُنا استعملناك علينا ؛ وإلّا عزلْناك واستعملنا غيرَك ممن نريد ، ثم جاهَدْنا معه حتى ندرك بدم عثمان أو نهلِك .

فقال جرير بن عبد الله ـ وكان حاضرا : مهلًا ياشُرَحْبيل ؛ فإن الله قد حقَن الدّماء، ولَمّ الشعث ، وجَمع أمر الأمة ، ودنا من هذه الأمة سكون ؛ فإياك أنْ تُفْسِد بين الناس،

---

(١) فى حواشى صفين : « والمعروف فى شعرائهم النجاشى الحارثى ؛ واسمه قيس بن عمرو بن مالك ؛ من بنى الحارث بن كعب ؛ وهو ممن حده أمير المؤمنين على بن أبى طالب لشربه الخمر » .

(٢) وقعة صفين : « أمرنا » .

(٣) من كتاب وقعة صفين .

(٤) وقعة صفين : « تقتدونه » .

(٥) وقعة صفين ٥٧ ، ٥٨ .

وأمسِكْ عن هذا القول قبل أن يشيعَ ويظهر عنك قولٌ لا تستطيع رَدّه ، فقال : لا والله لا أسِرّه أبدا . ثم قام فتكلّم به ، فقال الناس : صدق صدق ! القولُ ما قال ، والرأى ما رأى . فأيس جرير عند ذلك مِنْ معاوية ومن عوامّ أهل الشام .

***

قال نصر :[1] وحدثنى محمد بن عبيدالله ، عن الجرجانىّ ، قال : كان معاوية قد أتى جريراً قبل ذلك فى منزله ، فقال له : ياجرير ؛ إنى قد رأيت رأياً ، قال : هاته ، قال: اكتب إلى صاحبك يجعل لى الشام ومصر جباية ، فإذا حضرتْه الوفاة لم يجعلْ لأحد بعده فى عنق بيعة ، وأسلِّم له هذا الأمر ؛ وأكتب إليه بالخلافة . فقال جرير : اكتُب ما أردتَ أكتب معك[2] .

فكتب معاوية بذلك إلى علىّ ، فكتب علىّ عليه السلام إلى جرير :

أما بعد ، فإنما أراد معاوية ألّا يكون لى فى عنقه بَيْعة ، وأن يختار من أمره ما أحبّ ، وأراد أنْ يُرِيثَك ويُبطئك حتى يذوقَ أهل الشام ؛ وإنّ المغيرة بن شعبة قد كان أشار علىّ أن أستعملَ معاوية على الشام ، وأنا حينئذ بالمدينة ، فأبيتُ ذلك عليه ، ولم يكن الله ليرانى أتخذ المضلِّين عَضُدا ، فإن بايعك الرجل ؛ وإلّا فأقبِل والسلام.

***

قال نصر : وفشا[3] كتابُ معاوية فى العرب ، فبعثَ إليه الوليد بن عُقْبة :

معاوىَ إنّ الشامَ شامُك فاعتصِمْ ... بشامِك لا تُدْخِلْ عليكَ الأفاعيا

وحامِ عليهــــا بالصَّوارم والقَنا ... ولا تكُ مَوهونَ الذّراعين وَانِيا[4]

وإنّ عليًّا ناظرٌ ما تجيبُه ... فأهدِ له حَرْباً تُشيب النَّواصيا

(١) وقعة صفين ٥٨ .

(٢) صفين : « اكتب بما أردت وأكتب معك » .

(٣) صفين ٥٩ ، ٦٠ .

(٤) صفين : « بالقنابل . . . عشوش الذراعين » .

وإلّا فسلْمٌ إنّ فى السِّلْمِ راحةً ... لمن لا يريدُ الحربَ فاختَرْ مُعاويا

وإنّ كتابا يابنَ حربٍ كتبتَه ... على طمعٍ ، يُزْجى إليك الدّواهيا

سألتَ عليًّا فيــهِ ما لَنْ تنالَه ... ولَوْ نلتَه لم يَبْقَ إلا لَياليا

وَسوْفَ ترَى منــه التى ليس بعدها ... بقاء ، فلا تــكثر عليك الأمانيَا

أمِثْلَ علِيٍّ تعتريه بخُدْعةٍ ... وقد كان ما جرّبْتَ من قبل كافيا !

قال : وكتب الوليد بن عُقْبة إلى معاوية أيضاً يُوقظه ويشير عليه بالحرب، وألا يكتب جواب جرير :

معاوىَ إنّ المُلْك قد جُبّ غاربُهْ ... وأنت بما فى كفِّك اليومَ صاحِبُهْ

أتاك كتابٌ مِن علِيٍّ بخُطّةٍ ... هى الفصلُ فاخترْ سِلْمَهَ أو تُحارِبُهْ

فلا ترجُ عند الواترِينَ مَوَدّةً ... ولا تأمَن اليومَ الّذى أنت رَاهِبُهْ

وحاربْه إن حاربْتَ حربَ ابنِ حُرّةٍ ... وإلّا فَسِلْمٌ لا تدبّ عقَارِبُهْ(١)

فإنّ عليًّا غيرُ ساحبِ ذَيْلِهِ ... على خُدعةٍ ما سوّغَ الماء شارِبُهْ

[وَلاَ قابلٍ ما لا يريدُ وهــذهِ ... يقوم بها يوماً عليه نوادبه](٢)

فَلاَ تَدَعَنّ المُلْكَ والأمرُ مُقبلٌ ... وتطلبَ ما أعيَت عليكَ مذاهبُهْ(٣)

فإنْ كنتَ تنوِى أنْ تُجيبَ كِتابَه ... فَقَبّحَ مُمْليــه وَقُبّحَ كاتِبُهْ

وإن كنتَ تنوِى أن تردّ كِتابَهُ ... وأنت بأمْرٍ لا محالةَ رَاكِبُهْ

فألْقِ إلى الحىِّ اليمانينَ كِلْمَةً ... تنالُ بها الأمرَ الّذى أنت طالِبُهْ

تقول : أميرُ المؤمنين أصــابَهُ ... عدوٌّ ومالاهم عليــه أقارِبُهْ

أفانينُ مِنْهُمْ قائلٌ وَمُحَرِّضٌ ... بلا تِرَةٍ كانتْ ، وآخرُ سالِبُهْ

(١) ب : « حزا بن حرة » ، والصواب ما أثبته من ا ، ج وكتاب صفين .
(٢) من كتاب صفين .
(٣) ب : « عليه » ، والصواب ما أثبته من ج وصفين .

وكنتُ أميراً قبلُ بالشامِ فيكمُ ... فحسبي وإيَّاكم من الحق واجبُهْ

فجيئوا ، ومَنْ أرسَى ثَبِيراً مكانَه ... نُدافِعِ بحراً لا تُرَدّ غوارِبُهْ[1]

فأقلِلْ وأكثِرْ مالها اليومَ صاحبٌ ... سواك ، فصرِّحْ لستَ مِمّن تُوارِبُهْ

قال نصر : وخرج[2] جرير يوما يتجسّس الأخبار ؛ فإذا هو بغلام يتغنّى على قَعود له ، هو يقول :

حُكَيمٌ وَعَمّارُ الشَّجا ومحمدٌ ... وأشترُ والمكشوحُ جَرُّوا الدَّواهيا[3]

وَقَدْ كَانَ فيها للزُّبيرِ عَجاجَةٌ ... وصاحبُه الأدنى أثاروا الدواهيا[4]

فأما عليٌّ فاستجارَ ببيتِه ... فلا آمرٌ فيها ولم يَكُ ناهيا

فَقُلْ في جَمِيعِ النَّاسِ ما شِئْتَ بَعْدَهُ ... فلو قلتَ : أخطا الناسُ لم تكُ خاطِيا

وإن قلت : عَمَّ القومُ فيه بفتنةٍ ... فحسْبُكَ مِنْ ذاكَ الَّذِي كانَ كافيا

فقولا لأصحابِ النبيِّ محمدٍ ... وخُصَّا الرجالَ الأقربين الأدانيا :

أيُقتَلُ عثمان بن عفّان بَيْنَكُمْ ... عَلَى غَيْرِ شيء ليس إلّا تعاميا

فلا نومَ حتى نستبيحَ حَرِيمَكُمْ ... ونخضِبَ من أهلِ الشَّنَآنِ العواليَا

فقال جرير : يا بن أخي ، مَنْ أنت ؟ فقال : غلام من قريش ، وأصلي من ثقيف ، أنا ابن المغيرة بن الأخنس بن شُرَيق ، قُتِل أبي مع عثمان يوم الدّار . فعجب جريرٌ

---

(١) كذا في ج ، وصفين وفي ا ، ب : « تجيبوا » ؛ والغوارب : أعالي الموج .

(٢) وقعة صفين ٦٠ .

(٣) حكيم بن جبلة بن حصن العبدي ، كان عثمان بعثه إلى السند ؛ ثم نزل البصرة ، وقتل بها يوم الجمل . وعمار بن ياسر ، ومحمد بن أبي بكر الصديق ؛ والأشتر : مالك بن الحارث . والمكشوح المرادي ، واسمه هبيرة بن هلال ، ونسبه في بجيلة .

(٤) صفين : « أشاب النواصيا » .

من شعره وقوله ، وكتب بذلك إلى علىّ عليه السلام ، فقال علىّ : والله ما أخطأ الغلام شيئا .

* * *

قال نصر :[١] وفى حديث صالح بن صَدقة ، قال : أبطأ جريرٌ عند معاوية حتى اتّهمه النّاس ، وقال علىّ عليه السلام : قد وقّتُّ لجرير وقتا لا يُقيم بعده إلا مخدوعا أو عاصيا ، وأبطأ عَلَى علىّ حتى أيِس منه .

قال : وفى حديث محمد وصالح بن صدقة ، قالا : فكتب علىّ عليه السلام إلى جرير بعد ذلك :

إذا أتاكَ كتابى هذا فاحمل معاوية عَلَى الفَصْل ؛ ثم خيِّره وخذه بالجواب بين حربٍ مُخزية[٢] أو سِلْم مُحْظية ، فإن اختارَ الحربَ فانبذ إليه ، وإن اختار السِّلم فخذ بيعته . والسلام .

قال : فلما انتهى الكتابُ إلى جرير أتى معاوية ، فاقرأه الكتاب ، وقال له : يامعاوية ، إنّه لا يطبع على قلب إلّا بذنب ، ولا يُشرَح صَدْر إلا بتوبة ، ولا أظنّ قلبَك إلّا مطبوعا عليه ، أراكَ قد وقفت بين الحقّ والباطل ، كأنك تنتظر شيئا فى يد غيرك .

قال معاوية : ألقاكَ بالفَصْل[٣] فى أول مجلس إن شاء الله .

فلما بايع معاوية أهلُ الشام بعد أن ذاقهم ، قال : ياجرير الحق بصاحبك ، وكتب إليه بالحرْب ، وكتب فى أسفل الكتاب شعر كعب بن جُعَيل :

أرَى الشّامَ تَكْرَهُ أهلَ العراقِ وأهــــلُ العِراق لهم كارهونا

(١) وقعة صفين ٦١ .
(٢) صفين : « مجلية » .
(٣) صفين : « بالفيصل » .

وقد ذكرنا هذا الشعر فيما تقدم .

* * *

وقال أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد فى كتاب "الكامل"[1] : إن عليّا عليه السلام لما أراد أن يبعث جريراً إلى معاوية ، قال : والله يا أميرَ المؤمنين ما أدّخِرُك من نُصْرَتى شيئا ، وما أطمع لك فى معاوية . فقال علىّ عليه السلام : إنما قصدى حُجّة أقيمها [عليه] .[2] فلما أتى جرير معاوية دافعه بالبيعة ، فقال له جرير : إنّ المنافقَ لا يصلّى حتى لا يجدَ مِنَ الصلاة بُدًّا . فقال معاوية : إنها ليست بخُدْعة الصبىّ عن اللّبن ، فأبلغنى ريقى[3] ، إنه أمر له مابعده .

قال : وكتب مع جرير إلى علىّ عليه السلام جوابا عن كتابه إليه : من معاوية بن صَخْر إلى علىّ بن أبى طالب ؛ أما بعد فلعَمْرِى لو بايعك القومُ الذين بايعوك وأنت برىء من دم عثمان كنتَ كأبى بكر وعمر وعثمان ؛ ولكنّك أغريْت بعثمان المهاجرين ، وخَذّلت عنه الأنصار ، فأطاعك الجاهلُ ، وقوِىَ بك الضعيف ، وقد أبى أهلُ الشام إلّا قتالك؛ حتى تدفعَ إليهم قَتَلة عثمان، فإن فعلتَ كانت شورى بين المسلمين، ولعمرى [4] ليس حُجَجُكَ علىّ كحججك على طلحة [4] والزبير ، لأنهما بايعاك ولم أبايعْك ، وما حجتك على أهل الشام كحجتك على أهل البصرة ، لأنّ أهلَ البصرة أطاعوك ولم يُطِعْك أهلُ الشام . فأمّا شرفُك فى الإسلام ، وقرابتُك من النبى صلى الله عليه وموضِعُك من قريش ، فلست أدفعُه .

---

(١) الكامل ٣ : ٢٠٩ وما بعدها — بشرح المرصفى ؛ مع تصرف فى الخبر .
(٢) من كتاب الكامل .
(٣) أى أنظرنى بمقدار ما أبلع ريق .
(٤ — ٤) الكامل : « ما حجتك على كحجتك على طلحة . . . » .

ثم كتب فى آخر الكتاب شعرَ كعب بن جعيل الذى أوله :

أرَى الشّامَ تكرهُ أهلَ العراقِ   وأهْلُ العراق لهُمْ كارِهُونا

***

قال أبو العباس المبرّد[1] رحمه الله تعالى : [2] فكتب إليه علىّ عليه السلام جوابا عن كتابه هذا :

من أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب إلى معاوية بن صخر بن حرب[2] :

أما بعد ؛ فإنه أتانى منك كتابُ امرئٍ ليس له بَصَرٌ يهديه ، ولا قائدٌ يرشده ، دعاه الهوى فأجابه ؛ وقاده الضلال فاتّبعه ، زعمتَ أنك إنما أفسد عليك بَيْعتى خطيئتى فى عثمان ، ولعَمْرِى ما كنتُ إلا رجلا من المهاجرين ، أوردتُ كما أوردوا ، وأصدرت كما أصدروا ؛ وما كان الله ليجمعهم على الضلال ، ولا ليضربهم بالعمَى . وبعد ، فما أنت وعثمان ! إنما أنتَ رجل من بنى أميّة ، وبنو عثمان أوْلَى بمطالبةِ دَمه ، فإن زعمتَ أنك أقوى على ذلك ، فادْخُل فيما دخل فيه المسلمون ، ثم حاكِم القومَ إلىّ . وأما تمييزُك بينكَ وبين طلحة والزبير ، وبين أهل الشام وأهل البَصْرة ، فلعمرِى ما الأمرُ فيما هناك إلا سواء ؛ لأنها بيعة شاملة لا يستثنَى فيها الخيار ، ولا يستأنف فيها النَّظَر . وأمّا شَرَفِى فى الإسلام وقرابتى من رسول الله صلى الله عليه ، وموضعى من قريش ، فلعمرى لو استطعت دفعه لدفعته .

قال : ثم دعا النَّجاشىّ ، أحد بنى الحارث بن كعب ، فقال له : إنّ ابنَ جُعَيل شاعرُ أهل الشام ، وأنت شاعر أهل العراق ، فأجِبِ الرّجل . فقال: ياأميرَ المؤمنين، أسمعنى قوله، قال : إذن أسمعك شِعْر شاعر ، ثم أسمعه ، فقال النجاشىُّ يجيبه :

---

(١) فى الكامل ٣ : ٢٢٤ ـ بشرح المرصفى ؛ وذكره المنقرى فى كتاب صفين ٦٤ ، ٦٥ .

(٢ ـ ٢) فى الكامل : فكتب إليه أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه جواب هذه الرسالة : بسم الله الرحمن الرحيم من على بن أبى طالب إلى معاوية بن صخر » .

دَعَا يَامُعَاوِىَ مالن يكونا ... فَقَدْ حَقَّق اللهُ ماتحذرونا

أتاكُم علىٌّ بأهلِ العراقِ ... وأهلِ الحجاز فما تصنعونا ![1]

عَلَى كل جرْدَاء خَيْفَانَةٍ ... وَأشْمَّ نَهْدٍ يَسُرّ العُيُونا[2]

عَلَيْهـا فَوارِسُ مَخشيَّةٌ ... كأُسْد العَرِين حَمَيْنَ العَرِينا

يَرَوْنَ الطِّعَانَ خِلَال العَجَاجِ ... وَضَرْبَ الفوارسِ فى النَّقْع دِينا[3]

هُمُ هَزَمُوا الجمعَ جَمْعَ الزُّبَيْرِ ... وَطَلْحَةَ وَالْمَعْشَرَ النَّاكِثينَا

وآلوا يمينـاً عَلَى حَلْفَةٍ ... لنُهْدِى إلى الشام حَرْبًا زَبُونا[4]

تُشِيبُ النَّواهِدَ قَبْلَ المَشِيبِ ... وتُلْقِي الحواملُ مِنْهَا الجَنِينَا[5]

فإن تكرهوا المُلْكَ مُلْكَ العِرَاقِ ... فَقَدْ رَضِىَ القَوْمُ ماتكرهُونا

فقـل للمضلّل مِنْ وَائِلٍ ... وَمَنْ جَعَلَ الغَثَّ يوماً سَمِينا

جَعَلْتُمْ عَلِيًا وَأشْيَاعَه ... نَظِيرَ ابنِ هِنْدٍ ، أما تَسْتَحُونا !

إلى أفضلِ النّاس بعد الرسول ... وصِنْو الرسولِ مِنَ العالمينا

وَصِهرِ الرسول وَمَنْ مِثْلُهُ ... إذا كانَ يومٌ يُشِيب القُرُونا !

قلت : أبيات كعب بن جُعيل خيرٌ من هـذه الأبيات ، وأخبث مقصداً وأدهى وأحسن .

وزاد نصر بن مزاحم فى هـذه الرسالة بعد قوله : « ولا ليضربهم بالعصى » : « وماألَبْتُ[6] فتلزمنى خطيئة الآمر ، ولا قتلت فيجب عَلَىَّ القصاص . وأما قولك إنّ

---

(١) لم يذكر المبرد فى الكامل سوى البيتين الأولين ، وقال : « وبعد هذا مانمسك عنه » .

(٢) الجرداء : الفرس القصيرة الشعر . والخيفانة : الخفيفة الوثابة . والنهد من الخيل : الجسيم المشرف

(٣) النقع : التراب .

(٤) صفين : « وقالوا » . والإيلاء : الحلف .

(٥) صفين : « لتشيب النواهد » .

(٦) ما ألبت ، أى ماحرضت . وفى صفين : « وما أمرت » .

أهل الشام هم الحكام عَلَى أهلِ الحجاز ، فهات رجلاً من أهل الشام يقبل فى الشورى ، أو تحلُّ له الخلافة ، فإنْ زعمتَ ذلك كذَّبَك المهاجرون والأنصار ؛ وإلا أتيتُك به من قريش الحجاز . وأما وَلُوعك بى فى أمر عثمان ، فما قلت ذلك عن حقّ العيان ، ولا يقين الخُبر[١] .

وهذه الزيادة التى ذكرها نصر بن مزاحم تقتضى أنه كان فى كتاب معاوية إليه عليه السلام أنّ أهل الشام همُ الحكام عَلَى أهل الحجاز ؛ وما وجدنا هذا الكلام فى كتابه .

* * *

[أخبار متفرقة]

وروى نصر بن مزاحم ، قال : لما[٢] قُتِل عثمانُ ضَرَبت الرّكبان إلى الشام بقتله ، فبينا معاوية يوما إذا أقبل رجل متلفّف ، فكشف عن وجهه ، وقال لمعاوية : ياأميرَ المؤمنين ، أتعرفنى ؟ قال : نعم ؛ أنت الحجاج بن خزيمة بن الصِّمة ، فأين تريد ؟ قال إليك القُربان ، نَعِى ابن عفان ، ثم قال :

إن بنى عمّك عَبْد المطّلبْ ... همُ قتلوا شيخكمُ غَيْرَ كَذِبْ
وأنت أولَى الناس بالوثْبِ فثِبْ ... واغضَبْ معاوى للإله واحتسِبْ
وَسِرْ بنا سَيْرَ الجرير المتلئبْ ... وانْهضْ بأهل الشام تَرْشُدْ وتُصِبْ

* ثم اهْزُزِ الصَّعْدة للشأس الشَّغِبْ[٣] *

قال : يعنى عليا عليه السلام .

قلت : المتلئبّ المستقيم المطّرد ، يقال : هذا قياسٌ متلئبّ ، أى مستمرّ مطّرد .

---

(١) الخبر : العلم . (٢) وقعة صفين ٨٦ ، ٨٧ .
(٣) الصعدة ، بالفتح : القناة المستوية .

ويقال : مكان شأس ، أي غليظ صلب . والشَّغِب : الهائج للشر ، ومن رواه : «الشاسي» بالياء فأصله « الشاصي » بالصاد ؛ وهو المرتفع ، يقال : شصا السحابُ إذا ارتفع ، فأبدل الصاد سينا ، ومراده هنا نسبة عليّ عليه السلام إلى التيه والترفع عن الناس .

قال نصر : فقال له معاوية : أفيك مَهز ؟ فقال : نعم ، فقال أخبِر الناس ، فقال الحجاج : ياأميرَ المؤمنين ـ ولم يخاطَب معاويةُ بـ «أمير المؤمنين» قبلها ـ إنى كنتُ فيمَن خرج مع يزيد بن أسدٍ القسريّ ، مغيثا لعثمان ، فقدمتُ أنا وزفر بن الحارث ، فلقينا رجلا زعم أنه مِمّن قتل عثمان ، فقتلْناه ؛ وإنى أخبرك ياأمير المؤمنين أنك لتقوَى على عليّ بدون مايقوَى به عليك ؛ لأنّ معك قوما لايقولون إذا قلت ، ولا يسألون إذا أمرت؛ وإن مع عليّ قوما يقولون إذا قال ، ويسألون إذا أمر ؛ فقليلٌ ممّن معك خيرٌ من كثير ممن معه . واعلمْ أنه لا يَرضى عليّ إلا بالرضا ، وأنّ رضاه سخَطك ، ولستَ وعليّ سواء؛ عليّ لا يرضى بالعراق دون الشام ، وأنت ترضى بالشام دون العراق .

قال نصر : فضاق معاوية صدرا بما أتاه ، وندم على خِذلان عثمان[1] وقال :

أتانِىَ أمرٌ فيــــه للنفس غمةٌ ... وَفِيه بــــكاء لِلْعُيُونِ طَوِيلُ

وفيــــه فناء شاملٌ وخَزَايةٌ ... وفيه اجتداعٌ للأنوف أصِيلُ

مصابُ أمير المؤمنين وهَدّةٌ[2] ... تكادُ لها صمُّ الجبالِ تزُولُ

فللهِ عَيْنا مَنْ رَأى مِثْلَ هالكٍ ... أصيبَ بلا ذَنْبٍ وَذَاكَ جَليلُ !

تَدَاعَتْ عَلَيْهِ بِالْمَدِينَةِ عُصْبَةٌ ... فَرِيقانِ مِنْهُمْ قَاتِلٌ وخَذُولُ

دَعَاهُمْ فَصَمّوا عنه عِنْدَ دُعَائِهِ ... وَذَاكَ عَلَى مافِي النُّفُوسِ دَلِيلُ

نَدِمتُ على ماكان مِنْ تَبعِىَ الْهَوَى ... وقَصْرِىَ فيه حَسْرَةٌ وعويلُ[3]

---

(١) وقعة صفين ٨٨ ، وفيه : « وقال معاوية حين أتاه قتل عثمان » .

(٢) ج : « وهده » .

(٣) قصرى فيه ؛ أي حسبي .

سأبغي أبا عمرٍو بكلّ مثقّفٍ ... وبيضٍ لها في الدّار عينَ صَليل [1]

تركتُك للقوم الذين هُمُ هُمُ ... شجاك فماذا بعد ذاك أقول

فلستُ مقيماً ما حييتُ ببلدةٍ ... أجرّ بها ذيلي وأنت قتيل

فلا نوم حتى تُشجَر الخيلُ بالقنا ... ويُشفَى من القوم الغواة غليلُ [2]

ونطحنَهم طحنَ الرّحا بثفالها ... وذاكَ بما أسدَوا إليك قليل [3]

فأمّا التي فيها مودّةُ بيننا ... فليس إليها ما حَييتُ سبيل

سأُلقحها حرباً عَواناً مُلِحّةً ... وإنّي بها مِنْ عامِنا لكفيل

قال نصر: وافتخرَ الحجّاج على أهل الشام بما كان من تسليمه على معاوية بإمرة المؤمنين.



قال نصر: [4] وحدثنا صالح بن صدقة، عن ابن إسحاق، عن خالد الخزاعي وغيره ممن لا يُتّهم، أن عثمان لما قُتِلَ وأُتِيَ معاوية بكتاب علي عليه السلام بعزله عن الشام، صعِد المنبر ونادى في الناس أن يحضُروا، فحضروا، فخطبهم. فحمِد اللهَ وأثنى عليه، وصلى على رسوله، ثم قال: يأهلَ الشام، قد علمتم أنّي خليفةُ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وخليفة عثمان، وقد قُتِلَ وأنا ابن عمه ووليّه، والله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً﴾ [5] وأنا أحبّ أن تُعلِمُوني ما في نفوسكم من قَتْل خليفتكم.

---

(١) وقعة صفين: «سأنعى»، وسأبغي. أي سأطلب ثأره؛ وأبو عمرو كنية عثمان.

(٢) تشجر الخيل: تطعن.

(٣) الثفال: جلد يبسط فتوضع فوقه الرحا ليسقط عليه الدقيق. وفي اللسان: «وفي حديث علي: وتدقهم الفتن دق الرحا بثفالها، هو من ذلك: والمعنى أنها تدقهم دق الرحا للحب؛ إذا كانت مثقلة، ولا تثقل إلا عند الطحن».

(٤) وقعة صفين ٩١.

(٥) سورة الإسراء ٣٣

فقام مُرّة بن كعب[١] ؛ وفي المسجد يومئذ أربعمائة رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله أو نحوها ، فقال : والله لقد قمتُ مقامي هذا ، وإني لأعلمُ أنّ فيكم مَنْ هو أقدم صحبةً لرسول الله صلى الله عليه منّي ؛ ولكنّي شهدتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم نصفَ النهار في يوم شديد الحرّ ، وهو يقول: « لَتكونَنّ فتنة حاضرة »، فمرّ رجل مُقَنّع، فقال رسول الله : وهذا [المقنع][٢] يومئذٍ على الهُدَى ، فقمت فأخذت بمنكبه ، وحَسَرْتُ عن رأسه ؛ فإذا عثمان، فأقبلتُ بوجهه على رسول الله صلى الله عليه ، وقلت: هذا يا رسول الله؟ فقال : نعم :

فأصفق أهلُ الشام مع معاوية حينئذ ، وبايعوه على الطلب بدم عثمان أميراً لا يطمع في الخلافة ثم الأمر شورى .

***

وروى إبراهيم بن الحسن بن ديزيل في " كتاب صفين " عن أبي بكر بن عبد الله الهذلي أن الوليد بن عقبة كتب إلى معاوية يستبطئه في الطلب بدم عثمان ، ويحرّضه وينهاه عن قطع الوقت بالمكاتبة :

ألا أبلغْ معاويةَ بن حَرْبٍ ... فإنك مِنْ أخي ثقةٍ مُليم[٣]

قطعتَ الدهر كالسَّدِمِ المعنّى ... تُهدّرُ في دمشقَ ولا تريم[٤]

---

(١) وقعة صفين : « كعب بن مرة السلمي » .

(٢) من صفين .

(٣) من أبيات ، في اللسان ١٥ : ٣٦ ، ٣٧ . ومليم ، من قولهم : ألام الرجل ؛ إذا أتى ما يلام عليه.

(٤) السدم : الفحل غير الكريم يكره أهله أن يضرب في إبلهم ؛ فيقيد ولا يسرح في الإبل رغبة عنه ؛ فهو يصول ويهدر ، أي يصيح . والمعنى أصله : « المعنن » من العنة ، فأبدلت إحدى النونين ياء ؛ كما قالوا : تظنى ، وأصله : « تظنن » ، وفي المثل : « كالمهدر في العنة » . وانظر مجمع الأمثال للميداني ٢ : ١٤١ .

فإنك والكتابَ إلى عليّ كدابغة وقد حَلِم الأديم[1]
لك الويلاتُ أقحِمها عليهم فخير الطالبي التِّرةِ الغَشُومُ[2]

قال: فكتب معاوية إليه الجواب بيتاً من شعر أوس بن حَجَر:

وَمُسْتَعْجِبٍ مِمّا يَرَى مِنْ أنَاتِنا وَلَوْ زَبَنَتْهُ الحَرْبُ لَمْ يَتَرَمْرَمِ[3]

* * *

وروى ابن ديزيل قال: لما عَزَم عليّ عليه السلام على المسير إلى الشام، دعا رجلا، فأمره أن يتجهز ويسير إلى دمشق، فإذا دخلَ أناخَ راحلته بباب المسجد، ولا يُلْقِ من ثياب سفره شيئا؛ فإن الناس إذا رأوه عليه آثار الغُرْبة سألوه، فليقل لهم: تركتُ علياً قد نَهَدَ[4] إليكم بأهل العراق. فانظر مايكون من أمرهم.

ففعل الرجل ذلك، فاجتمع الناس وسألوه، فقال لهم، فكثروا عليه يسألونه فأرسل

---

(١) الحلم، بالتحريك: أن يفسد الجلد في العمل ويقع فيه دود فيتثقب؛ تقول منه حلم، بالكسر، والحلمة: دودة تقع في الجلد فتأكله؛ فإذا دبغ وهي موضع الأكل، فبقي رقيقا؛ تقول منه: حلم الأديم؛ ومعنى البيت: أنت تسعى في إصلاح أمر قد تم فساده كهذه المرأة التي تدبغ الأديم الحلم الذي وقعت فيه الحلمة فثقبته وأفسدته فلا ينتفع به. كذا فسره صاحب اللسان واستشهد بالبيت.

(٢) في اللسان بعد هذا البيت:

فقومُكَ بالمدينةِ قَدْ تردَّوْا فهم صَرْعَى كأنهمُ الهشيمُ
فلو كنتَ المصابَ وكان حَيًّا تجرّدَ لا ألفَّ ولا سَئومُ
يهنّيكَ الإمارةَ كل ركب من الآفاق سيرهمُ الرسيمُ

وزاد الطبري بعد البيت الثاني من زيادات اللسان:

ولا نِكلٌ عن الأوتارِ حَتَّى يبيء بها ولا برمٌ جثومُ

وذكر الضبي في الفاخر ٣٠ بعض هذه الأبيات ونسبها إلى مروان بن الحكم.

(٣) ديوانه ٢٧، ومقاييس اللغة ٢: ٣٨٠، ٤: ٢٤٤؛ ولم يترمرم؛ أي ماحرك فاه بالكلام؛ كذا فسره ابن فارس واستشهد بالبيت. وانظر اللسان ١٥: ١٤٧.

(٤) يقال: نهد لعدوه؛ إذا أسرع لقتاله.

إليه معاوية بالأعور السُّلمىّ يسأله ، فأتاه فسأله ، فقال له ، فأتى معاوية فأخبره ، فنادى : الصلاة جامعة ، ثم قام فخطب الناس ، وقال لهم إنّ عليا قد نَهَدَ إليكم فى أهل العِراق ، فما ترون ؟ فضربَ الناس بأذقانهم على صدورهم ؛ لا يتكلّمون ، فقام ذو الكَلاع الحِميَرىّ فقال : عليك أمْ رأىُ وعلينا أم فعالُ ؛ وهى لغة حِمْير[1] .

فنزل ، ونادَى فى النّاس بالخروج إلى معسكرهم ، وعاد إلى علىّ عليه السلام ،فأخبره فنادى: الصلاة جامعة ،ثم قام فخطب الناس ، فأخبرهم أنّه قَدِم عليه رسول كان بعثه إلى الشام، وأخبره أنّ معاوية قد نَهَدَ إلى العراق فى أهل الشام ، فما الرأى ؟

قال : فاضطرب أهل المسجد ؛ هذا يقول : الرأى كذا ، وهذا يقول : الرأى كذا ، وكثُر اللّغط واللَّجَب ، فلم يفهم علىّ عليه السلام من كلامهم شيئا ، ولم يَدْرِ المصيبَ من المخطىء ، فنزل عن المِنبر ، وهو يقول : إنّا لله وإنّا إليه راجعون ! ذهب بها ابن آكلة الأكباد[2] — يعنى معاوية .

* * *

وروى ابن ديزيل عن عُقْبة بن مكرّم ، عن يونس بن بكير ، عن الأعمش ، قال : كان أبو مريم صديقاً لعلىّ عليه السلام، فسمع بما كان فيه علىّ عليه السلام من اختلاف أصحابه عليه ، فجاءه ، فلم يَرُعْ عليا عليه السلام إلا وهو قائم على رأسه بالعِراق، فقال له : أبا مريم، ما جاء بك نحوى ؟ قال : ما جاء بى غيرُك ؛ عهدِى بك لو ولّيت أمرَ الأمة كفيتَهم ، ثم سمعت بما أنت فيه من الاختلاف ! فقال : يا أبا مريم ؛ إنى مُنِيتُ بِشرار خَلْق الله، أريدُهم على الأمر الذى هو الرأى ، فلا يتّبعوننى .

* * *

(١) وهى لغة نقلت عن طىء أيضا ؛ وعليها ورد الحديث : « ليس من امبر امصيام فى امسفر » . مغنى اللبيب لابن هشام ١ : ٤٨ .

(٢) آكلة الأكباد ؛ هى هند بنت عتبة بن ربيعة ، زوج أبى سفيان وأم معاوية .

وروى ابن ديزيل عن عبد الله بن عمر ، عن زيد بن الحباب ، عن علاء بن جرير العنبرى ، عن الحكم بن عمير الثمالى — وكانت أمه بنت أبى سفيان بن حرب — قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه ذات يوم : كيف بك يا أبا بكر إذا وليت ؟ قال : لا يكونُ ذلك أبدا ، قال : فكيف بك يا عمر إذا وليت ؟ (١فقال : آكل حجَرا١) ، لقد لقيت إذَنْ شرًّا ، قال : فكيفَ بك يا عثمان إذا وُليت ؟ قال : آكلُ وأطعِم وأقسم ولا أظلم ، قال : فكيف بك يا علىّ إذا وليت ؟ قال : آكل القوتَ وأحمى الجمْرة ، وأقسم التمرة ، وأخفى الصور — قال : أى العورة — فقال صلى الله عليه وسلم : «أما إنكم كلكم سَيَلِى ، وسيرى الله أعمالكم » ، ثم قال : يامعاوية ، كيف بك إذا وليت ؟ قال : الله ورسوله أعلم قال : « أنت رأس الحطم ، ومفتاح الظلم ، حصبا وحقبا ، تتخذ الحسَن قبيحا ، والسيئة حسنة ، يربو فيها الصغير ، ويهرَم فيها الكبير ؛ أجلك يسير ، وظلمك عظيم » .

* * *

وروى ابن ديزيل أيضا عن عمر بن عون ، عن هشيم ، عن أبى فلج ، عن عمرو بن ميمون ، قال : قال عبد الله بن مسعود : كيف أنتم إذا لَقِيتكم فتنة يَهرَم فيها الكبير ، ويربُو فيها الصغير ، تجرى بين الناس ، ويتخذونها سُنّة ، فإذا غُيِّرت قيل : هذا مُنكر !

* * *

وروى ابن ديزيل ، قال : حدثنا الحسَن بن الرّبيع البَجلىّ ، عن أبى إسحاق الفزارىّ عن حُميد الطويل ، عن أنس بن مالك ، فى قوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ * أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ ﴾(٢) . قال : أكرَم الله تعالى نبيَّه عليه السلام أن يريَه فى أمته مايكره رفعه إليه ، وبَقِيت النّقمة .

(١ — ١) فى ا ، ج : « فقال حجرا » ، وفى حاشية ج : « يحتمل أن يكون بسكون الجيم ، بمعنى المنع » .
(٢) سورة الزخرف ٤١ ، ٤٢ .

قال ابن ديزيل : وحدثنا عبد الله بن عمر ، قال : حدثنا عمرو[1] بن محمد ، قال: أخبرنا أسباط ، عن السدّى ، عن أبى المِنْهال ، عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « سألتُ ربّى لأمتى ثلاث خلال ، فأعطانى اثنتين ، ومنعنى واحدة : سألته ألّا تَكفُرَ أمتى صَفْقة واحدة فأعطانيها ، وسألته ألّا يعذبهم بما عذّب به الأمم قبلهم فأعطانيها ، وسألته ألّا يجعلَ بأسهم بينهم فمَنعنيها » .

* * *

قال ابن ديزيل : وحدّثنا يحيى بن عبد الله الكرابيسىّ ، قال : حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا أبو معاوية ، عن عمار بن زُرَيق ، عن عمّار الدُّهنىّ ، عن سالم بن أبى الجَعْد قال : جاء رجلٌ إلى عبدالله بن مسعود ، فقال : إنّ الله تعالى قد آمَنَنَا أن يظلِمنا ، ولم يؤمِنّا أن يَفْتِنَنَا ، أرأيت إذا أنزلتْ فتنة ، كيف أصنع ؟ فقال : عليك كتابَ الله تعالى ، قال: أفرأيت إن جاء قومٌ كلّهم يدعو إلى كتاب الله تعالى ؟ فقال ابنُ مسعود : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا اختلف النّاس كان ابن سُمَيّة مع الحقّ » ، يعنى عمّارا .

* * *

وروى ابن ديزيل ، قال : حدثنا يحيى بن زكريا[2] ، قال : حدّثنا علىّ بن القاسم ، عن سعيد بن طارق ، عن عثمان بن القاسم ، عن زيد بن أرقم ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : « ألا أدلّكم على ما إن تَساءلتم عليه لم تَهْلِكوا ؟ إنّ وَليّكم الله ، وإن إمامَكم علىّ بن أبى طالب ، فناصحوه وصدّقوه ، فإن جبريل أخبرنى بذلك » .

فإن قلت : هذا نصّ صريح فى الإمامة ، فما الذى تصنع المعتزلة بذلك ؟

قلت : يجوز أن يريدَ أنّه إمامهم فى الفتاوَى والأحكام الشرعيّة ، لا فى الخلافة . وأيضا فإنا قد شرحنا من قول شيوخِنا البغداديين ماحصّله : إنّ الإمامة كانت لعلىّ

(١) ب : « عمر » .

(٢) ب : « زكريا بن يحيى » .

عليه السلام إن رغب فيها ونازع عليها ، وإن أقرّها في غيره وسكتَ عنها تولّينا ذلك الغير ، وقلنا بصحة خلافته ، وأميرُ المؤمنين عليه السلام لم ينازِع الأئمة الثلاثة ، ولا جرّد السيف ، ولا استنجد بالناس عليهم ؛ فدلّ ذلك على إقراره لهم على ما كانوا فيه ؛ فلذلك تولّيناهم ، وقلنا فيهم بالطهارة والخير والصلاح ، ولو حاربَهم وجرّد السيف عليهم ، واستصرخ العرب على حَرْبهم لقلنا فيهم ما قلناه فيمن عامله هذه المعاملة ، من التفسيق والتضليل .

***

قال ابن ديزيل : وحدّثنا عمرو بن الربيع ، قال : حدثنا السّريّ بن شيبان ، عن عبدالكريم ، أنّ عمر بن الخطاب قال لما طُعِن : ياأصحابَ محمد تناصحوا ؛ فإنكم إن لم تفعلوا غَلَبكم عليها عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان .

قلت : إنّ محمد بن النعمان المعروف بالمفيد أحد الإمامية قال في بعض كتبه : إنّما أراد عمر بهذا القول إغراء معاوية وعمرو بن العاص بطلب الخلافة وإطماعهما فيها ، لأنّ معاوية كان عامله وأميره على الشام ، وعمرو بن العاص عامله وأميره على مصر ، وخاف أن يَضْعف عثمان عنها ، وأن تَصير إلى عليّ عليه السلام ، فألقى هذه الكلمةَ إلى الناس لتنقل إليهما ـ وهما بمصر والشام ـ فيتغلبا على هَذَيْن الإقليمين إن أفضَتْ إلى عليّ عليه السلام .

وهذا عندي من باب الاستنباطات التي يُوجبها الشنآن والحَنَق ، وعمر كان أتقَى لله من أن يخطُر له هذا ، ولكنه من فراسته الصادقة التي كان يعلم بها كثيرا من الأمور المستقبلة ؛ كما قال عبد الله بن عباس في وصفه : والله ما كان أوس بن حَجَر عَنَى أحدا سواه بقوله :

الألمعيّ الّذِي يظنّ بكَ الظّنّ ـ كأنْ قَدْ رَأى وَقَدْ سَمِعا[1]

***

(١) ديوانه ١٣ .

وروى ابن دِيزيل ، عن عفّان بن مسلم ، عن وهب بن خالد ، عن أيوب ، عن أبي قلابة ، عن أبي الأشعث ، عن مُرة بن كعب ، قال : ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله فتنة فقرّبها ، فمرّ رجل قد تقنّع بثوبه ، فقال عليه السلام : « هذا وأصحابه يومئذ عَلَى الحقّ » ، فقمت إليه فأخذت بمنكبه ، فقلت : هو هذا ؟ فقال : نعم ، فإذا هو عثمان ابن عفان .

قلت : هذا الحديث قد رواه كثير من محقّقي أصحاب الحديث، ورواه محمد بن إسماعيل البخاريّ في " تاريخه الكبير " بعدة روايات . وليس لقائل أن يقول : فهذا الحديث إذا صححتموه كان حُجّة للسُّفيانية ؛ لأنا نقول : الخبرُ يتضمّن أن عثمانَ وأصحابه على الحقّ، وهذا مذهبنا ، لأنا نذهب إلى أنّ عثمان قتل مظلوما ، وأنه وناصِريه يوم الدار عَلَى الحقّ ؛ وأنّ القوم الذين قتلوه لم يكونوا عَلَى الحقّ ؛ فأما معاويةُ وأهل الشام الذين حاربوا عليًّا عليه السلام بصِفّين فليسوا بداخلين في الخبر ؛ ولا في ألفاظ الخبر لفظ عموم يتعلّق به ، ألا تَرى أنّه ليس فيه كلّ مَنْ أظهر الانتصار لعثمان في حياته وبعد وفاته فهو عَلَى الحقّ ، وإنّما خلاصته أنه ستقوم فِتنة ، يكون عثمان فيها وأصحابه عَلَى الحقّ ، ونحن لا نأبَى ذلك ، بل هو مذهبنا .

* * *

وروى نصر بن مزاحم في كتاب " صفّين " قال : [(1)] لما قَدم عبيدُ الله بن عمر ابن الخطاب عَلَى معاوية بالشام ، أرسل معاوية إلى عمرو بن العاص : إنّ الله قد أحْيَا لك عمر بن الخطاب بالشام بقدوم عبيدالله بن عمر ، وقد رأيتُ أن أقيمه خطيبا يشهد عَلَى عليّ بقتل عثمان ، وينالُ منه ، فقال : الرأيُ ما رأيتَ ، فبعث إليه ، فأتاه ، فقال له معاوية : يابن أخي ، إنّ لك

---

(١) وقعة صفين ٩٢ — ٩٤

اسمَ أبيك فانظر بملء عينيك ، وانطق بملء فيك ، فأنت المأمون المصدّق ، فاصعدِ المنبر واشتم عليًّا ، واشهد عليه أنه قتل عثمان .

فقال : أيها الأمير ، أما شتمهُ ؛ فإن أباه أبو طالب ، وأمّه فاطمة بنت أسد بن هاشم ، فما عسى أن أقول فى حسبه ! وأمّا بأسُه فهو الشجاع المطرِق ، وأما أيامُه فما قد عرَفت ؛ ولكنى ملزِمُه دمَ عثمان ، فقال عمرو بن العاص : قد وأبيك إذَنْ نكأت القرحة .

فلما خرج عبيد الله بن عمر ، قال معاوية : أما والله لولا قتلُه الهرمزان ، ومخافتُه عليًّا علَى نفسه ما أتانا أبدا ؛ ألا ترى إلى تقريظه عليًّا ! فقال عمرو : يا معاوية ، إن لم تَغلب فاخلُب ، قال : وخرج حديثهما إلى عبيد الله ، فلما قام خطيبا تكلّم بحاجته ، فلما انتهى إلى أمرِ علىّ أمسك ولم يقل شيئا ، فلما نزل بعث إليه معاوية : يابن أخى ؛ إنك بين عِىّ وخيانة ، فبعث إليه : إنى كرهت أن أقطع الشهادة على رجل لم يقتل عثمان ، وعرفت أنّ الناس محتملوها عنّى فتركتها .

قال : فهجَره معاوية واستخفّ به وفسّقه ، فقال عبيد الله :

مُعَاوِىَ لم أحْرَضْ بخطبةِ خاطبٍ ... ولم أكُ عيًّا فى لُؤَىِّ بن غالبِ[1]

ولكنّنِى زاولتُ نفسا أبيّـــةً ... على قَذْفِ شيخٍ بالعراقين غائب

وقذفى عليًّا بابن عفّانَ جَهرَةً ... كِذابٌ ، وما طِبّى سَجَايا المُكاذِبِ[2]

ولكنّه قد قرّب القوم جُهدَه ... ودبُّوا حواليْه دبيبَ العقاربِ

فما قالَ : أحسنتم ولا قد أسأتمُ ... وأطرَقَ إطراقَ الشُّجاع المواثب

---

(١) لم أحرض : لم أكل ولم أعى . وفى صفين : « لم أخرس » ، أى لم أكذب .

(٢) رواية كتاب صفين :

* يُجدّعُ بالشّحْنَا أنوفَ الأقاربِ *

فأمّا ابن عفـــانٍ فأشهدُ أنه أصيبَ بريئا لابساً ثوبَ تائبِ[1]
وَقَدْ كانَ فيها للزبير عَجَاجَـــةٌ وطلحةُ فيها جاهدٌ غـــير لاعبِ
وَقَدْ أظهرَا مِنْ بَعْدِ ذَلك تَوْبَةً فياليتَ شِعْرِى ما هُما فى العواقب !

قال : فلما بلغ معاوية شعره بعث إليه فأرضاه ، وقال : حسبى هذا منك .

***

وروى نصر ، عن عبيد الله بن موسى ، قال : سمعتُ سُفيان بن سعيد المعروف بسُفْيان الثورىّ ، يقول : ما أشكّ أنّ طلحة والزبير بايعا عليًّا ، وما نقما عليه جَوْراً فى حُكْم ولا استئثارا بفىْء ؛ وما قاتل عليًّا أحدٌ إلا وعلىٌّ أولى بالحق منه .

وروى نصر بن مُزاحم أنّ عليا عليه السلام قدِم من البصرة فى غُرّة شهر رجب من سنة ست وثلاثين إلى الكوفة ،وأقام بها سبعة عشر شهرا ، تجرى الكتُب بينه وبين معاوية وعمرو بن العاص ، حتى سار إلى الشام .

قال نصر :[2] وقد رُوِى من طريق أبى الكنود وغيره أنه قَدِم الكوفة بعد وقعة الجمل ، لاثنتى عشرة ليلة خَلَتْ من شهر رجب سنة ست وثلاثين .

قال نصر : فدخل الكوفةَ ومعه أشراف الناس من أهل البصرة وغيرهم ، فاستقبله أهلُ الكوفة ، وفيهم قرّاؤهم وأشرافُهم ، فدعوْا له بالبَرَكة ، وقالوا : يا أمير المؤمنين ، أين تنزل ؟ أتنزل القصر ؟ قال : لا ، ولكنى أنزل الرّحبة ، فنزلها وأقبل حتى دخل المسجدَ الأعظم ، فصلّى فيه ركعتين ، ثم صعِد المنبر فحمد الله ، وأثنى عليه وصلّى على رسوله ، ثم قال :

---

(١) بعده فى كتاب صفين :

حَرَامٌ عَلَى آهالِهِ نَتْفُ شَعْرِهِ فـكيفَ وَقَدْ جازوهُ ضَرْبَةَ لَازِبِ

(٢) وقعة صفين ٥ — ٨ .

أما بعد يا أهل الكوفة ؛ فإنّ لكم فى الإسلام فضلا ما لم تبدّلوا وتغيّروا ، دعوتُكم إلى الحق فأجبتم ، وبدأتم بالمنكر فغيّرتم ، ألا إنّ فضلكم فيما بينكم وبين الله ، فأمّا فى الأحكام والقَسْم فأنتم أسوة غيركم ممن أجابكم ، ودخل فيما دخلتم فيه . ألا إنّ أخوَف ما أخاف عليكم اتباعُ الهوى ، وطول الأمل ؛ أما اتّباعُ الهوَى فيصدّ عن الحق ، وأما طول الأمل فينسى الآخرة ؛ ألا إنّ الدنيا قد ترَحّلَتْ مدبرة ، وإن الآخرة قد ترَحّلت مقبلة ؛ ولكلّ واحدة منهما بنون ؛ فكونوا من أبناء الآخرة . اليوم عمل ولا حساب ، وغدا حساب ولا عمل ؛ الحمد لله الّذِى نَصَر وليّه ، وخَذَل عدوّه ، وأعزّ الصادق المحقّ ، وأذلّ الناكِث المبطل .

عليكم بتقوَى الله وطاعة مَنْ أطاع الله من أهل بيت نبيّكم ، الذين هم أولى بطاعتكم فيما أطاعوا الله فيه من المستحلّين المدّعين المقابلين[1] إلينا ؛ يتفضلون بفضلنا ، ويجاحدوننا أمرَنا ، وينازعوننا حقّنا ، ويُباعدوننا عنه ، فقد ذاقوا وَبَال ما اجترحوا فسوف يلقوْن غيّا . ألا إنه قد قَعَدَ عن نصرتى رجال منكم ؛ وأنا عليهم عاتبٌ زارٍ ؛ فاهجرُوهم وأسمعوهم ما يكرهون ، حتى يُعتِبُوا[2] ليعرف بذلك حزبُ الله عند الفرقة .

فقام إليه مالك بن حبيب اليربوعىّ - وكان صاحبَ شُرطته - فقال : والله إنى لأرى الهُجْر وسماع المكروه لهم قليلا ، والله لو أمرتنا لنقتلنّهم . فقال علىّ عليه السلام : سبحان الله يا مالِ ! جُزْتَ المَدَى ، وعَدَوْت الحدّ ، فأغرقت[3] فى النّزْع . فقال : يا أمير المؤمنين ، لَبَعْض الغَشْم أبلغُ فى أمرٍ ينُوبُك من مهادنة الأعادى ؛ فقال علىّ عليه السلام : ليس هكذا قضى الله ، يا مالِ ، قال سبحانه : ﴿ النَّفْسَ بالنَّفْسِ ﴾[4] فما بالُ ذِكْرِ الغَشْم !

---

(١) كذا فى ج وصفين ، وفى ا ، ب : « القائلين إلينا » .
(٢) الإعتاب : إعطاء العتبى ، وهى الرضا (٣) ا ، ج : « وأغرقت » .
(٤) سورة المائدة ٤٥ .

وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ ﴾(١) ، والإسراف فى القتل أن تقتل غيرَ قاتلك ، فقد نهى الله عنه ، وذاك هو الغَشم .

فقام إليه أبو بُرْدة بن عوفٍ الأزدىّ ـ وكان ممّن تخلّف عنه ـ فقال : يا أميرَ المؤمنين ، أرأيت القتلى حول عائشةَ وطلحةَ والزبير ، علام قُتِلوا ؟ ـ أوقال : بم قتلوا ؟ ـ فقال علىّ عليه السلام : قُتِلوا بما قَتَلُوا شِيعتى وعُمّالى ، وقتلوا أخا ربيعة العبدىّ فى عِصابة من المسلمين ، قالوا : إنّا لا ننكُث كما نكثتم ، ولا نَغْدِر كما غدرتم ؛ فوثبوا عليهم فقتلوهم ، فسألتهم أنْ يدفعوا إلىّ قَتَلَةَ إخوانى أقتلهم بهم ، ثم كتابُ الله حَكَمٌ بينى وبينهم ، فأبَوْا علىّ ، وقاتلونى ـ وفى أعناقهم بَيْعتى ، ودماء قريب من ألف رجل مِنْ شيعتى ـ فقتلتُهم ، أفى شكّ أنتَ من ذلك ! فقال : قد كنتُ فى شكّ ، فأمّا الآن فقد عرفتُ ، واستبان لى خطأ القوم ، وإنّك المهتدِى المصيب .

قال نصر : وكان أشياخ الحىّ يذكرون أنه كان عثمانيًّا ، وقد شَهِد على ذلك صِفّين مع علىّ عليه السلام ، ولكنّه بعد ما رجع كان يكاتِبُ معاوية ، فلما ظهر معاوية أقطعه قطيعةً بالفلُّوجة(٢) ، وكان عليه كريما .

قال : ثم إنّ عليًّا عليه السلام تهيّأ لينزل ، وقام رجالٌ ليتكلّموا ، فلما رأوْه نزل جلسوا وسكتوا .

قال : ونزل علىٌّ عليه السلام بالكوفة على جَعْدة بن هبيرة المخزومىّ .

قلت : جَعْدة ابن أخته أم هانئ بنت أبى طالب ، كانت تحت هُبيرة بن أبى وهب المخزومىّ ، فأولدها جعدة ، وكان شريفا .

* * *

(١) سورة الإسراء ٣٣ .

(٢) فى مراصد الاطلاع : الفلوجة الكبرى والفلوجة الصغرى : قريتان كبيرتان من سواد بغداد والكوفة قرب عين التمر . قلت : والمشهور هى هذه التى على شاطئ الفرات ، عندها نهر الملك من الجانب الشرقى .

قال نصر : ولما[1] قدم عليٌّ عليه السلام إلى الكوفة نزَل على باب المسجد ، فدخلَ فصلّى ، ثم تحوّل فجلس إليه الناس ، فسأل عن رجل من الصحابة كان نزل الكوفة ، فقال قائل : استأثر الله به ، فقال عليّ عليه السلام : إن الله تبارك وتعالى لا يستأثر بأحد من خَلْقه ؛ إنما أراد الله جلّ ذكره بالموت إعزازَ نفسه ؛ وإذلالَ خَلْقه ، وقرأ : ﴿ كُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾[2] ؛ قال نصر : فلما لِحقه عليه السلام ثَقَلُه قالوا : أنَنزِل القصر ؟ فقال : قصر الخبال ، لا تَنزلوا فيه[3] .

* * *

قال نصر : ودخل[4] سليمان بن صُرَد الخزاعيّ على عليّ عليه السلام ؛ مرجِعَه[5] من البَصْرة ، فعاتبه وعَذَله ، وقال له : ارتبْتَ وتربّصت وراوغْت ؛ وقد كنتَ من أوثقِ الناس في نفسي ، وأسرعهم فيما أظنّ إلى نُصْرتي ؛ فما قعَدَ بكَ عن أهل بيت نبيّك ؟ وما زهدك في نصرتهم ؟

فقال : ياأمير المؤمنين ، لا تردّنّ الأمور على أعقابها ، ولا تؤنّبْني بما مضى منها ، واستبقِ مودّتي تخلصْ لك نصيحتي ؛ فقد بقيت أمورٌ تعرف فيها عدوّك من وَلِيّك .

فسكتَ عنه ، وجلس سليمانُ قليلا ، ثم نهض ، فخرج إلى الحسن بن عليّ عليه السلام ؛ وهو قاعد في باب المسجد ، فقال : ألا أعجِّبُك من أمير المؤمنين ، وما لقيتُ منه من التوبيخ والتبكيت ؟ فقال الحسن : إنما يعاتَبُ مَنْ تُرجَى مودّته ونصيحتُه ، فقال : لقد وَثَبَتْ أمور ستُشْرَع فيها القَنا ، وتُنتضَى فيها السيوف ، ويحتاجُ فيها إلى أشباهي ، فلا

---

(١) كتاب صفين ٨ .
(٢) سورة البقرة ٢٨ .
(٣) صفين : « لا تنزلونيه » .
(٤) وقعة صفين ٩
(٥) وقعة صفين : « بعد رجعته » .

استغِشُّوا عَتْبِى[1] ، ولا تتّهموا نصحى .

فقال الحسن : رحمك الله ، ما أنتَ عندنا بِظَنِين[2] .

قال نصر : ودخل عليه سعيد بن قيس الأزدِىّ ، فسلّم عليه ، فقال : وعليك السلام وإنْ كنتَ من المتربّصين ! قال : حاش لله يا أمير المؤمنين ! فإنى لست من أولئك . فقال : لعلّ الله فعل ذلك .

* * *

قال نصر : وحدثنا[3] عمر بن سعد ، قال : حدّثنا يحيى بن سعيد ، عن محمد بن مِخْنف ، قال : دخلتُ مع أبى على علىّ عليه السلام ، مقدَمه[4] من البصرة ، وهو عام بلغتُ الحُلُمَ ؛ فإذا بين يديه رِجال يؤنّبهم ، ويقول لهم : ماأبطأ بكم عنّى ، وأنتم أشرافُ قومكم ! والله إن كان من ضَعْف النيّة وتقصير البصيرة ؛ إنكم لَبُور[5] ، وإن كان من شكّ فى فضلى ومظاهرة علىّ ؛ إنكم لعدوّ .

فقالوا : حاش لله يا أمير المؤمنين ! نحن سِلْمك وحرب عدوّك . ثم اعتذر القوم فمنهم من ذكر عذرا ، ومنهم من اعتلّ بمرض ؛ ومنهم من ذكر غيبة ؛ فنظرت إليهم فعرفتهم ؛ فإذا عبد[6] الله المعتمّ العبسىّ ؛ وحنظلة بن الرّبيع التميمىّ ؛ وكلاهما كانت له صحبة ؛ وإذا أبو بُرْدة بن عوف الأزدىّ ؛ وإذا غريب بن شُرَحبيل الهَمْدانىّ .

قال : ونظر علىّ عليه السلام إلى أبى ، فقال : ولكن مِخْنف بن سلم وقومه لم يتخلفوا ، ولم يكن مَثَلُهم كمَثَلِ القوم الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ

---

(١) لا تستغشوا عتبى ؛ أى لا تظنوا عتابى لكم غشا .

(٢) الظنين : المتهم ؛ وأصله : « مظنون » .

(٣) وقعة صفين ١٠

(٤) وقعة صفين : « حين قدم » .

(٥) لبور ؛ أى هالكون ، جمع بلفظ المفرد .

(٦) فى الأصول : « عبيد الله » صوابه من صفين .

أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً ، وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾[١] .

قال نصر : ثم[٢] إن علياً عليه السلام مكث بالكوفة ، فقال الشنّي فى ذلك [شنّ بن عبد القيس][٣] :

قُلْ لِهَذَا الإِمَامِ قَدْ خَبَتِ الحَرْ ... بُ وَتَمَّتْ بِذَلِكَ النَّعْمَاءُ

وَفَرَغْنَا مِنْ حَرْبِ مَنْ نَقَضَ العَهْـ ... ـدَ وبالشامِ حَيَّةٌ صَمَّاءُ

تَنْفُثُ السَّمَّ مَا لِمَنْ نَهَشَتْهُ ... ـ فارْمِها قبل أن تَعَضّ ـ شِفَاءُ[٤]

إنه والذى يحجُّ له النا ... سُ ومِنْ دُونِ بَيْتِهِ البَيْدَاءُ

لَضَعِيفُ النُّخَاعِ إِنْ رُمِىَ اليو ... مَ بِخَيْلٍ كأنها أشلاءُ[٥]

تَتَبارَى بكلِّ أصْيَدَ كالفحـ ... لِ بكفّيهِ صَعْدَةٌ سَمْرَاءُ[٦]

إِنْ تَذَرْهُ فَمَا مُعَاوِيةُ الدَّهْـ ... ـرَ بمعطيكَ ما أراكَ تشاءُ

وَلَنَيْلُ السَّمَاءِ أَقْرَبُ مِنْ ذَا ... كَ وَنَجْمُ العَيُّوقِ والعَوَّاءُ[٧]

فَاعْدُ بالجِدِّ والحديدِ إليهمْ ... ليسَ واللهِ غيرَ ذاكَ دَوَاءُ

---

(١) سورة النساء ٧٢ ، ٧٣ . (٢) كتاب صفين ١١ ، ١٢ .

(٣) تكملة من كتاب وقعة صفين ؛ وهو الأعور الشنى ، واسمه بشر بن منقذ ، أحد بنى شن بن أقصى بن عبد القيس . وانظر المؤتلف والمختلف للآمدى ٣٨

(٤) فى اللسان : « قيل للحية التى لا تجيب الراقى صماء ؛ لأن الرقى لا تنفعها » .

(٥) أشلاء الإنسان : أعضاؤه ، وبعده فى كتاب صفين :

جانحاتٍ تحتَ العجاجِ سِخَالاً ... مُجْهِضَاتٍ تَخَالُهَا الأَشْلاءُ

(٦) الصعدة : القناة المستوية التى لا تحتاج إلى التثقيف .

(٧) العيوق : نجم أحمر مضىء فى طرف المجرة الأيمن ، يتلو الثريا لا يتقدمها . والعواء : منزل للقمر .

قال نصر : وأتمّ عليّ عليه السلام صلاته يوم دخل الكوفة ، فلما كانت الجمعة خطب الناس ، فقال :

الحمدُ لله الذي أحمَده[١] وأستعينه وأستهديه ، وأعوذُ بالله من الضلالة ؛ مَنْ يَهْدِ الله فلا مُضِلّ له ، ومَنْ يُضْلِل فلا هاديَ له ؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، انتجَبه لأمره ، واختصّه بنبوّته . أكرمُ خَلْقه عليه ، وأحبّهم إليه ، فبلّغ رسالة ربّه ، ونصح لأمته ، وأدّى الذي عليه .

أوصيكم بتقوى الله ، فإنّ تقوى الله خيرُ ماتَواصَى به عبادُالله ، وأقربُه إلى رضوان الله ، وخيرُه في عواقب الأمور عند الله ، وبتقوى الله أمِرْتُم ، وللإحسان والطاعةِ خلقتم ؛ فاحذروا من الله ماحذّركم من نفسه ، فإنه حذّر بأسا شديدا ، واخشوا خشية ليست بتعذير[٢] واعملوا في غير رياء ولا سُمْعة ؛ فإنّه من عمل لغير الله وَكَله الله إلى ماعمل له ، ومن عمل لله مخلصا تولّى الله أجرَه . أشفقوا مِن عذاب الله ؛ فإنه لم يخلقكم عبثا ، ولم يترك شيئاً من أمركم سُدًى ؛ قد سمّى آثاركم ، وعلِم أعمالكم ، وكتب آجالكم ؛ فلا تغترّوا بالدنيا فإنّها غرّارة لأهلها ، مغرور مَنْ اغترّ بها ، وإلى فناءٍ ماهي ، وإن الآخرة هي دارُ الحيوان لو كانوا يعلمون . أسأل الله منازلَ الشهداء ، ومرافقةَ الأنبياء ، ومعيشة السعداء ، فإنما نحن به وله[٣] .

قال نصر : ثم[٤] استعمل علي عليه السلام العمّال وفرّقهم في البلاد ؛ وكتب إلى معاوية مع جَرير بن عبد الله البَجليّ ماتقدم ذكره .

---

(١) صفين : « إن الحمد لله أحمده » .
(٢) التعذير هنا : الإهمال والتقصير .
(٣) صفين ١٣ .
(٤) كتاب صفين ١٤ ؛ وفيه : « ثم إن عليا أقام بالكوفة واستعمل العمال » .

قال نصر:(١)وقال معاوية لعمرو بن العاص ، أيام كان جريرٌ عنده ينتظر جوابَه: إنى قد رأيتُ أن نُلقِيَ إلى أهل مكّة وأهلِ المدينة كتاباً، تذكر فيه أمرَ عثمان ؛ فإمّا أن ندرِك به حاجتَنا ، أو نكفَّ القومَ عنا ، فقال له عمرو : إنما تكتب إلى ثلاثة نفر : رجلٍ راضٍ بعليّ فلا يزيده كتابُك إلا بصيرة فيه ، أو رجلٍ يهوى عثمان ؛ فلن يزيدَه كتابُك على ماهو عليه ، أو رجلٍ معتزلٍ ، فلست فى نفسه بأوثقَ من علىّ .

قال : علىّ ذاك ، فكتبا :

أما بعد ؛ فإنه مهما غابَ عَنّا من الأمور فلم يغب عنّا أن عليا قتل عثمان ؛ والدليلُ على ذلك مكانُ قتلته منه ؛ وإنّما نطلب قتلته ؛ حتى يُدفعوا إلينا ، فنقتُلَهم بكتاب الله عزّ وجلّ ، فإن دفعهم علىّ إلينا كَفَفْنا عنه ؛ وجعلناها شورى بين المسلمين على ما جعلها عليه عمر بن الخطاب . فأمّا الخلافة فلسنا نطلُبها ، فأعينونا على أمرِنا هذا ، وانهضوا من ناحيتكم ؛ فإنّ أيدينا وأيديكم إذا اجتمعت على أمر واحد هاب علىّ ماهو فيه ، والسلام .

فكتب إليهما عبد الله بن عمر :

أما بعدُ ، فلعمرى لقد أخطأتُما موضعَ النُّصرة وتناولتُماها من مكان بعيد ؛ ومازاد الله من شكّ فى هذا الأمر بكتابكما إلا شكاً ،وما أنتما والمشورة ،وما أنتما والخلافة! أمّا أنتَ يامعاوية فطَليق ، وأما أنت ياعمرو فظَنِين(٢)، ألا فكفّا أنفسكما ، فليس لكم فينا ولىّ ولا نصير . والسلام .

قال نصر : وكتب(٣)رجل من الأنصار إليهما مع كتاب عبد الله بن عمر :

---

(١) كتاب صفين ٧٠ ، ٧١ .
(٢) كتاب صفين : « ظنون » ، والظنين والظنون بمعنى المتهم .
(٣) صفين ٧١ .

مُعَاوِىَ إنّ الحقّ أبْلجُ واضحٌ وليس بما رَبَّصْتَ أنتَ ولا عَمْرُو

نصبتَ ابن عفانٍ لنا اليوم خُدْعةً كانُصِب الشيخان إذ قُضِىَ الأمر[١]

ـ يعنى طلحة والزبير رحمهما الله ـ

فَهذَا كَهذَاكَ البلا حَذْوَ نَعْلِه سواء كَرَقْرَاقٍ يُغَرُّ به السَّفْر[٢]

رَمَيْتُمْ عَلِيًّا بالّذى لَايَضِيرُهُ وإنْ عَظُمَتْ فيه المكيدةُ والمَكْر[٣]

وَمَا ذنْبُه إن نالَ عثمانَ معشرٌ أتوه من الأحياء تجمعُهُمْ مِضرُ

فثار إليه المسلمونَ ببيْعةٍ علانيةً ما كان فيها لم قسْرُ

وَبايعهُ الشّيْخان ثم تَحمّلَا إلى العُمْرَة العُظمَى وباطنُها الغَدْرُ

فكانَ الّذِى قد كان مما اقتصاصُه يطولُ ؛ فيالله ماأحْدَثَ الدّهر[٤]

وَمَا أنتُما والنّصرَ مِنّا وأنتما بَعِيثَا حُرُوب مايبوخُ لها جَمْر[٥]

وما أنتما لله دَرُّ أبيكُما وذِكْرُكُما الشُّورَى وقدوَضَحَ الفَجْر[٦]

* * *

قال نصر[٧] : وقام عدى بن حاتم الطائىّ إلى علىّ عليه السلام، فقال : ياأميرَ المؤمنين، إن عندى رجلًا لايوازَى[٨] به رجل ، وهو يريد أن يزورَ ابن عمه حابس بن سعد الطائىّ بالشام ، فلو أمرناه أن يلقَى معاوية لعلّه أنْ يكسره ويكسر أهلَ الشام ، فقال على

---

(١) كتاب صفين : « إذ زخرف الأمر » .
(٢) الرقراق : مايتراءى للمسافر من رمال الصحراء كأنها الماء .
(٣) كتاب صفين : « لايضره » .
(٤) اقتصاصه : قصه وحكايته ، وفى صفين : « رجيم فيا لله ما أحدث الدهر » .
(٥) يبوخ الجمر : ينطفئ .
(٦) صفين : « وقد فلج الفجر » .
(٧) صفين ٧١ ـ ٧٤ .
(٨) صفين : « لايجارى به » .

عليه السلام : نعم ، فأمَرَه عديّ بذلك[1] ـ وكان اسمُ الرجل خُفافَ بن عبدالله .

فقدم على ابن عمّه حابس بن سعد بالشام ـ وحابس سيد طَيّئ بها ـ فحدث خُفاف حابسا أنه شهِد عثمان بالمدينة ، وسار مع عليّ إلى الكوفة ، وكان لخفاف لسان وهيئة وشِعْر ، فغدا حابس بخُفاف إلى معاوية ، فقال : إنّ هذا ابنُ عمّ لى ، قدم الكوفة مع عليّ ، وشهد عثمان بالمدينة ، وهو ثقة . فقال له معاوية : هات ، حدّثنا عن عثمان ، فقال : نعم حصره المكشوح [وحُكّم فيه حُكيم ، ووليه عمار ، وتجرد فى أمره ثلاثة نفر : عديّ بن حاتم][2] والأشتر النخعيّ ، وعمرو بن الحمق ، وجدّ فى أمره رَجُلان وطلحة والزُّبير ، وأبرأ الناس منه عليّ . قال: ثم مَهْ ، قال : ثم تهافَتَ الناس على عليّ بالبيعة تهافُتَ الفَراش ، حتى ضاعت النعل[3] وسقط الرّداء ، ووُطِئ الشيخ . ولم يذكر عثمان ولم يُذكر له ، ثم تهيّأ للسير ، وخفّ معه المهاجرون والأنصار ، وكره القتال معه ثلاثة نفر : سعد ابن مالك ، وعبدالله بن عمر ، ومحمد بن مسلمة ، فلم يستكره أحداً ، واستغنى بمن خفّ معه عمّن ثقُل . ثم سار حتى أتى جبل طيّئ ، فأتته منّا جماعة كان ضاربا بهم الناس ؛ حتى إذا كان ببعض الطريق أتاه مسيرُ طلحة والزبير وعائشة إلى البصرة ، فسرّح رجالا إلى الكوفة يدعونهم ؛ فأجابوا دعوته ، فسار إلى البصرة ، فإذا هى فى كفّه ، ثم قدم الكوفة فحمِل إليه الصبيّ ، ودبّت إليه العجوز ، وخرجت إليه العَرُوس فرحاً به وشوقاً إليه ؛ وتركته وليس له همة إلا الشام .

فذعِر معاوية من قوله ، وقال حابس : أيها الأمير ، لقد أسمعنى شعرا غيّر به حالى فى عثمان ، وعظّم به عليا عندى .

---

(١) صفين : « فره بذلك » .

(٢) مابين العلامتين تكملة من كتاب صفين .

(٣) صفين : « حتى ضلت النعل » .

فقال معاوية : أسمعنيه يا خُفاف ، فأنشده شعراً أوله :

قُلْتُ وَالليلُ سَاقِطُ الأَكْنَافِ   وَلِجَنْبِي عَنِ الفِرَاشِ تَجَافِ

ـ يذكر فيه حال عثمان وقتله ، وفيه إطالة عدلنا عن ذكره [١] . . . ومن جملته :

قَدْ مَضَى مَا مَضَى وَمَرَّ به الدَّهْـ   ـرُ كما مَرَّ ذاهبُ الأَسْلَافِ [٢]

إنني والذى يَحُجُّ لَهُ النَّا   سُ على لُحَّقِ البُطون عِجَافِ [٣]

تَتَبارَى مثل القِسِيِّ من النَّبْـ   ـعِ بشُعْثٍ مثلِ السِّهامِ نِحَافِ [٤]

ارهَبِ اليَومَ إن أتاكم علىٌّ   صيحةً مثل صَيْحَةِ الأحقافِ

إنه الليث غادياً وشُجَا   عٌ مُطْرِقٌ نافثٌ بسُمٍّ زُعافِ [٥]

واضعُ السيفِ فوق عاتقه الأ   مَن يَفْرِى به شئون القِحَافِ [٦]

سَوَّمَ الخيلَ ثم قال لقوم   بايعوه إلى الطعان خِفَافِ [٧]

استعدّوا لحربِ طاغية الشا   م فلبَّوْه كاليدَيْنِ اللطافِ

ثم قالوا أنتَ الجناح لك الرِّيـ   شُ القُدامى ونحن منه الخوافى [٨]

فانظُرِ اليوم قبل بادرة القو   م بسلمٍ تهمّ أم بخلافِ [٩]

قال : فانكسر معاوية ، وقال : ياحابس ، إنى لأظنّ هذا عيناً لعلىّ ، أخرجه عنك لئلا يُفسِد علينا أهل الشام .

---

(١) كلمة غير واضحة فى جميع الأصول .

(٢) القصيدة كاملة فى كتاب صفين ٧٣ ـ ٧٥ .

(٣) اللحق : جمع لاحق ؛ وهو الضامر من الخيل .

(٤) صفين : « مثل الرصاف » .

(٥) الشجاع هنا : الحية .

(٦) القحاف : عظام الجماجم . والشئون : مجتمع قبائل الرأس . وفى صفين : « يفرى » .

(٧) سوم الخيل : أعلمها بعلامة .

(٨) القدامى : الريشات التى تكون فى مقدمة الجناح ، الواحدة قادمة . والخوافى : ريشات إذا ضم الطائر جناحيه خفيت . وفى المثل : « ليس القوادم كالخوافى » .

(٩) صفين : « نادية القوم » .

قال نصر : وحدّثنا عطية بن غَنِىّ [(١)] ، عن زياد بن رستم ، قال : [(٢)] كتب معاوية إلى عبدالله بن عمر خاصّة ، وإلى سعد بن أبى وقّاص ، وإلى محمد بن مسلمة ، دُونَ كتابه إلى أهل المدينة ، فكان كتابه إلى عبد الله بن عمر :

أما بعد ، فإنه لم يكن أحدٌ من قريش أحبَّ إلىّ أن يجتمعَ عليه الناس [(٣)] بعد قتل عثمان منك ، ثم ذكرتُ خَذْلك إياه ، وطَعْنك على أنصاره ، فتغيّرتُ لك ؛ وقد هَوّن ذلك علىّ خلافُك عَلَى علىّ ، ومحا عنك بعضَ ما كان منك ، فأعِنّا ـ رحمك الله ـ عَلَى حقّ هذا الخليفة المظلوم ؛ فإنى لست أريد الإمارة عليك ، ولكنى أريدُها لك ؛ فإن أبيتَ كانت شورى بين المسلمين [(٤)] .

فأجابه عبد الله بن عمر :

أمّا بعد، فإنّ الرأى الذى أطمعك فىّ،هو الذى صيّرك إلى ما صيّرك إليه . أترُكُ عَلِيّاً فى المهاجرين والأنصار ، وطلحة والزبير وعائشة أمّ المؤمنين ، وأتبعك ! وأمّا زعمُك أنى طعنتُ عَلَى علىّ ، فلعمرى ما أنا كعلىّ فى الإيمان والهجرة ،ومكانه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونكايته فى المشركين ؛ ولكنى عهد [(٥)] إلىّ فى هذا الأمر عهدٌ ، ففزعْت فيه إلى الوقوف وقلت : إن كان هذا هُدًى ففضلٌ تركتُه ، وإن كان ضلالاً فشرّ نجوت منه ، فأغنِ عنّا نفسَك ، والسلام [(٦)] .

---

(١) كذا فى ا ، وصفين ، وفى ب : « غناء » ، وفى ج : « مغنى » .
(٢) كتاب صفين ٧٩ ، ٨٠ .
(٣) صفين : « الأمة » .
(٤) ذكر فى كتاب صفين أبياتا مطلعها :

أَلا قُلْ لعبدِ اللهِ وَاخْصُصْ مُحَمَّدًا ... وَفارِسَنَا الْمَأْمونَ سَعْدَ بْنَ مَالِكِ

(٥) صفين : « ولكن حدث أمر لم يكن من رسول الله إلىّ فيه عهد » .
(٦) فى كتاب صفين : « ثم قال لابن أبى غزية : أجب الرجل ـ وكان أبوه ناسكا ، وكان من أشعر قريش فقال » . . . وذكر أبياتا مطلعها :

مُعَاوِىَ لَا تَرْجُو الَّذِى لَسْتَ نَائِلاً ... وحاولْ نَصِيراً غير سعدِ بن مالك

قال : وكان كتاب معاوية إلى سعد :

أما بعدُ ؛ فإنّ أحقّ الناس بنصر عثمان أهل الشورَى من قريش ؛ الذين أثبتوا حقّه واختاروه على غيره ، وقد نَصَرَه طلحة والزبير ، وهما شريكان فى الأمر ، ونظيراك فى الإسلام ، وخفّت لذلك أمّ المؤمنين ، فلا تكرهَنّ ما رضُوا ، ولا تردّنّ ما قبلوا ، فإنّا نردّها شورى بين المسلمين[1] .

فأجابه سعد .

أما بعدُ فإن عمر لم يُدخِل فى الشّورى إلّا مَنْ تحِلّ له الخلافةُ من قريش ؛ فلم يكن أحد منا أحقّ بها من صاحبه إلّا بإجماعنا[2] عليه ؛ ألَا إن عليًّا كان فيه ما فينا ، ولم يكن فينا ما فيه ؛ وهذا أمر قد كرهتُ أولَه ، وكرهتُ آخره ؛ فأما طلحةُ والزبير فلو لزما بيوتهما لكان خيراً لهما ، والله يغفر لأمّ المؤمنين ما أتت . والسلام[3] .

قال : وكان كتاب معاوية إلى محمد بن مسلمة :

أما بعدُ ، فإنّى لم أكتبْ إليك وأنا أرجو مبايعتَك[4] ؛ ولكنى أردتُ أن أذكّرك النعمةَ التى خرجتَ منها ، والشكّ الذى صرت إليه ؛ إنك فارسُ الأنصار ، وعُدّة المهاجرين ؛ وقد ادّعيت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرا لم تستطع إلا أن تمضيَ عليه ؛ وهو أنّه نهاك عن قتال أهل القِبْلة[5] ، أفلا نهيتَ أهلَ القبلة[5] عن قتال بعضهم بعضا !

(١) فى كتاب صفين : ٨٣ « وقال شعرا » ؛ وذكر أبياتا أولها :

ألَا يا سعدُ قد أظهرتَ شكًّا وشكُّ المرء فى الأحداثِ داء

(٢) كتاب صفين : « باجتماعنا » .

(٣) فى كتاب صفين ٨٤ : « ثم أجابه فى الشعر » ، وذكر أبياتا أولها :

معاوِيَ داؤك الداء العياء فليسَ لما تجيء به دَواء

(٤) كتاب صفين : « متابعتك » .

(٥) كتاب صفين : « الصلاة » .

فقد كان عليك أن تنكر َه لم ما كره رسول الله صلى الله عليه ، ألم تر عثمانَ وأهلَ الدار من أهل القبلة (١) ! فأما قومك فقد عَصَوُا الله ، وخذلوا عثمان ، والله سائلهم وسائلك عما كان يوم القيامة . والسلام .

قال : فكتب إليه محمد بن مسلمة :

أما بعد ، فقد اعتزلَ هذا الأمر مَنْ ليس فى يده من رسول الله صلى الله عليه مثل الذى فى يده ؛ قد أخبرنى رسول الله صلى الله عليه بالذى هو كائن قبل أن يكون ، فلما كان كسرتُ سيفى ، وجلست فى بيتى ، واتهمت الرأىَ على الدِّين ؛ إذ لم يصح لى معروف آمر به ، ولا منكر أنهى عنه. وأمّا أنت فلعمرى ماطلبت إلا الدنيا ، ولا اتبعت إلا الهوى وإن تنصر عثمان ميّتاً فقد خذلته حيًّا ، والسلام (٢) .

***

[مفارقة جرير بن عبد الله البَجَلىّ لعلىّ]

قد أتينا علَى ما أردنا ذكره من حالِ أمير المؤمنين عليه السلام ، مذ قدم من حرب البصرة إلى الكوفة ، وما جرَى بينه وبين معاوية من المراسلات ، وماجرى بين معاوية وبين غيره من الصحابة من الاستنجاد والاستصراخ ؛ وماأجابوه به ؛ ونحن نذكرُ الآن ما جرى لجرير بن عبدالله عند عَوْده إلى أمير المؤمنين من تهمة الشيعة له بممالأة معاوية عليهم ، ومفارقته جنبةَ أمير المؤمنين .

قال نصر بن مُزاحم :(٣) حدثنا صالح بن صدقة ، بإسناده ، قال : قال لما رجع جريرٌ

(١) كتاب صفين : « الصلاة » .

(٢) تتمة الرسالة كما فى كتاب صفين ٨٦ : « فما أخرجنى الله من نعمة ، ولا صيرنى إلى شك ؛ إن كنت أبصرت خلاف ماتحبنى به ومن قبلنا من المهاجرين والأنصار ، فنحن أولى بالصواب منك » .

(٣) كتاب صفين ٦٦ ــ ٦٨ .

إلى علىّ عليه السلام ، كَثُرَ قول الناس فى التّهمة لجرير فى أمر معاوية ، فاجتمع جريرٌ والأشتر عند علىّ عليه السلام ، فقال الأشتر : أمَا والله يا أميرَ المؤمنين ، أن لو كنت أرسلتَنى إلى معاوية ، لكنتُ خيراً لك من هذا الذى أرخَى خِناقة (١) ، وأقام عنده ؛ حتى لم يدعْ بابا يرجُو فَتْحَه إلّا فَتَحه ، ولا بابا يخاف أمرَه إلّا سدّه .

فقال جرير : لو كنتَ والله أتيتَهم لقتلوك — وخوّفه بعمرو ، وذى الكَلاع ، وحَوْشب —(٢) وقال : إنهم يزعمون أنك من قَتَلَة عثمان .

فقال الأشتر: والله لو أتيتُهم ياجرير لم يُعيِنى جوابها ، ولم يثقل علىّ تحمّلها ، ولحملت معاوية على خُطة أُعجِلهُ فيها عن الفِكر .

قال : فائتِهم إذاً . قال : الآن وقد أفسدتَهم ووقع بينهم الشرّ !

وروى نصر ، عن عُمير بن وعلة ، عن الشعبى قال :(٣) اجتمع جرير والأشتر عند علىّ عليه السلام ، فقال الأشتر: أليس قد نهيتُك يا أميرَ المؤمنين أن تبعث جريرا ، وأخبرتُك بعداوته وغشّه ! وأقبل الأشتر يشتمه، ويقول : يا أخا بَجيلة ، إنّ عثمان اشترى منك دينَك بهَمَدان(٤)، والله ما أنت بأهلٍ أن تُترك تمشى فوق الأرض؛ إنما أتيتَهم لتتّخِذَ عندهم يداً بمسيرِك إليهم ، ثم رجعتَ إلينا من عندهم ، تُهددنا بهم ، وأنت والله منهم ، ولا أرى سعيَك إلا لهم ؛ لئن أطاعنى فيك أميرُ المؤمنين ليَحبِسنّك وأشباهك فى حبس لا تخرجون منه حتى تَستَتِمّ هذه الأمور ، ويُهلِكَ الله الظالمين .

قال جرير : وددت والله أن لَوْ كنتَ مكانى بُعِثْتَ ؛ إذن والله لم ترجع .

---

(١) صفين : « من خناقه » . (٢) صفين : « وحوشب بن ظليم » .

(٣) كتاب صفين ٦٧ ، ٦٨ .

(٤) كذا فى ب وصفين ، وفى ج : « بهمذان » .

قال : فلما سمع جرير مثل ذلك من قوله ، فارقَ عليًّا عليه السلام ، فلحِق بقَرْقِيسياء[١] ولحق به ناس من قَسْر[٢] من قومه ، فلم يشهد صِفِّين من قَسْر غير تسعة عشر رجلا ؛ ولكن شهدها من أحْمَس[٣] سبعمائة رجل .

قال نصر : وقال الأشتر فيما كان من تخويف من جرير إياه بعمرو وحَوْشب [وذي الكلاع][٤] :

لعمرُكَ ياجريرُ لَقول عَمْرو وصاحبه معاويَ بالشآم
وذى كَلَعٍ وحَوْشبَ ذى ظَلَيمٍ أخفُّ عَلَىَّ من رِيشِ النعام[٥]
إذَا اجتمعوا عَلَىَّ فَخَلِّ عنهم وعن بازٍ مخالبُه دوامى
وَلَسْتُ بخائفٍ ماخوّفُونِى وكيف أخاف أحلام النيامِ !
وَهَمُّهمُ الذى حامُوا عليه من الدّنيا ، وهَمِّى ما أمامى[٦]
فإنْ أسْلَمْ ، أعمّهُم بحربٍ يَشيب لهولها رأسُ الغلامِ
وإنْ أهلِكْ فقد قدّمتُ أمرًا أفوز بفَلْجِه يَوْمَ الخصامِ[٧]
وقد زادُوا علىّ وأوْعَدونى وَمَنْ ذا ماتَ من خَوْفِ الكلام!

* * *

[نسب جرير بن عبد الله البَجَليّ وبعض أخباره]

وذكر ابن قتيبة فى " المعارف " ، أنّ جريرًا قدِم على رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) قرقيسياء : بلد بالخابور عند مصبه .
(٢) قسر : رهط جرير بن عبد الله البجلى .
(٣) أحمس : بطن فى بجيلة .
(٤) من كتاب صفين .
(٥) صفين : « من زف النعام » . والزف : صغار ريش النعام .
(٦) ب : « وهمهما » .
(٧) الفلج : الفوز والانتصار .

سنة عشر من الهجرة فى شهر رمضان ، فبايعه وأسلم ، وكان جريرٌ صبيح الوجه جميلا، قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : « كأنّ على وجهه مَسْحةَ ملَك. وكان عمر يقول : جرير يوسف هذه الأمة . وكان طُوالا يفتل فى ذِرْوة البعير من طوله ، وكانت نعله ذراعا، وكان يخضب لحيته بالزعفران من الليل ويغسلُها إذا أصبح ، فتخرجُ مثلَ لون التّبْر . واعتزل عليًّا عليه السلام ومعاوية ، وأقام بالجزيرة ونواحيها حتى توفّىَ بالشّراة سنة أربع وخمسين فى ولاية الضحاك بن قيس على الكوفة[1] .

* * *

فأما نسبه فقد ذكره ابن الكلبيّ فى " جمهرة الأنساب " ، فقال : هو جرير بن عبد الله ابن جابر بن مالك بن نضر بن ثعلب بن جُشَم بن عُوَيف بن حرب بن علىّ بن مالك ابن سعد بن بدير بن قَسْر ـ واسمه مالك ـ بن عبقر بن أنمار بن أراش ابن عمرو بن الغوث بن نَبْت بن زيد بن كَهْلان .

ويذكر أهل السِّيَر أن عليًّا عليه السلام هدم دار جرير ودور قوم ممّن خرج معه، حيث فارق عليًّا عليه السلام ، منهم أبو أراكة بن مالك بن عامر القَسْرى ، كان خَتَنه على ابنته ، وموضع داره بالكوفة كان يعرف بدار أبى أراكة قديما، ولعله اليوم نُسِى ذلك الاسم.

(١) المعارف ٢٩٢ ، وانظر طبقات فقهاء اليمن للجعدى ٤٥ ، ٤٦ .

(٤٤)

ومن كلام له عليه السلام لما هرب مصقلة بن هبيرة الشيبانيّ إلى معاوية ، وكان قد ابتاع سبيَ بنى ناجية من عامل أمير المؤمنين عليه السلام وأعتقه ، فلما طالبه بالمال خاس به وهرب إلى الشام، فقال :

الأَصْلُ :

قَبَحَ اللهُ مَصْقَلَةَ ! فَعَلَ فِعْلَ السَّادَةِ ، وَفَرَّ فِرَارَ الْعَبِيدِ ، فَمَا أَنْطَقَ مَادِحَهُ حَتّى أَسْكَتَهُ ، وَلَا صَدَّقَ وَاصِفَهُ حَتّى بَكَّتَهُ ، وَلَوْ أَقَامَ لأَخَذْنَا مَيْسُورَهُ ، وَانْتَظَرْنَا بِمَالِهِ وُفُورَهُ .

الشَّرْحُ :

خاس به يخيس ويخوس : أى غدَرَ به ، وخاسَ فلان بالعهد : أى نكث .

وقَبَح الله فلانا : أى نحاه عن الخير ، فهو مقبوح .

والتبكيت ، كالتقريع والتعنيف . والوُفور . مصدر وَفَرَ المال : أى تَمّ ، ويجىء متعدّياً . ويروى «موفوره» ، والموفور : التامّ ، وقد أخذ هذا المعنى بعض الشعراء فقال:

يَا مَنْ مَدَحْنَاهُ فَأَكْذَبَنَا بِفَعَالِهِ وَأَثَابَنَا خَجَلَا
بُرْداً قَشِيباً مِنْ مَدَائِحِنَا سُرْبِلْتَ فَارْدُدْهُ لَنَا سَمَلَا[1]
إِنَّ التَّجَارِبَ تَهْتِكُ الْمَسْتُورَ مِنْ أَبْنَائِهَا وَتُبَهْرِجُ الرَّجُلَا

---

(١) السمل : الثوب البالى .

[نسب بنى ناجية]

فأمّا القول فى نَسَب بنى ناجية ؛ فإنّهم ينسبون أنفسَهم إلى سامة بن لؤىّ بن غالب بن فهر بن مالك بن النَّضْر بن كنانة بن خُزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معدّ بن عدنان . وقريش تدفعُهم عن هذا النسب ، ويسمّونهم بنى ناجية — وهى أمهم — وهى امرأة سامة بن لؤىّ بن غالب ، ويقولون : إن سامة خرج إلى ناحية البحرين مُغاضِبا لأخيه كعب بن لؤىّ فى مُماظّة[1] كانت بينهما ، فطأطأت ناقتُه رأسَها لتأخذ العُشب ، فعلِق بِمِشْفَرِها أفعى ، ثم عطفت على قَتَبها فحكّته به ، فدبّ الأفعى على القَتَب حتى نهش ساق سامة فقتله ، فقال أخوه كعب بن لؤىّ يرثيه[2] :

عينُ جُودى لسامةَ بنَ لؤىّ ... عَلِقَتْ ساقَ سامةَ العَلاقَهْ[3]

رُبّ كأسٍ هرَقْتَها ابنَ لؤىّ ... حَذَرَ الموتِ لم تكُنْ مُهَراقَهْ

قالوا : وكانت معه امرأته ناجية ، فلما مات تزوّجت رجلا فى البحرين ، فولدت منه الحارث ، ومات أبوه وهو صغير ، فلما ترعرع طمِعت أمه أنْ تُلحِقه بقريش ، فأخبرته أنّه ابنُ سامة بن لؤى بن غالب ، فرحل من البحرين إلى مكة ومعه أمه ، فأخبر كعب ابن لؤى أنه ابن أخيه سامة ، فعرف كعبٌ أمّه ناجية ، فظنّ أنه صادق فى دعواه ، فقبِله ومكث عنده مدة ؛ حتى قدِم مكة ركبٌ من البحرين ؛ فرأوا الحارث ، فسلّموا عليه ، وحادثوه ، فسألهم كعب بن لؤى : من أين يعرفونه ؟ فقالوا : هذا ابنُ رجلٍ من بلدنا يُعرَف بفلان ، وشرحوا له خبَره ، فنفاه كعب عن مكّة ونفى أمّه ، فرجعا إلى البحرين ، فكانا هناك ، وتزوّج الحارث ، فأعقب هذا العَقِب .

---

(١) المماظة : المخاصمة والمنازعة .

(٢) ويروى أن قائلة هذا الشعر امرأة أزدية كان سامة نزل بزوجها ، فى خبر وأبيات أخرى ذكره صاحب اللسان فى ١٢ : ١٩٥

(٣) العلاقة : المنية .

وقال هؤلاء : إنه رُوِىَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم أنه قال : « عمّى سامة لم يُعقِب »[١] .

وزعم ابنُ الكلبي أن سامَةَ بن لؤىّ ولَدَ غالب بن سامة ، والحارث بن سامة ـ وأم غالب ابن سامة ناجية ـ ثم هَلَكَ سامة ، فخلف عليها ابنُهُ الحارث بن سامة ، نـكاحَ مَقْت[٢] ، ثم هلك ابنا سامة ولم يُعقِبا ؛ وإنّ قوما من بنى ناجية بن جَرْم بن ربّان بن عِلَاف ، ادّعوا أنهم بنو سامةَ بن لؤىّ ، وأنّ أمهم ناجية هذه ، ونسبوها هذا النسب ، وانتموا إلى الحارث بن سامة ، وهم الذين باعهم علىّ عليه السلام على مَصْقلة بن هُبيرة . وهذا هو قول الهيثم بن عدىّ . كل هذا ذكره أبو الفرج الأصفهانى فى "كتاب الأغانى الكبير"[٣] .

ووجدت أنا فى "جمهرة النسب" لابن الكلبىّ كلاما قد صرّح فيه بأنّ سامة بن لؤىّ أعقَبَ ، فقال : ولَدَ سامة بن لؤىّ الحارثَ ـ وأمه هند بنت تَيم ـ وغالب بن سامة ـ وأمه ناجية بنت جَرْم بن بابّان ، من قُضاعة ، فهلك غالب بعد أبيه ؛ وهو ابن اثنتى عشرة سنة ، فولد الحارث بن سامة لؤيا وعبيدة وربيعة وسعدا ، وأمهم سَلْمى بنت تَيم بن شَيْبان ابن محارب بن فِهر وعبد البيت ، وأمه نَاجية بنت جَرْم ، خَلَف عليها الحارث بعد أبيه بنكاح مَقْت ، فهم الذين قتلهم علىّ عليه السلام .

قال أبو الفرج الأصفهانىّ : أما الزّبير بن بَكّار ، فإنه أدخلهم فى قريش ؛ وهم قريش العازبة ، قال : وإنما سُمّوا العازبة ؛ لأنهم عَزَبوا عن قومهم فنُسِبوا إلى أمهم ناجية بنت جَرْم بن رَبّان بن عِلاف ، وهو أول من اتخذ الرّحال العِلافيّة ، فنسبت إليه ،

(١) بقية الخبر كما فى الأغانى : « وكان بنو ناجية ارتدوا عن الإسلام ، ولما ولى على بن أبى طالب رضى عنه الخلافة دعاهم إلى الإسلام ، فأسلم بعضهم وأقام الباقون على الردة ، فسباهم واسترقهم ، فاشتراهم مصقلة ابن هبيرة منه ، وأدى ثلث ثمنهم وأشهد بالباقى على نفسه ، ثم أعتقهم وهرب من تحت ليله إلى معاوية ، فصاروا أحراراً ، ولزمه الثمن ، فشعث على بن أبى طالب شيئا من داره ، وقيل بل هدمها . فلم يدخل مصقلة الكوفة حتى قتل على بن أبى طالب رضى الله عنه » .

(٢) نكاح المقت : أن يتزوج الرجل امرأة أبيه إذا طلقها أو مات عنها ؛ وكان يفعل فى الجاهلية وحرمه الإسلام.

(٣) الأغانى ١٠ : ٢٠٥ ـ ٢٠٧ (طبعة الدار) .

واسم ناجية ليلى ؛ وإنمـا سميت ناجية ، لأنها سارت مع سَامَة فى مفازة ، فعطِشت ، فاستسقته ، فقال لها : الماء بين يديك ، وهو يُريها السراب ؛ حتى أتت إلى الماء فشَرِبت ، فسميت ناجية .

قال أبو الفرج : وللزبير بن بكار فى إدخالهم فى قريش مذهب ؛ وهو مخالفة أمير المؤمنين علىّ عليه السلام ، وميله إليهم ، لإجماعهم على بُغْضه عليه السلام ، حسب المشهور المأثور من مذهب الزُّبير فى ذلك .

* * *

[نسب علىّ بن الجهم وذكر طائفة من أخباره وشعره]

ومن المنتسبين إلى سامة بن لؤىّ علىّ بن الجهم الشاعر ، وهو علىّ بن الجهم بن بدر بن جَهْم بن مسعود بن أسيد بن أذينة بن كَرّاز بن كعب بن جابر بن مالك ابن عُتْبة[1] بن الحارث بن عبدالبيت بن سامة بن لؤىّ بن غالب .

هكذا ينسُب نفسَه ، وكان مبغِضاً لعلىّ عليه السلام ، ينحو نحو مروان بن أبى حفصة فى هجاء الطالبيّين وذمّ الشيعة ، وهو القائل :

وَرَافِضَةٍ تقول بِشِعْبِ رَضْوَى : إمام ، خابَ ذلكَ مِن إمام ![2]
إمامٌ من له عشرون ألفـا من الأتراكِ مُشْرَعة السهام !

وقد هجاه أبو عبادة البحترىّ ، فقال فيه .

إذا مَا حُصِّلَتْ عُلْيَا قُرَيْشٍ فَلاَ فِى العِيرِ أنْتَ وَلَا النَّفِيرِ[3]
وَلَوْ أعطـاكَ رَبُّكَ ماتمنّى لزاد الخلقَ فى عِظَمِ الأُيُورِ

(١) فى الأغانى : « عينية » .
(٢) الأغانى ١٠ : ٢٠٥ .
(٣) ديوانه ٢ : ١٠٣٨ (دار المعارف) ، والأغانى ١٠ : ٢٠٦

وما الجهمُ بنُ بدرٍ حينَ يُعزَى ... من الأقمارِ ثَمّ ولا البُدُورِ[1]

علامَ هجوتَ مجتهداً عليّاً ... بما لفّقتَ مِنْ كذبٍ وزُورِ!

أمالكَ في استِكَ الوجعاءِ شُغلٌ ... يكفُّكَ عَنْ أذى أهلِ القبورِ!

• • •

وسمع أبو العيناء عليّ بن الجهم يوما يطعُن على أمير المؤمنين ، فقال له: أنا أدرِى لم
تطعن على أمير المؤمنين ! فقال : أتعنى قِصّة بيعه أهلي من مصقلة بن هُبيرة ؟ قال : لا ،
أنت أوضع من ذلك ؛ ولكنه عليه السلام قتل الفاعل مِنْ قوم لوط ، والمفعول به ،
وأنت أسفلهما .

ومن شعر عليّ بن الجهم لما حبسه المتوكل[2] :

ألمْ ترَ مُظْهِرِينَ عَلَيّ عَتْباً[3] ... وَهُمْ بالأمسِ إخوانُ الصّفاء

فلمّا أن بُليتُ غدَوْا وراحوا[4] ... عليّ أشدَّ أسبابِ البلاءِ

أبتْ أخطارُهم أنْ ينصُروني ... بمالٍ أو بجاهٍ أو بِرَاءِ[5]

وخافُوا أنْ يقالَ لهمْ : خذلْتمْ ... صَديقاً ، فادّعَوْا قِدَمَ الجفاءِ

تظافرتِ الروافضُ والنّصارى ... وأهلُ الاعتزالِ عَلَى هجائي

---

(١) الديوان والأغاني : « ومارغثاؤك » وفي حواشي الأغاني : « الرغثاء أصلها عصب أو عرق في الثدي يدر اللبن ؛ واستعملها البحتري هنا في الأب » .

(٢) من قصيدة طويلة في ديوانه ٨١ ـ ٨٥ ؛ وفي الأغاني ١٠ : ٢٠٦ ـ ٢٠٨ : « كان علي بن الجهم قد هجا بختيشوع ، فسبه عند المتوكل ، فحبسه المتوكل ، فقال علي بن الجهم في حبسه عدة قصائد كتب بها إلى المتوكل ، فأطلقه بعد سنة ثم نفاه بعد ذلك إلى خراسان . فقال أول ماحبس قصيدة كتب بها إلى أخيه ؛ أولها قوله :

توكّلنا على ربِّ السّماءِ ... وَسلّمنا لأسبابِ القضاءِ

ثم أورد القصيدة .

(٣) الأغاني : « عيا » ، والديوان : « غشا » .

(٤) الديوان : « بليت بنكبة فغدوا وراحوا » .

(٥) الديوان : « براء » ، وقال في شرحه : الراء : الرأي .

وَعَابُونِى وَمَا ذَنْبِى إِلَيهِمْ ... سِوَى عِلْمِى بِأَوْلَادِ الزِّنَاءِ

يعنى بالروافض : نجاح بن مسلمة[١] ، والنصارى بَخْتَيشُوع[٢] ، وأهل الاعتزال على[٣] بن يحيى بن المنجِّم[٤] .

قال أبو الفَرَج : [٥] وكان علىُّ بنُ الجهم من الحَشْوَيَّة[٦] ، شديدَ النَّصْب[٧] عدوًّا للتوحيد والعدْل ؛ فلما سَخِط المتوكّل على أحمد بن أبى دُوَاد وكفأه[٨] ، شَمِت به علىّ بن الجهم ، فهجاه ، وقال فيه[٩] :

يا أحمـــدُ بْنَ أبى دُوَادٍ دعوة ... بعثَتْ عليك جَنادِلًا وَحَديدا[١٠]

ما هــذهِ البِدَعُ التى سميتَها ... بالجهل منكَ العدْلَ والتوحيدا

أفسَدْتَ أمْرَ الدّين حين وَلِيتَهُ ... وَرَمَيْتَه بأبى الوليد وليدا

---

(١) نجاح بن مسلمة ؛ كان على ديوان التوقيع والتتبع على العمال فى عهد المتوكل ؛ فكان جميع العمال يتقونه ؛ وكان المتوكل ربما نادمه ؛ وتوفى منكوباً سنة ٢٤٠ . تاريخ الطبرى (وفيات سنة ٢٤٠).

(٢) هو بختيشوع بن جبريل بن بختيشوع الأكبر المتطبب .

(٣) على بن يحيى بن أبى منصور المنجم ، نديم المتوكل وأحد خواصه المتقدمين عنده ؛ توفى سنة ٢٧٥. ابن خلكان ١ : ٣٥٦ .

(٤) فى طبقات الشعراء لابن المعتز ٣٢٠ : « وإنما عنى بالروافض الطاهريين ؛ وبأهل الاعتزال بنى دواد ، وبالنصارى بختيشوع بن جبريل ؛ فإنه كان يعاديه » .

(٥) الأغانى ١٠ : ٢١٧ .

(٦) الحشوية : فرقة من المرجئة يقولون : حكم الأحاديث كلها واحد ؛ وعندهم أن تارك النفل كتارك الفرض ، تفسير القرطبى ٤ : ١٦٢ .

(٧) النواصب : قوم يتدينون ببغضة على . (٨) كفأه ، أى طرده وأبعده .

(٩) ذكر صاحب الأغانى فى هذا الخبر أنه لما حبس المتوكل على بن الجهم مدح أحمد بن أبى دواد عدة مدائح ، وسأله أن يقوم بأمره ؛ منها قوله :

يا أحمــدُ بنَ أبى دُوَادٍ إنّما ... تُدْعى لـكلِّ عَظِيمَة يا أحمدُ

أبلغْ أميرَ المؤمنينَ ودُونَهُ ... خوضُ الرّدى ومخاوفٌ لاتنفَدُ

أنتم بَنو عمِّ النبىِّ محمــدٍ ... أوْلَى بما شرعَ النبىُّ محمـد

فلم يفعل وقعد عنه ؛ فلما نفى المتوكل أحمد بن أبى دواد شمت به على بن الجهم ، وهجاه بهذه الأبيات

(١٠) ديوانه ١٢٥ ، ١٢٦ .

ـ أبو الوليد بن أحمد بن أبى دواد ، وكان رثيه قاضيا[1] ـ

لَا مُحْكَمًا جَلْدًا ولا مُسْتَطْرَفًا | كَهْلًا ولا مُسْتَحْدَثًا مَحْمُودَا[2]
شَرِهًا إذا ذُكِرَ المكارمُ والعُلَا | ذَكَرَ القَلَايَا مُبْدِئًا ومعيدا[3]
وَيَوَدُّ لو مُسِخَتْ ربيعةُ كُلُّها | وَبنُو إيادٍ صَحْفَةً وَثَرِيدَا
وإذا تَرَبَّعَ فى المجالسِ خِلْتَهُ | ضَبُعًا وَخِلْتَ بنى أبيه قُرُودَا
وإذا تبسَّمَ ضاحِكًا شَبَّهْتَهُ | شَرِقًا تَمَجَّلَ شُرْبَهُ مَرْدُودا
لا أَصْبَحَتْ بالخيرِ عَيْنٌ أبصرَتْ | تِلْكَ المناخِرَ والثَّنَايَا السُّودَا

وقال يهجوه لما فُلِجَ[4] :

لَمْ يَبْقَ منكَ سوى خيالكَ لامعًا | فَوْقَ الفِرَاشِ مُمَهَّدًا بِوِسَادِ
فرحتْ بمصرَعِكَ البريّةُ كُلُّها | مَنْ كانَ منهم مُوقِنًا بمعادِ
كَمْ مجلسٍ لله قَدْ عطَّلْتَهُ | كَىْ لا يُحَدَّثَ فيه بالإسنادِ
وَلَكَمْ مصابيحٍ لنا أطفأتَها | حتى تَحِيدَ عن الطريق الهادى[5]
ولكم كريمةِ مَعْشَرٍ أرملتَها | وَمُحَدِّثٍ أوثقتَ فى الأقيادِ
إنَّ الأسارى فى السُّجون تفرَّجُوا | لما أتتكَ مَوَاكِبُ العُوَّادِ
وَغَدَا لمصرعك الطبيبُ فلم يَجِدْ | لدواء دائكَ حِيلَةَ المرتادِ
فذقِ الهوانَ معجَّلا ومؤجَّلا | والله ربُّ العَرْشِ بالمِرْصَادِ
لا زال فَالِجُكَ الذى بك دائمًا | وفُجِعْتَ قبل الموت بالأولادِ

---

(١) وكان يتولى المظالم بسرا من رأى ، وعزله المتوكل سنة ٢٣٧ .

(٢) الديوان والأغانى : « لا محكماً جزلا » والجزل هنا : الجيد الرأى .

(٣) القلايا : المقليات ؛ مفرده قلية .

(٤) ديوانه ١٢٨ ، ١٢٩ ، والأغانى ١٠ : ٢٢٩ .

(٥) الأغانى : « حتى يزول عن الطريق الهادى » .

وروى أبو الفرج الأصفهاني في كتاب " الأغاني " في ترجمة مروان بن أبي حفصة[1] الأصغر أنّ عليّ بن الجهم خطب امرأة من قريش ، فلم يزوّجوه ، وبلغ المتوكلَ ذلك ، فسأل عن السبب ، فحدّث بقصة بني سامة بن لؤيّ ، وأن أبا بكر وعمر لم يُدْخِلام في قريش ، وأنّ عثمان أدخلهم فيها ، وأنّ عليّاً عليه السلام أخرجهم منها ، فارتدّوا ، وأنه قتل من ارتدّ منهم ، وسَبى بقيّتهم ، فباعهم من مَصْقلة بن هُبيرة ، فضحك المتوكل ، وبعث إلى عليّ بن الجهم فأحضره ، وأخبره بما قال القوم ، وكان فيهم مَرْوان بن أبي حفصة المكنّى أبا السمط وهو مَرْوان الأصغر ، وكان المتوكّل يغريه بعليّ بن الجهم ، ويضعه على هجائه وثَلْبه ، فيضحك منهما ، فقال مروان :

إنّ جَهْماً حين تَنْسُبُه ... لَيْسَ مِنْ عُجْمٍ وَلَا عَرَبِ
لَجّ في شَتْمِي بِلَا سَبَبٍ ... سارِق للشِّعر والنَّسَبِ
مِنْ أناسٍ يدّعون أبا ... ماله في النّاس مِنْ عَقِبِ

فغضب عليّ بن الجهم ، ولم يجبه ، لأنه كان يستحقره ، فأومأ إليه المتوكّلُ أن يزيده ، فقال :

أأنتم يابنَ جَهْمٍ مِن قُرَيْشٍ ... وقد باعوكُمُ ممّن تُرِيدُ
أترجو أن تكاثِرَنا جِهاراً ... بأصْلِكُمُ وقد بيع الجُدُودُ

فلم يجبه ابن الجهم ، فقال فيه أيضا :

عليّ تعرّضتَ لي ضِلّةً ... لجهلك بالشِّعر يامائِق[2]
تَرُومُ قُرَيْشاً وَأَنْسابها ... وأنتَ لأنسابِها سارِقُ
فإنْ كان سامة جَدّاً لكُمْ ... فأمُّك مِنّي إذاً طالِقُ

(١) لم أجد هذا الخبر وهذا الشعر فيما طبع من كتاب الأغاني .
(٢) المائق : الأحمق .

[نسب مَصقلة بن هبيرة]

فأمّا نَسَبُ مَصقلة بن هُبيرة ، فإنّ ابنَ الكلبي ، قد ذكره في "جمهرة النسب" فقال : هو مَصقلة بن هُبيرة بن شِبْل بن يثربيّ بن امرئ القيس بن ربيعة بن مالك بن ثعلبة بن شيْبان بن ثعلبة بن عُكابة بن صَعْب بن عليّ بن بكر بن وائل بن قاسط بن هِنْب بن أفصَى بن دُعْميّ ، بن جَديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معدّ بن عدنان .

***

[خبر بنى ناجية مع عليّ]

وأما خبر بنى ناجية مع أمير المؤمنين عليه السلام ، فقد ذكره إبراهيم بن هلال الثقفى في كتاب "الغارات" قال :

حدثنى محمد بن عبدالله بن عثمان ، عن نصر بن مزاحم ، قال : حدّثنى عمر بن سعد ، عمّن حدثه ممن أدرك أمْرَ بنى ناجية ، قال : لما بايع أهلُ البصرة عليًّا بعد الهزيمة ، دخلوا في الطاعة غيْرَ بنى ناجية ، فإنهم عَسكَرُوا ، فبعث إليهم عليّ عليه السلام رجلًا من أصحابه في خيل ليقاتِلَهم ، فأتاهم ، فقال : مابالُكم عسكرتم ، وقد دخل الناس في الطاعة غيركم ! فافترقوا ثلاث فرق : فرقة قالوا : كنّا نصارى فأسلمنا ، ودخلنا فيما دخل الناس فيه من الفِتْنة ، ونحن نبايع كما بايع الناس ؛ فأمرهم فاعتزلوا . وفرقة قالوا : كنّا نصارى فلم نسلم ، وخرجنا مع القوم الذين كانوا خرَجوا ؛ قهرونا فأخرجونا كَرْهًا ، فخرجنا معهم فهُزِموا ، فنحن ندخل فيما دخل الناس فيه ، ونعطيكم الجزية كما أعطيناهم ؛ فقال : اعتزلوا فاعتزلوا . وفرقة قالوا : كنّا نصارى فأسلمنا فلم يُعْجِبْنا الإسلام ، فرجَعْنا إلى النصرانية ، فنحن نعطيكم الجزية كما أعطاكم النصارى . فقال لهم : توبوا وارجعوا إلى الإسلام ، فأبوْا ، فقتل مُقاتِلتَهم وسَبَى ذراريّهم ، وقدم بهم على عليّ عليه السلام .

[قصة الخرّيت بن راشد الناجيّ وخروجه على عليّ]

قال ابن هلال الثقفيّ : وروى محمد بن عبدالله بن عثمان ، عن أبى سيف ، عن الحارث ابن كعب الأزديّ ، عن عمّه عبد الله بن قُعَين الأزديّ ، قال : كان[1] الخرّيت بن راشد النّاجيّ ، أحد بنى ناجيَة ، قد شهد مع على عليه السلام صِفّين، فجاء إلى عليّ عليه السلام بعد انقضاء صِفّين ، وبعد تحكيم الحكَمين فى ثلاثين من أصحابه، يمشى بينهم حتى قام بين يديه ، فقال : لا والله لا أطِيعُ أمرَك ، ولا أصلّى خَلْفَك ، وإنى غدا لمفارق لك ؛ فقال له:ثَكِلَتْك أمّك ! إذاً تنقض عهدَك،وتَعصِى رَبّك،ولا تضرّ إلا نفسَك،أخبِرْنى لم تفعلُ ذلك ! قال:لأنّك حكّمت فى الكتاب،وضعُفْت عن الحق إذ جَدّ الجِدّ،وركنت إلى القوم الّذين ظلموا أنفسَهم ، فأنا عليك رادّ ، وعليهم ناقم ، ولكم جميعا مباين .

فقال له عليّ عليه السلام : وَيْحَك ! هلمّ إلىّ أدارِسْك وأناظرْك فى السُّنن،وأفاتحْك أموراً من الحق أنا أعلم بها منك ؛ فلعلك تعرف ما أنت الآن له منكر،وتُبصر ما أنت الآن عنه عَمٍ وبه جاهل ، فقال الخرّيت : فإنى غادٍ عليك غدا . فقال عليّ عليه السلام : اغدُ ولا يستهوينّك الشيطان ، ولا يتقحّمَنّ بك رأىُ السوء ، ولا يستخفّنّك الجهلاء الذين لا يعلمون ؛ فوالله إن استرشدتَنى واستنصحتنى وقبلت مِنّى لأهدينّك سبيل الرشاد .

فخرج الخرّيت من عنده مُنصرفا إلى أهله .

قال عبد الله بن قُعَين : فعجلت فى أثره مُسْرِعا ، وكان لى من بنى عمّه صديق ، فأردت أن ألْقَى ابنَ عمه فى ذلك ، فأعلمه بما كان من قوله لأمير المؤمنين ، وآمر ابنَ عمه أن يشتدّ بلسانه عليه،وأنْ يأمرَه بطاعة أمير المؤمنين ومُناصحته ، ويخبره أنّ ذلك خير له فى عاجل الدنيا وآجل الآخرة .

قال : فخرجتُ حتى انتهيت إلى منزله ـ وقد سبقنى ـ فقمت عند باب دار فيها رجال من أصحابه ، لم يكونوا شهدوا معه دخوله على أمير المؤمنين عليه السلام ، فوالله ما رَجَع

(١) وانظر الخبر أيضاً فى تاريخ الطبرى ٥ : ١١٣ وما بعدها .

ولا ندم على ماقال لأمير المؤمنين وما رَدّ عليه ، ولكنه قال لهم : ياهؤلاء ، إنى قد رأيت أنْ أفارِق هذا الرجل ، وقد فارقته على أن أرجع إليه من غدٍ ، ولا أرى إلا المفارقة؛فقال له أكثرُ أصحابه : لا تفعلْ حتى تأتيَه ، فإن أتاك بأمرٍ تعرفه قبلتَ منه ، وإن كانت الأخرى فما أقدرك على فراقه ! قال لهم : نِعْمَ مارأيتم ؛ قال : فاستأذنت عليهم فأذنوا لِي ، فأقبلت على ابن عمّه — وهو مدرك بن الريّان النّاجيّ،وكان من كبراء العرب — فقلت له : إن لك عليّ حقًّا لإحسانك ووُدّك وحقّ المسلم على المسلم[1] . إنّ ابن عمك كان منه ماقد ذُكِر لك ، فاخلُ به فاردد عليه رأيَه وعظِّم عليه ما أتى ؛ واعلم أنّى خائف إن فارق أمير المؤمنين أن يقتلك ونفسه وعشيرته فقال : جزاك الله خيرا من أخٍ ! إن أراد فراق أمير المؤمنين عليه السلام ففى ذلك هلاكه ، وإن اختار مُناصحته والإقامة معه ففى ذلك حظه ورُشْده .

قال : فأردت الرجوعَ إلى علىّ عليه السلام ، لأعلِمه الذى كان ؛ ثم اطمأننتُ إلى قول صاحبى، فرجعت إلى منزلى ، فبتّ ثم أصبحت،فلما ارتفعَ النهارُ أتيتُ أمير المؤمنين عليه السلام ، فجلست عنده ساعة ، وأنا أريدُ أنْ أحدِّثه بالذى كان على خَلْوة ، فأطلتُ الجلوسَ ، ولا يزدادُ الناس إلا كثرة ، فدنَوْتُ منه ، فجلست وراءه ، فأصغى إلىّ برأسه، فأخبرتُه بما سمعته من الخرِّيت ، وما قلتُ لابن عمه وما ردّ علىّ ، فقال عليه السلام : دَعْه ؛ فإن قَبِل الحقّ ورجع عرفنا له ذلك وقبلناه منه ، فقلت : ياأميرَ المؤمنين ، فلمَ لا تأخذه الآن فتستوثقَ منه ؟ فقال : إنّا لو فعلنا هذا بكلّ مَنْ يُتّهم من الناس ملأْنا السجون منهم ، ولا أرانى يسَعُنى الوثوبُ بالناس والحبس لهم وعقوبتهم حتى يُظهِروا لى الخلاف .

قال : فسكتُّ عنه وتنحّيت ، فجلستُ مع أصحابى هُنيهة ، فقال لى عليه السلام :

---

(١) فى الطبرى : « بعد حق المسلم على المسلم » .

ادنُ مِنّى ، فدنوت ، فقال لى مُسِرًّا : اذهب إلى منزل الرجل فاعلَمْ مافعل ؛ فإنه قلّ يومٌ لم يكن يأتينى فيه قبل هذه الساعة ، فأتيتُ إلى منزله،فإذا ليس فى منزله منهم دَيّار ، فدُرْتُ على أبواب دور أخرى ، كان فيها طائفة من أصحابه ، فإذا ليس فيها داعٍ ولا مجيب. فأقبلتُ إلى أمير المؤمنين عليه السلام،فقال لى حين رآنى:أوَطنوا[1] فأقاموا،أم جبنوا فظعنوا ؟ قلت:لا بل ظَعَنوا ، فقال : أبعدَهم الله كما بَعِدت ثمود ! أما والله لو قد أشْرِعَتْ لهم الأسِنّة ، وصُبّت على هامِهم السيوف ، لقد نَدِموا؛إن الشيطان قد استهواهم وأضلّهم، وهو غداً متبرئٌ منهم ، ومُخَلٍّ عنهم؛ فقام إليه زياد بن خَصَفة ، فقال : يا أميرَ المؤمنين؛ إنّه لو لم يكن من مَضَرّة هؤلاء إلّا فراقُهم إيّانا لم يعظُم فقدُهم علينا ، فإنّهم قَلّما يزيدون فى عددنا لو أقاموا معنا،وقلّما ينقُصون من عددنا بخروجهم منّا،ولكنّا نخاف أن يُفسِدوا علينا جماعة كثيرة ممّن يقدَمون عليهم من أهل طاعتك؛فائذَنْ لى فى اتّباعهم حتى أردّهم عليك إن شاء الله .

فقال له عليه السلام : فاخرُج فى آثارهم راشداً ؛ فلما ذهب ليخرج قال له:وهل تدرِى أين توجّه القوم؟قال : لا والله ؛ ولكنّى أخرج فأسأل وأتّبعُ الأثر،فقال : اخرج رحمك الله حتى تنزل دير أبى موسى ثم لا تبرحه حتى يأتيك أمرى ؛ فإنهم إن كانوا خرجوا ظاهرين بارزين للناس فى جماعة ؛ فإنّ عمالى ستكتب إلىّ بذلك ، وإن كانوا متفرقين مستخفِين ؛ فذلك أخفى لهم ، وسأكتب إلى من حَوْلى من عُمّالى فيهم .

فكتب نسخةً واحدة وأخرجها إلى العمال :

من عبدِ الله على أمير المؤمنين إلى من قُرِئ عليه كتابى هذا من العمال ، أمّا بعد،فإن رجالًا لنا عندهم تبعة،خرجوا هُرّابا نظنّهم خرجوا نحو بلادِ البصرة، فاسأل عنهم أهلَ بلادك ، واجعَل عليهم العيون فى كلّ ناحية من أرضك ، ثم اكتب إلىّ بما ينتهى إليك عنهم . والسلام.

---

(١) وطن بالمكان ، أى أقام ، وانظر تاريخ الطبرى ٥ : ١١٥ .

فخرج زياد بن خَصَفة حتى أتى داره ، وجمع أصحابه فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال: يامعشرَ بكْر بن وائل؛ إن أميرَ المؤمنين نَدَبني لأمرٍ من أموره مُهِمّ له، وأمرَني بالانكماش فيه بالعشيرة ؛ حتى آتيَ أمره ؛ وأنتم شيعتُه وأنصاره ، وأوثق حَيّ من أحياء العرب في نفسِه، فانتدِبوا معي الساعة، وعجّلوا . فوالله ما كان إلا ساعة حتى اجتمع إليه مائة وثلاثون رجلا ، فقال : اكتفينا لا نريد أكثر من هؤلاء ؛ فخرج حتى قطع الجِسْر ، ثم أتى دير أبي موسى فنزله ، فأقام به بقية يومه ذلك ، ينتظر أمرَ أمير المؤمنين عليه السلام .

قال إبراهيم بن هلال : فحدّثني محمد بن عبد الله ، عن ابن أبي سيف ، عن أبي الصّلت التيميّ ، عن أبي سعيد ، عن عبد الله بن وأل التَّيميّ ، قال : إنّي لعند أمير المؤمنين؛ إذا فيجٌ[1] قد جاء يسعَى بكتاب من قَرَظة بن كعب بن عمرو الأنصاريّ ـ وكان أحدَ عماله ـ فيه :

لعبد الله علي أمير المؤمنين من قَرَظة بن كعب ، سلام عليك ؛ فإنّي أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ؛ أما بعد :

فإني أخبرُ أميرَ المؤمنين، أنّ خيلاً مرّت من قِبَل الكوفة متوجّهة [نحو نِفّر][2] وأنّ رجلا من دهاقين أسفل الفرات قد أسلم وصلّى، يقال له : زاذان فروخ ؛ أقبل من عند أخوال له فلقوه ، فقالوا له: أمسلم أنت أم كافر ؟ قال : بل مسلم، قالوا : فما تقول في عليّ ؟ قال: أقول فيه خيرا ؛ أقول : إنه أمير المؤمنين عليه السلام وسيّد البشر ووصيّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم . فقالوا : كفرتَ ياعدوّ الله ! ثم حملتْ عليه عصابة منهم ، فقطّعوه بأسيافهم، وأخذوا معه رجلاً من أهل الذمة يهوديًّا ، فقالوا له : مادينك ؟ قال : يهوديّ ، فقالوا:

---

(١) الفيج : رسول السلطان على رجله ؛ فارسي معرب « پيك » . تاج العروس ٢ : ٨٩ .
(٢) تكملة من تاريخ الطبري . ونفر : بلدة على نهر النرس .

خَلُّوا سبيلَ هـذا ، لاسبيلَ لـكم عليه ، فأقبل إلينا ذلك الذّمّى ، فأخبرنا الخبر ، وقد سألت عنهم ، فلم يخبرنى أحد عنهم بشيء ، فليكتبْ إلىَّ أمير المؤمنين فيهم برأيٍ أنتهِ إليه ، إن شاء الله .

فـكتب إليه أميرُ المؤمنين عليه السلام :

أما بعد ؛ فقد فهمتُ ما ماذكرتَ من أمر العصابة التى مَرّت بعملك ، فقتلَتِ البَرَّ المسلم ، وأمن عندهم المخالف المشرك[1] ؛ وإنّ أولئك قوم استهواهم الشيطان فضلُّوا ، كالذين حسبوا ألّا تكون فتنة فعمُوا وصَمُّوا ، فأسمعْ بهم وأبْصِرْ يوم تُخْبَر[2] أعمالهم ! فالزم عَمَلك وأقبِلْ عَلَى خراجك ؛ فإنّك كما ذكرت فى طاعتك ونصيحتك ، والسلام .

قال : فـكتب علىّ عليـه السلام إلى زياد بن خَصَفة ، مع عبد الله بن وأل التيمىّ ، كتابا نسخته :

أما بعد ، فقد كنتُ أمرتك أن تنزل دَيْر أبى موسى حتى يأتيك أمرى ؛ وذلك أنّى لم أكن علمتُ أين توجّه القوم ، وقد بلغنى أنهم أخذوا نحو قرية من قُرى السّواد ، فاتّبع آثارهم وسلْ عنهم ؛ فإنّهم قد قتلوا رجلا من أهل السّواد مسلما مُصَلّيا ، فإذا أنتَ لحقتَ بهم فارددهم إلىّ ، فإنْ أبَوْا فناجِزْهم ، واستعِنْ بالله عليهم؛ فإنّهم قد فارقوا الحقّ ، وسفكوا الدم الحرام ، وأخافوا السبيل . والسلام .

قال عبد الله بن وأل : فأخذتُ الـكتاب منه عليه السلام ـ وأنا يومئذ شابّ ـ فمضيت به غيرَ بعيد ثم رجعت إليـه ، فقلت : ياأميرَ المؤمنين ، ألا أمضى مع زيـاد بن خَصَفة إلى عدوّك ، إذا دفعتُ إليه كتابك ؟ فقال : يابن أخى ، افعل ، فوالله إنّى لأرجو أن تكونَ من أعوانى على الحقّ وأنصارى على القوم الظالمين . قال : فوالله ماأحبّ أنّ لى بمقالته

(١) الطبرى : « الـكافر » .
(٢) كذا فى ج والطبرى ، وفى ا ، ب : « تحشر » .

تلك حُمْرَ النَّعم ، فقلت له : ياأميرَ المؤمنين ، أنا والله كذلك مِن أولئك ؛ أنا والله حيث تحبّ .

ثم مضيت إلى زياد بالكتاب ، وأنا على فَرَس رائع كريم ، وعلىّ السلاح ، فقال لى زياد : يابن أخى، والله مالى عنك من غنًى[1]، وإنى أحبّ أن تكونَ معى فى وجهى هذا، فقلت : إنّى قد استأذَنتُ أميرَ المؤمنين فى ذلك فأذِن لى، فَسُرّ بذلك ، ثم خرجنا حتّى أتينا الموضعَ الذى كانوا فيه ، فسألنا عنهم ، فقيل : أخذوا نحو المدائن فلحقْناهم ؛ وهم نزول بالمدائن ، وقد أقاموا بها يوماوليلة ، وقد استراحوا وعَلفوا خيولهم ،فهم جامّون مريحون، وأتيناهم وقد تقطّعنا ولغِبنا ونصِبنا ؛ فلما رأوْنا وثبوا على خيولهم، فاستووا عليها ، فجئنا حتى انتهينا إليهم ؛ فنادى الخرِّيت بن راشد : ياعميان القلوب والأبصار ، أمعَ الله وكتابه أنتم أم مع القوم الظالمين؟فقال له زياد بن خَصَفة :بل مع الله وكتابه وسُنّة رسوله، ومع مَن الله ورسوله وكتابه آثرُ عنده من الدنيا ثوابا ولو أنها منذ يوم خلقت إلى يوم تَفنَى لآثرالله عليها . أيّها العُمْى الأبصار ، الصمُّ الأسماع !

فقال الخِرّيت : فأخبرونا ماتريدون ؟ فقال له زياد ـ وكان مجرّبا رَفيقا : قد ترى ما بِنا من النَّصَب واللّغوب[2]، والذى جئنا له لايصلح فيه الـكلام عَلانية على رءوس أصحابك ؛ ولـكن تنزلون وننزل ، ثم نخلو جميعا ، فنتذاكر أمرَنا وننظر فيه ؛ فإن رأيتَ فيما جئنا له حظًّا لنفسك قبلتَه ، وإن رأيت فيما أسمع منك أمراً أرجو فيه العافية لنا ولك لم أردّه عليك .

فقال الخرّيت : انزل، فنزل ، فأقبل إلينا زياد ، فقال: انزلوا عَلَى هذا الماء،فأقبلنا حتى انتهينا إلى الماء ،فنزلنا به ، فما هو إلّاأنْ نزلنا فتفرقنا ،فتحلّقنا عشرةوتسعة وثمانيةوسبعة، تضع كلُّ حَلْقة طعامها بين أيديها ، لنأكل ثم نقوم إلى الماء فنشرب

(١) الطبرى : « غناء » . (٢) الطبرى : « من اللغوب والنصب » .

وقال لنا زياد : علّقوا على خيولكم ، فعلّقنا عليها مخاليها ، ووقف زياد في خمسة فوارس ؛ أحدهم عبد الله بن وأل بيننا وبين القوم ، وانطلق القوم فتنحّوا ، فنزلوا وأقبل إلينا زياد ، فلما رأى تفرّقنا وتحلّقنا ، قال : سبحان الله ! أنتم أصحاب حرب ! والله لو أنّ هؤلاء جاءوكم الساعة على هذه الحالة ماأرادوا من غِرّتكم أفضلَ من أعمالكم التى أنتم عليها ؛ عجّلوا ، قوموا إلى خيولكم . فأسرعنا فمنّا من يتوضأ ، ومنا مَنْ يشرب ، ومنا مَنْ يسقى فرسَه ؛ حتى إذا فرغنا من ذلك أتينا زيادا ، وإنّ في يده لَعَرْقًا[1] ينهسُه ، فنهس منه نهستين أو ثلاثة ، ثم أتى بإداوة فيها ماء ،فشرب ثم ألقى العَرْق من يده ،وقال : ياهؤلاء؛ إنا قد لَقِينا العدوّ ، وإنّ القوم لفي عُدّتكم ، ولقد حَزَرْتُهم فما أظنّ أحدَ الفريقين يزيد على الآخر خمسة نفر؛ فإني أرى أمركم وأمرهم سيصير إلى القتال؛ فإن كان ذلك فلا تكونوا أعجزَ الفريقين .

ثم قال : ليأخذْ كلُّ رجل منكم بعِنان فرسه ،فإذا دنوتُ منهم وكلّمت صاحبهم،فإن تابَعني على ماأريد ؛ وإلّا فإذا دعوتكم فاستووا على متون خيلكم ، ثم أقبلوا معاً غيرَ متفرّقين . ثم استقدَم أمامنا وأنا معه ، فسمعتُ رجلًا من القوم يقول : جاءكم القومُ وهم كالُّون مُعْيون ، وأنتم جامُّون[2] مُرِيحُون[3]؛ فتركتُموهم حتى نزلوا فأكلوا وشربوا، وأراحوا دوابّهم ؛ هذا والله سوء الرأى .

قال : ودعا زيادٌ صاحبَهم الخرّيت ، فقال له : اعتزِلْ ننظر في أمرنا ، فأقبل إليه في خمسة نفر ؛ فقلتُ لزياد :أدعو لك ثلاثةَ نفَرٍ من أصحابنا؛ حتى نَلْقاهم في عَدَدهم ؟ فقال: ادع مَنْ أحببتَ . فدعوت له ثلاثة ؛ فكنا خمسة وهم خمسة .

فقال له زياد: ماالذى نقَمت على أمير المؤمنين وعلينا حتى فارقتنا ؟ فقال : لم أرضَ

---

(١) العرق بالفتح : العظم بلحمه ، ويقال : نهش اللحم ، أى أخذه بمقدم أسنانه .

(٢) جم ، من الجمام ، وهو الراحة .

(٣) مريحون ؛ من قولهم : أراح فلان : إذا رجعت إليه نفسه بعد الإعياء .

صاحبَكم إماما ، ولم أرضَ بسيرتكم سيرة ، فرأيتُ أنْ أعتزِل ، وأكونَ معَ مَنْ يدعو إلى الشورى بين الناس ؛ فإذا اجتمع الناسُ على رجل هو لجميع الأمة رِضاً كنتُ مع الناس .

فقال زياد : ويحكَ ! وهل يجتمع الناس على رجل يُدانى عليًا عالماً بالله وبكتابه وسنة رسوله ، مع قرابته وسابقته في الإسلام ! فقال الخِرّيت : هو ما أقول لك ، فقال : فقيم قتلتم الرجل المسلم ؟ فقال الخِرّيت : ما أنا قتلته ؛ قتلته طائفة من أصحابى ، قال : فادفعهم إلينا قال : ما إلى ذلك من سبيل ، قال : أو هكذا أنت فاعل ! قال : هو ما تسمع .

قال : فدعوْنا أصحابنا ، ودعا الخِرّيت أصحابَه ، ثم اقتتلنا ؛ فوالله ما رأيت قتالا مثله منذ خلقنى الله ، لقد تطاعَنّا[1] بالرماح حتى لم يبقَ في أيدينا رُمح ، ثم اضطربنا بالسيوف حتى انحنت ، وعُقِرت[2] عامّة خيلنا وخيلهم ، وكثُرت الجراح فيما بيننا وبينهم ، وقُتِل منّا رجلان : مولًى لزياد كانت معه رايتُه يدعى سويدا ، ورجلٌ من الأبناء يدعى واقد بن بكر ، وصُرِع منهم خمسة نَفَر ، وحالَ الليلُ بيننا وبينهم ؛ وقد والله كرِهُونا وكرهناهم ، وهَزَونَا وهَزَزْنَاهم[3] ، وقد جرح زياد وجُرِحْتُ . ثم إنا بِتْنـا في جانب وتنحَّوْا ، فمكثُوا ساعة من الليل ثم مضوْا ، فذهبوا وأصبحْنا ، فوجدناهم قد ذهبوا ؛ فوالله ما كرهنا ذلك ؛ فمضينا حتى أتينا البَصْرة ، وبلغنا أنّهم أتوا الأهْواز[4] ، فنزلوا في جانب منها ، وتلاحقَ بهم ناسٌ من أصحابهم نحو مائتين كانوا معهم بالكوفة ، لم يكن لهم من القوّة ما ينهضُون به[5] معهم حين نَهَضوا ؛ فاتبعوهم من بَعْد لحوقهم بالأهواز ، فأقاموا معهم .

قال : وكتَب زياد بن خَصَفَة إلى علىّ عليه السلام :

أما بعد ، فإنا لقينا عدوّ الله النّاجيّ وأصحابه بالمدائن ؛ فدعوناهم إلى الهُدَى والحقّ وكلمة

(١) الطبرى : « اطعنا » .
(٢) عقرت الدابة ؛ إذا قطعت قوائمها بالسيف .
(٣) هزونا وهززناهم ؛ أى كرهونا وكرهناهم .
(٤) الأهواز : سبع كور بين البصرة وفارس .
(٥) الطبرى : « ماينهضهم » .

السواء ؛ فتولّوا عن الحقّ وأخذتهم العزة بالإثم ، وزيّن لهم الشيطان أعمالهم فصدّهم عن السبيل ؛ فقصدُونا وصمدْنا صَمْدَهم ، فاقتتلنا قتالا شديدا ما بين قائم الظهر إلى أن دَلَكت[١] الشمس ، واستشهد منّا رجلان صالحان ، وأصيب منهم خمسة نفر ، وخلَّوْا لنا المعركة ، وقد فشت فينا وفيهم الجراح . ثم إنّ القوم لمّا أدركوا الليل خرَجوا من تحته متنكّرين إلى أرض الأهواز ؛ وقد بلغني أنّهم نزلوا من الأهواز جانبا . ونحن بالبصرة نداوي جِراحنا ، وننتظر أمرَك رحمك الله ؛ والسلام .

فلما أتاه الكتاب ، قرأه على الناس ، فقام إليه معقل بن قَيْس الرِّياحيّ ، فقال : أصلحك الله يا أمير المؤمنين إنّما كان ينبغي أن يكون مكان كلّ رجل من هؤلاء الذين بعثتَهم في طلبهم عشرة من المسلمين ، فإذا لحقُوهم استأصلوا شأفتَهم[٢] ، وقطعوا دابرهم ؛ فأمّا أن تلقاهم بأعدادهم ؛ فلعمري ليصبِرُنّ لهم ، فإنّهم قوم عرب ، والعُدّة تصبر للعدّة ، فيقاتلون كل القتال .

قال : فقال عليه السلام له : تجهّزْ يا معقِل إليهم ، وندَب معه ألفين من أهل الكوفة ، فيهم يزيد بن معقل ، وكتب إلى عبدالله بن العباس بالبصرة رحمه الله تعالى :

أمّا بعد ، فابعثْ رجلا من قِبَلِك صَلِيباً شجاعا ، معروفاً بالصلاح في ألفَيْ رجل من أهل البَصْرة ، فليتْبَع معقل بن قيس ؛ فإذا خرج من أرض البَصْرة ، فهو أميرُ أصحابه حتى يَلْقى معقِلا ؛ فإذا لَقيَه فمعقل أميرُ الفريقين ، فليسمع[٣] منه وليُطِعْه ولا يخالفه ؛ ومُرْ زياد بن خَصَفة فليُقبِلْ إلينا ، فنعم المرء زياد ؛ ونعم القَبِيلُ قبيله ! والسلام .

---

(١) دلكت الشمس : اصفرت وجنحت للمغيب .

(٢) الشأفة في الأصل : قرحة تخرج في أسفل القدم فتكوى فتذهب ؛ وإذا قطعت مات صاحبها ؛ وقولهم : استأصل الله شأفته ؛ أي أذهبه كما تذهب القرحة ، ومعناه أزاله من أصله .

(٣) الطبري : « فليسمع من معقل » .

قال : وكتب عليه السلام إلى زياد بن خَصَفَة :

أما بعد ، فقد بلغني كتابُك ، وفهمت ما ذكرت به الناجيَ وأصحابه، الذين طَبَع الله على قلوبهم ، وزيّن لهم الشيطانُ أعمالَهم ؛ فهم حَيَارى عَمُون ، يَحْسِبون أنهم يُحْسِنون صُنْعا ؛ ووصفتَ مابلغ بك وبهم الأمر؛ فأما أنت وأصحابك فلله سعيُكم وعليه جزاؤكم ! وأيسرُ ثواب الله للمؤمن خيرٌ له من الدنيا التي يُقْبِل الجاهلون بأنفسهم عليها ، فـ ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [(١)] : وأما عدوّكم الذين لقيتم فحسبُهم خروجهم من الهُدَى ، وارتكاسُهم في الضّلالة، وردُّهم الحقَّ، وجِماحُهم في التِّيه، فذرْهم ومايفترون، ودَعْهم في طغيانهم يعمهون، فأسمِع بهم وأبصِر؛ فكأنّك بهم عن قليل بين أسير وقتيل، فأقبِل إلينا أنت وأصحابُك مأجورين ، فقد أطعتم وسمعتم ، وأحسنتم البلاء . والسلام .

قال : ونزل الناجيّ جانبا من الأهواز ، واجتمع إليه علوجٌ كثير من أهلها ؛ ممّن أراد كَسْر الخراج ومن اللصوص ، وطائفة أخرى من الأعراب ترى رأيه .

قال إبراهيم بن هلال : فحدثنا محمد بن عبدالله ، قال : حدثني ابن أبي سيف ، عن الحارث بن كَعْب ، عن عبدالله بن قُعَين ، قال : كنت أنا وأخي كَعب بن قُعَين في ذلك الجيش مع مَعْقِل بن قيس ، فلما أراد الخروج أتى أميرَ المؤمنين [(٢)] عليه السلام يودّعه ، فقال : يامعقل بن قيس ؛ اتّقِ الله مااستطعت ؛ فإنّه وصية الله للمؤمنين؛ لاَ تَبْغِ على أهل القِبْلة ، ولا تَظْلِمْ أهلَ الذّمة ولا تتكبّر؛ فإنّ الله لا يحبُّ المتكبّرين . فقال معقل : الله المستعان ، فقال : خيرُ مستعان .

---

(١) سورة النحل ٩٦ .

(٢) الطبري : « أقبل إلى علي » .

ثم قام فخرج ، وخرجنا معه ؛ حتى نزل الأهواز ، فأقمنا ننتظر بعث البصرة ، فأبطأ علينا ، فقام معقل فقال : أيها الناس ؛ إنا قد انتظرنا أهل البصرة ، وقد أبطئوا علينا ، وليس بنا بحمد الله قلة ولا وحشة إلى الناس ؛ فسيروا بنا إلى هذا العدو القليل الذليل ؛ فإنى أرجو أن ينصركم الله ويهلكهم . فقام إليه أخى كعب بن قمين فقال : أصبت إن شاء الله رأينا رأيك ، وإنى لأرجو أن ينصرنا الله عليهم ؛ وإن كانت الأخرى ؛ فإن فى الموت على الحق لتعزية عن الدنيا . فقال : سيروا على بركة الله . فسرنا ، فوالله مازال معقل ابن قيس لى ولأخى مكرماً واداً ، مايعدل بنا أحداً من الجند ، ولا يزال يقول لأخى : كيف قلت : إن فى الموت على الحق لتعزية عن الدنيا ! صدقت والله وأحسنت ، ووفقت وفقك الله ! قال : فوالله ماسرنا يوما ؛ وإذا بفيج[1] يشتد بصحيفة فى يده.

ن عبد الله بن عباس إلى معقل بن قيس ، أما بعد ؛ فإن أدركك رسولى بالمكان الذى كنت مقيما به ، أو أدركك وقد شخصت منه ؛ فلا تبرحن من المكان الذى ينتهى إليك رسولى وأنت فيه ، حتى يقدم عليك بعثنا الذى وجهناه إليك ، فقد وجهت إليك خالد بن معدان الطائى ، وهو من أهل الدين والصلاح والنجدة ، فاسمع منه واعرف ذلك له إن شاء الله . والسلام .

قال : فقرأه معقل بن قيس على أصحابه . فسروا به ، وحمدوا الله ، وقد كان ذلك الوجه هالهم . وأقمنا حتى قدم علينا خالد بن معدان الطائى ، وجاءنا حتى دخل على صاحبنا ، فسلم عليه بالإمرة ، واجتمعنا جميعا فى عسكر واحد ، ثم خرجنا إلى الناجى وأصحابه ، فأخذوا يرتفعون نحو جبال رامهرمز ، يريدون قلعة حصينة ، وجاءنا أهل البلد . فأخبرونا بذلك ، فخرجنا فى آثارهم فلحقناهم ، وقد دنوا من الجبل ، فصففنا لهم ، ثم أقبلنا نحوهم ، فجعل معقل على ميمنته يزيد بن المعقل الأزدى ، وعلى ميسرته منجاب بن راشد الضبى ، ووقف

---

(١) انظر الحاشية ١ ص ١٣١ من هذا الجزء .

الخِرِّيت بن راشد الناجِيّ بمن معه من العَرب ، فكانوا ميمنة ، وجعلَ أهلَ البلد والعلُوجَ[١] ومَنْ أراد كسر الخراج وجماعة من الأكراد ميسرة .

قال : وسار فينا مَعْقِل يحرّضنا، ويقول : ياعبادالله ، لا تبدءوا القوم، وغُضُّوا الأبصار، وأقلّوا الكلام ، ووطنوا أنفسكم على الطعن والضَّرْب ، وأبشروا في قتالهم بالأجرالعظيم، إنما تقاتلون مارقةً مَرَقَتْ وعلُوجا[١] منعوا الخراج ، ولصوصا وأكراداً ، فما تنتظرون ! فإذا حملتُ فشدّوا شِدّة رجل واحد .

قال : فمرّ في الصفّ يكلّمهم ، يقول هذه المقالة ، حتى إذا مرّ بالناس كلِّهم أقبل فوقف وسط الصفّ في القَلْب ، ونظرنا إليه مايصنع ، فحرّك رأسه تحريكتين ، ثم حَمَل في الثالثة ؛ وحَمَلْنا معه جميعا ، فوالله ماصَبَرُوا لنا ساعة حتى ولّوا وانهزموا، وقتلنا سبعين عَرَبِيًّا من بنى ناجية ، ومن بعض من اتّبعه من العرب ، ونحو ثلثمائة من العلُوج والأكراد .

قال كعب : ونظرتُ ، فإذا صديق مدرك بن الرّيان قتيلا ، وخرج الخِرِّيت منهزما، حتى لحق بسِيف[٢] من أسياف البحر ؛ وبها جماعةٌ من قومه كثير ، فما زال يسيرُ فيهم ويدعوهم إلى خلاف علىّ عليه السلام ، ويزيّن لهم فِراقه ، ويخبرهم أن الهُدَى في حربه ومخالفته ، حتى اتّبعه منهم ناس كثير .

وأقام معقل بن قيس بأرض الأهواز ، وكتب إلى أمير المؤمنين عليه السلام بالفَتْح ، وكنتُ أنا الذى قَدِم بالكتاب عليه ، وكان في الكتاب :

لعبد الله علىّ أمير المؤمنين ، من مَعقل بن قيس . سلام عليك ، فإني أحْمَد إليك الله الذى لا إله إلا هو . أما بعدُ، فإنّا لقِينا المارقين ؛ وقد استظهروا علينا بالمشركين ؛

---

(١) العلوج : كفار العجم ؛ واحده علج .

(٢) السيف ، بالكسر : ساحل البحر .

فقتلنا منهم ناساً كثيرا ولم نَعْدُ فيهم سيرتك فلم نقتلْ منهم مُدْبِرا ولا أسيرا ؛ ولم نُذَفِّفْ[1] منهم على جريح ، وقد نصرك الله والمسلمين ، والحمد لله رب العالمين .

قال : فلما قدمتُ بالكتاب على علىّ عليه السلام ، قرأه على أصحابه ، واستشارهم فى الرأى ، فاجتمع رأىُ عامتهم على قول واحد . قالوا : نرى أنْ تكتُبَ إلى معقل بن قيس ؛ يَتْبع آثارهم ، ولا يزال فى طلبهم حتى يقتلَهم أو ينفيَهم من أرض الإسلام ؛ فإنا لا نأمن أن يُفْسِدوا عليك الناس .

قال : فردّنى إليه ، وكتب معى :

أما بعد ؛ فالحمدُ لله على تأييده أولياءه ، وخَذْله أعداءه ، جزاك الله والمسلمين خيرا ؛ فقد أحسنتم البلاء ، وقضَيْتم ما عليكم ، فاسأل عن أخى بنى ناجية ، فإنْ بلَغَكَ أنه استقرّ فى بلد من البلدان ، فسِرْ إليه حتى تقتلَه أو تنفيَه ، فإنه لم يزل للمسلمين عدوًّا ، وللفاسقين وليًّا ، والسلام .

قال : فسأل مَعْقل عن مسيره والمكان الذى انتهى إليه ، فنُبِّئْ بمكانه بسيف البحر بفارس ، وأنه قد ردّ قومه عن طاعة علىّ عليه السلام ، وأفسد مَنْ قِبلَه من عبد القيس ، ومَنْ والاهم من سائر العرب ، وكان قومه قد منعوا الصدقة عام صِفّين ، ومنعوها فى ذلك العام أيضا ، فسار إليهم معقِل بن قيس فى ذلك الجيش من أهل الكوفة والبصرة ، فأخذوا على أرض فارس ، حتى انتهوْا إلى أسياف البحر ؛ فلما سمع الخِرّيتُ بن راشد بمسيره ، أقبل على من كان معه من أصحابه ، ممّن يرى رأىَ الخوارج ، فأسرّ إليهم : إنى أرى رأيَكم ، وإن عليًّا ما كان ينبغى له أن يُحَكِّم الرجال فى دين الله ، وقال لمن يرى رأىَ عثمان وأصحابه : إنّا على رأيكم ، وإنّ عثمان قُتِل مظلوما معقولا ؛ وقال لمن منع الصَّدَقه :

---

(١) ذفف على الجريح : أجهز عليه .

شُدّوا أيديَكم على صدقاتكم ، ثم صِلُوا بها أرحامكم ، وعودوا إن شئتم على فقرائكم ؛ فأرضَى كلَّ طائفة بضرب من القول ؛ وكان فيهم نصارى كثير ، وقد كانوا أسلموا ؛ فلما رأوْا ذلك الاختلاف ، قالوا : والله لَدِيننا الذى خرجنا منه خيرٌ وأهدَى من دين هؤلاء الذين لا ينهاهم دينُهم عن سفك الدماء ، وإخافة السُّبل ؛ فرجعوا إلى دينهم .

فلقى الخرّيت أولئك ، فقال : وَيْحكم ! إنّه لا يُنْجِيكم من القتل إلا الصبر لهؤلاء القوم ولقتالهم ، أتدرون ما حُكم علىّ فيمن أسلم من النصارى ثم رجع إلى النصرانية ؟ لا والله لا يسمعُ له قولا ، ولا يَرَى له عذرا ، ولا يَقبل منه توبة ، ولا يدعوه إليها ؛ وإنْ حكمه فيه أن يُضْرَب عنقه ساعة يُستَمْكَن منه ؛ فما زال حتى خَدَعهم وجاءهم مَنْ كان من بنى ناجية فى تلك الناحية ومن غيرهم ؛ فاجتمع إليه ناس كثير ، وكان مُنْكرا داهيًا .

قال : فلما رجع مَعْقِل ، قرأ على أصحابه كتابا من علىّ عليه السلام فيه :

مِن عبد الله علىّ أمير المؤمنين إلى مَن قُرِئ عليه كتابى هذا ؛ مِنَ المسلمين والمؤمنين والمارقين والنصارى والمرتدين . سلامٌ على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وكتابه ، والبعث بعد الموت وافيا بعهد الله ؛ ولم يكن مِن الخائنين ؛ أما بعدُ فإنى أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ؛ وأنْ أعمل فيكم بالحقّ وبما أمر الله تعالى فى كتابه ، فَمَنْ رجع منكم إلى رَحْله وكفّ يده ، واعتزل هذا المارق[1] الهالك المحارِب[2] ؛ الذى حارب الله ورسوله والمسلمين ، وسعى فى الأرض فسادا ، فله الأمان على ماله ودمِه . وَمَن تابعه على حربِنا والخروج مِن طاعتِنا ، استعنّا بالله عليه ، وجعلناه بيننا وبينه ، وكفى بالله وليًّا . والسلام .

قال : فأخرج معقل رايةَ أمانٍ فنصبها ، وقال : مَنْ أتاها مِنَ الناس فهو آمن إلا الخِرّيت وأصحابه الذين نابذوا أوّل مرة ، فتفرق عن الخِرّيت كلُّ من كان معه مِن غير قومه ، وعَبّأ معقل بن قيس أصحابه ، ثم زحَف بهم نحوه ، وقد حَضَر مع الخِرّيت جميع

(١) ا : « الفاسق » .
(٢) ساقطة من ج .

قومه ! مسلمهم ونَصرانيّهم؛ومانعى الصدقة منهم،فجعل مسلميهم يَمْنة ، والنصارى ومانعى الصدقة يَسْرة،وجعل يقول لقومه : امنعُوا اليوم حريمَكم،وقاتلوا عن نسائكم وأولادِكم، والله لئن ظهروا عليكم ليقتُلنكم وليَسْلُبنكم .

فقال له رجل منْ قومه : هـذا والله ماجرّتهُ علينا يدُك ولسانُك ، فقال لهم : قاتلوا فقد سبقَ السيفُ العذَل .

قال : وسار معقِل بن قيس يحرّض أصحابَه فيما بين الميمنة والميسرة ، ويقول : أيّها الناس ، ماتدرون ما سِيق إليكم في هـذا الموقف من الأجر العظيم ! إنّ الله ساقكم إلى قوم مَنَعُوا الصدقة،وارتدّوا عن الإسلام ، ونكثوا البيعة ظلما وعدوانا ؛ إنى شهيد لمن قُتِل منكم بالجنة ، ومن عاش بأن الله يُقِرّ عينه بالفتح والغنيمة ؛ ففعل ذلك حتى مَرّ بالناس أجمعين ، ثم وقف في القَلْب برايته ، وبعث إلى يزيد بن المعقل الأزدىّ ، وهو في الميمنة ؛ أن احِلْ عليهم ، فحمل ، فثبتوا له ، فقاتل طويلا وقاتلوه ، ثم رجع حتى وقف موقفَه الذى كان فيه من الميمنة ، ثم بعث إلى المنجاب بن راشد الضبيّ ، وهو في الميسرة : أن احمِل عليهم ؛ فحمل فثبتوا له ، فقاتل طويلا وقاتلوه ، ثم رجع حتى وقف موقفه الذى كان في الميسرة ، ثم بعث معقل إلى ميمنته وميسرته : إذا حملتُ فاحملوا جميعا . ثم أجرى فرسَه وضربها ، وحمل أصحابه ، فصبروا لهم ساعة .

ثم إنّ النعمان بن صهبان الراسبيّ بَصُر بالخرّيت ، فحمل عليه ، فصرّعه عن فرسه ، ثم نزل إليه وقد جرّحه ، فاختلفا بينهما ضربتين ، فقتله النعمان وقُتِل معه في المعركة سبعون ومائة ، وذهب الباقون في الأرض يمينا وشمالا ، وبعث معقِل الخيل إلى رحالهم ، فسبَى[1] من أدرك فيها رجالا ونساء وصبيانا،ثم نظر فيهم ، فمَنْ كان مسلما خلّاه وأخذ

---

(١) السبى : الأسر .

بيعته ، وخلَّ سبيل عيالِه ، ومَنْ كان ارتدَّ عن الإسلام عَرَض عليه الرجوعَ إلى الإسلام وإلّا القتل ؛ فأسلموا . فخلّى سبيلَهم،وسبيلَ عيالاتهم ؛ إلا شيخا منهم نصرانيا يقال له : الرماحس [١] بن منصور ؛ فإنه قال : والله مازلت [٢] مصيبا مذ عقلْت ؛ إلا فى خروجى من دينى ؛ دين الصدق ، إلى دينكم ، دين السوء ؛ لا والله لا أدعُ دينى ولا أقربُ دينكم ماحييت .

فقدّمه معقِل فضرب عنقه ، وجمع الناس ، فقال : أدّوا ماعليكم فى هذه السنين من الصَّدَقة ، فأخذ من المسلمين عِقالين،وعَمَد إلى النصارى وعِيالاتهم فاحتملهم معه ، وأقبل المسلمون الذين كانوا معهم ؛ يشيّعونهم، فأمر معقل بردّهم ؛ فلما ذهبوا لينصرفوا،تصايحوا ودعا الرجال والنساء بعضُهم إلى بعض .

قال : فلقد رحمتُهم رحمة مارحمتُها أحداً قبلهم ولا بعدهم . وكتب معقل إلى علىّ عليه السلام :

أما بعد ؛ فإنى أخبر أميرَ المؤمنين عن جُنْده وعن عدوه أنّا دفعنا إلى عدونا بأسْياف البحر ، فوجدْنا بها قبائل ذات حَدّ وعدد ؛ وقد جمعوا لنا،فدعوناهم إلى الجماعة والطاعة، وإلى حُكْم الكتاب والسنة ؛ وقرأنا عليهم كتاب أمير المؤمنين عليه السلام ، ورفعنا لهم راية أمان ؛ فمالت إلينا طائفة منهم،وثبتت طائفة أخرى،فقبِلْنا أمر التى أقبلت، وصَمَدْنا إلى التى أدبرتْ ، فضرب الله وجوههم ، ونَصَرَنا عليهم ؛ فأما مَنْ كان مسلما ؛ فإنّا مننّا عليه ، وأخذنا بيعته لأمير المؤمنين،وأخذنا منهم الصدقةالتى كانت عليهم؛ وأمّا مَنْ ارتدّ فعرَضْنا عليهم الرجوع إلى الإسلام ؛ وإلاقتلناهم ؛ فرجعوا إلى الإسلام؛غيرَ رجل واحد فقتلناه ؛ وأمّا النصارى ؛ فإنّا سبيْناهم وأقبلنا بهم ؛ ليكونوا نَكالا لمن بعدهم من أهل الذِّمة ، كى لا يمنعوا الجزية ، ولا يجترئوا على قتال أهل القِبْلة ؛ وهم للصَّغار والذلة

(١) كذا فى تاريخ الطبرى ٥ : ١٢٨ ، وفى الأصول : « الرملحس » ، تحريف .
(٢) وفى الأصول : « ماظلت » ، والصواب ماأثبته من الطبرى .

أهلٌ . رحمك الله يا أمير المؤمنين ، وعليك الصلاة والسلام ، وأوجب لك جنات النعيم . والسلام .

قال : ثم أقبل بالأسارى حتى مرّ على مَصْقلة بن هُبيرة الشيبانيّ ، وهو عامل لعليّ عليه السلام على أردَشير خُرّة [1] وهم خمسمائة إنسان ، فبكى إليه النساء والصبيان ، وتصايح الرجال : يا أبا الفضل ، يا حامل الثِّقَل [2] ، يا مُؤوى الضعيف ، وفَكّاك العصاة ، امنن علينا فاشترِنا وأعتقنا . فقال مصقلة : أقسم بالله لأتصدقنّ عليهم ، إن الله يجزى المتصدّقين . فبلغ قولُه معقلَ بن قيس ، فقال : والله لو أعلمه قالها توجّعا لهم وإزراء عليّ لضربتُ عنقه ، وإن كان فى ذلك فناء بنى تميم وبكر بن وائل .

ثم إن مصقلة بعث ذُهل بن الحارث الذهليّ إلى معقل ، فقال : بِعنى نصارى ناجية ، فقال : أبيعكهم بألف ألف درهم ؛ فأبى عليه ، فلم يزلْ يُراوده حتى باعه إياهم بخمسمائة ألف درهم ، ودفَعَهم إليه ، وقال : عجّل بالمال إلى أمير المؤمنين عليه السلام ، فقال مصقلة : أنا باعث الآن بصَدْر منه ، ثم أتبعك بصَدْرٍ آخر ، ثم كذلك حتى لا يَبْقى منه شيء . وأقبل معقل إلى أمير المؤمنين عليه السلام ، فأخبره بما كان من الأمر ، فقال له : أحسنتَ وأصبت وَوُفّقت .

وانتظر عليّ عليه السلام مصقلة أن يبعث بالمال ، فأبطأ به . وبلغ عليّاً عليه السلام أنّ مصقلة خلّى الأسارى ولم يسألهم أن يُعينوه فى فَكاك أنفسهم بشيء ، فقال : ما أرى مصقلة إلا قد حمل حمالة ، ولا أراكم إلا سترونه عَنْ قريب مُبَلْدَحاً [3] ، ثم كتب إليه :

---

(١) أردشير خرة ، بالفتح ثم السكون وفتح الدال المهملة وكسر الشين المعجمة وياء ساكنة وراء ، وخاء معجمة مضمومة ، وراء مفتوحة مشددة وهاء : من كورفارس (مراصد الاطلاع) .

(٢) الثقل . متاع الإنسان وحشمه .

(٣) المبلدح : الملقى على الأرض من الضرب .

أما بعد ؛ فإنّ من أعظم الخيانة خيانة[1] الأمة ، وأعظم الغشّ على أهل المصر غشّ الإمام ، وعندك من حقّ المسلمين خمسمائة ألف درهم ، فابعث بها إلىّ حين يأتيك رسولى ؛ وإلا فأقبلْ إلىّ حين تنظر فى كتابى ؛ فإنى قد تقدّمت إلى رسولى ألّا يدعك ساعة واحدة تقيم بعد قدومه عليك ؛ إلا أن تبعث بالمال ، والسلام .

وكان الرسول أبو جُرّة الحنفىّ ، فقال له أبو جُرّة : إن تبعث بهذا المال وإلا فاشخَصْ معى إلى أمير المؤمنين . فلما قرأ كتابه أقبل حتى نزل البَصرة ، وكان العمال يحملون المال من كُور البصرة إلى ابن عباس ؛ فيكونُ ابن عباس هو الذى يبعثُ به إلى أمير المؤمنين عليه السلام ، ثم أقبل من البَصرة حتى أتى عليا عليه السلام بالكوفة ، فأقرّه أياما لم يذكر له شيئاً ، ثم سأله المال ، فأدّى إليه مائتى ألف درهم ، وعَجَز عن الباقى .

قال : فروى ابن أبى سيف ، عن أبى الصَّلْت ، عن ذُهل بن الحارث ، قال : دعانى مَصْقَلة إلى رَحْله ، فقدّم عشاء فطعمنا منه ، ثم قال : والله إنّ أمير المؤمنين عليه السلام يسألنى هذا المال ، ووالله ما أقدر عليه ، فقلت له : لو شئت لم يمضِ عليك جُمعة حتى تجمعَ هذا المال ، فقال : ما كنت لأحمّلها قومى ، ولا أطلب فيها إلى أحد .

ثم قال : والله لو أنّ ابن هند مُطالِبى بها ، أو ابن عفّان ، لتركها لى ؛ ألم تر إلى عثمان كيف أعطَى الأشعثَ مائة ألف درهم من خراج أذْرَبيجان فى كل سنة ! فقلت : إنّ هذا لا يَرى ذلك الرأى ، وما هو بتارك لك شيئا . فسكت ساعة ، وسكتُّ عنه ؛ فما مكث ليلة واحدة[2] بعد هذا الكلام حتى لحق بمعاوية .

فبلغ ذلك عليًّا عليه السلام فقال : ماله تَرَّحَهُ الله ! فعل فِعْل السّيد وفرّ فرار العبد ، وخان خيانة الفاجر ؛ أما إنه لو أقام فعجز مازدنا على حَبْسه ، فإن وجدنا له شيئاً أخذناه ،

---

(١) كلمة « خيانة » ساقطة من ا ، ب ؛ ثابتة فى ج والطبرى .
(٢) الطبرى : « فلا والله ما مكث إلا ليلة واحدة » .

وإن لم نجد له مالًا تركناه . ثم سار علىٌّ عليه السلام إلى داره فهدمها .

وكان أخوه نعيم بن هبيرة الشيبانىّ شيعةً لعلى عليه السلام ، مناصحاً ، فكتب إليه مصقلة من الشام مع رجل من نصارى تَغْلِب ، يقال له حُلْوان :

أما بعدُ ؛ فإنى كلمتُ معاوية فيك ، فوعدَكَ الكرامة ، ومَنّاكَ الإمارة ، فأقبِل ساعة تلقى رسولى . والسلام .

فأخذه مالك بن كعب الأرحبىّ فسرح به إلى علىّ عليه السلام ، فأخذ كتابه فقرأه ثم قدمه فقطع يده ، فمات . وكتب نعيم إلى [أخيه] مصقلة شعرا لم يردّه عليه[١] :

لا ترمينّ هَداكَ الله معترضا بالظنّ منك فما بالى وحُلْوانا

ذاكَ الحريصُ على ما نالَ من طَمَعٍ وَهْوَ البعيدُ فَلَا يُورِثْك أحزانا[٢]

مَاذَا أَرَدْت إلى إرسالِهِ سَفَهاً تَرْجُو سِقَاط امرئٍ لم يُلْفَ وَسْنَانا

عَرَّضْتَه لِعَلِيٍّ إنه أَسَدٌ يَمْشِي العِرَضْنَةَ مِنْ آسَادِ خَفّانا[٣]

قَدْ كُنْتَ فى خَيْرِ مُصطافٍ وَمُرْتَبَعٍ تَحْمِي العِرَاقَ وتُدْعَى خَيْرَ شَيْبَانا[٤]

حَتَّى تَقَحَّمْتَ أمراً كُنْتَ تكرهُهُ لِلرَّاكِبِينَ لَهُ سِرًّا وَإِعْلَانَا

لَوْ كُنْت أَدَّيْتَ مال الله مصطبرا للحقِّ زَكَّيت أحيانا ومَوْتانا[٥]

لَكِنْ لَحِقْتَ بأهْلِ الشَّام مُلتمِساً فَضْلَ ابن هندٍ فَذَاكَ الرأىُ أشجانا

فاليَوْمَ تقرَعُ سِنّ العَجْزِ من ندمٍ[٦] مَاذَا تقولُ وقَدْ كَانَ الذى كانا !

أَصْبَحْتَ تُبْغِضكَ الأحياء قاطبةً لم يَرْفَعِ اللهُ بالعصْيان إنسانا[٧]

---

(١) الأبيات فى تاريخ الطبرى ٥ : ١٣٠ وما بعدها .

(٢) الطبرى : « فلا يحزنك إذ خانا » .

(٣) العرضنة : البغى فى المشى من النشاط . وخفان : مأسدة قرب الكوفة .

(٤) الطبرى : « قد كنت فى منظر عن ذا ومستمع » .

(٥) رواية الطبرى :

لَوْ كُنْتَ أَدَّيْتَ مَا لِلْقَوْمِ مُصْطَبِراً لِلْحَقِّ أَحْيَيْتَ أَحْيَانا وَمَوْتَانَا

(٦) الطبرى : « سن القرم » .

(٧) الطبرى : « بالبغضاء إنسانا » .

فلما بلغ الكتاب إليه علم أن النصرانيّ قد هلك[١]، ولم يلبث التغلبيّون إلا قليلا حتى بلغهم هلاكُ صاحبهم، فأتوا مصقلة، فقالوا: أنت أهلكت صاحبنا؛ فإما أن تجيئنا[٢] به، وإما أن تَدِيَهُ؛ فقال: أما أنْ أجيءَ[٣] به، فلست أستطيع ذلك؛ وأما أن أدِيَه فنعم، فوَداه.

قال إبراهيم: وحدثني ابن أبي سيف، عن عبد الرحمن بن جندب، عن أبيه، قال: قيل لعليّ عليه السلام حين هرب مَصْقلة: اردد الذين سُبُوا ولم تستوف أثمانَهم في الرّقّ، فقال: ليس ذلك في القضاء بحق؛ قد عَتَقوا إذ أعتقهم الذي اشتراهم، وصار مالي ديناً على الذي اشتراهم.

وروى إبراهيم أيضا، عن إبراهيم بن ميمون، عن عمرو بن القاسم بن حبيب التّمار، عن عمار الدُّهني، قال: لما هرب مصقلة قال أصحابُ عليّ عليه السلام له: يا أميرَ المؤمنين، فَيئنا! قال: إنه قد صار على غَريم من الغرماء، فاطلبوه.

وقال ظبيان بن عُمارة، أحد بني سعد بن زيد مناة في بني ناجية:

هلّا صَبَرْتَ للقِرَاع ناجيــاً   والمرْهَفَاتِ تَخْتَلِي الهَوادِيا[٤]

والطَّعْنِ في نُحُورِكم تَوَاليــا   وصائباتِ الأسهم القواضيــا

وقال ظَبْيان أيضا:

ألا فاصبرُوا للطعن والضَّرْب ناجيا   وللمرهفَات يختلين الهواديا

فقد صَبّ ربُّ الناس خِزْياً عَلَيْكُمُ   وَصَيَّرَكُمْ مِنْ بَعْدِ عِزٍّ مواليا

---

(١) الطبري: «فلما وقع الكتاب إليه علم أن رسوله قد هلك».

(٢) الطبري: «تحييه».

(٣) الطبري: «أحييه».

(٤) تختلي: تجز، والهوادي هنا: الأعناق.

تمالكُمْ بالخيلِ جُرْداً عواديا   أخو ثقة لا يبرح الدهر غازيا
فصبّحكمْ فى رَحْلِكم وخيولكم   بِضَربٍ يُرى منه المدَجّجُ هاويا
فأصبحتمُ من بعد عِزٍ وكثرةٍ   عبيدَ العصا لا تمنعون الذّراريا

قال إبراهيم بن هلال : وروى عبد الرحمن بن حبيب ، عن أبيه ، أنه لما بلغ علياً عليه السلام مصابُ بنى ناجية ، وقتلُ صاحبهم، قال : هوتْ أمّه ! ما كان أنقصَ عقله وأجرأه ! إنه جاءنى مرة فقال : إن فى أصحابك رجالاً قد خشيت أن يفارقوك ، فما ترى فيهم ؟ فقلت : إنى لا آخذُ على التّهمة ، ولا أعاقِبُ على الظّن، ولا أقاتل إلّا مَنْ خالفنى وناصَبَنى، وأظهر العداوة لى ؛ ثم لست مقاتِلَه حتى أدعوَه وأعذِرَ إليه[1] ؛ فإن تاب ورجع قبلنا منه، وإن أبى إلا الاعتزامَ على حربنا استعنّا بالله عليه ، وناجزناه . فكفّ عنى ما شاءالله ، ثم جاءنى مرة أخرى ، فقال لى : إنّى قد خشيتُ أن يفسد عليك عبدالله بن وهب وزيدبن حصين الطائىّ ، إنى سمعتهما يذكرانك بأشياء لو سمعتَهما لم تفارقهما حتى تقتلهما أو توثِقهما ، فلا يزالان بمحبسك أبدا . فقلت له : إنّى مستشيرُك فيهما ، فماذا تأمرنى به ؟ قال : إنى آمرك أن تدعوَ بهما فتضرب رقابَهما ، فعلمت أنّه لا ورعَ له ولا عقل . فقلت له : والله ما أظنّ لك ورعا ولا عقلا ، لقد كان ينبغى لك أنْ تعلم أنى لا أقتل مَنْ لم يقاتلنى، ولم يظهر لى عداوته للذى كنت أعلمتُكه من رأيى ، حيث جئتنى فى المرة الأولى ؛ ولقد كان ينبغى لك — لو أردتُ قتلهم — أن تقول لى : اتق الله ! بِمَ تستحلّ قتلهم ولم يقتلوا أحدا، ولم ينابذوك ولم يخرجوا من طاعتك !

* * *

فأمّا مايقوله الفقهاء فى مثل هذا الشّىء ، فقبل أن نذكر ذلك نقول : إنّ الروايةَ قد

---

(١) أى يكون لى عنده عذر .

اختلفت فى المرتدّين من بنى ناجية ، فالرواية الأولى التى رواها محمد بن عبد الله بن عثمان، عن نصر بن مزاحم،تتضمّن أنّ الأمير الذى من قِبَل علىّ عليه السلام قتل مقاتلةالمرتدين منهم بعـد امتناعهم من العوْد إلى الإسـلام ، وسَبَى ذراريّهم ، فقدم بها على علىّ عليه السلام ؛ فعلى هذه الرواية يكون الذين اشترام مَصْقَلة ذرارىّ أهل الرِّدّة .

والرواية الثانية التى رواها محمد بن عبدالله ، عن ابن أبى سيف،تتضمّن أن معقِل بن قيس،الأمير من قِبَل على عليه السلام لم يقتل من المرتدّين من بنى ناجية إلارجلا واحدا، وأمّا الباقون فرجعوا إلى الإسلام،والاسترقاقُ إنما كان للنصارى الذين ساعدوا فى الحرب وَشَهروا السيف على جيش الإمام ؛ وليسوا مرتدِّين ؛ بل نصارى فى الأصل ، وهم الذين اشترام مَصْقلة .

فإن كانت الرواية الأولى هى الصحيحة ففيها إشكال؛لأنّ المرتدّين لايجوز عند الفقهاء استرقاقُهم،ولا أعرف خلافا فى هذه المسألة ، ولا أعلم الإماميّة أيضا[1] تخالف فيها ؛ وإنما ذهب أبو حنيفة إلى أنّ المرأة المرتدّة إذا لحقت بدار الحرب جاز استرقاقُها،وسائر الفقهاء على خلافه ؛ ولم يختلفوا فى أنّ الذكور البالغين من المرتدّين لا يجوز استرقاقُهم ، فلا أعلم كيف وقع استرقاق المرتدّين من بنى ناجية على هـذه الرواية ! على أنى أرى أنّ الرواية المذكورة لم يصرّح فيها باسترقاقهم ، ولا بأنهم بيعوا على مَصْقلة ، لأن لفظ الراوى : «فأبوا ، فقتَل مقاتلتهم وسبى ذراريّهم فقدم بهم على علىّ عليه السلام»؛وليس فى الرواية ذكر استرقاقهم ولا بَيْعهم على مصقلة؛بل فيها ماينافى بَيْعهم على مصقلة،وهو قوله: «فقدم بهم على علىّ عليه السلام» ؛ فإنّ مصقلة ابتاعَ السَّبْى من الطريق فى أرْدَشِيرخُرّة قبل قُدومه على علىّ عليه السلام ؛ ولفظ الخبر : «فقدِم بهم على علىّ عليه السلام» .

وإنما يبقى الإشكال على هـذه الرواية أن يقال : إذا كان قد قدم بهم على علىّ عليه

---

(١) ساقطة من ج .

السلام ، فمصقلة من اشترى ! ولا يمكن دفع كون مصقلة اشترى قوما فى الجملة ، فإن الخبر بذلك مشهور جدا يكاد يكون متواترا .

فإن قيل: فما قولكم فيما إذا ارتدّ البالغون من الرجال والنساء، ثم أولدوا ذرّية صغارا بعد الردّة ؛ هل يجوز استرقاق الأولاد ؟ فإن كان يجوز ، فهلّا حملتم الخبر عليه !

قيل : إذا ارتدّ الزوجان فحملت منه فى حال الردّة وأتت بولد كان محكوماً بكفره؛ لأنه ولد بين كافرين .

وهل يجوز استرقاقه ؟ فيه للشافعىّ قولان ؛ وأما أبو حنيفة فقال : إنْ ولد فى دار الإسلام لم يجز استرقاقه، وإن وُلِد فى دار الحرب جاز استرقاقُه ، فإن كان استرقاقُ هؤلاء الذرية موافقا لأحد قولَىِ الشافعى ، فلعلّه ذاك .

وأما الرواية الثانية، فإن كانت هى الصحيحة ـ وهو الأَوْلى ـ فالفقه فى المسألة أن الذمّى إذا حارب المسلمين فقد نقضَ عهده ، فصار كالمشركين الذين فى دار الحرب ، فإذا ظَفِر به الإمام جازَ استرقاقُه وبيعُه ؛ وكذلك إذا امتنع من أداء الجزية أو امتنع من التزام أحكام الإسلام .

واختلف الفقهاء فى أمور سبعة: هل ينتقضُ بها عهدهم، ويجوز استرقاقهم أم لا ؛ وهى أن يزنىَ الذمّى بمسلمة، أو يصيبها باسم نكاح ، أو يفتن مسلما عن دينه، أو يقطع الطريق على المسلمين ، أو يؤوى[1] للكفار عينا ، أو يدلّ على عورات المسلمين ، أو يقتل مسلما.

فأصحاب الشافعىّ يقولون : إن شرط عليهم فى عَقْد الذّمة الكفّ عن ذلك ، فهل ينتقض عهدهم بفعله ؟ فيه وجهان . وإن لم يشترط ذلك فى عقد الذمّة ، لم ينتقض عهدهم بذلك .

وقال الطحاوىّ من أصحاب أبى حَنيفة : ينتقض عهدهم بذلك ، سواء شورطوا عن

(١) ب : « يؤدى » ، تحريف .

الـكفّ عنه فى عقد الذّمة ، أو لم يشارطوا عليه .

فنصارى بنى ناجية على هذه الرواية قد انتقض عهدُهم بحرب المسلمين، فأبيحت دماؤهم، وجاز للإمام قتلهم وجاز له استرقاقهم كالمشركين الأصليين فى دار الحرب ؛ وأما استرقاق أبى بكر بن أبى قُحافة لأهل الرّدة وسَبْيُه ذراريّهم ؛ فإن صحّ كان مخالفا لما يقول الفقهاء من تحريم استرقاق المرتدّين ، إلا أن يقولوا إنه لم يَسْبِ المرتدّين ، وإنما سَبَى مَنْ ساعدهم وأعانهم فى الحرب من المشركين الأصليين .

وفى هذا الموضع نظر .



(٤٥)

ومن خطبة له عليه السلام :

الأصْـلُ :

اَلْحَمْدُ لِلهِ غَيْرَ مَقْنُوطٍ مِنْ رَحْمَتِهِ ، وَلَا مَخْلُوٍّ مِنْ نِعْمَتِهِ ، وَلَا مَأْيُوسٍ مِنْ مَغْفِرَتِهِ ، وَلَا مُسْتَنْكَفٍ عَنْ عِبَادَتِهِ ؛ الذى لَا تَبْرَحُ مِنْهُ رَحْمَةٌ ، وَلَا تُفْقَدُ لَهُ نِعْمَةٌ .

وَالدُّنْيَا دَارٌ مُنِيَ لَهَا الْفَنَاء ، وَلِأَهْلِهَا مِنْهَا الْجَلَاء ، وَهِيَ حُلْوَةٌ خَضِرة ، وَقَدْ عَجِلَتْ لِلطَّالِبِ ، وَالْتَبَسَتْ بِقَلْبِ النَّاظِرِ ؛ فَارْتَحِلُوا مِنْهَا بِأَحْسَنِ مَا بِحَضْرَتِكُمْ مِنَ الزَّاد ، وَلَا تَسْأَلُوا فِيهَا فَوْقَ الْكَفَاف ، وَلَا تَطْلُبُوا مِنْهَا أَكْثَرَ مِنَ الْبَلَاغ .

* * *

الشّـرْحُ :

مُنِيَ لها الفناء ، أى قُدِّر . والجلاء ، بفتح الجيم : الخروج عن الوطن ، قال سبحانه : ﴿ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاء ﴾ [١] .

وحلوة خَضِرة ؛ مأخوذ من قول رسول الله صلى الله عليه وسلّم : « إنّ الدنيا حُلْوة خَضِرة ، وإنّ الله مستخلِفكم فيها فناظر كيف تعملون » .

والكَفاف من الرزق : قَدْر القُوت ؛ وهو ما كفّ عن الناس ، أى أغنى .

والبلاغ والبُلْغة من العيش : ما يُتَبَلَّغُ به .

* * *

---

(١) سورة الحشر ٣ .

واعلم أنّ هذا الفصل يشتمِلُ على فصلين من كلام أمير المؤمنين عليه السلام : أحدُهما حمد الله والثناء عليه إلى قوله : « ولا تُفْقَدُ له نِعمة » ، والفصل الثانى ذكر الدنيا إلى آخر الكلام . وأحدُهما غيرُ مختلط بالآخر ولا مَنْسُوقٍ عليه ؛ ولكنّ الرضىّ رحمه الله تعالى يلتقط كلامَ أمير المؤمنين عليه السلام التقاطاً، ولا يقفُ مع الكلام المتوالى ؛ لأن غرضَه ذكرُ فصاحتِه عليه السلام لا غير ، ولو أتى بخُطَبِه كلّها على وجهها لكانت أضعافَ كتابه الذى جمعه .

***

[فصل بلاغىّ فى الموازنة والسجع]

فأما الفصل الأول ، فشتملٌ من علم البيان على باب كبير يعرف بالموازنة ، وذلك « غيرمقنوط » فإنه وازنه فى الفقرة الثانية بقوله : « ولا مخلوّ» . ألا ترى أنّ كلّ واحدة منهما على وزن « مفعول » ، ثم قال فى الفقرة الثالثة : « ولا مأيُوس » ، فجاء بها عَلَى وزن « مفعول» أيضا ؛ ولم يمكنه فى الفقرة الرابعة ما أمكنه فى الأولى ، فقال : « ولا مستنكَف» فجاء به على وزن « مستفعل » وهو وإن كان خارجاً عن الوزن ؛ فإنه غيرُ خارج عن المفعولية ، لأن « مستفعل » « مفعول » فى الحقيقة ، كقولك : زيد مستحسَن، ألا ترى أنّ « مستحسنا » من استحسنه ، فهو أيضا غير خارج عن المفعولية .

ثم وازن عليه السلام بين قوله : « لا تبرح » وقوله : « لا تفقد » ، وبين « رحمة » و« نعمة » ؛ فأعطت هذه الموازنات الكلام من الطّلاوة والصنعة مالا تجده عليه لو قال : « الحمد لله غير مخلوّ من نعمته ، ولا مبعَد من رحمته » لأنّ « مبعد » بوزن « مفعل » ، وهو غير مطابق ولا مماثل لمفعول ، بل هو بناء آخر .

وكذلك لو قال : « لا تزول منه رحمة » ، فإنّ « تزول » ليست فى المماثلة والموازنة

لـ « تفقد » كـ « تبرح » ألا ترى أنها معتلة ، وتلك صحيحة ! وكذلك لو قال : «لاتبرح منه رحمة ولا يفقد له إنعام » فإن « إنعاما » ليس فى وزن « رحمة » ،والموازنة مطلوبة فى الكلام الذى يقصد فيه الفصاحة ، لأجل الاعتدال الذى هو مطلوب الطبع فى جميع الأشياء . والموازنة أعمّ من السّجع ، لأن السجع تماثلُ أجزاء الفواصل لو أوردها على حرف واحد ، نحو القريب ، والغريب، والنسيب ، وماأشبه ذلك . وأما الموازنة فنحو القريب والشديد ، والجليل ؛ وما كان على هذا الوزن وإن لم يكن الحرف الآخر بعينه واحداً ، وكلّ سجع موازنة ، وليس كل موازنة سجعا ؛ ومثال الموازنة فى الكتاب العزيز : ﴿وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ * وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[1] ؛ وقوله تعالى : ﴿لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾، ثم قال : ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ ، ثم قال :﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ ثم قال : ﴿نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾[2] فهذه الموازنة .

ومما جاء من المثال فى الشعر قوله :

بأشدّهِمْ بأساً عَلَى أعدائِهِمْ   وأعزّهِمْ فقدًا عَلَى الأصحاب

فقوله : « وأعزهم » بإزاء « أشدهم » ، وقوله : « فقدا » بإزاء « بأسا » .

والموازنة كثيرة فى الكلام وهى فى كتاب الله تعالى أكثر .

***

[نبذ من كلام الحكماء فى مدح القناعة وذم الطمع]

فأما الفصلُ الثانى فيشتمل على التحذير من الدنيا ، وعلى الأمر بالقناعة ، والرضا بالكفاف ؛ فأما التحذيرُ من الدنيا فقد ذكرنا ونذكر منه مايحضرنا ؛ وأمّا القناعة فقد وَرَدَ فيها شىء كثير .

---

(١) سورة الصافات ١١٧ ، ١١٨ .   (٢) سورة مريم ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأخوين من الأنصار : « لا تيئسا من روح الله ما تَهَزْهَزَتْ رُءوسكما ، فإنّ أحدكم يولد لا قِشر عليه ، ثم يكسوه الله ويرزقه » .

وعنه صلى الله عليه وسلم — ويُعْزَى إلى أمير المؤمنين عليه السلام — : « القناعة كنز لا يَنفَد » .

وما يقال إنه من كلام لقمان الحكيم : « كفى بالقناعةِ عزّا ؛ وبطيب النفس نعيما » .

ومن كلام عيسى عليه السلام : اتخِذُوا البيوت منازلَ ، والمساجد مساكن ، وكلوا من بَقْل البريّة ، واشربوا من الماء القراح ، واخرجوا من الدنيا بسلام . لعمرى لقد انقطعتم إلى غير الله فما ضيّعكم ، أفتخافون الضَّيْمة إذا انقطعتم إليه !

وفى بعض الكتب الإلٰهية القديمة : يقول الله تعالى : يابن آدم ، أتخاف أن أقتلك بطاعتى هَزْلا ، وأنت تتفتّق بمعصيتى سِمَنًا !

قال أبو وائل : ذهبتُ أنا وصاحب لى إلى سلمان الفارسىّ ، فجلسنا عنده ، فقال : لولا أنّ رسول الله صلى الله عليه نهى عن التكلّف لتكلّفت لكم ، ثم جاء بخبز ومِلْح ساذج لا أبزار عليه ، فقال صاحبى : لو كان لنا فى مِلْحنا هذا سَعْتر[1] ! فبعث سلمان بمِطْهَرته ، فرهنها على سعتر ، فلما أكلنا قال صاحبى : الحمد لله الذى قنّعنا بما رزقَنا ، فقال سلمان : لو قنعْتَ بما رزقك لم تكن مِطْهرتى مرهونة !

عباد بن منصور : لقد كان بالبصرة مَنْ هو أفقهُ من عَمرو بن عُبَيد وأفصح ؛ ولكنه كان أصبَرهم عن الدينار والدرهم ، فسادَ أهلَ البَصْرة .

قال خالد بن صفوان لعمرو بن عبيد : لم لا تأخذ مِنّى ؟ فقال : لا يأخذُ أحدٌ من أحدٍ إلّا ذلّ له ؛ وأنا أكره أن أذِلّ لغير الله .

---

(١) السعتر : نبات طيب الرائحة حريف زهره أبيض إلى الغبرة .

كان معاشُ عمرو بن عُبَيد من دارٍ وَرِثَها ، كان يأخذ أجرتَها فى كلّ شهر دينارا واحدا فيتبلّغ به .

الخليل بن أحمد : كان الناس يكتسبون الرّغائب بعلمِه ، وهو بين أخصاص البَصْرة ، لا يلتفت إلى الدنيا ولا يطلُبها .

وهب بنُ منبّه : أرْمَلْتُ مرّة حتى كدت أقنَط ، فأتانى آتٍ فى المنام ومعه شبهُ لوزة ، فقال : افضُضْ ، ففضضْتُها ، فإذا حريرة فيها ثلاثة أسطر : لا ينبغى لمن عقَل عن الله أمره ، وعرف لله عدله ، أن يستبطىءُ الله فى رزقه ، فقنعت وصَبَرت ، ثم أعطانى الله فأكثر .

قيل للحسن عليه السلام : إنّ أبا ذرّ كان يقول : الفقرُ أحبّ إلىّ من الغنى ، والسُّقم أحبّ إلىّ من الصحة ، فقال : رحم الله أبا ذرّ ، أما أنا فأقول : من اتّكل إلى حُسْنِ الاختيار من الله لم يتمنّ أنه فى غير الحال التى اختارها الله له ، لعمرى يابن آدم ، الطير لا تأكل رَغَداً ، ولا تخبأ لغد، وأنت تأكل رغدا ، وتخبأ لغدٍ ، فالطيرُ أحسنُ ظناً منك بالله عزّ وجلّ .

حَبَس عمر بن عبد العزيز الغَدَاء عن مَسْلَمة ، حتى برّح به الجوع ، ثم دعا بسَوِيق فسقاه ، فلما فرَغ منه لم يقدِرْ على الأكل ، فقال : يا مسلَمة ، إذا كفاك من الدّنيا ما رأيت ، فعلامَ التّهافت فى النار !

عبد الواحد بن زيد : ما أحسِب شيئا من الأعمال يتقدّم الصبر إلا الرضا والقناعة ، ولا أعلم درجة أرفع من الرضا ، وهو رأس المحبّة .

قال ابن شُبْرُمة فى محمد بن واسع : لو أنّ إنسانا اكتفى بالتراب لاكتفى به .

يقال من جملة ما أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : قل لعبادِى المتسخّطين لرزق ، إياكم أنْ أغضَب فأبْسُط عليكم الدنيا .

كان لبعض الملوك نديم ، فسكر ، ففاتته الصلاة ، فجاءت جارية له بجمرة نار ، فوضعتها على رجله ، فانتبه مذعورا ، فقالت : إنك لم تصبر على نار الدنيا ، فكيف تصبر على نار الآخرة ! فترك الدنيا وانقطع إلى العبادة ، وقعد يبيع البقل ، فدخل عليه الفُضَيل وابن عُيَيْنَة ؛ فإذا تحت رأسه لبنة ، وليس تحت جَنْبِه حصير ، فقالا له : إنا رَوَيْنا أنه لم يدَعْ أحدٌ شيئا لله إلا عوّضه خيرا منه ، فما عوّضك ؟ قال : القناعة والرضا بما أنا فيه .

أصابت داود الطائيَّ ضائقة شديدة ، فجاء حماد بن أبي حنيفة بأربعمائة درهم من تركة أبيه ، فقال داود : هي لَعَمْري من مال رجل ما أقدّم عليه أحداً في زهده وورعه وطيب كسبه ، ولو كنتُ قابلا من أحدٍ شيئا لقبلتها إعظاما للميت ، وإيجاباً للحيّ ، ولكني أحبُّ أن أعيشَ في عِزّ القناعة .

سفيان الثوريّ : ما أكلتُ طعام أحدٍ قطّ إلا هُنْت عليه .

مِسْعر بن كِدَام : مَنْ صَبَرَ على الخلّ والبَقْل لم يُسْتَعْبَدْ .

فُضَيل : أصلُ الزهد الرضا بما رزقك الله ، ألا تراه كيف يصنع بعَبْدِه ما تصنع الوالدة الشفيقة بولدها ! تطعمه مرّة خبيصا[1] ، ومرة صَبِراً ، تريد بذلك ما هو أصلح له .

المسيح عليه السلام : أنا الذى كببت الدنيا عَلَى وَجْهها ، وقدرتها بقدرها ، ليس لى ولد يموت ، ولا بيت يخرَب ؛ وِسادى الحجر ، وفراشى المَدَر ، وسراجى القمر .

أمير المؤمنين عليه السلام : أكل تَمْرَ دَقَل[2] ، ثم شرب عليه ماء ، ومسح بطنه ، وقال : من أدخلته بطنُه النار ، فأبعده الله ، ثم أنشد :

فإنك إنْ أعطيْتَ بطنَكَ سُؤْلَهُ وفَرْجَكَ نالا مُنْتَهى الذّمّ أجْمَعا[3]

---

(١) الخبيص : التمر المعمول من السمن والعسل .
(٢) الدقل : أردأ التمر .
(٣) البيت لحاتم الطائى ، ديوانه ١٧ (طبع بيروت) .

فى الحديث الصحيح المرفوع: « إن رُوح القُدُس نَفَثَ فى رُوعى أنّه لن تموتَ نفس حتى تستكمل رزقها ، فأجملوا فى الطَّلَب » .

من كلام الحكماء : من ظفر بالقناعة فقد ظَفِر بالكيمياء الأعظم .

الحسن : الحريص الراغب ، والقانع الزاهد كلاهما مستوفٍ أجلَه ، مستكمل أُكْلَه ؛ غير مُزداد ولا منتقَص ٍ مما قُدِّر له ، فعلام التقحّم فى النار !

ابن مسعود، رفعه : « إنه ليس أحد بأكْيَس من أحد ؛ قد كُتِب النصيب والأجل، وقُسِمَتْ المعيشة والعمل ؛ والناس يجرُون منهما إلى منتهًى معلوم » .

المسيح عليه السلام: انظروا إلى طير السماء تغدُو وتروح ، ليس معها شىء ، من أرزاقها، لا تحرث ولا تحصُد ؛ والله يرزقها ، فإن زعمتم أنكم أوسع بطونا من الطير ؛ فهذه الوحوشَ من البقر والحُمُر ، لا تحرث ولا تحصد ؛ والله يرزقها .

سويد بن غفلة : كان إذا قيل له : قد وَلِى فلان ، يقول : حسبى كِسْرتى ومِلْحى .

وفد عروة[1] بن أذينة على هِشام بن عبد الملك فشكا إليه خَلّته ، فقال له : ألست القائل :

لقد علمتُ وما الإشراف من خُلُقى ... أنّ الذى هو رِزقى سوف يأتينى[2]
أسعَى له فيعنِّينى تَطَلُّبُه ... ولو قعدتُ أتانى لا يُعنّينى

فكيف خرجت من الحجاز إلى الشام تطلب الرزق ! ثم اشتغل عنه ، فخرج وقعد على ناقته ونصّها راجعا إلى الحجاز ، فذكره هشام فى الليل ، فسأل عنه فقيل : إنه رَجَع إلى الحجاز ، فتذمّر ونَدِم ، وقال : رجل قال حِكْمة ، ووفد علَىّ مستجديا ، فجبهته ،

---

(١) الخبر فى الشعر والشعراء ٥٦ .

(٢) الإشراف . الحرص ، كذا فسره صاحب اللسان واستشهد بالبيت .

وردته ! ثم وجّه إليه بألفى درهم ، فجاء الرسول وهو بالمدينة ،فدفعها إليه ، فقال له : قل لأمير المؤمنين ، كيف رأيت ! سعيتَ فأكديتَ، وقعدت فى منزلى فأتانى رزق .

عمر بن الخطاب : تعلّم أنّ الطمع فقر ؛ وأن اليأس غنى ، ومن يئس من شىء استغنى عنه .

أهدِى لرسول الله صلى الله عليه وسلم طائران ، فأكل أحدهما عشيّة ، فلما أصبح طلب غداء ، فأتته بعضُ أزواجه بالطائر الآخر ، فقال : « ألم أنهك أن ترفعى شيئاً لغدٍ ، فإنّ مَنْ خَلَقَ الغَدَ خلق رزقه » .

وفى الحديث المرفوع : « قد أفلَح مَنْ رُزِق كفافا وقنّعه الله بما آتاه » .

من حكمة سليمان عليه السلام : قد جرّبنا لين العَيْش وشِدّته ، فوجدنا أهنأه أدناه .

وهب ، فى قوله تعالى : ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾(١)، قال : القناعة .

بعض حكماء الشعراء :

فَلَا تَجْزَعْ إِذَا أعسَرْتَ يَوْماً ... فَقَدْ أيسَرْتَ فى الدَّهْرِ الطَّوِيلِ

وَلَا تَظُنَنْ بِرَبِّكَ ظَنَّ سَوْء ... فإنَّ اللهَ أولَى بالجميلِ

وإن العُسْر يَتْبَعُهُ يَسَارٌ ... وقِيلُ الله أصْدَقُ كلّ قيلِ

وَلَوْ أنَّ العقول تجرُّ رِزْقاً ... لَكَانَ المَالُ عِنْدَ ذَوِى العُقُولِ

عائشة : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنْ أردْتِ اللحوق بى فيكفيك من الدنيا زادُ الراكب ؛ولا تُخْلِقِى ثوبا حتى ترقّعية ؛ وإياك ومجالسة الأغنياء » .

(١) سورة النحل ٩٧ .

يقال : إنّ جبرائيل عليه السلام جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم بمفاتيح خزائن الدنيا ، فقال : « لا حاجة لى فيها ، بل جوْعتان وشبْعة » .

وُجِد مكتوبا على صخرة عادِيّة[1] : يابنَ آدم ، لست ببالغ أمَلَك ، ولا سابِقٍ أجلَك ، ولا مغلوبٍ على رزقك ، ولا مرزوق ما ليس لك ، فعلامَ تقتل نفسك !

الحسين بن الضحاك :

يا رَوْحَ مَنْ عَظُمَتْ قناعَتُهُ حَسَمَ المطامعَ مِنْ غَدٍ وَغَدِ[2]
مَنْ لم يَكُنْ لِلهِ مُتَّهِمًا لَمْ يُمْسِ مُحتاجًا إلى أحَدِ

أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه : أتدرى لِمَ رزقتُ الأحمق ؟ قال : لا ، قال : ليعلم العاقلُ أنّ طلبَ الرزق ليس بالاحتيال .

قَنَطَ[3] يوسف بن يعقوب عليه السلام فى الجبّ لجوعٍ اعتراه ، فأوحى إليه : انظر إلى حائط البئر ، فنَظَرَ فانفرج الحائط عن ذَرّةٍ على صخرة ، معها طعامها ، فقيل له : أتراني لا أغفُلُ عن هذه الذّرّة ، وأغفلُ عنك ، وأنت نبيّ ابن نبيّ !

دخل علىّ عليه السلام المسجد ، وقال لرجل : أمْسِكْ علىّ بغلتى ، فخلع لجامها ، وذهب به ، فخرج علىّ عليه السلام بعد ما قضَى صلاتَه ، وبيده درهمان ليدفعهما إليه مكافأة له ، فوجد البغلة عُطُلا ، فدفع إلى أحد غلمانه الدرهمين ؛ ليشتريَ بهما لجاما ، فصادف الغلام اللجام المسروق فى السوق ؛ قد باعه الرجل بدرهمين ، فأخذه بالدّرهمين وعاد إلى مولاه ، فقال علىّ عليه السلام : « إنّ العبدَ ليحرِمُ نفسَه الرزق الحلال بترك الصبر ،

---

(١) عادية ، أى قديمة ؛ نسبة إلى قبيلة عاد البائدة .

(٢) من أبيات فى الحيوان ٥ : ٤٨٠ ؛ قال الجاحظ : « وهذا شعر رويته له على وجه الدهر ، وزعم حسين بن الضحاك أنه له ، وكان يدعى ماليس له » .

(٣) قنط قنوطا ؛ أى يئس .

ولا يزاد على ما قُدّر له .

سليمان بن المهاجر البَجَليّ :

كَسَوْتُ جَمِيلَ الصَّبْرِ وَجْهِي فَصَانَهُ بِهِ اللهُ عَنْ غِشْيانِ كُلِّ بَخِيلِ
فَلَمْ يَتبذّلْنِي البخيلُ ولم أقُمْ عَلَى بابِهِ يَوْماً مقـــام ذَلِيلِ
وإنّ قليلا يَسْتُرُ الوجهَ أن يُرَى إلى النـــاس مبذولاً لَغيرُ قليـل

وقف بعض الملوك على سُقراط وهو فى المَشْرَقة[1] ، فقال له : سَلْ حاجتَك ، قال : حاجتى أنْ تُزِيل عَنّى ظلّك ، فقد منعتَنى الرِّفْق[2] بالشمس ؛ فأحضرَ له ذهبا وكُسوة ديباج، فقال : إنه لاحاجةَ بسقراط إلى حجارة الأرض ولُعاب الدود ؛ إنما حاجتُه إلى أمر يصحَبُه حيثما توجّه .

صلّى معروف الكرخىّ خَلْف إمام ؛ فلما انفتل سأل ذلك الإمام معروفاً : من أين تأكل ؟ قال : اصْبِر علىّ حتّى أعيدَ ما صليتُه خلفك ؛ قال : لماذا ؟ قال : لأنّ مَنْ شكّ فى الرزق شكّ فى الرازق ، قال الشاعر :

وَلَا تُهْلِكَنَّ النَّفسَ وَجْداً وَحَسْرَةً عَلَى الشىء أَسْدَاهُ لغيرِك قادِرُهْ[3]
ولَا تَيْأسنْ من صالحٍ أن تَنالَهُ وإنْ كان نَهباً بَيْنَ أيدٍ تُبَادِرُهْ
فإنّك لا تُعطِى امرأً حَظَّ نَفْسِهِ ولا تمنع الشّقَ الذى الغيثُ ناصِرُه

قال عمر بن الخطاب لعلىّ بن أبى طالب عليه السلام : قد مللتُ الناسَ ، وأحببتُ أن ألحقَ بصاحبىّ ، فقال : إن سَرّكَ اللُّحوق بهما فقصِّر أملَك ، وكُلْ دون الشِّبَع ، واخصِف النّعل[4] وكن كَمِيش[5] الإزار ، مرقوع القميص ، تلحق بهما .

---

(١) المشرقة : موضع القعود فى الشمس فى الشتاء (٢) الرفق بالشىء : الانتفاع به .
(٣) ا : « سداه لغيرك » ؛ أى أعطاه . (٤) خصف النعل : خرزها بالمخصف .
(٥) يقال : كمش إزاره ؛ إذ قصره وشمره .

وقال بعض شعراء العجم :

غَلَا السِّعْرُ فى بغـدادَ مِنْ بَعْدِ رُخْصِهِ ... وإِنِّى فى الحالَيْنِ باللهِ واثِقُ

فلستُ أخافُ الضِّيقَ واللهُ واسِعٌ ... غِنـاهُ ، ولا الحِرْمانَ واللهُ رازِقُ

قيل لعلىٍّ عليه السلام : لو سُدَّ على رَجُلٍ باب بيت وتُرِكَ فيه ، من أين كان يأتيه رزقه ؟ قال : مِنْ حيث كان يأتيه أجلُه .

قال بعض الشعراء :

صَبَرْتُ النفسَ لاأجزَ ... ع من حادثةِ الدهرِ

رأيتُ الرِّزق لايُكْسَـ ... بُ بالعُرْفِ ولا النُّكْرِ

ولا بالسَّلفِ الأمثَا ... لِ أهـل الفَضْل والذِّكْرِ

وَلَا بالسُّمْرِ الُّلدْنِ ... ولا بالخُذُمِ البُتْرِ[1]

وَلَا بِالْعقلِ والدِّين ... وَلَا الجاهِ وَلَا القَدْرِ

وَلَا يُدْرَكُ بالطَّيْشِ ... وَلَا الجهلِ وَلاَ الهَذْرِ

وَلَـكِنْ قِسَمٌ تجرِى ... بمَا تَدْرِى وَلاَ تَدْرِى

جاء فتح بن شَخْرف إلى منزله بعد العِشاء ، فلم يجدْ عندهم مايتعشَّى به ، ولا وَجَدَ دُهْنًا للسراج وهم فى الظلمة ، فجلَس ليلةً يبكى من الفرح ، ويقول : بأىِّ يد قد كانت منِّى ، بأىِّ طاعةٍ تنعم علىَّ بأن أترَكَ على مثل هذه الحال !

لقى هَرِم بن حيّان أُوَيسًا القَرَنىَّ ، فقال : السلام عليك يا أُوَيسَ بنِ عامرٍ ! فقال : وعليك السّلام ياهَرِم بن حيّان ، فقال هَرِم : أما إنّى عَرَفتُك بالصِّفة ، فكيف عرفتنى ؟ قال : إنّ أرواح المؤمنين لَتُشام كما تشام الخيل ، فيعرف بعضُها بعضا . قال : أوصِنى ،

---

(١) السمر : جمع أسمر ؛ وهو الرمح اللدن اللين . والخذم : جمع خاذم ؛ أى قاطع .

قال : عليك بسِيف البحر ، قال : فن أين المعاش ؟ قال : أفٍّ لك ! خالطت الشكَّ الموعظة ، أتفرّ إلى الله بدينك وتتهمه فى رزقك !

منصور الفقيه :

المَوْتُ أسْهَلُ عِندِى بين القَنَا وَالأسِنَّهْ
والخيلُ تجرِى سِراعاً مقطَّماتِ الأعنّة
مِنْ أنْ يكون لِنَذْلٍ عَلَىَّ فَضْلٌ وَمِنَّهْ

أعرابىّ :

أتيْئسُ أنْ يقارنَك النَّجاحُ فأين اللهُ والقَدَرُ المُتاحُ[1]

قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أوصنى ، قال : « إيّاك والطمع ؛ فإنّه فقر حاضر ، وعليك باليأس مِمّا فى أيدِى الناس » .

حكيم : أحسنُ الأحوال حال يَغبِطُكَ بها مَنْ دونك ، ولا يحقِرُك لها مَن فوقك .

أبو العلاء المعرىّ :

فإن كُنتَ تَهْوَى العيش فابغِ توَسُّطاً فعندَ التناهى يَقصُر المتطاوِلُ[2]
تُوَقَّى البدورُ النَّقصَ وَهْىَ أهلّةٌ ويُدْرِكها النُّقصان ، وهْىَ كوامِلُ

خالد بن صفوان : كن أحسنَ ماتكون فى الظاهر حالاً ، أقلّ ماتكون فى الباطن مآلا ؛ فإنّ الكريمَ مَنْ كَرُمت عند الحاجة خَلّته[3] ، واللئيم من لؤمت عند الفاقة طعمته .

---

(١) المتاح : المهيأ . (٢) شروح سقط الزند ٥٥٢
(٣) الخلة : الحاجة .

شعر :

وَكَمْ مَلِكٍ جانبتهُ مِنْ كَرَاهَةٍ ... لإغلاقِ بابٍ أو لِتَشْدِيدِ حاجِبِ

ولى فى غنًى نفسِى مَرَادٌ ومَذْهَبٌ ... إذا أُبْهِمَتْ دُونِى وُجُوهُ المذاهب [1]

بعض الحكماء : ينبغى للعاقل أن يكون فى دنياه كالمدعوّ إلى الوليمة، إن أتته صحفة تناولها، وإن جازته لم يرصدها ولم يطلبها .



(١) أبهم الأمر : إذا اشتبه .

(٤٦)

ومن كلام له عليه السلام عند عزمه على المسير إلى الشام :

الأصلُ :

ٱللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ ، وَكَآبَةِ ٱلْمُنْقَلَبِ ، وَسُوءِ ٱلْمَنْظَرِ ، فِي ٱلْأَهْلِ وَٱلْمَالِ وَالْوَلَدِ . ٱللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ ، وَأَنْتَ الْخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ ؛ وَلاَ يَجْمَعُهُمَا غَيْرُكَ ؛ لِأَنَّ الْمُسْتَخْلَفَ لاَ يَكُونُ مُسْتَصْحَباً ، وَالْمُسْتَصْحَبُ لاَ يَكُونُ مُسْتَخْلَفاً .

* * *

قال الرضيّ رحمه الله :

وابتداء هذا الكلام مرويّ عن رسولِ الله صلّى الله عليه وآله ، وقد قفّاه أميرُ المؤمنينَ عليه السّلامُ بأبلَغ كلامٍ ، وتمّمَهُ بأحسن تمام ، من قوله : « ولا يَجْمَعُهُمَا غَيْرُكَ » ، إلى آخرِ الفصل .

* * *

الشَّرحُ :

وَعْثاء السفَر : مشقّتُه ، وأصل الوَعْث المكان السّهل الكثير الدّهس ، تَغيبُ فيه الأقدام ، ويشقّ على مَنْ يمشي فيه ، أَوْعَثَ القوم ، أيْ وقعوا في الوعَث . والكآبة : الحزن . والمنقلَب ، مصدر من انقلب منقلَبا ، أي رَجَع ، وسوء المنظر : قُبْح المرأى .

وصدر الكلام مروىّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسانيد الصحيحة ، وختَمه أميرُ المؤمنين عليه السلام وتمّه بقوله : « ولا يجمعهما غَيْرُك » ؛ وهو الصحيح ؛ لأنّ مَنْ يُسْتَصْحَبُ لايكون مستخلَفا؛ فإنهمستحيل أنْ يكونَ الشىء الواحدفى المكانين مقيما وسائرا ؛ وإنما تصِحّ هذه القضية فى الأجسام ؛ لأنّ الجسم الواحد لايكون فى جهتين فى وقت واحد ؛ فأمّا ما ليس بجسم وهوالبارئ سبحانه؛فإنه فى كلّ مكان ؛ لا عَلَى معنى أنّ ذاتَه ليست مكانيّة؛ وإنما المراد علمه وإحاطتُه ونفوذ حكمه وقضائهوقدَره؛ فقدصدق عليه السلام أنّه المستخلَف وأنه المستصحب ؛ وأنّ الأمرَيْن مجتمعان له جلّ اسمه .

وهذا الدعاء دَعَا به أمير المؤمنين عليه السلام بعد وَضْعِ رجله فى الركاب ، من منزله بالكوفة متوجّها إلى الشام لحرب معاوية وأصحابه ؛ ذكره نَصْر بن مزاحم فى كتاب " صفين [1] " ، وذكره غيره أيضا من رواة السيرة .

• • •

[أدعية علىّ عند خروجه من الكوفة لحرب معاوية]

قال نصر : لما وَضَع علىّ عليه السلام رِجْلهفى رِكاب دابّته يوم خرج من الكوفةإلى صِفّين ، قال : بسم الله ؛ فلمّا جلس على ظهرها ، قال : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴾ ، [2] اللهمّ إنى أعوذبك من وَعْثاء السفر ... إلى آخر الفصل . وزاد فيه نصر : « ومِنَ الْحَيْرَةِ بعد اليقين » . قال : ثم خرج أمامه الحرّ بن سهم بن طَرِيف ، وهو يرتجز ويقول :

يافَرَسِى سِيرِى وَأُمِّى الشَّامَا ... وَقَطِّعِى الحُزُونَ والأَعْلَامَا [3]
وَنَابِذِى مَنْ خَالَفَ الإِمَامَا ... إنى لأَرْجُو إنْ لَقِينَا العَامَا

(١) كتاب صفين ١٤٩ .
(٢) سورة الزخرف ١٣ ، ١٤ .
(٣) صفين : « وأقطعى » ، والحزون : جمع حزن ، وهو ضد السهل من الأرض .

جَمعَ بني أميّةَ الطَّغَامَا[1] أن نقتل العاصِيَ والهُمَامَا

* وأنْ نُزيلَ مِنْ رِجَالٍ هَامَا *

قال : وقال حبيبُ بن مالك ، وهو على شُرْطَة عليّ عليه السلام ، وهو آخذٌ بعِنَان دابّته : يا أمير المؤمنين ، أتخرجُ بالمسلمينَ فيصيبوا أجْرَ الجهاد بالقتال ، وتخلّفنى بالكوفة لحَشْرِ الرجال ! فقال عليه السلام : إنهم لَنْ يُصيبوا من الأجر شيئا إلا كنتَ شريكَهم فيه ؛ وأنت هَا هُنا أعظم غَناء عنهم منك لو كُنْتَ معهم . فخرج عليّ عليه السلام ، حتى إذا حَاذَى الكوفة صلّى ركعتين[2] .

قال : وحدّثنا عمرو بن خالد ، عن أبي الحُسين زيد بن عليّ عليه السلام ، عن آبائه : أنّ[3] عليا عليه السلام خرج وهو يريد صِفّين ؛ حتى إذا قطع النَّهْر ، أمر مناديَه، فنادى بالصلاة ؛ فتقدّم فصلّى ركعتين ؛ حتى إذا قضى الصلاة ، أقبلَ على الناس بوجهه ، فقال : أيّها الناس ؛ ألا مَنْ كان مُشَيِّعا أو مقيما فليتمّ الصلاة ؛ فإنا قوم سَفْر ، ألا ومَنْ صَحِبَنا فلا يصومَنّ المفروض . والصلاة المفروضة ركعتان .

قال نصر : ثم خرج حتى نزل دير أبي موسى ــ وهو من الكوفة على فرسخين ــ فصلّى به العصر ، فلما انصرف من الصلاة ، قال : سبحان الله ذى الطَّوْل والنعم ! سبحان الله ذى القدْرة والإفضال ، أسأل الله الرّضا بقضائه ، والعملَ بطاعته، والإنابة إلى أمره؛ إنه سميع الدعاء[4] .

قال نصر : ثم[4] خَرَج عليه السلام حتى نزل على شاطئ نَرْس[5] بين موضع حَمّام أبي بُرْدة وحَمّام عمر، فصلّى بالناس المَغْرب ، فلما انصرف، قال : الحمدُ لله الذى يُولِجُ

(١) الطغام : أوغاد الناس .
(٢) كتاب صفين ١٥٠ : « حتى إذا جاز حد الكوفة » .
(٣) كتاب صفين ١٥٠
(٤) كتاب صفين ١٥١ .
(٥) نرس، بالفتح ثم السكون وآخره سين مهملة : نهر حفره نرسى بن بهرام بنواحى الكوفة ؛ مأخذه من الفرات ، وعليه عدة قرى . (مراصد الاطلاع) .

اللَّيل فى النهار ، ويولج النّهار فى الليل ؛ والحمد لله كما وَقَبَ ليل وغَسَق ؛ والحمدُ لله كُلّما لاح نجم وخَفَق .

ثم أقام حتى صلى الغداة ، ثم شخص حتى بلغ إلى قبة قُبِّين[1] ، وفيها نخل طُوال إلى جانب البِيعة من وراء النهر، فلما رآها ، قال : ﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴾ . ثم أقحم دابته النهر ، فعبر إلى تلك البِيعة فنزلها ، ومكث قَدْر الغداء .

قال نصر: وحدّثنا عمر بن سعد، عن محمد بن مِخْنَف بن سليم[2] قال : إنى لأنظر إلى أبى وهو يساير عليًّا عليه السلام ، وعلىّ يقول له : إنّ بابل أرضٌ قد خُسِفَ بها ، فحرّكْ دابّتك لعلّنا نصلّى العصر خارجا منها . فحرّك دابّته ، وحرّك الناس دوابهم فى أثره ؛ فلما جاز جِسْر الفرات[3] ، نزلَ فصلّى بالناس العَصْر .

قال : حدثنى عمر بن عبدالله بن يعلى بن مرة الثقفىّ ، عن أبيه ، عن عبد خَير ، قال: كنت مع علىّ أسير فى أرض بابل ، قال : وحضرتِ الصلاة صلاة العصر ، قال : فجعلنا لا نأتى مكانا إلا رأيناه أفْيَحَ[4] من الآخر ؛ قال : حتى أتينا على مكانٍ أحسن ما رأينا ؛ وقد كادت الشمسُ أن تغيب . قال : فنزل علىٌّ عليه السلام ، فنزلت معه ، قال: فدعا الله، فرجعت الشمس كمقدارها من صلاة العصر . قال: فصليت العصر ، ثم غابت الشمس، ثم خرج حتى أتى دير كعب ، ثم خرج منه فبات بساباط ، فأتاه دهاقينها يعرضون عليه النُّزُل[5] والطعام ، فقال : لا ، ليس ذلك لنا عليكم . فلما أصبح وهو بمُظْلِم ساباط[6] ،

---

(١) قبين ، بالضم ثم الكسر والتشديد ؛ قال صاحب مراصد الاطلاع : « ولاية بالعراق » .

(٢) صفين ١٥١ ، والسند هناك : نصر : عمر ، عن رجل — يعنى أبا مخنف ، عن عمه ابن مخنف » .

(٣) صفين : « جسر الصراة » ؛ والصراة من أنهار الفرات .

(٤) أفيح ، من الفيح وهو السعة .

(٥) النزل : طعام الضيف .

(٦) مظلم ساباط ؛ موضع مضاف إلى ساباط التى بقرب المدائن ؛ قليل الضوء : مراصد الاطلاع ١٢٨٦

قرأ : ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾[1] .

قال نصر : وبلغ عمرو بن العاص مسيرُه فقال :

لَا تَحْسَبَنِّي يا عليُّ غَافِلَا   لَأُورِدَنَّ الكوفةَ القَنَابِلا[2]

• بِجَمْعِيَ العامَ وَجَمْعِي قَابِلا •

قال : فبلغ ذلك عليًا عليه السلام ، فقال :

لَأُورِدَنَّ العاصيَ ابنَ العَاصِي   سَبْعِينَ ألفًا عَاقِدِي النَّوَاصِي

مُسْتَحْقِبِينَ حَلَقَ الدِّلَاصِ[4]   قَدْ جَنَبُوا الخَيْلَ مَعَ القِلَاصِ[5]

• أُسُودَ غِيلٍ حِينَ لَا مَنَاصِ •

• • •

[نزول عليّ بكربلاء]

قال نصر : وحدثنا منصور بن سلام التميميّ ، قال : حدّثنا حيان التَّيْميّ ، عن أبي عبيدة ، عن هرثمة بن سليم ، قال[6] : غزونا مع عليّ عليه السلام صِفّين ، فلما نزل بكَرْبَلاء صلّى بنا ، فلما سلّم رفع إليه من تُربتها فشمّها ، ثم قال : واهاً لكِ يا تُرْبة[7] ! ليحشَرَنّ منك قومٌ يدخلون الجنّة بغير حساب .

قال : فلما رجع هَرْثمة من غزاته[8] إلى امرأته جَرْداء بنت سمير — وكانتْ من شيعة عليّ عليه السلام — حدّثها هرثمة فيما حدّث، فقال لها : ألا أعجّبُكِ من صديقك أبي حسن !

---

(١) سورة الشعراء ١٢٨   (٢) صفين ١٠٣

(٣) القنابل : جماعات الخيل والناس .

(٤) مستحقبين : حاملين ، والدلاص : الدروع اللينة .

(٥) يقال : جنب الرجل الفرس إذا قاده إلى جنبه . والقلاص : جمع قلوص ؛ وهي الشابة من الإبل ؛ بمنزلة الجارية من النساء .

(٦) كتاب صفين ١٥٧ .   (٧) صفين : « واهاً لك أيتها التربة » .

(٨) صفين : « من غزوته » .

قال : لما نزلنا كَرْبلاء ،وقد أخذ حَفْنَة مِنْ تربتها فشمّها، وقال : « واهالك أيّتها التُّربة! لَيحشَرَنّ منك قومٌ يدخلون الجنّة بغير حساب » : وماعِلْمه بالغيب ؟فقالت المرأة له :دَعْنا منك أيها الرجل ؛ فإنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام لم يَقُلْ إلا حقًّا .

قال : فلما بَعَثَ عُبيد الله بن زياد البَعْثَ الذى بَعَثَه إلى الحسين عليه السلام ، كنتُ فى الخيل التى بَعَثَ إليهم ؛ فلما انتهيت إلى الحسين عليه السلام وأصحابه، عَرَفْتُ المنزل الذى نَزَلْنا فيه مع علىّ عليه السلام ، والبُقْعة التى رفع إليه من تُرْبتها والقول الذى قاله ، فكرِهْتُ مسيرى ، فأقبلت على فرَسِى حتى وقفت على الحسين عليه السلام فسلّمت عليه، وحدّثته بالذى سمعت من أبيه فى هذا المنزل ؛ فقال الحسين : أمعنا أم علينا ؟ فقلت : يابنَ رسول الله ، لامعك ولاعليك ؛ تركتُ ولدى وعِيالى[1] أخاف عليهم من ابن زياد ، فقال الحسين عليه السلام : فولِّ هربا حتى لاترى مقتلنا[2] ؛ فوالذى نفس حسين[3] بيده لايرى اليوم مقتلنا أحدٌ ثم لايعيننا[4] إلا دخل النار .

قال : فأقبلتُ فى الأرض أشتدّ هربًا ، حتى خَفِىَ علىّ مقتلهم .

* * *

قال نصر : وحدثنا مُصعب ، قال : حدثنا الأجلح بن عبد الله الكِندىّ عن أبى جُحيفة ، قال : جاء[5] عُروة البارقىّ إلى سعد بن وهب ، فسأله فقال : حديث حَدّثتناه[6] عن علىّ بن أبى طالب ، قال : نعم بعثنى مِخْنف بن سليم إلى علىّ عند توجّهه إلى صِفّين ، فأتيته بكَرْبلاء ، فوجدته يُشير بيده ، ويقول: هاهنا ، هاهنا ! فقال له

---

(١) صفين : « تركت أهلى وولدى » .
(٢) صفين : « حتى لاترى لنا مقتلا » .
(٣) صفين : « فو الذى نفس محمد » .
(٤) صفين : « لا يغيثنا »
(٥) صفين ١٠٨ .
(٦) صفين : « حدثتنيه » .

رجل : وما ذاك يا أميرَ المؤمنين؟فقال : ثَقَلٌ لآل محمد ينزل هاهنا ، فويل لهم منكم ، وويل لكم منهم ! فقال له الرجل : مامعنى هذا الكلام يا أمير المؤمنين ؟ قال : ويل لهم منكم تَقْتلونهم ، وويلٌ لكم منهم يدخلكم الله بقتلهم النار .

قال نصر : وقدروى هذا الكلام على وجه آخر،أنه عليه السلام قال : « فويلٌ لكم منهم ، وويل لكم عليهم » ؛ فقال الرجل أمّا « ويلٌ لنا منهم » ، فقد عرفناه ؛ فويل لنا عليهم ، مامعناه ! فقال : تَرَوْنَهم يُقتلون لا تستطيعون نُصْرتهم .

قال نصر : وحدثنا سعيد بن حكيم العبسيّ ، عن الحسن بن كثير ، عن أبيه ، أنّ عليًّا عليه السلام أتى كَرْبلاء ، فوقف بها ، فقيل له : يا أميرَ المؤمنين ، هذه كَرْبَلاء ، قال : « ذات كَرْب وبلاء » ؛ ثم أومأ بيده إلى مكان ، فقال : هاهنا موضع رِحالهم ، ومُناخ ركابهم ؛ ثم أومأ بيده إلى مكان آخر ، فقال : هاهنا مَرَاقُ دمائهم ، ثم مضى إلى ساباط [١] .

* * *

[خروج عليّ لحرب معاوية وما دار بينه وبين أصحابه]

وينبغي أن نذكرهاهنا ابتداء عزمه عَلَى مفارقة الكوفة،والمسير إلى الشام وماخاطب به أصحابه ، وما خاطبوه به ، وما كاتب به العمال وكاتبوه جوابا عن كتبه ؛ وجميع ذلك منقول من كتاب نَصْر بن مزاحم .

قال نصر : حدثنا عمر بن سعد ، عن إسماعيل بن أبي خالد ، عن عبدالرحمن بن عبيد أبي الكنود ، قال : لما أراد عليّ عليه السلام المسيرَ إلى الشام ، دعا مَنْ كان معه من المهاجرين والأنصار ، فجمعهم ؛ ثم حَمِد الله وأثنى عليه ، وقال : أما بَعْد ؛ فإنكم ميامين

---

(١) صفين ١٥٨ .

الرأى ، مَرَاجيح الحِلْم ، مبارَكو الأمر ، ومقاويل بالحقّ؛ وقد عَزَمْنا عَلَى المسير إلى عَدُوّنا وعدوّكم ؛ فأشيروا علينا برأيكم .

فقام هاشم بن عتبة بن أبى وقاص ، فحمِد الله وأثنى عليه ، وقال : أما بعدُ يا أمير المؤمنين ؛ فأنا بالقوم جِدّ خَبِير ؛ هم لك ولأشياعك أعداء ؛ وهم لمن يَطْلب حَرْثَ الدنيا أولياء ؛ وهم مقاتلوك ومجادلوك [1] لا يُبقون جَهْدا ، مشاحّة على الدنيا ، وضَنًّا بما فى أيديهم منها؛ ليس لهم إرْبة غيرها ؛ إلّا مايخدعون به الجهال من طلب دم ابن عفّان؛ كذبوا ليس لدمه ينفِرون، ولكنّ الدنيا يطلبون ؛ انهض بنا إليهم؛ فإن أجابوا إلى الحقّ فليس بعد الحقّ إلا الضلال ؛ وإن أبَوْا إلا الشقاق ؛ فذاك ظنّى بهم [2] ؛ والله ما أراهم يُبايعون وقد بَقِيَ فيهم أحد ممّن يُطاع إذا نَهى ؛ ويُسمع إذا أمَر [3] .

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد ، عن الحارث بن حصيرة ، عن عبدالرحمن بن عبيد أبى الكنود أنّ عمار بن ياسر قام فحمِد الله وأثنى عليه ، وقال : يا أميرَ المؤمنين ، إن استطعت ألّا تُقيم يوما واحدا فافعل ، اشخص بنا قبل استعار نار الفَجَرة ، واجتماع رأيهم على الصدود والفرقة ، وادْعُهم إلى حظّهم ورشدهم ؛ فإن قَبِلُوا سَعِدُوا ؛ وإنْ أبَوْا إلّا حربَنا، فوالله إنّ سَفْكَ دمائهم ، والجِدّ فى جهادهم ، لَقُربة عند الله ، وكرامة منه [4] .

ثم قام قيس بن سعد بن عبادة ، فحمِد الله وأثنى عليه ، ثم قال : يا أميرَ المؤمنين ، انكمِش [5] بنا إلى عدوّنا ولا تعرّج [6] ؛ فوالله لجهادهم أحبُّ إلىّ من جهاد الترك

---

(١) صفين : « جاهدوك » .
(٢) صفين : « فذلك الظن بهم » .
(٣) كتاب صفين ١٠٣
(٤) صفين : « وهو كرامة منه » .
(٥) الانكماش : الجد فى السير .
(٦) صفين : « لا تعرد » والتعريد : الفرار .

والروم ؛ لإدهانهم[1] في دين الله، واستذلالهم أولياء الله من أصحاب محمد صلى الله عليه وآله، من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان ، إذا غَضِبُوا على رجل حَبَسوه وضربوه وحرموه وسيّروه ، وفيئنا لهم في أنفسهم حلال ، ونحن لهم فيما يزعمون قَطِين[2] ـ قال : يعني رقيق .

فقال أشياخ الأنصار ، منهم خُزيمة بن ثابت وأبو أيوب ؛ وغيرهما : لِمَ تقدَّمْتَ أشياخَ قومك وبدأتَهم بالكلام ياقيس ؟ فقال : أما إنّي عارف بفضلكم ، معظِّم لشأنكم ؛ ولكنّي وجدتُ في نفسي الضِّغْن الذي في صدوركم جاش حين ذكرتِ الأحزاب .

فقال بعضهم لبعض : ليَقُمْ رجلٌ منكم فليُجبْ أميرَ المؤمنين عن جماعتكم ، فقام سهل بن حُنَيف ، فحمِد الله وأثنى عليه ، ثم قال : يا أمير المؤمنين ؛ نحن سِلْمٌ لمن سالَمْتَ، وحَرْب لمن حاربت، ورأينا رأيُك ، ونحن[3] يمينُك، وقد رأينا أن تقوم [بهذا الأمر][4] في أهل الكوفة فتأمرَهم بالشُّخوص، وتخبرهم بما صنع لهم في ذلك من الفضل ، فإنهم أهلُ البلد وهم الناس ؛ فإن استقاموا لك استقام لك الذي تُريد وتطلب ؛ فأما نحن فليس عليك خلاف مِنّا ، متى دعوتَنا أجبناك ، ومتى أمرتنا أطعناك[5].

قال نصر : فحدّثنا عمر بن سعد ، عن أبي مِخْنف ، عن زكريا بن الحارث ، عن أبي خُشيش ، عن مَعبد ، قال : قام عليٌّ عليه السلام خطيبا عَلَى مِنْبره ، فكنتُ تحت المنبر، أسمع تحريضه[6] الناس وأمرَه لهم بالمسير إلى صِفّين لقتال أهل الشام ، فسمعتهُ يقول :

---

(١) الإدهان : الغش والخديعة .
(٢) القطين : الخدم والأتباع.
(٣) صفين : « ونحن كف يمينك » .
(٤) من صفين
(٥) صفين ١٠٥
(٦) صفين : « حين حرض الناس » .

سيروا إلى أعداء الله ، سيروا إلى أعداء القرآن والسُّنَن ، سيروا إلى بقية الأحزاب وقَتَلة المهاجرين والأنصار . فقام رجل من بنى فَزارة ، فقال له : أتريد أن تسير بنا إلى إخواننا من أهل الشام فنقتلَهم لك ، كما سرت بنا إلى إخواننا من أهل البصرة فقتلْتهم ! كلاّ ، ها اللهِ [1] إذاً لا نفعل ذلك .

فقام الأشتر ، فقال : مَنْ هذا المارق ! [2]

فهرب الفزاريّ ، واشتدّ الناس عَلَى إثره ، فلحِق فى مكانٍ من السوق تُبَاع فيه البراذين ، فوطئوه بأرجلهم ، وضربوه بأيديهم ونعال سيوفهم حتى قُتِل ؛ فأتى علىّ عليه السلام ، فقيل له : ياأمير المؤمنين ، قُتِل الرجل ، قال : ومَنْ قتله ؟ قالوا : قتلته هَمْدان ومعهم شَوْب من الناس ، فقال : قتيلُ عِمِّيَّة [3] ، لا يُدْرَى مَنْ قتله ! ديته من بيت مال المسلمين ؛ فقال بعض بنى تيم اللات بن ثعلبة [4] :

أعوذُ بربِّى أنْ تكونَ مَنِيَّتى ... كما مَاتَ فى سُوقِ البَرَاذِينِ أَرْبَدُ

تَعَاوَرَه هَمْدانُ خَفْقَ نِعالِهِمْ ... إذا رُفِعَتْ عنه يدٌ وُضِعَتْ يَدُ

فقام الأشتر ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لا يهدّنك مارأيت ، ولايُؤيِسَنّكَ مِنْ نصرنا ما سمعت من مقالة هذا الشقىّ الخائن ؛ إنّ جميعَ مَنْ ترى من الناس شيعتُك ، لايرغبون بأنفسهم عن نفسك ، ولا يحبّون البقاء بعدك ، فإنْ شئت فسِرْ بنا إلى عدوّك ، فوالله ماينجو من الموت مَنْ خافه ، ولايعطَى البقاءَ مَنْ أحبّه ، وإنا لَعَلَى بَيِّنة من رَبِّنا ؛ وإنّ أنفسَنا لن تَمُوت حتى يأتىَ أجلُها . وكيف لا نقاتلُ قوماً هم كما وصف أمير المؤمنين ، وقد وثبتْ عصابة منهم على طائفة من المسلمين بالأمس ، وباعوا خَلاقهم بَعَرَضٍ من الدنيا يسير !

---

(١) الهاء هنا للتنبيه يقتسم بها .

(٢) صفين : « من لهذا أيها الناس » .

(٣) قتيل عمية ، أى ميتة فتنة وجهالة .

(٤) صفين : « فقال علاقة التيمى » .

فقال علىٌّ عليه السلام : الطريق مُشْتَرك ، والناس فى الحقّ سواء ، ومَنِ اجتهد رأيه فى نصيحة العامة ، فقد قضى ما عليه . ثم نزل فدخل منزله [١] .

* * *

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد ، قال : حدثنى أبو زهير العبسىّ ، عن النضر بن صالح أن عبد الله بن المعتّم العبسىّ وحنظلة بن الربيع التميمىّ ؛ لما أمر علىٌّ عليه السلام الناس بالمسير إلى الشام دَخَلا عليه فى رجال كثير من غَطَفان و بنى تميم ، فقال له حنظلة : يا أمير المؤمنين ؛ إنا قَدْ مشينا إليك فى نَصِيحة فاقبلها ، ورأينا لك رأيا فلا تردّنّه علينا ، فإنّا نظَرنا لك ولمن معك ؛ أقِمْ وكاتِبْ هذا الرجل ، ولا تعجَلْ إلى قتال أهل الشام ؛ فإنا وَاللهِ ما نَدْرِى ولا تدرى لِمَنْ تكون الغَلَبة إذا الْتقينا ؛ ولا على مَنْ تكونُ الدَّبْرة !

وقال ابن المعتّم مثل [٢] قوله ، وتكلّم القوم الذين دخلوا معهما بمثل كلامِهما ، فحمِد علىّ عليه السلام اللهَ وأثنى ، ثم قال :

أما بعدُ فإن الله وارثُ العباد والبلاد ، وربّ السموات السبع ، والأرضين السبع ، وإليه ترجعون ، يؤتى المُلْكَ مَنْ يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعزّ مَنْ يشاء ، ويذِلّ من يشاء . أما الدَّبْرة ، فإنّها على الضالّين العاصين ظفِروا أو ظُفِر بهم ؛ وايمُ الله إنى لأسمع كلام قوم ما أراهم يعرفون معروفاً ، ولا ينكرون منكَراً .

فقام إليه مَعْقِل بن قيس الرّياحىّ ، فقال : ياأميرَ المؤمنين ؛ إنّ هؤلاء والله ما آتروك بنُصْح ، ولا دخلوا عليك إلا بِغِشّ ، فاحذرهم فإنهم أدنى العدوّ .

وقال له مالك بن حبيب : إنه بلغنى يا أميرَ المؤمنين أنّ حنظلة هذا يكاتِبُ معاوية ، فادْفَعْه إلينا نحبِسْه حتى تنقضِىَ غَزاتك ، وتنصرف .

---

(١) صفين ١٠٢

(٢) صفين : « وقام المعتم فتكلم » .

وقام من بنى عبس قائد بن بكير وعيّاش بن رَبيعة العبْسيّان ، فقالا : ياأميرَ المؤمنين إنّ صاحبَنا عبد الله بن المعتّم قد بلغنا أنه يكاتب معاوية ، فاحبِسْه أو مَكِّنّا من حَبْسه ؛ حتى تنقضيَ غزاتك ثم تنصرف .

فقالا : هذا جزاء لمن نظر لكم ، وأشار عليكم بالرأى فيما بينكم وبين عدُوّكم .

فقال لهما علىّ عليه السلام : الله بينى وبينكم ، وإليه أَكِلُكُم ، وبه أستظهرُ عليكم ، اذهبوا حيث شئتم [١] .

قال نصر : وبعث على عليه السلام إلى حَنْظلة بن الربيع المعروف بحنظلة الكاتب ، ـ وهو من الصحابة ـ فقال له : ياحنظلة ، أنت علَيّ أم لى ؟ فقال : لا لك ولا عليك ؛ قال : فما تريد ؟ قال: اشخص إلى الرُّها [٢] ، فإنه فَرْج من الفروج ، اصمِد له حتى ينقضىَ هذا الأمر .

فغضب من قوله خيار بنى عمرو بن تميم وهم رهطه ، فقال : إنكم والله لا تغرّونى من دينى ، دعونى فأنا أعلم منكم ، فقالوا : والله إنْ لم تخرج مع هذا الرجل لا ندعُ فُلانة تخرج معك ـ لأم ولده ـ ولا وَلَدَها ، ولئن أردت ذلك لنقتلنّك .

فأعانه ناس من قومه واخترطوا سيوفهم ، فقال : أجّلونى حتى أنظر . ودخل منزله وأغلق بابه ؛ حتى إذا أمسى هرب إلى معاوية ، وخرج من بعده إليه من قومه رجال كثير ، وهرب ابن المعتّم أيضا ، حتى أتى معاوية فى أحد عشر رجلا من قومه .

وأما حنظلة فخرج إلى معاوية فى ثلاثة وعشرين رجلا من قومه ؛ لكنّهما لم يقاتلا مع معاوية ، واعتزلا الفريقين جميعا [٣] .

---

(١) صفين : ١٠٧ ، ١٠٨

(٢) الرها : مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام .

(٣) صفين ١٠٩

وقال : وأمر علىّ عليه السلام بهدْم دار حنظلة ، فهدمت ؛ هدَمها عريفهم شبَث بن رِبعِىّ وبكر بن تميم ؛ فقال حنظلة يهجوهما :

أيا راكباً إمّا عرَضْتَ فبلِّغَنْ مُغَلغَلةً عنّى سَرَاةَ بنى عَمْرو

فأُوصِيكمُ باللهِ والبِرِّ والتقى ولا تنظروا فى النائبات إلى بكْرِ

ولا شَبَثٍ ذى المَنْخَرَيْن كأنه أزَبّ جِمالٍ قد رغا ليلة النفْرِ[١]

وقال أيضاً يحرّض معاوية بن أبى سفيان :

أبلغْ معاوية بن حَرْب خُطّةً ولكل سائلةٍ تَسِيلُ قرارُ

لا تقبَلَنّ دَنيةً تَرْضَوْنَها[٢] فى الأمر حتى تُقتلَ الأنصارُ

وكما تبوء دماؤهُمْ بدمائِكمْ وكما تُهدّمُ بالدّيار ديار

وتَرى نساؤهمُ يَجُلْنَ حَواسِراً ولهنّ من ثُكل الرجال جُؤَار[٣]

قال نصر : حدّثنا عمر بن سعد ، عن سعد بن طريف ، عن أبى المجاهد ، عن المحلّ ابن خليفة ، قال : قام عدىّ بن حاتم الطائىّ بين يدى علىّ عليه السلام ، فحمِد الله وأثنى عليه ، وقال :[٤] يا أمير المؤمنين ، ما قلتَ إلا بعلم ، ولا دعوتَ إلا إلى حقّ ، ولا أمرتَ إلا برُشْد ؛ ولكنْ إذا رأيت[٥] أن تستأنِىَ هؤلاء القوم وتستديمهم ـ حتى تأتيَهم كتبُك ، ويقْدَمَ عليهم رُسُلك ـ فعلت . فإن يقبلوا يُصيبوا رُشْدَهم[٦] ، والعافية أوسعُ لنا ولهم ؛

(١) الأزب : الكثير شعر الوجه والعثنون ، وفى صفين :

* أزَبُّ جِمالٍ فى مُلاَحِيةٍ صُفْرِ *

(٢) صفين : « تعطونها » .

(٣) صفين : « ولهن من ثكل الرجال خوار » .

(٤) صفين ١١٠

(٥) صفين : « فإن رأيت » .

(٦) صفين : « فإن يقبلوا يصيبوا ويرشدوا » .

وإن يتمادَوْا فى الشِّقاق ولا ينزِعوا عن الغىّ فسرْ إليهم . وقد قدّمنا إليهم بالعذر[١] ، ودَعَوْناهم إلى ما فى أيدينا من الحق ؛ فو الله لهم من الحق أبعد ، وعلى الله أهون ؛ من قوم قاتلناهم أمس بناحية البصرة لمّا دعوناهم إلى الحق فتركوه ، ناوجْناهم بُرَاكاء القتالِ[٢] ؛ حتى بلغنا منهم ما نحب ، وبلَغ الله منهم رضاه .

فقام زيدبنحُصين الطائىّ ـ وكان من أصحاب البرانس[٣] المجتهدين ـ فقال : الحمدُ لله حتى يرضى ، ولا إله إلا الله ربنا ، أما بعد : فو الله إنْ كنّا فى شك من قتال مَنْ خالفنا ، ولا تصلح لنا النيّة فى قتالهم حتى نستديمَهم ونستأنيَهم ـ ما الأعمال إلا فى تبَاب ، ولا السعى إلا فى ضلال ، والله تعالى يقول : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾[٤] ؛ إننا والله ما ارتبنا طرْفة عين فيمن يتبعونه[٥] ، فكيف بأتباعِه القاسية قلوبهم ، القليل من الإسلام حظُّهم ، أعوانِ الظلَمة وأصحاب الجوْر والعدوان[٦] ؛ ليسوا من المهاجرين ولا الأنصار ، ولا التابعين بإحسان .

فقام رجل من طيّئ فقال : يا زيد بن حصين ، أكلام سيدنا عدىّ بن حاتم تُهجِّن[٧] ! فقال : زيد ما أنتم بأعرَف بحقّ عدى منّى ، ولكنى لا أدَعُ القول بالحق وإن سَخِط الناس .

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد ، عن الحارث بن حصين قال[٨] : دخل أبو زينب

---

(١) صفين : « العذر » .

(٢) البراكاء : الابتراك فى الحرب ؛ وهو أن يجثو القوم على ركبهم . ويقال : وجن به ، أى ضرب به الأرض ، وفى صفين : « ناوخناهم » .

(٣) جمع برنس ؛ وهو قلنسوة طويلة كان يلبسها فى صدر الإسلام النساك والزهاد .

(٤) سورة الضحى ١١ .

(٥) صفين : « يبتغون دمه » .

(٦) صفين : « ومسددى أساس الجور والعدوان » .

(٧) فى صفين بعد هذه الكلمة : « قال : فقال عدى بن حاتم : الطريق مشترك ، والناس فى الحق سواء ؛ فمن اجتهد رأيه فى نصيحة العامة فقد قضى الذى عليه » .

(٨) صفين ١١٢ : « الحارث بن حصيرة » .

ابن عوف ، عَلَى علىّ عليه السلام ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ لئن كنّا على الحق لأنت أهدانا سبيلا، وأعظمُنا فى الخير نصيبا ؛ ولئن كنا على ضلال، إنّك لأثقلنا ظهراً وأعظمنا وِزْراً ؛ قد أمرتنا بالمسير إلى هذا العدوّ ، وقد قطعْنا مابيننا وبينهم من الولاية ، وأظهرْنا لهم العداوة ؛ نريد بذلك ما يعلمه الله تعالى من طاعتك ؛ أليس الذى نحن عليه هو الحقّ المبين ، والذى عليه عَدُوُّنا هو الحوبُ الكبير !

فقال عليه السلام : بَلَى ، شهدتُ أنك إنْ مضيت معنا ناصراً لدعوتنا، صحيح النية فى نصرنا، قد قطعتَ منهم الولاية ، وأظهرت لهم العداوة كما زعمت؛ فإنك ولىّ الله، تَسْبَح[1] فى رضوانه ، وتركُض فى طاعته ، فأبشر أبا زينب .

وقال له عمار بن ياسر : اثبُت أبا زينب ، ولا تشكّ فى الأحزاب ، أعداء[2] الله ورسوله .

فقال أبو زينب : ما أحبّ أن لى شاهدين من هذه الأمة شهدا لى عما سألت من هذا الأمر الذى أهمنى ـ مكانكما .

قال : وخرج عمار بن ياسر ، وهو يقول :

سِيرُوا إلى الأحْزابِ أعداءِ النبىّ   سِيرُوا فخيرُ النّاس أتباعُ علىْ
هذا أوان طابَ سلُّ المشرَفىّ   وقوْدُنا الخيلَ وَهَزُّ السَّمْهَرِىْ[3]

قال نصر : وحدّثنا عمر بن سعد ، عن أبى رَوْق ، قال :[4] دخل يزيد بن قَيْس الأرحَبىّ عَلَى علىّ عليه السلام ، فقال : يا أمير المؤمنين؛ نحن أولو جِهازٍ وعدّة،وأكثر

(١) صفين : « تسبح » .

(٢) صفين : « عدو الله ورسوله » .

(٣) السيوف المشرفية : منسوبة إلى مشارف الشام ؛ قرى من أرض العرب . والسمهرى : الرمح الصلب ، منسوب إلى سمهر زوج ردينة ، وكانا مثقفين للرماح . (٤) صفين ١١٣ .

الناس أهلَ قوّة ، ومَنْ ليس به ضَعْف(١) ولا عِلّة ، فمُرْ منادِيَك ؛ فلينادِ الناس يخرجوا إلى معسكرهم بالنُّخَيْلة ؛ فإنّ أخا الحرب ليس بالسئوم ولا النئوم ، ولا مَنْ إذا أمكنته الفرص أجّلها ، واستشار فيها ؛ ولا مَنْ يؤخّر عمل الحرب في اليوم لغدٍ وبعد غدٍ .

فقال زياد بن النّضر : لقد نصحَ لك يزيدُ بن قيس يا أمير المؤمنين، وقال مايعرف، فتوكّل على الله ، وثقْ به ، واشخَصْ بنا إلى هذا العدوّ راشداً معاناً ؛ فإن يُرِد اللهُ بهم خيراً لا يتركوك رغبة عنك(٢) إلى مَنْ ليس له مِثْلُ سابقتِك وقدَمِك(٢) ؛ وإلّا يُنيبوا ويقبلوا ويأبَوْا إلا حربنا نجد حربهم علينا هَيّنا ؛ ونرجو أن يصرعهم الله مصارعَ إخوانهم بالأمس .

ثم قام عبدُ الله بن بُدَيلِ بن وَرْقاء الخزاعيّ ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ؛ إنّ القوم لو كانوا اللهَ يريدون ، ولله يعملون ، ما خالفونا ؛ ولكنّ القوم إنما يقاتلوننا فراراً من الأسوة وحبّا للأثَرَة ، وضنّا بسلطانهم ، وكرها لفراق دنياهم التي في أيديهم ، وعلى إحَنٍ في نفوسهم، وعداوة يجدُونها في صدورهم، لوقائع أوقعتها يا أمير المؤمنين بهم قديمة، قتلتَ فيها آباءهم وأعوانهم(٣) .

ثم التفت إلى الناس ، فقال : كيف يُبايع معاوية عليّاً ، وقد قتَل أخاه حنظلة ،وخالَه الوليد ، وجدّه عُتْبة في موقف واحد ؛ والله ما أظنّهم يفعلون(٤) ،ولن يستقيموا لكم دون أن تُقْصَفَ فيهم قَنَا المُرّان(٥)، وتقطع على هامهم السُّيوف ، وتنثر حواجبهم بعَمَد الحديد ، وتكون أمورٌ جمّة بين الفريقين .

---

(١) صفين : « ومن ليس بِضعف » .

(٢–٢) صفين : « إلى من ليس مثلك في السابقة مع النبي صلى الله عليه وآله والقدم في الإسلام » .

(٣) صفين : « وإخوانهم » . (٤) صفين : « ما أظن أن يفعلوا » .

(٥) صفين : « تقصد » ، وهي بمعنى « تقصف » والمران : الرماح اللدنة .

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد عن الحارث بن حصين عن عبد الله بن شَرِيك ، قال[١] : خرج حُجْر بن عدىّ وعَمْرو بن الحَمِق ، يُظهران البراءة من أهل الشام ؛ فأرسل علىّ عليه السلام إليهما أنْ كُفَّا عمّا يبلغنى عنكما ، فأتياه ، فقالا : يا أمير المؤمنين ، ألسنا محقّين ؟ قال : بلى ؛ قالا : أو ليسُوا مُبطِلين ؟ قال : بلى ؛ قالا : فلِمَ منعتَنا مِنْ شتمِهم ؟ قال : كرهتُ لكم أن تكونوا لعّانين شتّامين تشتِمون وتتبرءون ؛ ولكن لو وصفتم مساوئْ أعمالهم فقلتم : مِنْ سيرتِهم كذا وكذا ، ومِنْ أعمالهم كذا وكذا ، كان أصوبَ فى القول ، وأبلغَ فى العذر ؛ وقلتم مكان لعنكم إياهم ، وبراءتكم منهم : اللهمّ احقِنْ دماءهم ودماءنا ، وأصلِحْ ذات بينهم وبيننا ، واهْدِهم من ضلالتهم حتى يعرف الحقَّ منهم مَنْ جَهِله ، ويرعوِىَ عن الغىّ والعُدْوان مِنْهم من لَهِج به ـ لكانَ أحبَّ إلىّ وخيراً لكم .

فقالا : يا أميرَ المؤمنين ، نقبَلُ عِظَتك ، ونتأدّب بأدبك .

قال نصر : وقال له عمرو بن الحَمِق يومئذ : والله يا أميرَ المؤمنين إنّى ما أحببتُك ولا بايعتُك عَلَى قَرابةٍ بينى وبينك ، ولا إرادة مال تُؤتينيه ، ولا التماسِ سلطان ترفع ذِكرى به ؛ ولكنّنى أحببتك بخصال خمس : أنك ابنُ عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله ، ووصيّه ، وأبو الذّرّية التى بقِيَتْ فينا من رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأسبقُ الناس إلى الإسلام ، وأعظمُ المهاجرين سَهْماً فى الجهاد ؛ فلو أنّى كُلِّفتُ نقلَ الجبالِ الرّواسى ، ونزحَ البحور الطوامى ؛ حتى يأتِىَ علىّ يومى فى أمرٍ أقوِّى به وليّك ، وأهين عدوك ؛ ما رأيت أنّى قد أدّيت فيه كلّ الذى يحقّ علىّ من حقك .

فقال علىّ عليه السلام : اللهم نوِّرْ قلبه بالتقى ، واهدِه إلى صراطك المستقيم[٢] ،

---

(١) صفين ١١٥ ، ١١٦ .

(٢) صفين : « إلى صراط مستقيم » .

ليتَ أنّ فى جُندِى مائة مثلك ، فقال حُجر : إذاً والله يا أميرَ المؤمنين ، صَحّ جندُك ، وقلّ فيهم مَنْ يغشّك .

قال نصر : وقام حُجر بن عدىّ ، فقال : ياأميرَ المؤمنين ، نحن بنو الحرْب وأهلها الذين نُلقِحها ونَنْتِجُها، قد ضارستْنا وضارسناها[1]، ولنا أعوانٌ وعشيرةٌ ذات عدد ورأى مجرّب ، وبأس محمود ، وأزِمّتُنا منقادة لك بالسمع والطاعة ، فإن شرّقت شرّقنا ، وإنْ غرّبت غرّبنا ، وما أمرتنا به من أمرٍ فعلنا . فقال علىّ عليه السلام : أ كلّ قومك يرى مثلَ رأيك ؟ قال : ما رأيتُ منهم إلا حُسْنا ، وهذه يدى عنهم بالسمع والطاعة وحسن الإجابة . فقال له علىّ عليه السلام خيرا .

* * *

قال نصر : حدّثنا عمر بن سعد ، قال : كتب عليه السلام إلى عماله حينئذ يستفزّهم ، فكتب إلى مخنف بن سليم :

سلامٌ[2] عليك ؛ فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإنّ جهاد مَنْ صَدَف عن الحقّ رغبة عنه ، وعبّ فى نُعاس العَمى والضلال ، اختياراً له ـ فريضةٌ على العارفين . إنّ الله يَرْضَى عمّن أرضاه ، ويسخَط عَلَى من عصاه ، وإنا قد هممنا بالسَّير إلى هؤلاء القوم الذين عَمِلوا فى عباد الله بغير ما أنزل الله ، واستأثروا بالفئ ، وعطّلوا الحدود ، وأماتوا الحقّ ، وأظهروا فى الأرض الفساد ، واتخذوا الفاسقين وليجةً من دون المؤمنين ؛ فإذا ولىٌّ لله أعظمَ أحداثَهم أبغضوه وأقصَوْه وحرَموه ، وإذا ظالم ساعدهم على ظُلْمهم أحبوه ، وأدنَوْه وبرّوه ؛ فقد أصرّوا على الظُّلم ، وأجمعوا على الخلاف ؛ وقديماً ما صدّوا عن الحقّ ، وتعاونوا على الإثم ، وكانوا ظالمين . فإذا أُتيتَ بكتابى هذا ، فاستخلِفْ على عَمَلِك أوثقَ أصحابك فى نفسك ، وأقبِلْ إلينا ، لعلك تَلْقى معنا هذا العدوّ

---

(١) ضارست الأمور : جربتها .

(٢) كتاب صفين : ١١٦ ، ١١٧ .

المُحِلّ ، فتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتجامع الحقّ ، وتباين الباطل ؛ فإنه لاغناء بنا ولا بك عن أجر الجهاد ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

وكتبه عبيد الله[١] بن أبي رافع في سنة سبع وثلاثين .

قال : فاستعمل مِخْنف على أصبهان الحارثَ بن أبي الحارث بن الربيع ، واستعمل عَلَى هَمَذان سعيد بن وهب ، وكلاهما من قومه ، وأقبل حتى شهد مع عليّ عليه السلام صفين.

قال نصر : وكتب عبدُ الله بن العباس من البصرة إلى على عليه السلام يذكر له اختلافَ أهل البصرة ، فكتب إليه عليّ عليه السلام : [من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى عبد الله بن عباس][٢] :

أما بعدُ ؛ فقد قَدِم عليّ رسولُك ، وقرأتُ كتابَك ، تذكرُ فيه حالَ أهل البصرة واختلافَهم بعد انصرافى عنهم ، وسأخبرك عن القوم ؛ هم بين مقيمٍ لرغبة يرجوها ، أو خائف مِنْ عُقوبة يخشاها ، فأرْغِب راغبَهم بالعدل عليه ، والإنصاف له والإحسان إليه؛ واحلُلْ عُقْدةَ الخوف عن قلوبهم ، وانتهِ إلى أمرى ولا تعدُه ، وأحسِنْ إلى هذا الحىّ من ربيعة وكلّ مَنْ قبلَك فأحسن إليه مااستطعت إن شاء الله .

قال نصر : وكتب إلى أمراء أعماله كلّهم بنحو ما كتب به إلى مخنف بن سليم ، وأقام ينتظرهم .

قال : فحدثنا عمر بن سعد،عن أبي رَوْق، قال[٣] : قال زياد بن النضر الحارثىّ لعبدالله ابن بُديل : إن يومَنا اليوم عَصَبْصَبٌ[٤] مايصبر عليه إلا كل مشيَّع[٥] القلب ، الصادق

(١) صفين : « عبد الله » .

(٢) من صفين .

(٣) صفين ١٢٤ــ١٢٨ .

(٤) العصبصب : الشديد ، وفى صفين : « عصيب » .

(٥) المشيع القلب : القوى الجاد الشجاع .

النّية ، رابط الجأش[١] ؛ وايم الله ماأظنّ ذلك اليوم يبقى منهم ؛ ولا منا إلا الرُّذّال[٢]

فقال عبد الله بن بُدَيل : أنا والله أظنّ ذلك . فبلغ كلامُهما عليًّا عليه السلام ، فقال لهما : ليكُنْ هذا الكلام مخزونا فى صُدُوركما لاتظهراه ولا يسمعه منكما سامع ؛ إن الله كتبَ القتل على قوم والموتَ على آخرين ، وكلٌّ آتيه منيّتُه كما كتب الله له ، فطوبى للمجاهدين فى سبيله ، والمقتولين فى طاعته !

قال نصر : فلما سمع هاشم بن عُتْبة ماقالاه ، أتى عليا عليه السلام ، فقال : سر بنا يأمير المؤمنين إلى هؤلاء القوم ، القاسيةقلوبهم ، الذين نَبذوا كتابَ الله وراء ظهورهم ، وعَمِلوا فى عباد الله بغير رضا الله ، فأحلّوا حرامه ، وحرموا حلاله ، واستوى بهم[٣] الشيطان ، ووعدَهم الأباطيل ، ومنّاهم الأمانىّ ، حتى أزاغهم عن الهدى ، وقَصَدَ بهم قَصْد الرّدَى ، وحبّب إليهم الدنيا فهم يقاتلون على دنياهم رغبة فيها ؛ كرغبتنا فى الآخرة وانتجاز مَوْعد ربنا . وأنت يأمير المؤمنين أقربُ الناس مِنْ رسول الله صلى الله عليه رحِما ، وأفضلُ الناس سابقة وقدَما ؛ وهمْ يأميرَ المؤمنين يعلمون منك مثل الذى نعلم ؛ ولكنْ كُتِب عليهم الشقاء ، ومالتبهم الأهواء ، وكانوا ظالمين ، فأيدينا مبسوطةلك بالسمع والطاعة ،وقلوبنا منشرحةٌ لك ببذْل النصيحة ، وأنفسُنا تنصُرك عَلَى مَنْ خالفك ، وتولى الأمر دونك جَذِلةً ، والله ماأحبّ أنّ لى ماعلى الأرض ممّا أقلّت ، ولا ماتحت السماء ممّا أظلّت ؛ وأنى واليتُ عدوا لك ؛ أو عاديتُ وليا لك !

فقال عليه السلام : اللهمّ ارزقه الشهادة فى سبيلك ، والمرافقة لنبيك[٤] .

قال نصر : ثم إن عليا عليهالسلام صَعِد المنبر فخطب الناس ، ودعاهم إلى الجهاد،فبدأ بحمد الله والثناء عليه ، ثم قال :

(١) الجأش : القلب ؛ وفلان رابط الجأش ؛ أى شجاع لا يضطرب قلبه خوفا .
(٢) الرذال ، والرذيل : ما انتق جيده وبق أخسه وأدونه
(٣) صفين : « واستولاهم » .
(٤) كذا فى صفين ، وفى الأصول : « المرافقة »

إن الله قد أكرمكم بدينه، وخلقكم لعبادته ، فأنصبوا أنفسكم في أداء حقه ، وتنجّزوا موعوده ، واعلموا أنّ الله جعل أمْرَاس الإسلام متينة ، وعراه وثيقة ؛ ثم جعل الطاعة حظّ الأنفس ورضا الرب ، وغنيمة الأكياس عند تفريط العجزة[1]، وقد حُمِّلت أمر أسْوَدِها وأحمرها ، ولاقوة إلا بالله ! ونحن سائرون إن شاء الله إلى من سَفِهَ نفسه ، وتناول ماليس له ومالا يدركه معاوية وجنده ، الفئةِ الطاغية الباغية ، يقودهم إبليس ، ويُبرق لهم ببارق تسويفه ، ويدلّيهم بغروره ؛ وأنتم أعلم الناس بالحلال والحرام ؛ فاستغنوا بما علمتم ، واحذروا ماحذّركم الله من الشيطان ، وارغبوا فيما عنده من الأجر والكرامة ؛ واعلموا أنّ المسلوب مَنْ سُلِب دينَه وأمانتَه ، والمغرور مَنْ آثر الضلالة على الهدى ، فلا أعرفَنّ أحداً منكم تقاعَس عَنّي ، وقال : في غيري كفاية ؛ فإن الذّوْد إلى الذّوْد إبل ، ومَنْ لايَذُدْ عن حوضه يتهدم . ثم إني آمركم بالشدة في الأمر ، والجهاد في سبيل الله ، وَألّا تغتابوا مسلما ، وانتظروا النصر العاجل من الله إن شاء الله .

قال نصر : ثم قام ابنهُ الحسن بن عليّ عليهما السلام ، فقال :

الحمدُ لله لاإله غيرُه ولاشريك له .

ثم قال : إنّ مما عَظّم الله عليكم من حَقّه ، وأسبَغ عليكم من نِعمه مالا يحصى ذكره ؛ ولا يؤدّى شكره ، ولا يبلُغه قولٌ ولا صفة ؛ ونحن إنما غضِبنا لله ولكم ؛ إنه لم يجتمع قوم قطّ على أمر واحد إلا اشتدّ أمرُهم ، واستحكمت عُقدتُهم . فاحتشِدوا في قتال عدوّكم معاوية وجنوده ، ولاتخاذلوا ، فإنّ الخذلان يقطعُ نياط القلوب ؛ وإن الإقدام على الأسِنّة نخوة وعِصْمة ، لم يتمنّع[2] قوم قطّ إلا رفع الله عنهم العِلّة ، وكفاهم جوائح الذلة ، وهداهم إلى معالم الملة ، ثم أنشد :

(١) صفين : « الفجرة » .

(٢) صفين : « لم يمتنع » ، والتمنع والامتناع : العز والقوة .

والصُّلحُ تأخُذُ منه مارضيتَ به والحربُ يكفيكَ من أنفاسها جُرَعُ[1]

ثم قام الحسينُ بن علىّ عليه السلام ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال : ياأهلَ الكوفة ، أنتم الأحبَّة الكرَماء ، والشِّعار دون الدِّثار ، جِدُّوا فى إطفاء ماذَتَر بينكم ، وتسهيل[2] ماتوعّر عليكم . ألا إنّ الحربَ شرُّها ذَرِيع وطعمها فظيع ؛ فمن أخذ لها أُهْبتَها ، واستعدّ لها عدّتها ، ولم يألم كلُومَها قبل حلولها ، فذاك صاحبُها ، ومَنْ عاجلها قبل أوانِ فُرْصتِها ، واستبصار سعيه فيها ، فذاكَ قَمِنٌ ألّا ينفع قومَه ، وأن يُهلِك نفسَه ، نسأل الله بقوته أن يَدْعمكم بالفيئة[3] ثم نزل .

قال نصر : فأجاب عليّا عليه السلام إلى السير جُلُّ الناس ؛ إلا أنّ أصحابَ عبد الله بن مسعود أتوه ، فيهم عُبيدة السَّلْمانىّ وأصحابه ، فقالوا له : إنا نخرج معكم ، ولا نترك عسكرَكم ونعسكر على حِدَة ، حتى ننظر فى أمركم وأمر أهلِ الشام ؛ فمن رأيناه أراد مالا يحلّ له أو بَدَا لنامنه بَغىٌ كُنَّا عليه . فقال لهم علىٌّ عليه السلام : مَرْحَباً وأهلا ؛ هذا هو الفقهُ فى الدين ، والعلم بالسنّة ، مَنْ لم يرضَ بهذا فهو خائن جبار[4] .

وأتاه آخرُون من أصحاب عبد الله بن مسعود ؛ منهم الربيع بن خُثَيْم ؛ وهم يومئذ أربعمائة رجل ، فقالوا : ياأميرَ المؤمنين ؛ إنّا قد شككنا فى هذا القتال ؛ على معرفتنا بفضلك ، ولا غَناء بنا ولا بك ولا بالمسلمين عمّن يقاتِلُ العدوّ ؛ فولِّنا بعض هذه الثغور نكُنْ[5] ثم نقاتل عن أهله ؛ فوجّه علىّ عليه السلام بالربيع بن خُثَيم على ثغر الرّىّ ، فكان أولُ لواء عَقَده عليه السلام بالكوفة لواء الربيع بن خُثَيم .

* * *

(١) البيت للعباس بن مرداس السلمى ، الخزانة ٢ : ٨٢

(٢) صفين : « إسهال » .

(٣) صفين : « بألفته » .

(٤) صفين : « جائر » .

(٥) صفين : « نكون به » .

قال نصر : وحدّثني عمر بن سعد ، عن يوسف بن يزيد ، عن عبد الله بن عوف ابن الأحمر ؛ أن[1] علياعليه السلام لم يبرح النُّخَيلة ، حتى قَدِم عليه ابنُ عباس بأهل البصرة. قال : وكان كتاب عليّ عليه السلام إلى ابن عباس :

أما بعدُ ، فاشخَصْ إليّ بمَن قِبَلَك من المسلمين والمؤمنين ، وذكّرهم بلائى عندهم ، وعفوِى عنهم فى الحرب ، وأعلِمهم الذى لهم فى ذلك من الفضْل . والسلام .

قال : فلما وصلَ كتابُه إلى ابن عباس بالبصرة ، قام فى الناس ، فقرأ عليهم الكتاب ، وحَمِد الله وأثنى عليه ، وقال :

أيها الناس ، استعدُّوا للشُّخُوص إلى إمامكم ، وانفِروا خِفَافا وثقالا ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم ؛ فإنكم تقاتلون المحلّين القاسطين ؛ الذين لا يقرءون القرآن ، ولا يعرِفون حكم الكتاب ، ولا يَدِينون دينَ الحق ؛ مع أميرِ المؤمنين ، وابن عمّ رسول الله ، الآمرِ بالمعروف ، والناهى عن المنكر ، والصادع بالحقّ ، والقيِّم بالهدى ، والحاكم بحكم الكتاب ، الذى لا يرتَشِى فى الحُكْم ، ولا يُداهِن الفُجّار ، ولا تأخذُه فى الله لومةُ لائم .

فقام إليه الأحنفُ بن قيس ، فقال : نعم والله لنجيبَنّك ، ولنخرجَنّ معك على العُسْر واليسر ، والرضا والكُرْه ، نحتسب فى ذلك الأجر ، ونأملُ به من الله العظيم حسنَ الثواب.

وقام خالد بن المعمر السَّدُوسيّ فقال : سمِعْنا وأطعنا ؛ فمتى استنفرْتنا نفَرْنا ، ومتى دعوتَنا أجبنا .

وقام عمرو بن مرجوم العبدىُّ ، فقال : وفّقَ الله أميرَ المؤمنين ، وجمع له أمرَ المسلمين ،

---

(١) كتاب صفين ١٣٠ .

ولمن المحلّين القاسطين،لا يقرءون القرآن ؛ نحن والله عليهم حنقون ، ولهم فى الله مفارقون؛ فمتى أردتنا صحبك خيلُنا[1] ورجالنا إن شاء الله .

قال : وأجابَ الناسُ إلى المسير ، و نَشطوا وخَفّوا ؛ فاستعمل ابنُ عباس على البَصْرة أبا الأسود الدُّؤلىّ وخرج حتى قدم على علىّ عليه السلام بالنُّخَيْلة .

* * *

[كتاب محمد بن أبى بكر إلى معاوية وجوابه عليه]

قال نصر : وكتب[2] محمد بن أبى بكر إلى معاوية :

من محمد[3] بن أبى بكر إلى الغاوى معاوية بن صخر ، سلامٌ على أهل طاعة الله ممّن هو سِلْم[4] لأهل ولاية الله . أما بعد فإن الله بجلاله وعظمته وسلطانه وقدرته،خَلَق خَلقًا بلا عَبَث ولا ضعف فى قوته ؛ لا حاجة به إلى خَلقهم ، ولكنه خَلَقهم عبيدا ، وجعل منهم شقيا وسعيدا ، وغويًّا ورشيدا ، ثم اختارهم على عِلْمِه ، فاصطفى وانتخب منهم محمدا صلى الله عليه وآله ، فاختصّه برسالته ، واختاره لوحيه ، وائتمنه على أمره ، وبعثه رسولا مصدّقا لما بين يديه من الكتب، ودليلاً على الشرائع ؛فدعاإلى سبيل أمره بالحكمة والموعظة الحسنة ؛ فكان أوّلَ مَنْ أجاب وأناب ، وصدّق [ووافق][5] فأسلم وسلّم أخوه وابنُ عمّه ـ على بن أبى طالب عليه السلام ، فصدّقه بالغيب المكتوم ، وآثره على كلّ حميم ، ووقاه كلَّ هَوْل، وواساه بنفسه فى كلِّ خوف ؛ فحارب حَرْبه ،وسالم سِلْمه ؛ فلم يبرَحْ مبتذِلًا لنفسه فى ساعات الأزْل[6] ، ومقامات الرَّوْع؛ حتى برَّز سابقا

(١) صفين : «ورجلنا» (٢) صفين ١٣٢ ــ ١٣٥
(٣) فى صفين : «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن أبى بكر .
(٤) صفين : «مسلم» .
(٥) من صفين
(٦) الأزل : الشدة والضيق .

لا نظير له فى جهاده ، ولا مقاربَ له فى فضله ؛ وقد رأيتُك تساميه وأنت أنت ؛ وهو هو السابق المبرّز فى كلّ خير ؛ أوّلُ النّاس إسلاما ، وأصدق الناس نِيّة ، وأطيبُ الناس ذُرّيّة ، وأفضلُ الناس زَوْجَة ، وخير الناس ابن عمّ . وأنت اللعينُ ابن اللعين ، لم تزَلْ أنت وأبوك تبغيان لدين الله الغوائل ، وتجتهدان على إطفاء نور الله ؛ وتجمعان على ذلك الجموع ، وتَبْذُلان فيه المال ، وتحالفان فى ذلك القبائل ؛ علَى هذا مات أبوك ، وعلى ذلك خَلَفْتَه ، والشاهدُ عليك بذلك مَنْ يأوى ويلجأ إليك ؛ من بقيّة الأحزاب ورءوس النفاق والشقاق لرسول الله صلى الله عليه وآله ؛ والشاهد لعلىّ مع فضله وسابقته القديمة أنصارُه الذين ذكرهم الله تعالى فى القرآن ، ففضّلهم وأثنى عليهم من المهاجرين والأنصار ؛ فهم معه كتائب وعصائب ؛ يجالدون حولَه بأسيافهم ، ويُهَرِيقون دماءهم دونه ؛ يرون الفضل فى اتّباعه ، والشّقَاق والعصيان فى خلافه ؛ فكيف — يالك الويل — تعدِلُ نفسك بعلىّ ، وهو وارث رسول الله صلى الله عليه وآله ووصيه وأبو ولده ، وأوّلُ النّاسِ له اتباعا ، وآخرهم به عهدا ، يخبرُه بسرّه ، ويُشْرِكه فى أمره ؛ وأنت عدوّه وابن عدوّه ؛ فتمتّع ما استطعتَ بباطِلك ، وليمددك ابن العاص فى غَوايتك ؛ فكأن أجلَك قد انقضى ، وكيدك قد وَهَى ، وسوف تستبين لمن تكون العاقبة العليا . واعلم أنّك إنما تكايد رَبّك الذى قد أمِنْتَ كيده ، وأيستَ من روحه ، وهُوَ لكَ بالمرْصاد ؛ وأنت منه فى غرور . وبالله وبأهل بيت رسوله عنك الغناء ! والسلام على من اتبع الهدى .

فكتب إليه مُعاوية[1] :

من معاوية بن أبى سفيان ، إلى الزّارى على أبيه محمد بن أبى بكر . سلام على أهل طاعة الله ، أما بعد ؛ فقد أتانِى كتابُك تذكر فيه ما الله أهلُه فى قدرته وسلطانه ، وما أصفى به نَبيّه ، مع كلام ألّفته ووضعته ؛ لرأيك فيه تضعيف ؛ ولأبيك فيه تعنيف ؛ ذكرتَ حقّ

(١) بعدها فى صفين : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

ابن أبي طالب وقديمَ سابقته ، وقرابتَه من نبي الله ونصرتَه له ، ومواساته إياه ؛ في كلِّ خوف وهَوْل ؛ واحتجاجَك عليَّ ، وفخرك بفضل غيرك لا بفضلك . فاحمد إلهاً صرف ذلك الفضل عنك، وجعله لغيرك ؛ فقد كُنا وأبوك معنا في حياة نبينا ؛ نرى حقّ ابن أبي طالب لازماً لنا ،وفضله مبرزاً علينا ؛ فلما اختار الله لنبيه ماعنده ، وأتمّ له ماوَعَده،وأظهر دعوتَه ، وأفلج حُجَّتَه ، قبضه الله إليه ، فكان أبوك وفاروقُه ، أوّل من ابتزّه وخالفه،على ذلك اتفقا واتسقا[1] ؛ثم دعوَاه إلى أنفسهما فأبطأ عنهما ،وتلكأ عليهما،فهمَّا به الهموم : وأرادا به العظيم ، فبايعهما وسلّم لهما ، لا يشركانه في أمرهما ، ولا يطلعانه على سرّهما، حتى قبضا وانقضى أمرهما . ثم أقاما بعدهما ثالثَهما عثمان بن عفان ، يهتدي بهديهما ،ويسير بسيرتهما، فعبتَه أنت وصاحبُك ، حتى طمع فيه الأقاصي من أهل المعاصي ، وبطنتما وظهرتما[2] ، وكشفتما له عداوتَكما وغِلّكما ،حتى بلغتما منه مناكما ، فخذ حذرَك يابن أبي بكر ، فسترى وبالَ أمرك ، وقِسْ شبرَك بفترك ، تقصُرْ عن أن تساويَ أو توازيَ مَنْ يزنُ الجبال حلمه ، ولا تَلِينُ على قَسْرٍ قناتُه ولا يدرِكُ ذو مَدًى أناتَه ، أبوك مهّد له مِهادَه ، وبنى مُلْكه وشاده ، فإن يكنْ مانحن فيه صوابا فأبوك أوّله ، وإن يكن جوْراً فأبوك أسّه[3] ونحن شركاؤه ، فبهَدْيِه أخذنا ، وبفعله اقتدينا ، رأينا أباك فعل مافعلَ ، فاحتذينا مثاله ، واقتدينا بفعاله ، فعِبْ أباك بما بدا لك ، أو دَعْ . والسلام على من أنابَ ،ورجع من غوايته وتاب .

* * *

قال : وأمر عليٌّ عليه السلام الحارث الأعور أن ينادِيَ في الناس:اخرُجوا إلى معسكركم

---

(١) صفين : « واتسقا » .
(٢) صفين : « أظهرتما » .
(٣) صفين : « أسسه » .

بالنُّخَيلة ، فنادى الحارث فى الناس بذلك ، وبعث إلى مالك بن حبيب اليربوعىّ صاحب شرطته ، يأمره أن يحشُر الناس إلى المعسكر ، ودعا عُقْبة بن عمرو الأنصارىّ ، فاستخلفه على الكوفة ـ وكان أصغر أصحاب العَقَبة السبعين ، ثم خرج عليه السلام ، وخرج الناس معه .

قال نصر : ودعا على عليه السلام زياد بن النَّضْر وشريح بن هانىء ـ وكانا على مَذْحِج والأشعريين ـ فقال : يازياد ، اتّقِ الله فى كل مُمْسَى ومُصْبَح ، وخَفْ على نفسِك الدنيا الغَرور ؛ ولا تأمنها على حال. واعلم أنك إن لم تَزَعْها عن كثير مما تحبّ مخافة مكروهه، سَمَتْ بك الأهواء إلى كثير من الضّرر ، فكن لنفسك مانعاً وازعاً من البغى والظلم والعدوان ؛ فإنى قد وليتك هذا الجُنْد ، فلا تستطيلنّ عليهم ؛ إنّ خيرَكم عند الله أتقاكم ؛ تعلّم مِن عالمهم ؛ وعَلّم جاهلهم ، واحلُم عن سَفيههم ؛ فإنك إنما تدرك الخير بالحِلْم وكَفّ الأذى والجهل [١] .

فقال زياد : أوْصَيْتَ يا أمير المؤمنين حافظا لوصيّتك، مؤديا لأرَبك؛ يَرَى الرُّشْد فى نفاذِ أمرك ، والغَىّ فى تضييع عهدك .

فأمرهما أن يأخذَا فى طريق واحد ولا يختلفا ، وبعثهما فى اثنى عشر ألفا على مقدّمته ، وكلُّ واحد منهما على جماعة من ذلك الجيش ؛ فأخذ شريح يعتزلُ بمن معه من أصحابه على حدَة ، ولا يقرب زيادا ، فكتب زياد إلى على عليه السلام مع مَوْلًى له يقال له شوذب :

لعبد الله علىّ أمير المؤمنين ؛ من زياد بن النَّضْر :

سلام عليك ؛ فإنى أحْمَد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد ؛ فإنك وَلّيْتنى أمرَ

(١) الجهل هنا : السفاهة والغضب .

الناس ؛ وإن شُرَيْحاً لا يرى لى عليه طاعة ولا حقا؛وذلك من فعله بى استخفاف بأمرك، وترك لعهدك ، والسلام .

وكتب شريح بن هانئ إلى علىّ عليه السلام :

لعبد الله على أمير المؤمنين من شَرَيح بن هانئ ، سلام عليك ؛ فإنى أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو ، أما بعدُ؛ فإنّ زياد بن النضر حين أشركتَه فى أمرك،ووليّته جنداً من جنودك،طَغى واستكبر ، ومال به العُجْب والخُيَلاء والزَّهْو إلى مالا يَرْضَى الله تعالى به من القَوْل والفعل ؛ فإن رأى أميرُ المؤمنين عليه السلام أن يعزِلَه عَنّا ويبعث مكانه مَنْ يحبّ فليفعل ؛ فإنا له كارهون ، والسلام .

فكتب علىّ عليه السلام إليهما :

من عبد الله على [١] أمير المؤمنين إلى زياد بن النَّضْر وشُرَيح بن هانئ . سلامٌ عليكما، فإنّى أحمَد إليكما الله الذى لا إله إلا هو . أما بعد ؛ فإنى قد وَلّيتُ مقدّمتى زيادَ ابن النضر،وأمّرتُه عليها،وشُرَيح بن هانئ عَلَى طائفة منها أمير؛فإن انتهى جمعكما إلى بأس، فزياد بن النَّضْر عَلَى الناس كلّهم ؛ وإن افترقتما فكلُّ واحدٍ منكما أميرُ الطائفة التى وليناه أمرَها. واعلما أنّ مقدّمة القوم عُيونُهم، وعيونُ المقدّمة طلائعهم، فإذا أنتما خرَجْتُما من بلادكما فلا تسأما من تَوْجيه الطّلائع ، ومن نَفْضِ الشِّعاب [٢] والشّجر والخَمَر [٣] فى كلّ جانب ، كى لا يغترّكما عدوّ ، أو يكون لهم كمين . ولا تسيّرنّ الكتائبَ والقبائل من لَدُنْ الصّباح إلى المساء إلا على تعبئة،فإنْ دهمَكم عدوّ أو غشيَكم مكروه، كنتم قد تقدمتم فى التعبئة ، فإذا نزلتم بعدوّ أو نزل بكم فليكنْ معسكرُكم فى قُبُل الأشراف أو سِفاح [٤]

---

(١) صفين : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله ... » .

(٢) يقال : نفض المكان ينفضه ؛ إذا نظر جميع ما فيه حتى يعلم منه ؛ ومنه قول زهير :

وتنفض عَنْهَا غيْبَ كلّ خَمِيلَةٍ ... وَتَخْشَى رماةَ الغوث من كلّ مَرْصَدِ

والشعاب : جمع شعبة ؛ وهى ما انشعب وتفرع من الوادى .

(٣) الخمر : ما وارى الإنسان من شجر ونحوه .

(٤) الأشراف : جمع شرف ؛ وهى الأماكن العالية . وسفاح الجبال : أسافلها .

الجبال وأثناء الأنهار ؛ كيما يكون ذلك لكم رِدْءا ، وتكون مقاتلتكم من وَجْهٍ واحد أو اثنين ؛ واجعلوا رقباءكما[1] فى صياصى الجبال ، وبأعالى الأشراف ، ومناكب الأنهار يرون لكم ، كى لا[2] يأتيكم عدوٌّ من مكان مخافةٍ أو أمن . وإيّاكم والتفرّق ؛ فإذا نزلتم فانزلوا جميعا ، وإذا رحلتم فارحلوا جميعا ؛ فإذا غشيَكم الليل فنزلتم فحُفّوا عسكرَكم بالرماح والتِّرَسة[3] ، ولتكنْ رماتكم من وراء تِرَسِكم ورماحكم يَلُونهم . وما أقمتم فكذلك فافعلوا كى لا تصابَ لكم غَفْلة ، ولا تُلْفَى لكم غِرّة ، فما قوم يحفّون عسكرَهم برماحهم وتِرَسَتهم من ليل أو نهار إلا كانوا كأنهم فى حصون . واحرُسا عسكركما بأنفسكما ، وإيّاكما أن تذوقا نَوْماً حتى تُصْبحا إلا غِرَارا أو مَضْمضة[4] . ثم ليكن ذلك شأنكما ودأبكما حتى تنتهيا إلى عدوّكما ؛ وليكن كلَّ يوم عندى خبرُكما ورسولٌ مِنْ قِبَلِكما . فإنى — ولا شىء إلا ماشاء الله — حثيثُ السَّير فى أثرِكما . عليكما فى جَرْيكما[5] بالتُّؤدة ، وإيّاكما والعَجَلة ؛ إلّا أن تمكّنكما فرصة بعد الإعذار والحجّة ، وإيّاكما أن تقاتلا حتى أقدم عليكما ، إلا أن تُبدآ ، أو يأتيكما أمرى ، إن شاء الله[6] .

قال نصر :[7] وكتبَ علىّ عليه السلام إلى أمراء الأجناد — وكان قد قسّم عسكرَه أسباعاً ، فجعل عَلَى كل سُبْعٍ أميرا ، فجعل سعد بن مسعود الثقفىّ على قَيْس وعبد القيس ، ومعقِل بن قيس اليربوعىّ على تميم وضَبّة والرِّباب وقريش

---

(١) صفين : «رقباءكم» .
(٢) كذا فى ا ، وفى ب ، ج بحذف «كى» .
(٣) الترسة : جمع ترس ؛ وهو صفحة من الفولاذ مستديرة ، ويجمع على تراس أيضا .
(٤) الغرار : القليل من النوم . وقوله : «مضمضة» ؛ لما جعل النوم ذوقا ، أمرهم ألا ينالوا منه إلا بألسنتهم ولا يسيغوه ؛ فشبهه بالمضمضة بالماء وإلقائه من الفم من غير ابتلاع ؛ كذا فسره صاحب اللسان (٩ : ١٠) ؛ وأورد كلام الإمام .
(٥) صفين : «حربكما» .
(٦) صفين ١٣٨ — ١٤٠
(٧) صفين ١٣٢ ، ١٤٠ — ١٤١ .

وكنانة وأسد ، ومِخنف بن سُلَيم عَلَى الأزد وبَجيلة وخَثْعم والأنصار وخُزاعة ، وحُجْر ابن عدىّ الكندىّ على كِندة وحَضرموت وقُضاعة ، وزياد بن النَّضر على مَذْحِج والأشعريين ، وسعيدَ بن مُرّة الهَمْدانىّ على هَمْدان ومَنْ معهم من حِمْير ، وعدىّ بن حاتم الطائىّ على طَيّىء ؛ تجمعهم الدعوة مع مَذْحِج ، وتختلف الرايتان : راية مذحج مع زياد بن النضر ، وراية طَيّئ مع عدىّ بن حاتم ؛ هذه عساكر الكوفة . وأما عساكر البَصْرة فخالد بن معمر السّدوسىّ على بكر بن وائل ، وعمرو بن مرجوم العبدىّ على عبْد القيس ، وابن شَيْمان الأزدىّ[1] على الأزد ، والأحنف على تَميم وضبّة والرِّباب ، وشريك ابن الأعور الحارثىّ على أهل العالية :

أما بعد ، فإنى أبرأ إليكم من مَعَرّة الجنود[2] [إلّا من جوعة إلى شبعة ، ومن فقر إلى غِنًى ، أو عَمًى إلى هدًى ؛ فإن ذلك عليهم] [3] . فأَغْرِبوا[4] الناس عن الظلم والعُدْوان، وخذوا على أيدى سفهائكم، واحترسوا أن تعملوا أعمالًا لا يرضى الله بها عنّا فيردّبها علينا وعليكم دعاءنا ؛ فإنه تعالى يقول : ﴿مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾[5].

وإن الله إذا مَقَت قوما من السماء هلكوا فى الأرض، فلا تألوا أنفسكم خيرا ،ولا الجند حسن سيرة ، ولا الرعية معونةً ولا دين الله قوة ؛ وأبلُوا فى سبيله ما استوجب عليكم ؛ فإنّ الله قد اصطَنَع عندنا وعندكم ما يجب علينا أن نشكره بجهدنا ، وأن ننصُرَه ما بلغت قوتنا ولا قوة إلا بالله .

---

(١) فى صفين : «صبرة بن شيمان» .

(٢) قوله : « أبرأ إليكم من معرة الجيش » ، نسبه صاحب اللسان هذا القول إلى عمر بن الخطاب ، وقال : « وأما معرة الجيش التى تبرأ منها عمر رضى الله عنه ؛ فهى وطأتهم من مروا به من مسلم أو معاهد ، وإصابتهم إياهم فى حريمهم وأموالهم وزروعهم بما لم يؤذن لهم فيه » ؛ وفى صفين : « معرة الجيش » .

(٣) تكملة من كتاب صفين .

(٤) أغربوا الناس ، أى نحوهم ، وفى صفين « فاعزلوا الناس » .

(٥) سورة الفرقان ٧٧

قال : وكتب عليه السلام إلى جنوده يخبرهم بالذى لهم وعليهم :

أما بعد ؛ فإنّ الله جعلكم فى الحقّ جميعاً سواء ؛ أسودكم وأحمركم ، وجعلكم من الوالى وجعل الوالى منكم بمنزلة الوالد من الولد ، و [بمنزلة][1] الولد من الوالد ، [الذى لا يكفيه منعه إياهم طلب عدوّه والتهمة به ، ما سمعتم وأطعتم وقضيتم الذى عليكم][1]. فحقكم عليه إنصافكم والتعديل بينكم ، والكفّ عن فيئكم ؛ فإذا فعل معكم ذلك ، وجبَتْ عليكم طاعته فيما وافق الحقّ ، ونصرتُه والدفع عن سلطان الله ، فإنّكم وَزَعة الله فى الأرض ، فكونوا له أعوانا ، ولدينه أنصارا ، ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ، إن الله لا يحب المفسدين[2] .

* * *

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد ، قال : حدّثنا سعد بن طريف ، عن الأصبغ ابن نُباتة ، قال : قال علىّ عليه السلام : ما يقول الناس فى هذا القبر ؟ ــ وفى النُّخَيلة ، وبالنُّخَيلة قبر عظيم يدفن اليهود موتاهم حوله ــ فقال الحسن بن علىّ عليهما السلام : يقولون هذا قبر هود لما عصاه قومه ، جاء فمات هاهنا ، فقال : كذبوا ؛ لأنا أعلم به منهم ؛ هذا قبر يهودا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، بِكْر يعقوب ؛ ثم قال : أهاهنا أحد من مَهَرة[3] ؟ فأُتِىَ بشيخ [كبير][1] ، فقال : أين منزلُك ؟ قال : على شاطئ البحر ، قال : أين أنت من الجبل[4] ؟ قال : أنا قريب منه ، قال : فما يقول قومك فيه ؟ قال : يقولون : إن فيه قبرَ ساحر ، قال : كذبوا ، ذاك قبر هود النبىّ عليه السلام ، وهذا قبر يهودا بن يعقوب . ثم قال

---

(١) تكملة من كتاب صفين .

(٢) صفين ١٤١ ، ١٤٢ .

(٣) مهرة : حى من اليمن

(٤) صفين : « أين من الجبل الأحمر » .

عليه السلام : يُحشَر من ظهر الكوفة سبعون ألفا على غُرّة[1] الشمس ، يدخلون الجنة بغير حساب .

قال نصر : فلما نزَل علىّ عليه السلام النُّخَيلةَ متوجّها إلى الشام ، وبلغ معاويةَ خبرُه ، وهو يومئذ بدمشق ، قد ألبَس منبر دمشق قميصَ عثمان مختضباً بالدم ، وحول المِنبر سبعون ألف[2] شيخ يبكون حوله، لا تجفّ دموعهم على عثمان ، خطبهم ، وقال :

ياأهل الشام ، قد كنتم تكذّبوننى فى علىّ ، وقد استبان لكم أمرُه ؛ والله ما قتَل خليفتَكم غيرُه . وهوأمرَ بقتله ، وألّب الناس عليه، وآوى قَتَلَتَهُ ، وهم جنده وأنصاره وأعوانه ، وقد خرج بهم قاصداً بلادكم وديارَكم لإبادتكم . يا أهل الشام ، اللهَ اللهَ فى دم عثمان ! فأنا وليُّه وأحقّ مَنْ طلب بدمه ؛ وقد جعل الله لولىّ المقتول ظلما سلطانا، فانصروا خليفتَكم المظلوم ، فقد صنع القوم به ما تعلمون ، قتلوه ظُلماً وبغيا ؛ وقد أمر الله تعالى بقتال الفئة الباغية حتى تفىءَ إلى أمر الله .

ثم نزل .

قال نصر : فأعطوه الطاعة وانقادوا له ، وجمع إليه أطرافه ، واستعد للقاء علىّ عليه السلام[3] .

---

(١) غرة الشمس : مطلعها .

(٢) كذا فى الأصول وفى كتاب صفين .

(٣) كتاب صفين ١٤٢ ، ١٤٣

(٤٧)

ومن كلام له عليه السلام فى ذكر الكوفة :

الأصلُ

كَأَنِّى بِكِ يَا كُوفَةُ تُمَدِّينَ مَدَّ الْأَدِيمِ الْعُكَاظِىِّ ؛ تُعْرَكِينَ بِالنَّوَازِلِ ، وَتُرْكَبِينَ بِالزَّلَازِلِ ، وَإِنِّى لَأَعْلَمُ أَنَّهُ مَا أَرَادَ بِكِ جَبَّارٌ سُوءاً إِلَّا ابْتَلَاهُ اللهُ بِشَاغِلٍ أَوْرَمَاهُ[1] بِقَاتِلٍ .

* * *

الشرح :

عُكاظ : اسم سُوق للعرب بناحية مكة ، كانوا يجتمعون بها فى كلّ سنة ، يقيمون شهرا ويتبايعون ويتناشدون شعرا ويتفاخرون ، قال أبو ذُؤَيب :

إذا بُنِيَ القِبابُ عَلَى عُكاظٍ وَقَامَ الْبَيْعُ وَاجْتَمَعَ الْأُلُوفُ[2]

فلما جاء الإسلام هدم ذلك ؛ وأكثر ما كان يُباع الأديم بها ، فنسب إليها .

والأديم واحد والجمع أُدُم ، كما قالوا : أفيق للجلد الذى لم تتم دباغته ، وجمعه أُفُق . وقد يجمع أديم على آدِمة ، كما قالوا : رغيف وأرغفة .

والزلازل هاهنا : الأمور المزعجة ، والخطوب المحرّكة .

---

(١) مخطوطة النهج : « ورماه » .

(٢) ديوان الهذليين ١ : ٩٨ ؛ وفى شرحه « على عكاظ ، يريد بعكاظ ، ويقال : فلان نازل على فلان ، وعلى ضريبة ، أى بها . قام البيع ، يريد : قامت السوق » .

وقوله عليه السلام : « تُمَدِّين مَدَّ الأديم » ، استعارة لما ينالها من العَسْف والخبط .
وقوله : « تُعْرَكِين » ؛ من عَرَكَتِ القومَ الحرب إذا مارستهم حتى أتعبتهم .

***

[فصل فى ذكر فضل الكوفة]

وقد جاء فى فضل الكوفة عن أهل البيت عليهم السلام شىء كثير ، نحو قول أمير المؤمنين عليه السلام : نعمت المَدَرة .

وقوله عليه السلام : إنه يُحشر من ظهرها يوم القيامة سبعون ألفا ، وجوهُهم عَلَى صُورة القمر .

وقوله عليه السلام : هذه مدينَتُنا ومَحَلّتنا ، ومقرّ شيعتنا

وقول جعفر بن محمد عليه السلام : اللهم ارْمِ مَنْ رَماها ، وعادِ مَنْ عاداها .

وقوله عليه السلام : تُرْبَةٌ تُحِبُّنا ونُحِبُّها .

فأمّا ماهمّ به الملوك وأرباب السلطان فيها من السوء ، ودفاع الله تعالى عنها ؛ فكثير .

قال المنصور لجعفر بن محمد عليهما السلام : إنى قد هممتُ أن أبعثَ إلى الكوفة مَنْ ينقضُ منازِلَها ، ويُجَمِّرُ [١] نخلَها ، ويستصفى أموالها ، ويقتل أهل الرِّيبة منها ؛ فأشِرْ علىّ . فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إن المرء ليقتدى بسلفه ، ولك أسلاف ثلاثة : سليمان أُعطِىَ فشكر ، وأيوب ابتُلِىَ فصبر ، ويوسف قَدَرَ فغفر ؛ فاقتد بأيّهم شئت . فصمَت قليلا ، ثم قال : قد غفرت .

---

(١) جمر النخلة ؛ أى قطع جمارها .

وروى أبو الفرج عبد الرحمن بن علىّ بن الجوزىّ فى كتاب " المنتظم " أن زياداً لما حَصَبَهُ أهلُ الكوفة ، وهو يخطب على المِنبَر ، قطع أيدى ثمانين منهم ، وهمّ أن يخرّب دورَهم ، ويُجَمِّرَ نخلَهم ، فجمعهم حتى ملأ بهم المسجد والرَّحَبة ، يعرضهم على البراءة من علىّ عليه السلام ؛ وعلم أنّهم سيمتنعون ، فيحتجّ بذلك على استئصالهم ، وإخراب بلدهم .

قال عبد الرحمن بن السائب الأنصارىّ : فإني لَمَعَ نفرٍ من قومى ، والناس يومئذ فى أمرٍ عظيم ؛ إذ هَوّمت تهويمةً[1] ، فرأيت شيئاً أقبل ، طويل العنق ، مثل عُنُق البعير أهدر أهدل[2] ، فقلت : ما أنت ؟ فقال : أنا النَّقّاد ذو الرقبة ، بُعِثت إلى صاحب هذا القصر ، فاستيقظت فزعا ، فقلت لأصحابى : هل رأيتم ما رأيت ؟ قالوا : لا ؛ فأخبرتُهم ، وخرج علينا خارج من القصر ، فقال: انصرفوا ، فإن الأمير يقول لكم : إنى عنكم اليوم مشغول ؛ وإذا بالطاعون قد ضربه ، فكان يقول : إنّى لأجِد فى النِّصف من جسدى حرّ النار حتى مات ، فقال عبد الرحمن بن السائب :

مَا كَانَ مُنْتَهِياً عَمّا أرادَ بِنَا ... حَتّى تَنَاوَلَهُ النَّقّادُ ذُو الرَّقَبَهْ
فأثبتَ الشِّقّ منهُ ضربةٌ عَظُمَتْ ... كما تناول ظُلْماً صاحب الرَّحَبَهْ[3]

قلت : قد يظن ظان أن قوله : « صاحب الرّحبة » يمكن أن يحتجّ به من قال : إنّ قبر أمير المؤمنين عليه السلام فى رَحَبة المسجد بالكوفة ؛ ولا حجة فى ذلك ، لأنّ أمير المؤمنين كان يجلس معظم زمانه فى رَحَبة المسجد ، يحكم بين الناس ، فجاز أن ينسب إليه بهذا الاعتبار .

---

(١) التهويم : هز الرأس من النعاس .
(٢) يقال :هدر البعير ؛ صوت فى غير شقشقة ، والجمل الأهدل: المسترخى المشفر .

(٤٨)

ومن خطبة له عليه السلام عند المسير إلى الشام :

الأصل :

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ كُلَّمَا وَقَبَ لَيْلٌ وَغَسَقَ، وَالْحَمْدُ لِلّٰهِ كُلَّمَا لَاحَ نَجْمٌ وَخَفَقَ، وَالْحَمْدُ لِلّٰهِ غَيْرَ مَفْقُودِ الْإِنْعَامِ، وَلَا مُكَافَإِ الْإِفْضَالِ. أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَعَثْتُ مُقَدِّمَتِي، وَأَمَرْتُهُمْ بِلُزُومِ هٰذَا الْمِلْطَاطِ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرِي، وَقَدْ رَأَيْتُ أَنْ أَقْطَعَ هٰذِهِ النُّطْفَةَ إِلَى شِرْذِمَةٍ مِنْكُمْ، مُوطِنِينَ أَكْنَافَ دِجْلَةَ، فَأُنْهِضَهُمْ مَعَكُمْ إِلَى عَدُوِّكُمْ، وَأَجْعَلَهُمْ مِنْ أَمْدَادِ الْقُوَّةِ لَكُمْ.

* * *

قال الرضيّ رحمه الله :

يعني عليه السلام بالمِلْطاط هاهنا السَّمْتَ الذي أمَرَهم بلزومه ؛ وهو شاطئ الفُرات، ويقال ذلكَ أيضاً لِشاطِئ البحر، وأصْله ما استوَى مِنَ الأرْض ؛ ويعني بالنُّطفَة ماء الفُرات، وهو من غريب العِبارات وعجيبها.

* * *

الشّرح :

وقب الليل ؛ أي دخل، قال الله تعالى : ﴿ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾[1].

وغسق، أي أظلم. وخفق النجم، أي غاب.

---

(١) سورة الفلق ٣

ومقدِّمة الجيش ، بكسر الدال : أوله ؛ ومايتقدّم منه على جمهور العسكر ؛ ومقدَّمة الإنسان ، بفتح الدال : صدره .

والمِلْطاط : حافّة الوادي وشَفِيرُه ، وساحل البحر ، قال رؤبة :

* نَحْنُ جَمَعْنَا النَّاسَ بِالمِلْطَاطِ *

قال الأصمعيّ : يعني به ساحلَ البحر ، وقول ابن مسعود : هـذا المِلطاط طريق بقيّة المؤمنين ، هُرّابا من الدّجّال ــ يعني به شاطىء الفرات .

فأما قول الرضيّ رحمه الله تعالى : « الملطاط : السّمْت الذي أمرهم بلزومه وهو شاطئ الفرات ، ويقال ذلك لشاطئ البحر » ، فلا معنى له ؛ لأنه لافرق بين شاطئ الفرات وشاطىء البحر ، وكلاهما أمر واحـد ، وكان الواجب أن يقول : المِلْطاط : السمت في الأرض ، ويقال أيضاً لشاطئ البحر .

والشِّرْذمة : نفر قليلون .

وموطنين أكناف دجلة ، أي قد جعلوا أكنافها وَطَناً ، أوطنت البُقعة .

والأكناف : الجوانب ، واحدهـا كَنَف . والأمداد : جمع مَدَد ، وهو مايُمَدُّ به الجيش تقوية له .

وهذه الخطبة خطب بها أميرُ المؤمنين عليه السلام وهو بالنُّخَيلة خارجا من الكوفة ومتوجّها إلى صِفّين لخمس بقين من شوال سنة سبع وثلاثين ؛ ذكرها جماعة من أصحاب السير ، وزادوا فيها : « وقد أمّرْت على المِصر عُقْبة بن عمرو الأنصاريّ ، ولم آلكم ولانفسي[1] ؛ فإيّاكم والتخلّف والتربّص ؛ فإني قد خلّفت مالك بن حبيب اليَرْبوعيّ ، وأمرته ألّا يترك متخلّفا إلا ألحقه بكم عاجلا ، إن شاء الله »[2] .

---

(١) يقال : مايألو الشيء ، أي مايتركه .　　(٢) صفين ١٤٨

وروى نصر بن مزاحم عوض قوله : « فأنهضهم معكم إلى عدوّكم » «فأنهضهم معكم إلى عدو الله »[1].

قال نصر : فقام إليه مَعْقل بن قيس الرّياحيّ ، فقال : ياأمير المؤمنين ؛ والله مايتخلّف عنك إلّا ظَنين ، ولا يتربّصُ بك إلا منافق ، فمُرْ مالكَ بن حبيب فليضربْ أعناقَ المتخلّفين . فقال : قد أمَرْتُه بأمري ، وليس بمقصّر إن شاء الله[2].

***

[أخبار عليّ فى جيشه وهو فى طريقه إلى صفين]

قال نصر بن مزاحم : ثم سار عليه السلام حتى انتهى إلى مدينة بَهُرَسِير[3]؛ وإذا رجل من أصحابه يقال له حُرّ بن سهم بن طَريف ، من بنى رَبيعة بن مالك ، ينظر إلى آثار كسرى ؛ ويتمثل بقول الأسود بن يَعفُر :

جَرَتِ الرِّياحُ على محلّ ديارهم ... فكأنما كانوا على ميعادِ[4]

فقال له عليه السلام : ألا قلت : ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴾[5]؛ إنّ هؤلاء كانوا وارثين فأصبحوا مورَّثين ، ولم يشكروا النعمة ، فسلبوا دنياهم بالمعصية . إياكُم وكُفرَ النِّعم ، لاتحلّ بكم النِّقَم ، انزلوا بهذه الفَجْوة[6].

---

(١) صفين : « إلى أعداء الله » .

(٢) صفين ١٤٨

(٣) بهرسير : بلد قرب المدائن .

(٤) من قصيدة له فى المفضليات ٢١٦ ــ ٢٢٠

(٥) سورة الدخان ٢٥ ــ ٢٩

(٦) الفجوة : المكان المتسع فى الأرض ؛ وفى صفين ١٥٩ « النجوة » ؛ وهو المكان المرتفع .

قال نصر : وحدّثنا[1] عمر بن سعد ، عن مسلم الأعور عن حَبّة العُرنيّ ، قال : أمر عليّ عليه السلام الحارث الأعور ؛ فصاح فى أهل المدائن : مَنْ كان من المقاتلة فليوافِ أميرَ المؤمنين عليه السلام صلاةَ العصر. فوافوْه فى تلك الساعة ، فحمِد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعدُ ؛ فإنى قد تعجّبت مِنْ تخلّفكم عن دَعْوتكم ، وانقطاعكم عن أهل مِصْرِكم فى هذه المساكن الظالم أهلها ، الهالك أكثر ساكنيها ، لامعروف يأمرون به ، ولا منكر ينهوْن عنه .

قالوا : يا أميرَ المؤمنين ؛ إنّا ننتظِر أمرَك ، مُرْنا بما أحببت . فسارَ وخلّف عليهم عديّ بن حاتم ، فأقام عليهم ثلاثا ثمّ خرج فى ثمانمائة رجل منهم ، وخلّف ابنه زيدا بعده ، فلَحِقه فى أربعمائة رجل منهم .

وجاء عليّ عليه السلام حتى مَرّ بالأنبار ، فاستقبله بنو خُشْنُوشَكْ[2] ؛ دهاقينها . ـ قال نصر : الكلمة فارسية ، أصلها « خُشْ » أى الطيب[3] ـ

قال : فلما استقبلوه ، نزلوا عن خيولهم ، ثم جاءوا يشتدّون معه ، وبين يديه ومعهم براذين قد أوقفوها فى طريقه ، فقال : ماهذه الدّوابّ التى معكم ؟ وماأردتم بهذا الذى صنعتم ؟ قالوا : أمّا هذا الذى صنعنا فهو خُلُق مِنّا نعظّم به الأمراء ؛ وأمّا هذه البراذين فهديّة لك ، وقد صنعنا للمسلمين طعاما ، وهيّأنا لدوابّكم علفا كثيراً .

فقال عليه السلام : أما هذا الذى زعمتم أنّه فيكم خُلُق تعظّمون به الأمراء فوالله ما ينفع ذلك الأمراء ؛ وإنّكم لتشقّون به على أنفسكم وأبدانكم ، فلا تعودوا

---

(١) صفين ١٦٠ ، ١٦١ .
(٢) فى الأصول « خشوش » ، وماأثبته من كتاب صفين .
(٣) العبارة كما فى كتاب صفين : « قال سليمان : خش : طيب . نوشك : راض ، يعنى بنى الطيب الراضى ، بالفارسية » .

له . وأما دوابّكم هذه ؛ فإنْ أحببتم أن آخذَها منكم ، وأحسبها لكم من خَراجِكم أخذناها منكم . وأما طعامكم الذى صنعتم لنا ؛ فإنا نكرهُ أن نأكلَ من أموالكم إلا بثمن . قالوا : ياأمير المؤمنين ، نحن نقوّمه ثم نقبل ثمنه ، قال : إذاً لا تقوّمونه قيمته ، نحن نكتفى بما هو دونه . قالوا : يا أمير المؤمنين ؛ فإنّ لنا من العرب مواليَ ومعارف ؛ أتمنعنا أن نُهْدِيَ لهم أو تمنعهم أن يقبلوا منا ؟ فقال : كلُّ العرب لكمْ موالٍ ، وليس ينبغى لأحد من المسلمين أن يقبل هديتكم ، وإن غَصَبكم أحد فأعلمونا . قالوا : ياأمير المؤمنين ؛ إنّا نحب أن تُقْبَلَ هديتُنا وكرامتنا . قال : وَيْحَكم ! فنحن أغنى منكم . وتركهم وسار .

قال نصر : وحدثنا[1] عبد العزيز بن سياه ، قال : حدّثنا حبيب بن أبى ثابت ، قال : حدثنا [أبو][2] سعيد التيمىّ المعروف بعَقِيصَى ، قال : كُنّا مع علىّ عليه السلام فى مسيره إلى الشام ؛ حتى إذا كُنّا بظهر الكوفة من جانب هذا السّواد ، عطش الناس واحتاجوا إلى الماء ، فانطلق بنا علىّ عليه السلام حتى أتى [بنا][2] إلى صخرة ضِرْس[3] فى الأرض؛ كأنّها رُبْضَةُ عنز[4]؛ فأمرنا فاقتلعناها، فخرج لنا من تحتها ماء، فشرب الناس منه ،وارتووْا. ثم أمرنا فأكفأناها عليه . وسار الناس حتى إذا مضى قليلا ، قال عليه السلام : أمِنكم أحدٌ يعلم مكان هذا الماء الذى شربتم منه ؟ قالوا : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : فانطلقوا إليه ، فانطلق مِنّا رجالٌ ركبانا ومشاة ، فاقتصصنا الطريق إليه ؛ حتى انتهينا إلى المكان الذى نرى أنه فيه ، فطلبناه ، فلم نقدر على شىء ، حتى إذا عِيلَ علينا انطلقنا إلى ديرٍ قريب

(١) صفين ١٦١ ، ١٦٢.

(٢) من صفين والقاموس .

(٣) الضرس : الأكمة الخشنة .

(٤) الربضة ، بضم الراء ويقال بكسرها ؛ مقدار جثة العنز إذا ربضت ؛ وفى الأثر : « جاء بثريد كأنه ربضة أرنب » أى جثتها . راجع اللسان .

منّا ، فسألناهم : أين هذا الماء الذى عندكم ؟ قالوا : ليس قُرْبَنا ماء ، فقلنا : بلى إنّا شربنا منه ، قالوا : أنتم شَرِبتم منه ! قلنا : نعم ، فقال صاحب الدَّيْر : والله ما بُنِي هذا الدير إلا بذلك الماء ، وما استخرجه إلّا نبىّ أو وصىّ نبىّ .

قال نصر : ثم مضى عليه السلام ؛ حتى نزل بأرضِ الجزيرة ، فاستقبله بنو تَغْلِب والنَّمِر بن قاسط بجَزُور [١] ، فقال عليه السلام ليزيد بن قيس الأرحبىّ : يا يزيد ، قال : لَبيك يا أمير المؤمنين ! قال : هؤلاء قومُك ؛ من طعامهم فاطْعَمْ ، ومن شرابهم فاشرب .

قال : ثم سار حتى أتى الرَّقَّة ـ وجلّ أهلها عثمانية ، فرّوا من الكوفة إلى معاوية ـ فأغلقوا أبوابَها دونه ، وتحصّنوا ، وكان أميرهم سماك بن مخرقة الأسدىّ فى طاعة معاوية ، وقد كان فارق عليا عليه السلام فى نحو من مائة رجل من بنى أسد ، ثم كاتب معاوية ، وأقام بالرَّقَّة حتى لِحَق به سبعمائة رجل .

قال نصر : فروى حَبّة أن علياً عليه السلام لما نزل على الرَّقة ، نزل بموضع يقال له البَلِيخ على جانب الفرات ، فنزل راهب هناك من صَوْمعته ، فقال لعلىّ عليه السلام : إنّ عندنا كِتابا توارثناه عن آبائنا ، كتبه أصحابُ عيسى بن مريم ، أعرِضه عليك ؟ قال : نعم ، فقرأ الراهب الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم . الذى قضى فيما قضى ، وسَطّر فيما كتب [٢] : أنه باعثٌ فى الأمّيين رسولا منهم ؛ يعلّمهم الكتابَ والحكمة ، ويدلّهم على سبيل الله ، لا فظٌّ ولا غليظ ؛ ولا صَخّابٌ فى الأسواق ، ولا يجزى بالسيئة السيئة ، بل يعفُو ويصفح ، أمّته الحمّادون الذين يحمَدون الله على كل نَشَز [٣] ، وفى كل صَعود وهَبوط ، تذِلّ ألسنتهم

(١) الجزور : الناقة التى تنحر ؛ وفى صفين : « بالجزيرة » .
(٢) صفين : « فيما سطر » .
(٣) النشز : المكان المرتفع ، كالنشاز .

بالتكبير والتهليل ، والتسبيح ؛ وينصرُه الله على من ناوأه ؛ فإذا توفاه الله ، اختلفت أمتهُ من بعده ؛ ثم اجتمعت ، فلبثت ما شاء الله ، ثم اختلفت ، فيمرّ رجل من أمة بشاطىء هذا الفرات ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويقضِي بالحق ولا يركس[1] الحكم ، الدنيا أهون عليه من الرّماد فى يوم عصفت به الريح ، والموت أهون عليه من شُرب الماء على الظمآن[2] . يخاف الله فى السرّ ، وينصح له فى العلانية ، لا يخاف فى الله لومةَ لائم ؛ فمن أدرك ذلك النبيّ مِنْ أهل هذه البلاد فآمن به كان ثوابه رضوانى والجنة ، ومَنْ أدرك ذلك العبد الصالح فلينصرْه ؛ فإنّ القتل معه شهادة .

ثم قال له : أنا مصاحبُك ، فلا أفارقُك حتى يصيبَنى ما أصابك . فبكى عليه السلام ، ثم قال : الحمد لله الذى لم أكنْ عنده منسيًّا ، الحمد لله الذى ذكرنى عنده فى كُتُب الأبرار .

فمضى الراهب معه ، فكان فيما ذكروا يتغدّى مع أمير المؤمنين ويتعشّى ، حتى أصيب يوم صفين ؛ فلما خرج الناس يدفنون قتلاهم قال عليه السلام : اطلبوه ، فلما وجدوه صلّى عليه ودفنه . وقال : هذا مِنّا أهلَ البيت ، واستغفر له مرارا[3] .

روى هذا الخبر نصر بن مزاحم فى كتاب " صفين " عن عمر بن سعد ، عن مسلم الأعور ، عن حبّة العُرَنىّ . ورواه أيضا إبراهيم بن ديزيل الهمدانىّ ، بهذا الإسناد عن حبّة أيضا فى كتاب صفين .

***

وروى ابن ديزيل فى هذا الكتاب ، قال : حدثنى يحيى بن سليمان ، قال : حدثنى يحيى بن عبد الملك بن حُميد بن عتيبة ، عن أبيه ، عن إسماعيل بن رَجاء ، عن أبيه وعمد

(١) الركس : رد الشىء مقلوبا ، وفى صفين : « ولا يرتشى فى الحكم » .
(٢) صفين : « الظماء » .
(٣) كتاب صفين لنصر ١٦٤ ، ١٦٥ .

ابن فُضَيل ، عن الأعمش ، عن إسماعيل بن رَجاء ، عن أبي سَعِيد الخُدْرِيّ ، رحمه الله قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله ، فانقطع شِسْعُ [١] نعلِهِ ، فألقاها إلى عليّ عليه السلام يُصلحها، ثم قال : « إنّ منكم مَنْ يقاتل على تأويل القرآن ، كما قاتلتُ على تنزيله »، فقال أبو بكر الصديق: أنا هو يارسول الله ؟ فقال: لا ، فقال عمر بن الخطاب: أنا هو يارسول الله ؟ قال : « لا ، ولكنه ذَاكُم خَاصِفُ النعل » ـ ويَدُ عليّ عليه السلام على نَعْلِ النبيّ صلى الله عليه وآله يصلحها .

قال أبو سعيد: فأتيتُ عليًّا عليه السلام فبشّرته بذلك فلم يحفِل به ، كأنه شيء قد كان علمه من قبل .

***

وروى ابن ديزيل فى هذا الكتاب أيضاً ، عن يحيى بن سليمان ، عن ابن فُضَيل ، عن إبراهيم الهَجَرِيّ ، عن أبي صادق ، قال : قَدِم علينا أبو أيوب الأنصاريّ العِراق ، فأهْدَت له الأزد جُزرا [٢] ، فبعثوها معي ، فدخلت إليه فسلّمت عليه ، وقلت له : ياأبا أيوب ، قد كرّمك الله عزّ وجلّ بصحبة نبيه صلّى الله عليه وسلّم ، ونزوله عليك ، فمالِي أراك تستقبل الناس بسيفك ، تقاتلهم هؤلاء مرة وهؤلاء مرة ! قال : إن رسول الله صلى الله عليه وآله عَهِد إلينا أن نقاتل مع عليّ الناكثين، فقد قاتلناهم، وعهد إلينا أن نقاتلَ معه القاسطين ؛ فهذا وَجْهُنا إليهم ـ يعنى معاوية وأصحابه ـ وعهد إلينا أن نقاتل معه المارقين، ولم أرهم بعد .

وروى ابن ديزيل أيضا فى هذا الكتاب ، عن يحيى، عن يَعْلى بن عُبيد الحنفيّ ، عن إسمعيل السّدىّ ، عن زيد بن أرقم ، قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وهو

---

(١) الشسع : قبال النعل ؛ وهو زمام بين الإصبع الوسطى والتى تليها .
(٢) الجزر : جمع الجزور ؛ وهو مايذبح من الإبل .

فى الحجرة يُوحَى إليه ونحن ننتظره حتى اشتدّ الحرّ ، فجاء على بن أبى طالب ومعه فاطمة وحسن وحسين عليهما السلام ؛ فقعدوا فى ظل حائط ينتظرونه ، فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وآله ، رآهم فأتاهم وَوَقَفْنا نحن مكاننا ، ثم جاء إلينا وهو يظلهم بثوبه ، ممسكا بطرَف الثوب ، وعلىّ ممسِكٌ بطرَفِه الآخر ؛ وهو يقول : « اللهم إنى أحبهم ، فأحبهم ؛ اللهم إنى سِلْم لمن سالمهم ، وحرب لمن حاربهم » قال : فقال ذلك ثلاث مرات .

قال إبراهيم فى الكتاب المذكور : وحدثنا يحيى بن سليمان ، قال : حدثنا ابن فُضَيل ، قال : حدثنا الحسن بن الحكَم النَّخَعىّ ، عن رباح بن الحارث النخعىّ ، قال : كنت جالسا عند على عليه السلام ، إذ قَدِم عليه قوم متلثِّمُون ، فقالوا : السلام عليكَ يامولانا ، فقال لهم : أوَ لَسْتُم قوماً عرَبا ! قالوا : بلى ، ولكنا سمعنا رسول الله صلى الله عليه وآله يقول يوم غَدِير خُمّ : « مَنْ كنت مولاه فعلىّ مولاه ، اللهم والِ مَنْ والاه ، وعادِ مَنْ عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله » ، قال : فلقد رأيتُ عليًا عليه السلام ضحك حتى بدت نواجذُه ، ثم قال : اشهدوا .

ثم إنّ القومَ مضوْا إلى رحالهم فتبعتُهم ، فقلت لرجل منهم : مَنِ القوم ؟ قالوا : نحنُ رَهْطٌ من الأنصار ، وذاك — يعنون رجلا منهم — أبو أيوب ، صاحب منزل رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : فأتيته فصافحته .

* * *

قال نصر : وحدثنى عمر بن سعد ، عن نمير بن وعلة ، عن أبى الودّاك ، أنّ[1] عليًا عليه السلام بعث مِنَ المدائن مَعْقل بن قيس الرياحى ، فى ثلاث آلاف ، وقال له : خُذْ عَلَى

---

(١) كتاب صفين ١٦٥ — ١٦٦

الموصل ، ثم نَصِيبين ، ثم القَنى بالرَّقة ، فإنى موافيها . وسكِّن الناس وأمِّنْهم ، ولا تقاتل إلا مَنْ قاتلك ، وسِر البَرْدَيْن[1] ، وغَوِّرْ بالناس[2] . أقم الليل ، ورفِّهْ فى السير ، ولا تَسِرْ أوّلَ الليل ؛ فإن الله جعله سكنا ، أرِحْ فيه بدنك وجندك وظهرك ، فإذا كان السَّحَر ، أو حين يتبلج[3] الفجر ، فسر .

فسار حتى أتى الحديثة ـ وهى إذ ذاك منزل الناس ، وإنما بَنَى مدينة الموصل بعد ذلك محمد بن مروان ـ فإذا بكبشين ينتطحان ، ومع معقل بن قيس رجل من خَثْعم يقال له شداد بن أبى ربيعة[4] ـ قتِل بعد ذلك مع الحَرُورِيَّة ـ فأخذ يقول : إيه ، إيهٍ ! فقال معقِل : ما تقول ؟ فجاء رجلان نحو الكبشين ، فأخذ كلٌّ واحد منهما كبشا وانصرفا ، فقال الخثعمىّ لمعقِل : لا تَغْلِبون ولا تُغْلَبون ؛ فقال معقِل : من أين علمتَ ؟ قال : أما أبصرت الكبشين ، أحدهما مشرق والآخر مغرّب ، التقيا فاقتتلا وانتطحا ، فلم يزل كلّ واحد من صاحبه منتصفا ، حتى أتى كلّ واحد منهما صاحبُه فانطلق به ! فقال معقل : أو يكون خيرا مما تقول يا أخا خثعم ! ثم مضى حتى وافى عليًّا عليه السلام بالرّقة .

قال نصر : وقالت طائفة من أصحاب علىّ عليه السلام له : يا أمير المؤمنين ، اكتب إلى معاوية ومَنْ قِبَله من قومك ، فإن الحجة لا تزداد عليهم بذلك إلا عِظَما . فكتب إليهم عليه السلام : [بسم الله الرحمن الرحيم][5] ، من عبد الله علىّ أمير المؤمنين إلى معاوية ومن قِبَله من قريش :

---

(١) البردان : الغداة والعشى .
(٢) غور بالناس ، أى انزل بهم فى الظائرة ؛ وهى القائلة ؛ أو نصف النهار .
(٣) صفين : « ينبطح » ، وفى ب : « ينبلج » .
(٤) كذا فى صفين ، ا ، ج ، وفى ب : « شرار بن أبى ربيعة » .
(٥) من صفين .

سلام عليكم، فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد : فإنّ لله عباداً آمنوا بالتنزيل ، وعرّفوا التأويل ، وفقُهوا فى الدين ، وبيّن الله فضلَهم فى القرآن الحكيم ، وأنتم فى ذلك الزمان أعداء للرسول، تكذّبون[1] بالكتاب، مجمعون على حرب المسلمين ، من ثقِفتُم منهم حبستموه أو عذبتموه أو قتلتموه؛ حتى أراد الله تعالى إعزازَ دينه ، وإظهارَ أمره ، فدخلت العرب فى الدِّين أفواجا ، وأسلمت له هذه الأمة طوعا وكرها ، فكنتم فيمن دخل فى هذا الدين ؛ إمّا رغبة وإما رهبة ؛ على حين فاز أهل السَّبْق بسبقهم ، وفاز المهاجرون الأولون بفضلِهم . ولا ينبغى لمن ليست له مثل سوابقهم فى الدين ، ولا فضائلهم فى الإسلام ؛ أن ينازعهم الأمرَ الذى هم أهلُه وأوْلَى به ، فيجور[2] ويظلم ، ولا ينبغى لمن كان له عقل أن يجهل قدرَه ، ويعدو طورَه ، ويُشقِى نفسه بالتماس ما ليس بأهله ؛ فإنّ أولى الناس بأمر هذه الأمة قديما وحديثا أقربُها من الرسول ، وأعلمُها بالكتاب ، وأفقهُها فى الدين ، أوّلُها إسلاما ، وأفضلها جهادا ، وأشدّها بما تحمله الأئمة من أمر الأمة اضطلاعا ؛ فاتقوا الله الذى إليه ترجعون ، ولا تَلْبِسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون .

واعلموا أنّ خيار عباد الله الذين يعملون بما يعلمون ، وأنّ شرارهم الجهال الذين ينازعون بالجهل أهلَ العلم ؛ فإنّ للعالم بعلمه فضلا ، وإن الجاهلَ لا يزداد بمنازعته العالم إلا جهلا . ألا وإنى أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيّه ، وحَقْن دماء هذه الأمة ؛ فإن قبلتم أصبتم رُشدكم ، واهتديتم لحظّكم ، وإن أبيتم إلا الفرقة وشقّ عصا هذه الأمة ؛ لم تزدادوا من الله إلا بعدا ، ولا يزداد الربّ عليكم إلا سخطا والسلام .

فكتب إليه معاوية جوابَ هذا الكتاب ، سطرا واحدا : وهو : أما بعد فإنه

---

(١) ا : « مكذبون »

(٢) ب وصفين : « يحوب » .

لَيْسَ بيني وَبَيْنَ قَيْسٍ عِتَابُ ... غَيْر طَعْنِ الكُلَى وضَرْبِ الرِّقابِ

فقال عليّ عليه السلام لما أتاه هذا الجواب : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾[1] .

قال نصر : وقال عليّ عليه السلام لأهل الرَّقة : جَسِّروا لى جسرا أعبُر عليه من هذا المكان إلى الشام ؛ فأبَوْا ، وقد كانوا ضَمُّوا السفن إليهم ؛ فنهض من عندهم ليعبرَ على جِسْر مَنْبِج ، وخلّف عليهم الأشتر ، فقال : يا أهلَ هذا الحصن ؛ إنى أقسم بالله إن مَضَى أمير المؤمنين عليه السلام ولم تجسِّروا له عند مدينتكم حتى يَعْبُرَمنها ؛ لأجرِّدَنّ فيكم السيف ، فلأقتلَنّ مقاتِلَكم ، ولأخرِبَنّ أرضكم ، ولآخذنّ أموالكم .

فلقىَ بعضهم بعضا ، فقالوا : إنّ الأشتر يَفِى بما حلَف عليه ، وإنما خلّفه عليّ عندنا ليأتينا بشرّ ، فبعثوا إليه : إنّا ناصبون لكم جِسرا ، فأقبلوا . فأرسل الأشتر إلى عليّ عليه السلام ، فجاء ، ونصبوا له الجسر ، فعبر الأثقال والرجال ، وأمر الأشتر فوقف فى ثلاثة آلاف فارس ؛ حتى لم يبق من الناس أحد إلا عبر ، ثم عبر آخر الناس رجلا .

قال نصر : وازدحمت الخيلُ حين عَبَرت ، فسقطت قَلَنْسُوة عبدالله بن أبى الحصين ، فنزل فأخذها ، وركب ، ثم سقطتْ قلنسوة عبدالله بن الحجاج ، فنزل فأخذها ، ثم ركب فقال لصاحبه :

فإنْ يَكُ ظَنُّ الزَّاجرى الطيرَ صادقاً ... كما زعموا ، أُقْتَلْ وشيكا وتُقْتَل

فقال عبدالله بن أبى الحصين : ما شىء أحبّ إلىّ مما ذكرت ، فقتلا معا يوم صفين[2] .

---

(١) سورة القصص ٥٦ .

(٢) صفين ١٦٩ .

قال نصر : فلما[1] قطع علىّ عليه السلام الفُرات ، دعا زياد بن النضر وشُرَيح بن هانئ فسرّحهما أمامه نحو معاوية ، على حالهما الذى كانا عليه حين خرجا من الكوفة ، فى اثنى عشر ألفا ، وقد كانا حيث سرحهما من الكوفة مقدّمة له أخذا على شاطئ الفرات من قِبَل البرّ ، مما يلى الكوفة حتى بلغا عانات[2] ، فبلغهم أخذُ علىّ عليه السلام طريقَ الجزيرة ، وعلما أنّ معاوية قد أقبل فى جنود الشام من دمشق لاستقباله ، فقالا : والله ما هذا برأى ، أن نسير وبيننا وبين أمير المؤمنين هذا البحر ، وما لنا خيرٌ فى أنْ نلقى جموعَ الشام فى قلّة من العدد ، منقطعين عن المدد . فذهبوا ليعبُرُوا من عانات ، فمنعهم أهلُها ، وحبسوا عنهم السفن ، فأقبلوا راجعين حتى عَبَرُوا من هِيت ، ولَحِقُوا عليا عليه السلام بقرية دون قِرْقِيسيا ، فلما لحقوا عليا عليه السلام تعجب ، وقال : مقدّمتى تأتى من ورائى ! فقام له زياد وشُرَيح ، وأخبراه بالرأى الذى رأيا . فقال : قد أصبتُما رُشْدكما . فلما عَبَرُوا الفرات قدّمهما أمامه نحو معاوية ، فلما انتهيا إلى معاوية ، لقيهما أبو الأعور السُّلَمِىّ فى جنود من أهل الشام ، وهو على مقدّمة معاوية ، فدعواه إلى الدُّخول فى طاعة أمير المؤمنين عليه السلام فأبى ، فبعثوا إلى علىّ عليه السلام : إنّا قد لقينا أبا الأعور السلمىّ بسور الروم فى جند من أهل الشام ، فدعوناه وأصحابه إلى الدخول فى طاعتك ، فأبَى علينا ، فمرنا بأمرك .

فأرسل علىٌّ عليه السلام إلى الأشتر ، فقال : يا مال ، إن زيادا وشُرَيحا أرسلا إلىّ يعلمانِنِي أنهما لقيا أبا الأعور السلمىّ فى جند من أهل الشام بسور الروم ، ونبّأنى الرسول أنه تركهم متواقفين ؛ فالنَّجاءَ النجاء إلى أصحابك ؛ فإذا أتيتهم فأنت عليهم ؛ وإياك أن تبدأ القوم بقتال إن لم يبدءوك ، والقهم واسمع منهم ، ولا يجرمنّكَ شنآنُهم على قتالهم قَبْل

---

(١) صفين ١٧٠ وما بعدها . (٢) عانات : قرية من قرى الفرات .

دعائهم والإعذار إليهم مرة بعد مرة ، واجعلْ على ميمنتك زيادا ، وعلى ميسرتك شُرَيحا ، وقِفْ من أصحابك وسَطاً ، ولا تدنُ منهم دنوَّ مَنْ يريد أن يُنشِب الحرب ، ولا تتباعدْ عنهم تباعدَ مَنْ يهاب النـاس ؛ حتى أقدم عليك ؛ فإنى حثيث السير إليك إن شاء الله .

قال : وكتب علىٌّ عليه السلام إليهما ــ وكان الرسول الحارث بن جمهان الجعفىّ ــ : أما بعــد ؛ فإنى قد أمَّرْت عليكما مالـكاً ، فاسمعا له وأطيعا أمره ؛ وهو ممن لا يُخاف رهَقُه ولا سِقاطه[1] ، ولا بُطؤه عمّا الإسراع إليه أحزم ، ولا إسراعُه إلى ما البطء عنه أمثل ؛ وقد أمرتُه بمثل الذى أمرتكما ، ألّا يبدأ القوم بقتال حتى يلقام ويدعوهم ، ويُعذِر إليهم إن شاء الله .

قال : فخرج الأشتر حتى قدِم على القوم ، فاتّبع ما أمره به علىٌّ عليه السلام ، وكفَّ عن القتال ، فلم يزالوا متواقفين[2] ؛ حتى إذا كان عند المساء ، حمل عليهم أبو الأعور فثبتوا له واضطربوا ساعة . ثم إن أهلَ الشام انصرفوا ، ثم خرج هاشم بن عُتْبة فى خيل ورجالٍ حَسَنٍ عُدّتها وعددها ، فخرج إليهم أبو الأعور السلمىّ ، فاقتتلوا يومَهم ذلك ، تحمل الخيلُ على الخيل ، والرجالُ على الرجال ، وصبرَ بعضُهم لبعض ؛ ثم انصرفوا . وبـكّر عليهم الأشتر ؛ فقتِل من أهل الشام عبدالله بن المنذر التّنوخىّ ، قتله ظَبْيان بن عُمارة التّميمىّ ، وما هو يومئذ إلا فتى حديث السنّ . وإن كان الشامىّ لفارس أهلِ الشام ، وأخذ الأشتر يقول : ويحَـكم أرونى أبا الأعور !

ثم إن أبا الأعور دعا النـاس ، فرجعوا نحوه فوقف على تلّ من وراء المـكان الذى كان فيه أوّلَ مرة ، وجاء الأشتر حتى صَفّ أصحابه فى المـكان الذى كان فيه أبو الأعور أوّلَ مرة ، فقال الأشتر لسنان بن مالك النّخعىّ . انطلق إلى أبى الأعور ، فادعُه إلى المبارزة ،

---

(١) الرهق : الطيش والنّزق . والسقاط : الخطأ . (٢) متواقفين : وقف بعضهم أمام بعض فى الحرب

فقال : إلى مبارزتى أم إلى مبارزتك ؟ فقال : أَوَلَوْ أمرتُك بمبارزته فعلت ؟ قال : نعم ؛ والذى لا إله إلا هو ؛ لو أمرتنى أن أعترِض صفَّهم بسيفى لفعلتُ حتى أضرِبَه بالسيف .

فقال : يابن أخى، أطال الله بقاءك ! قد واللهِ ازددتُ فيك رغبة ، لا ما أمرتُك بمبارزته ، إنما أمرتُك أنْ تدعوَه لمبارزتى ؛ فإنه لا يبارز — إن كان ذلك من شأنه — إلا ذوِى الأسنان والكفاءة والشرف ، وأنت بحمد الله من أهل الكفاءة والشرف ؛ ولكنك حديثُ السنّ ، وليس يبارز الأحداث ؛ فاذهب فادعه إلى مبارزتى .

فأتاهم فقال : أنا رسول فأمّنونى ، فجاء حتى انتهى إلى أبى الأعور .

قال نصر : فحدثنى[1] عمر بن سعد ، عن أبى زهير العبسىّ ، عن صالح بن سنان، عن أبيه ، قال: فقلت له : إن الأشتر يدعوك إلى المبارزة ، قال : فسكت عنى طويلا ، ثم قال : إنّ خفة الأشتر وسوء رأيه وهوانَه : دعاه إلى إجلاء عمال عُثمان ، وافترائه عليه ، يقبّح محاسنه ، ويجهل حقه ، ويُظهر عداوته . ومن خفّة الأشتر وسوء رأيه أنه سار إلى عثمان فى داره وقراره ، فقتَلَه فيمن قتله ، وأصبح متّبعا[2] بدمه ، لا حاجة لى فى مبارزته .

فقلت : إنّك قد تكلّمت فاسمع حتى أجيبَك ، فقال : لا حاجةَ لى فى جوابك ولا الاستماع منك . اذهب عنّى ؛ وصاح بى أصحابه فانصرفت عنه ، ولو سمع لأسمعتهُ عذرَ صاحبى وحجته .

فرجعت إلى الأشتر ، فأخبرته أنه قد أبى المبارزة ، فقال : لنفسه نظر .

قال : فتواقفنا ، فإذا هم قد انصرفوا . قال : وصبّحنا علىّ عليه السلام غُدْوةَ سائرا نحو معاوية ، فإذا أبو الأعور قد سبق إلى سهولة الأرض وَسَعَة المنزل ، وشريعة الماء، مكانٍ

---

(١) كتاب صفين ١٧٣

(٢) صفين : « مبتعى » .

أفيح ؛ وكان أبو الأعور على مقدّمة معاوية ، واسمه سفيان بن عمرو ، وقد جعل على ساقته بُسْر بن أرطاة العامرىّ ، وعلى الخيل عبيدالله بن عمر بن الخطاب ، ودفع اللواء إلى عبدالرحمن بن خالد بن الوليد ، وجعل على ميمنته حبيب بن مسلمة الفهرىّ ، وعلى رجّالته من الميمنة يزيد بن زَحْر الضّبيّ ، وعلى الميسرة عبدالله بن عمرو بن العاص ، وعلى الرّجالة من الميسرة حابس بن سعيد الطائىّ ، وعلى خيلِ دمشق الضّحاك بن قيس الفهرىّ ؛ وعلى رَجّالة أهل دمشق يزيد بن أسد بن كُرْز البجلىّ ، وعلى أهل حِمْص ذا الكَلاع ، وعلى أهل فلسطين مَسلمة بن مخلّد ، وكان وصول على عليه السلام إلى صِفّين لثمان بقين من المحرم من سنة سبع وثلاثين .



---

(٤٩)

ومن خطبة له عليه السلام :

الأصل :

اَلْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي بَطَنَ خَفِيَّاتِ الأُمُور ، وَدَلَّتْ عَلَيْهِ أَعْلَامُ الظُّهُور ، وَامْتَنَعَ عَلَى عَيْنِ البَصِيرِ ؛ فَلَا عَيْنُ مَنْ لَمْ يَرَهُ تُنْكِرُهُ ، وَلَا قَلْبُ مَنْ أَثْبَتَهُ يُبْصِرُهُ .

سَبَقَ فِي العُلُوِّ فَلَا شَيْءَ أَعْلَى مِنْهُ ، وَقَرُبَ فِي الدُّنُوِّ فَلَا شَيْءَ أَقْرَبُ مِنْهُ ؛ فَلَا اسْتِعْلَاؤُهُ بَاعَدَهُ عَنْ شَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ ، وَلَا قُرْبُهُ سَاوَاهُمْ فِي الْمَكَانِ بِهِ .

لَمْ يُطْلِعِ العُقُولَ عَلَى تَحْدِيدِ صِفَتِهِ ، وَلَمْ يَحْجُبْهَا عَنْ وَاجِبِ مَعْرِفَتِهِ ؛ فَهُوَ الَّذِي تَشْهَدُ لَهُ أَعْلَامُ الوُجُود ، عَلَى إِقْرَارِ قَلْبِ ذِي الْجُحُود ، تَعَالَى اللهُ عَمَّا يَقُولُهُ الْمُشَبِّهُونَ بِهِ وَالجَاحِدُونَ لَهُ عُلُوّاً كَبِيراً !

***

الشرح :

بطنتُ سِرّ فلان ، أى أخفيتُه .

والأعلام : جمع علَم ، وهو المنارُ يهتدى به ؛ ثم جعل لكلّ مادل على شىء ؛ فقيل لمعجزات الأنبياء أعلام ، لدلالتها على نبوّتهم . وقوله عليه السلام : « أعلام الظهور » ، أى الأدلة الظاهرة الواضحة .

وقوله فيما بعد : « أعلام الوجود » أى الأدلة الموجودة ، والدلالة هى الوجود نفسه؛ وسيأتى شرح ذلك .

وقوله : « وامتنع على عين البصير » ، يقول : إنه سبحانه ليس بمرئىّ بالعين ؛ ومع

ذلك فلا يمكِنُ مَنْ لم يَرَهُ بعينه أن ينكره ؛ لدلالة كلّ شيء عليه ، بل لدلالته سبحانه على نفسه .

ثم قال : « ولا قلب من أثبته يبصره » ، أى لاسبيل لمن أثبت وجودَه أن يحيطَ علما بجميع أحواله ومعلوماته ومصنوعاته ؛ أو أراد أنه لا تُعلم حقيقة ذاته ؛ كما قاله قوم من المحققين .

وقد رُوِىَ هذا الكلام على وجه آخر ، قالوا[1] فى الخطبة : « فلا قلبُ مَنْ لم يَرَهُ ينكره ، ولا عينُ مَنْ أثبته تبصره » ، وهذا غير محتاج إلى تفسير لوضوحه .

وقوله عليه السلام: « فلا استعلاؤه باعده » ، أى ليس علوّه ولا قربه كما نعقله من العلوّ والقرب المكانيّين ، بل هو علوّ وقرب خارج من ذلك ، فليس علوّه يقتضى بعدَه بالمكان عن الأجسام ، ولا قربَه يقتضى مساواته إياها فى الحاجة إلى المكان والجهة .

والباء فى « به » متعلقة بـ « ساواهم » ، معناه : ولا قربُه ساواهم به فى الحاجة إلى المكان؛ أى لم يقتض قربه مماثلته ومساواته إيام فى ذلك .

***

[فصول فى العلم الإلهى]

وهذا الفصل يشتمل على عدّة مباحث من العلم الإلهى :

أولها : كونه تعالى عالما بالأمور الخفيّة .

والثانى : كونه تعالى مدلولا عليه بالأمور الظاهرة ؛ يعنى أفعاله .

والثالث : أن هويّته تعالى غير معلومة للبشر .

والرابع : نفى تشبيهه بشىء من مخلوقاته .

---

(١) كذا فى جميع الأصول

والخامس : بيان أنّ الجاحد لإثباته مكابر بلسانه ، وعارف به بقلبه .

ونحن نذكر القول فى جميع ذلك على سبيل اقتصاص المذاهب والأقوال ، ونحيل فى البرهان على الحقّ من ذلك وبطلان شُبَه المخالفين فيه ، على ما هو مذكور فى كتبنا الكلامية ، إذ ليس هذا الكتاب موضوعا لذلك ، وإنْ كنّا قد لا نخلِى بعض فصوله من إشارة إلى الدليل موجَزة ، وتلويح إلى الشبهة لطيف ؛ فنقول: أمّا

* * *

الفصل الأول

وهو الكلام فى كونه تعالى عالما بالأمور الخفية

فاعلم أنّ أمير المؤمنين عليه السلام إنما قال : بطَن خفيّات الأمور » وهذا القدر من الكلام يقتضى كونه تعالى عالما ، يعلَم الأمورَ الخفيّة الباطنة ؛ وهذا منقسم قسمين :

أحدهما : أن يعلم الأمور الخفية الحاضرة .

والثانى : أن يعلم الأمور الخفية المستقبلة .

والكلام من حيث إطلاقه يحتمل الأمرين ، فنحمله عليهما معاً . فقد خالف فى كلّ واحدة من المسألتين قوم ؛ فمِنَ الناس مَنْ نَفَى كونه عالما بالمستقبَلات ، ومِنَ الناس مَنْ نَفَى كونَه عالما بالأمور الحاضرة ؛ سواء كانت خفيّة أو ظاهرة ؛ وهذا يقتضينا[1] أن نشرحَ أقوال العقلاء فى هذه المسائل ، فنقول : إنّ الناس فيها عَلَى أقوال :

القول الأول : قولُ جمهور المتكلّمين ، وهو أنّ البارىْ سبحانه يعلم كلّ معلوم : الماضى والحاضر والمستقبل ؛ ظاهرها وباطنها ، ومحسوسها وغير محسوسها ؛ فهو تعالى العالم بما كان وما هو حاضر ، وما سيكون وما لم يكنْ ، أن لو كان كيف كان يكون ، كقوله

---

(١) ب : « يقتضى » .

تعالى : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾[1] ، فهذا علم بأمر مقدّر على تقدير وقوع أصله الذى قد علم أنه لا يكون .

القول الثانى : قولُ مَن زعم أنه تعالى لا يعلم الأمور المستقبَلة ، وشبّهوه بكونه مدركا ، قالوا : كما أنّه لا يدرك المستقبلات ، فكذلك لا يعلم المستقبَلات . وهو قول هِشام ابن الحكم[2] .

القول الثالث : قولُ مَنْ زعم أنه لا يعلم الأمور الحاضرة ؛ وهذا القول نقيض القول الثانى ؛ وشبهوه بكونه قادرا ، قالوا : كما أنه لا يقدِر على الموجود ، فكذلك لا يعلم الموجود ؛ ونسب ابن الراوندىّ هذا القول إلى معمر بن عبّاد[3] ، أحد شيوخنا ، وأصحابُنا يكذّبونه فى ذلك ، ويدفعون الحكاية عنه .

القول الرابع : قول مَنْ زعم أنّه تعالى لا يعلم نفسَه خاصّة ، ويعلم كل ما عدا ذاتِه ، ونسب ابنُ الراوندىّ هذه المقالةَ إلى مَعْمَر أيضا ، وقال : إنه يقول : إن العالم غير المعلوم ، والشىء لا يكون غير نفسه ؛ وأصحابنا يكذّبون ابن الراوندىّ فى هذه الحكاية ، وينزّهون معمراً عنها .

القول الخامس : قول مَنْ قال إنه تعالى لم يكن فيما لم يَزَلْ عالما بشىء أصلا ؛ وإنما أحدث لنفسه علما علِم به الأشياء ، وهو قول جَهْم بن صفوان[4] .

القول السادس : قول مَنْ قال إنه تعالى لا يعلم كلّ المعلومات على تفاصيلها ؛ وإنما يعلم ذلك إجمالا وهؤلاء يسمون المسترسِلِيّة ؛ لأنهم يقولون : يسترسِل علمه على المعلومات

---

(١) سورة الأنعام ٢٨

(٢) هو هشام بن الحكم ؛ من متكلمى الشيعة ، وصاحب المقالة فى التشبيه ؛ وإليه تنسب الهشامية ؛ إحدى الفرق الغالية ؛ ذكره الشهرستانى وبسط آراءه فى الملل والنحل ١ : ١٦٤ – ١٦٦

(٣) معمر بن عباد السلمى القدرى ؛ وانظر آراءه فى الملل والنحل للشهرستانى ١ : ٦٥ – ٦٧

(٤) جهم بن صفوان ؛ وإليه تنسب الفرقة الجهمية ؛ من الجبرية ؛ ظهرت بدعته بترمذ ، وقتله سالم بن أحوز المازنى بمرو ؛ فى آخر ملك بنى أمية ، الشهرستانى ١ : ٧٩ – ٨١ .

إجمالا لا تفصيلا ، وهو مذهب الجُوَيني[1] من متكلّمي الأشعريّة .

القول السابع : قول مَنْ قال إنه تعالى يعلم المعلومات المفصلة ما لم يُفضِ القولُ به إلى محال ؛ وزعموا أن القول بأنه يعلم كلّ شيء يُفضي إلى محال ؛ وهو أنْ يعلم ويعلم أنه يعلم ، وهلمّ جرا إلى مالانهاية له ؛ وكذلك المحال لازم إذا قيل إنه يعلم الفروع ، وفروع الفروع ولوازمها ولوازم لوازمها إلى ما لا نهاية له . قالوا : ومحال اجتماع كلّ هذه العلوم غير المتناهية في الوجود ، وهذا مذهب أبي البركات البغداديّ صاحب المعتبر[2] .

القول الثامن : قولُ مَنْ زعم أنه تعالى لا يعلم الشخصيّات الجزئية ؛ وإنما يعلم الكلّيات التي لا يجوز عليها التغيير ؛ كالعلم بأنّ كل إنسان حيوان ؛ ويعلم نفسه أيضاً ؛ وهذا مذهب أرسطو وناصري قوله من الفلاسفة كابن سينا وغيره .

القول التاسع : قول مَنْ زعم أنه تعالى لا يعلم شيئا أصلا ؛ لا كليا ولا جزئيا ؛ وإنما وجد العالم عنه لخصوصيّة ذاته فقط من غير أن يعلمه ؛ كما أنّ المغناطيس يجذب الحديد لقوّة فيه من غير أن يعلم بالجذب ؛ وهذا قول قوم من قدماء الفلاسفة .

فهذا تفصيل المذاهب في هذه المسألة .

واعلم أن حجّة المتكلمين على كونه عالما بكل شيء ؛ إنما تتّضح بعد إثبات حدوث العالم ، وأنه فعله بالاختيار ؛ فحينئذ لابدّ من كونه عالما ؛ لأنه لو لم يكن عالما بشيء أصلا لما صحّ أن يحدث العالم على طريق الاختيار ؛ لأنّ الإحداث على طريق الاختيار ؛ إنما يكون بالغرض والداعي ، وذلك يقتضي كونه عالما ، فإذا ثبت أنّه عالم بشيء أفسدوا حينئذ أن يكون عالما بمعنى اقتضى له العالمية ، أو بأمر خارج عن ذاته ؛ مختارا كان أو غير مختار ؛

---

(١) هو الإمام أبو المعالي عبد الملك بن يوسف الجويني ، إمام الحرمين ، المتوفى سنة ٤٧٨ . (ابن خلكان) .

(٢) كتاب المعتبر في الحكمة ، طبع في حيدر آباد ؛ لأبي البركات علي بن ملكا البغدادي ، توفي سنة ٥٦٠ وانظر أخبار العلماء للقفطي ٢٤٣ .

فحينئذ ثبت[1] لم أنه إنما علم لأنه هذه الذات المخصوصة لا الشيء أزيد منها؛ فإذا كان لم ذلك وجب أن يكون عالما بكل معلوم ؛ لأنّ الأمر الذى أوجب كونه عالما بأمر ما ؛ هو ذاته يوجب كونه عالما بغيره من الأمور ؛ لأنّ نسبة ذاته إلى الكلّ نسبة واحدة .

فأمّا الجواب عن شُبه المخالفين فمذكور فى المواضع المختصّة بذلك ، فليطلب من كتبنا الكلامية .

* * *

الفصـــل الثانى

فى تفسير قوله عليه السلام : « ودلّت عليه أعلام الظهور »

فنقول : إنّ الذى يستدلّ به على إثبات الصانع يمكن أن يكون من وجهين ؛ وكلاهما يصدق عليه أنه أعلام الظهور ؛ أحدهما الوجود والثانى الموجود .

أما الاستدلال عليه بالوجود نفسه فهى طريقة المدقّقين من الفلاسفة ، فإنهم استدلّوا على أنّ مسمّى الوجود مشترك ، وأنه زائد على ماهيّات الممكنات ، وأنّ وجودَ البارئ لا يصحّ أن يكون زائدا على ماهيّته ، فتكون ماهيّته وجودا ؛ ولا يجوز أن تكون ماهيته عارية عن الوجود ؛ فلم يبقَ إلّا أن تكون ماهيته هى الوجود نفسه ، وأثبتوا وجوبَ ذلك الوجود ، واستحالةَ تطرّق العدم إليه بوجه ما، فلم يفتقروا فى إثبات البارئ إلى تأمّل أمرٍ غير نفس الوجود .

وأمّا الاستدلالُ عليه بالموجود لا بالوجود نفسه ؛ فهو الاستدلال عليه بأفعاله ، وهى طريقة المتكلمين . قالوا : كلّ ما لم يُعلَم بالبديهة ولا بالحسّ ؛ فإنما يُعلم بآثاره الصادرة عنه ؛ والبارئ تعالى كذلك ؛ فالطريق إليه ليس إلا أفعاله ، فاستدلّوا عليه بالعالَم ، وقالوا تارة : العالم محدَث وكلّ محدَث له محدِث. وقالوا تارة أخرى : العالَم ممكن ، فله مؤثّر .

---

(١) ج : « يثبت » .

وقال ابن سينا : إنّ الطريقة الأولى وهى الاستدلال عليه بالوجود نفسه أعلى وأشرف ، لأنه لم يحتج فيها إلى الاحتجاج بأمر خارج عن ذاته ، واستنبط آيةً من الكتاب العزيز فى هذا المعنى ؛ وهى قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (١) .

قال ابن سينا : أقول : إنّ هذا حُكْم لقوم ـ يعنى المتكلمين وغيرهم ؛ ممن يستدل عليه تعالى بأفعاله ؛ وتمام الآية : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (١) .

قال : هذا حكمُ الصِّدِّيقين الذين يستشهدون به لا عليه ؛ يعنى الذين استدلوا عليه بنفس الوجود ، ولم يفتقروا إلى التعلق بأفعاله فى إثباتِ ربوبيته .

***

الفصل الثالث

فى أن هويّته تعالى غير هوية البشر

وذلك معنى قوله عليه السلام : « وامتنعَ عَلَى عَيْنِ البصير » ، وقوله : « ولا قلبُ من أثبته يبصره » ، وقوله : « ولم يُطْلِع العقولَ على تحديد صفته » ؛ فنقول : إنّ جمهورَ المتكلمين زعموا أنا نعرف حقيقة ذات الإله ، ولم يتحاشوا من القول بأنّه تعالى لا يعلم من ذاته إلا مانعلمه نحن منها .

وذهب ضِرار (٢) بن عمرو : أنّ لله تعالى ماهيةً لا يعلمها إلا هو ؛ وهذا هو مذهب

---

(١) سورة فصلت ٥٣

(٢) هو ضرار بن عمرو ، صاحب مذهب الضرارية من فرق الجبرية ؛ كان فى بدء أمره تلميذا لواصل ابن عطاء المعتزلى ؛ ثم خالفه فى خلق الأعمال وإنكار عذاب القبر . الفرق بين الفرق ٢٠١

الفلاسفة . وقد حُكِيَ عن أبى حنيفة وأصحابه أيضا ؛ وهو الظاهر من كلام أمير المؤمنين عليه السلام فى هذا الفصل .

***

الفصـــل الرابع

فى نفى التشبيه عنه تعالى

وهو معنى قوله عليه السلام : « بَعُد وقرُب » ، أى فى حال واحدة ، وذلك يقتضى نفىَ كونه تعالى جسما ؟ وكذلك قوله عليه السلام : « فلا استعلاؤه باعدَه ، ولا قرُبه ساواهم فى المكان به » ، فنقول : إنّ مذهبَ جُمهور المتكلمين نفىُ التشبيه ، وهذا القول يتنوّع أنواعا :

النوع الأول : نفى كونه تعالى جسما مركبا ، أو جوهرا فردا غير مركب ، والمراد بالجوهر هاهنا الجِرم والحجم . وهو قول للمعتزلة، وأكثر محقّقى المتكلّمين من سائر الفرق، وإليه ذهبت الفلاسفة أيضاً .

وقال قوم من مستضعفى المتكلّمين خلافَ ذلك ، فذهب هشام بن الحكم إلى أنه تعالى جسم مركب كهذه الأجسام ، واختلفت الحكاية عنه ، فروى عنه أنه قال : إنه يشبُر نفسَه سبعة أشبار . وروى عنه أنه قال : إنه على هيئة السَّبيكة . وروى عنه أنه قال: إنّه على هيئة البِلَّورة الصافية المستوية الاستدارة من حيث أتيتَها رأيتَها على هيئة واحدة ، وروى عنه أيضاً قال : إنه ذو صورة . وأصحابُه من الشيعة يدفعون اليومَ هذه الحكايات عنه ، ويزعمون أنه لم يزِدْ على قوله : إنه جسم لا كالأجسام ، وإنه إنما أراد بإطلاق هذا اللفظ عليه إثباته .

وصدّقوا عنه أنه كان يطلق عليه كونه نورا ، لقول الله سبحانه : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ ﴾[1] .

وحكيّ عن محمد بن النعمان الأحول، المعروف بشيطان الطاق ، وهشام بن سالم المعروف بالجواليقيّ ، وأبي مالك بن الحضرميّ ، أنه نورٌ على صورة الإنسان ، وأنكروا مع ذلك أنْ يكون جسماً ؛ وهذه مناقضة ظاهرة .

وحُكِيَ عن علي بن ميثم مثله . وقد حكى عنه أنه كان يقول بالصورة والجسم .

وحكى عن مقاتل بن سليمان ، وداود الجواربيّ ، ونعيم بن حمّاد المصري ، أنه في صورة الإنسان ، وأنه لحم ودم، وله جوارح وأعضاء من يد ورجل ولسان ورأس وعينين؛ وهو مع ذلك لا يشبه غيره ، ولا يشبهه غيره ، وافقهم على ذلك جماعة من العامّة ومَنْ لا نظر له .

وحُكِيَ عن داود الجواربيّ أنه قال : اعفوني من الفرج واللحية وسلوني عمّا وراء ذلك . وحكى عنه أنه قال : هو أجوف من فيه إلى صدره ، وما سوى ذلك مصمت .

وحكى أبو عيسى الوراق أنّ هشام بن سالم الجواليقيّ كان يقول : إن له وفرة سوداء.

وذهب جماعة من هؤلاء إلى القول بالمؤانسة والخلوة والمجالسة والمحادثة .

وسئل بعضهم عن معنى قوله تعالى : ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾[2] ، فقال: يُقعِد معه عَلَى سريره ويغلفه بيده .

وقال بعضهم : سألت مُعاذاً العنبريّ ، فقلت : أله وجه ؟ فقال : نعم ؛ حتى عددت

---

(١) — سورة النور ٣٥
(٢) سورة القمر ٥٥

جميع الأعضاء من أنف وفم وصدر وبطن ؛ واستحييت أن أذكر الفرْج ؛ فأومأت بيدى إلى فرْجى ، فقال : نعم ، فقلت أذكر أم أنثى ؟ فقال : ذكر .

ويقال : إنّ ابنَ خزيمة أشكل عليه القولُ فى أنه : أذكر أم أنثى ، فقال له بعض أصحابه : إنّ هذا مذكورٌ فى القرآن ؛ وهو قوله تعالى : ﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾[1] ، فقال : أفدتَ وأجدت ؛ وأودعه كتابه .

ودخل إنسان على مُعاذ بن معاذ يوم عِيد ، وبين يديه لحم فى طَبيخ سِكْباج ، فسأله عن البارئ تعالى فى جملة ماسأله ، فقال : هو والله مثلُ هذا الذى بين يدىّ ، لحم ودم .

وشهد بعضُ المعتزلة عند معاذ بن معاذ ، فقال له : لقد هممتُ أنْ أسقِطك ؛ لولا أنى سمعتُك تلعن حمّاد بن سلمة ، فقال : أمّا حماد فلم ألعنه ، ولكنى ألعن من يقول : إنه سبحانه ينزِل ليلةَ عرَفة من السماء إلى الأرض على جمل أحمر فى هَوْدج من ذهب ؛ فإن كان حمّاد يروى هذا أو يقوله فعليه لعنة الله . فقال : أخرجوه ، فأخرج .

وقال بعضهم : خرجْنا يوم عيد إلى المصلّى ، فإذا جماعة بين يدى أمير[2] ، والطبول تضرب والأعلام تخفِق فقال واحد مِنْ خلفنا : اللهم لا طَبْلَ إلا طبلُك ! فقيل له : لاتقل هكذا ، فليس لله تعالى طبل ، فبكى ، وقال : أرأيتم هو يجىء وحده ولا يُضرب بين يديه طَبْل ، ولا ينصَب على رأسه عَلَم ، فإذَنْ هو دون الأمير !

وروى بعضهم أنّه تعالى أجْرَى خيلا ، فخلق نفسه من مثلها .

وروى قوم منهم أنه نظر فى المرآة فرأى صورةَ نفسه ، فخلق آدم عليها .

ورووا أنه يضحك حتى تبدو نواجذُه .

---

(١) سورة آل عمران ٣٦

(٢) ب « أمير المؤمنين » ، والأجود ماأثبته من ا ، ج .

ورووا أنّه أمرد جَعْد قَطَطٌ[1] ، فى رجليه نعلان من ذَهب ، وأنّه فى روضة خضراء عَلَى كرسىّ تحمله الملائكة .

ورووا أنه يضع رجلاً على رِجْل ، ويستلق فإنّها جِلسة الربّ .

ورووا أنه خَلَق الملائكة مِنْ زَغَبِ ذراعيه ، وأنه اشتكى عينه فعادته الملائكة ، وأنه يُتصوّر بصورة آدم ، ويحاسِب الناس فى القيامة ؛ وله حُجّاب من الملائكة يحجُبونه .

ورووا عن النبي صلى الله عليه وسلّم أنه قال : « رأيت ربّى فى أحسنِ صورة ،فسألته عمّا يختلف فيه الملأْ الأعلى ، فوضع يدَه بين كتفِىّ ، فوجدت بَرْدَها ، فعلمت ما اختلفوا فيه » .

ورووا أنّه ينزل إلى السماء الدنيا فى نصف شعبان ؛ وأنه جالس على العرش قد فضل منه أربع أصابع من كل جانب . وأنه يأتى الناسَ يوم القيامة ، فيقول : أنا ربُّكم ، فيقولون : نعوذ بالله منك ؛ فيقول لهم : أتعرفونه إن رأيتموه؟ فيقولون: بيننا وبينه علامة؛ فيكشف لهم عن ساقه ، وقد تحوّل فى الصورة التى يعرفونها ، فيخرُّون له سجدا .

ورووا أنه يأتى فى غَمام ، فوقه هواء ، وتحته هواء .

وكان بِطَبَرِسْتَان قاصّ من المشبّهة ، يقصّ على الناس ، فقال يوما فى قَصَصه : إنّ يوم القيامة تجىء فاطمة بنت محمد ، معها قميص الحسين ابنهما تلتمس القِصاص من يزيدَ ابن معاوية ، فإذا رآها الله تعالى مِنْ بعيد ، دعا يزيد وهو بين يديه ،فقال له : ادخل تحت قوائم العرش ؛ لا تظفرْ بك فاطمة ، فيدخل[2] ويختبىء ، وتحضر فاطمة ، فتتظلّم وتبكى ، فيقول سبحانه : انظرى يافاطمة إلى قدمى ، ويخرجها إليها ، وبه جُرْح من سهم نمرود ،

---

(١) قطط : قصير .

(٢) ب : « فيدخل يزيد » ، وماأثبته عن ا ، ج

فيقول : هذا جرح نمرود فى قدمى، وقد عفوت عنه ، أفلا تعفين أنت عن يزيد افتقول.
هى : اشهد يارب أنى قد عفوت عنه .

وذهب بعضُ متكلِّمى المجسّمة إلى أن البارئ تعالى مركّب من أعضاء على حروف المعجم .

وقال بعضهم : إنه ينزل على حمار فى صورة غلام أمرد ، فى رجليه نعلان من ذهب، وعلَى وجهه فراش من ذهب يتطاير .

وقال بعضهم : إنه فى صورة غلام أمرد صبيح الوجه ، عليه كساء أسود ،ملتحِف به.

وسمعت أنا فى عصرى هذا مَنْ قال فى قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ ﴾ [(١)] : إنّهم قيام على رأسه بسيوفهم وأسلحتهم ، فقال له آخر على سبيل التهكّم به : يحرسونه من المعتزلة أن يفتِكوا به ! فغضب وقال : هذا إلحاد .

ورووا أنّ النار تزفِر وتتغيّظ تغيظا شديداً ، فلا تسكن حتى يضع قدمَه فيها، فتقول: قَطْ قَطْ ، أى حسبى حسبى . ويرفعون هذا الخبر مسنداً . وقد ذكر شبيه به فى الصِّحاح.

وروى فى الكتب الصِّحاح أيضا : « أنّ الله خَلَق آدم على صورته »؛ وقيل :إن فى التوراة نحو ذلك فى السِّفر الأول .

واعلم أنّ أهل التوحيد يتأولون مايحتمِل التأويل من هذه الروايات على وجوه محتملة غير مستبعدَة ، وما لا يحتمل التأويل منها يقطعُون ببطلانه ؛ وبأنه موضوع ؛ وللاستقصاء فى هذا المعنى موضعٌ غير هذا الموضع .

وحكى أبو إسحاق النظّام ومحمد بن عيسى برغوث أنّ قوماً قالوا : إنّه تعالى الفضاء نفسُه ، وليس بجسم ؛ لأنّ الجسم يحتاج إلى مكان ونفسه مكان الأشياء .

---

(١) سورة الزمر ٧٥

وقال بُرْغوث : وطائفة منهم يقولون : هو الفضاء نفسُه ، وهو جسم تحلّ الأشياء فيه ؛ وليس بذى غاية ولا نهـاية ، واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ وَجَاهِـدُوا فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ (١) .

فأما مَنْ قال : إنّه جسم لا كالأجسام ؛ على معنى أنّه بخلاف العَرَض الذى يستحيل أن يُتوهّم منه فعل ، ونفَوْا عنه معنى الجِسْمِيّة ، وإنما أطلقوا هذه اللفظة لمعنى أنه شىء لا كالأشياء ، وذات لا كالذوات ؛ فأمرُهم سهل ؛ لأنّ خلافهم فى العبارة ، وهم : علىّ ابن منصور ، والسكاك ، ويونس بن عبد الرحمن ، والفضل بن شاذان ، وكلّ هؤلاء من قُدَماء رجال الشيعة . وقد قال بهذا القول ابن كرّام وأصحابه ؛ قالوا : معنى قولنا فيه سبحانه إنه جسم ، أنّه قائم بذاته لا بغيره .

والمتعصّبون لهشام بن الحكم من الشّيعة فى وقتنا هذا يزعمون أنه لم يقل بالتّجسيم المعنوىّ ؛ وإنما قال إنه جسم لا كالأجسام ، بالمعنى الذى ذكرناه عن يونس والسكاك وغيرهما ، وإن كان الحسن بن موسى النّوبَخْتىّ ـ وهو من فضلاء الشيعة ـ قد رُوِى عنه التجسيم المَحْض فى كتاب " الآراء والديانات " .

* * *

النوع الثانى : نفىُ الأعضاء والجوارح عنه سبحانه ؛ فالذى يذهب إليه المعتزلة وسائر المحققّين من المتكلّمين نفىُ ذلك عنه ، وقد تأوّلوا ماورد فى القرآن العزيز من ذلك ، من نحو قوله تعالى : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ (٢) ، وقوله سبحانه : ﴿ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنبِ ٱللَّهِ ﴾ (٣) وغير ذلك ، وحملوه على وجوه صحيحة جائزة فى اللغة العربية .

وأطلقت الكرّامية عليه سبحانه لفظة « اليدين والوجه » ، وقالوا : لا نتجاوز الإطلاق ،

(١) سورة الحج ٧٨

(٢) سورة ص ٧٥ .

(٣) سورة الزمر ٤٦

ولا نفسر ذلك ولا نتأوله ؛ وإنما نقتصر على إطلاق ماورد به النصّ .

وأثبت الأشعريّ اليدين صفة قائمة بالباريْ سبحانه ؛ وكذلك الوجه من غير تجسيم.

وقالت المجسّمة : إنّ لله تعالى يدين؛هما عضوان له ، وكذلك الوجه والعين،وأثبتوا له رِجْلين قد فَضَلتا عن عرشه،وساقَين يكشف عنهما يوم القيامة ، وقَدَماً يضعُها في جهنم فتمتلئ ؛ وأثبتوا له ذلك معنى لا لفظا ، وحقيقة لا مجازا .

فأما أحمد بن حنبل فلم يثبت عنه تشبيه ولا تجسيم أصلاً ، وإنما كان يقول بترك التأويل فقط ، ويطلِق ما أطلقه الكتاب والسنّة ، ولا يخوض في تأويله ؛ ويقف على قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾[1] ، وأكثر المحصّلين من أصحابه على هذا القول .

* * *

النوع الثالث : نفي الجهة عنه سبحانه ؛ فالذي يذهب إليه المعتزلة وجمهورُ المحقّقين من المتكلّمين أنه سبحانه ليس في جهةٍ ولا مكان؛وأنّ ذلك من توابع الجسمية أو العرضية اللاحقة بالجسمية،فإذا انتفى عنه كونُه جسما وكونه عَرَضا لم يكن في جهة أصلا؛وإلى هذا القول يذهب الفلاسفة .

وذهبت الكرّامية والحَشَوِيّة[2] إلى أنّ الله تعالى في جهة فَوْق ، وإليه ذهب هشام ابن الحكم ، وعليّ بن منصور ، ويونس بن عبد الرحمن ، وهشام بن سالم الجواليقيّ ، وكثير من أهل الحديث .

وذهب محمد بن الهيصَم ، متكلّم الكرّامية إلى أنه تعالى ذاتٌ موجودة منفردة بنفسها عن سائر الموجودات،لا تحلّ شيئا حلول الأعراض، ولا تمازج شيئا ممازجة الأجسام

---

(١) سورة آل عمران ٧

(٢) الكرامية : أصحاب محمد بن كرام ؛ والحشوية طائفة من المشبهة ؛ سموا بذلك لأنهم لايتحاشون من إظهار الحشو . راجع شفاء الغليل ١٠٥

بل هو مباينٌ للمخلوقين ؛ إلا أنه في جهة فوق ، وبينه وبين العرش بعد لا يتناهى .

هكذا يحكي المتكلمون عنه، ولم أره في شيء من تصانيفه. وأحالوا ذلك؛ لأن مالا يتناهى لا يكون محصورا بين حاصرين ؛ وأنا أستبعد عنه هذه الحكاية ؛ لأنه كان أذكى من أن يذهبَ عليه فساد هذا القول وحقيقةُ مذهب مثبتي المكان أنه سبحانه متمكن على العرش ، كما يتمكن الملِك على سريره ، فقيل لبعض هؤلاء : أهو أكبرُ من العرش ، أم أصغر ، أم مساوٍ له ؟ فقال : بل أكبر من العرش ، فقيل له : فكيف يحمله ؟ فقال : كما تحمِلُ رجلا الكركيّ جسمَ الكركيّ وجسمه أكبر من رجليه . ومنهم مَنْ يجعلهُ مساوياً للعرش في المقدار ، ولا يمتنع كثير منهم من إطلاق القول بأن أطرافه تفضلُ عن العرش ؛ وقد سمعت أنا مَنْ قال منهم : إنه مستوٍ على عرشه كما أنا مستوٍ على هذه الدّكّة[١] ورجلاه على الكرسيّ الذي وسع السموات والأرض، والكرسيّ تحت العرش ، كما يجعل اليوم الناس تحت أسرتهم كراسيّ يستريحون بوضع أرجلهم عليها .

وقال هؤلاء كلُّهم : إنه تعالى ينزل ويصعد حقيقة لا مجازا ، وإنه يتحرك وينزل؛ فمن ذلك نزولُه إلى السماء الدنيا ، كما ورد في الخبر ؛ ومن ذلك إتيانُه ومجيئه ، كما نطق به الكتاب العزيز في قوله سبحانه : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ ﴾[٢] ، وقوله : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾[٣] .

وأطلق ابن الهيصم عليه هذه الألفاظ اتباعا لما ورد في الكتاب والسنة، وقال : لا أقول بمعانيها ، ولا أعتقد حركته الحقيقية ؛ وإنما أرسلها إرسالا كما وردت . وأما غيره فاعتقد معانيها حقيقة .

وقال ابن الهيصم في كتاب " المقالات " : إن أكثر الحشوية يجيز عليه تعالى العدْوَ والهرولة .

---

(١) الدكة : بناء يسطح أعلاه للجلوس عليه .

(٢) سورة البقرة ٢١٠ (٣) سورة الفجر ٢٢

وقال قوم منهم : إنّه تعالى يجوزُ أن ينزلَ فيطوف البلدان ، ويدور فى السِّكك .

وقال بعض الأشعريّين : إنّ سائلاً سأل السّكّاك فقال : إذا أجزتَ عليه الحركة ، فهلا أجزتَ عليه أن يطفر ! فقال : لا يجوز عليه الطَّفر ، لأن الطَّفر إنما يكون فِرارا من ضدّ ، أو اتصالا بشكل . فقال له : فالحركة أيضاً كذلك ! فلم يأت بفرق .

فأما القول بأنّه تعالى فى كلّ مكان ؛ فإنّ للمعتزلة يقولون ذلك ، ونريد[1] به أنه وإن لم يكن فى مكان أصلاً ، فإنه عالم بما فى كلّ مكان ، ومدبّر لما فى كلّ مكان ، وكأنه موجود فى جميع الأمكنة لإحاطته بالجميع .

وقال قوم من قدماء الفلاسفة : إنّ البارئ تعالى روح شديد فى غاية اللطافة ، وفى غاية القوة ، ينفذُ فى كلّ العالم . وهؤلاء يطلقون عليه أنّه فى كل مكانٍ حقيقة لا تأويلا ؛ ومِن هؤلاء من أوضحَ هذا القول ؛ وقال : إنه تعالى سارٍ فى هذا العالم سريان نفس الواحد مِنّا فى بدنه ، فكما أنّ كلّ بدن منا له نفس سارية فيه تدبره ، كذلك البارئ سبحانه هو نفس العالم ، وسارٍ فى كل جزء من العالم ؛ فهو إذاً فى كلّ مكان بهذا الاعتبار ، لأنّ النفس فى كلّ جزء من البدن .

وحكى الحسن بن موسى النوبختىّ عن أهلِ الرّواق من الفلاسفة ؛ أنّ الجوهرَ الإلهىّ سبحانَه رُوح نارىّ عقلىّ ؛ ليس له صورة ، لكنّه قادر على أن يتصوّر بأىّ صورة شاء ، ويتشبّه بالكلّ ، وينفذ فى الكلّ بذاته وقوته ؛ لا بعلمه وتدبيره .

* * *

النوع الرابع : نفى كونه عَرَضاً حالاً فى المحلّ ؛ فالذى تذهب إليه المعتزلة وأكثر المسلمين والفلاسفة نفىُ ذلك القول باستحالته عليه سبحانه لوجوب وجوده ، وكونِ كلّ حالّ فى الأجسام ممكنا بل حادثا .

---

(١) ب : « فإن المعتزلة يقولون ذلك ويريدون .. »

وذهبت الحلولية من أهل الملّة وغيرها، إلى أنه تعالى يحلّ فى بعض الأجسام دون بعض كما يشاء سبحانه ، وإلى هذا القول ذهب أكثر الغُلاة فى أمير المؤمنين . ومنهم من قال بانتقاله من أمير المؤمنين عليه السلام إلى أولاده ، ومنهم من قال بانتقاله من أولاده إلى قوم من شيعته وأوليائه ؛ واتبعهم على هذه المقالة قومٌ من المتصوّفة كالحلاّجية والبِسْطامية وغيرهم .

وذهبت النّسطُورية [1] من النّصارى إلى حلول الكَلِمة فى بدن عيسى عليه السلام؛ كحلول السّواد فى الجِسْم .

فأما اليعقوبية [2] من النّصارى ، فلا تثبت الحلول ؛ وإنما تثبت الاتحاد بين الجوهر الإلهىّ والجوهر الجسمانى ؛ وهو أشدّ بُعْداً من الحُلول .

***

النوع الخامس : فى نفى كونه تعالى محلاًّ لشىء ؛ ذهبت المعتزلة وأكثر أهل الملّة والفلاسفة إلى نفى ذلك ؛ والقول باستحالته على ذاته سبحانه .

وذهبت الكرّامية إلى أن الحوادث تحلّ فى ذاته ، فإذا أحدث جسماً أحدث معنى حالاً فى ذاته؛ وهو الإحداث، فحدثَ ذلك الجسم مقارنا لذلك المعنى أو عَقِيبه، قالوا : وذلك المعنى هو قول « كن » وهو المسمى خَلْقا، والخلق غير المخلوق؛ قال الله تعالى: ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾ [3]، قالوا: لكنّه قد أشهدَنا ذواتها، فدلّ على أنّ خلقها غيرها .

---

(١) النسطورية : أصحاب نسطور الحكيم ؛ ظهر فى زمن المأمون ، وتصرف فى الأناجيل برأيه وانظر الملل والنحل للشهرستانى ١ : ٢٠٥ ـ ٢٠٦

(٢) اليعقوبية أصحاب يعقوب ؛ قالوا بالأقانيم الثلاثة ، إلا أنهم قالوا : انقلبت الكلمة لحما ودماً ؛ فصار الإله هو المسيح . . . . الشهرستانى ١ : ٢٠٦ ـ ٢٠٨

(٣) سورة الكهف ٥١

وصرح ابن الهيصم فى كتاب " المقالات " بقيام الحوادث بذات البارئ فقال: إنه تعالى إذا أمرَ أو نهى ، أو أراد شيئا كان أمرُه ونهيه وإراداته كائنة بعد أن لم تكن؛ وهى قائمة به ، لأنّ قوله منه يسمع ، وكذلك إرادته منه توجد .

قال : وليس قيامُ الحوادث بذاته دليلا على حدوثه ، وإنما يدلّ على الحدوث تعاقبُ الأضداد التى لايصحّ أن يتعطّل منها ، والبارى تعالى لاتتعاقب عليه الأضداد .

وذهب أبو البركات البغدادىّ صاحب " المعتبر " إلى أن الحوادث تقوم بذات البارئ سبحانه ؛ وأنه لايصحّ إثبات الإلٰهية إلا بذلك . وقال : إنّ المتكلّمين ينزهونه عن ذلك ، والتنزيه عن هذا التنزيه ، هو الواجب .

وذهب أصحابُنا وأكثر المتكلّمين إلى أنّ ذلك لايصحّ فى حق واجب الوجود ، وأنّه دليل على إمكان ذاته ؛ بل على حدوثها . وأجازوا مع ذلك عليه أن يتجدّد له صفات ـ يعنون الأحوال لاالمعانى ـ ؛ نحو كونه مدركا بعد أن لم يكن . وكقول أبى الحسين: إنه يتجدّد له عالمية بما وجد ؛ وكان من قبل عالما بأنه سيوجد ؛ وإحدى هاتين الصفتين غير الأخرى .

وقالوا : إن الصفاتِ والأحوال قيلٌ[1] مفرد عن المعانى ، والحالُ إنما هو حلول المعانى فى ذاته لاتجدّد الصفات لذاته ؛ وللكلام فى هذا الباب موضع هو أليَق به .

* * *

النوع السادس : فى نفى اتحاده تعالى بغيره ؛ ذهب أكثرُ العقلاء إلى استحالة ذلك؛ وذهبت اليعقوبيّة من النصارى إلى أنّ الكلمة اتحدت بعيسى ، فصارتْ جوهراً من جوهريْن : أحدهما إلهىّ ، والآخر جسمانىّ . وقد أجاز الاتحاد فى نفس الأمر لافى ذات

---

(١) قيل ، أى قول .

الباريءَ قومٌ من قدماء الفلاسفة ، منهم فرفريوس . وأجازه أيضاً منهم من ذهب إلى أنّ النفس إنما تعقل المعقولات ؛ لاتحادها بالجوهر المفارق المفيض للنفوس على الأبدان؛ وهو المسمى بالعقل الفعّال .

* * *

النوع السابع : في نفيِ الأعراض الجسمانيّة عنه من التعب والاستراحة، والألم واللّذة، والغمّ والسرور ؛ ونحو ذلك .

وذهبت المعتزلةُ وأكثر العقلاء من أهلِ الملّة وغيرهم إلى نفيِ ذلك؛ والقول باستحالته عليه سبحانه . /

وذهبت الفلاسفة إلى جواز اللّذة عليه ؛ وقالوا : إنّه يلتذ بإدراك ذاته وكماله؛ لأنّ إدراك الكمال هو اللّذة أو سبب اللّذة ؛ وهو تعالى أكمل الموجودات ، وإدراكه أكمل الإدراكات ؛ وإلى هذا القول ذهب محمد الغزالي[1] من الأشعرية .

وحكى ابن الراونديّ عن الجاحظ أنّ أحد قدماء المعتزلة ـ ويعرف بأبي شعيب ـ كان يجوّز عليه تعالى السرور والغمّ ، والغيرة والأسف ؛ ويذكر في ذلك ما روى عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : « لا أحد أغيرُ من الله ، وأنه تعالى يفرح بتوبة عبده ويسرّ بها» . وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾[2] ، وقال مقال المتحسّر[3] على الشيء : ﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ﴾[4] ، وحكى عنه أيضا أنه يجوّز عليه أن يتعب ويستريح ؛ ويحتجّ بقوله : ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾[5] .

---

(١) هو الإمام محمد بن محمد أبو حامد الغزالي صاحب الإحياء .

(٢) سورة الزخرف ٥٥

(٣) كذا في ا ، ج ، وفي ب ، ا « حكاية عن المتحسر » .

(٤) سورة يس ٣٠

(٥) سورة ق ٣٨

وهـذه الألفاظ كلها عند أصحابنا متأوّلة محمولة على محامل صحيحة ؛ تشتمل على شرحها الـكتب المبسوطة .

* * *

النوع الثامن : فى أنه تعالى ليس بمتلوّن . لم يصرح أحد من العقلاء قاطبة بأن الله تعالى متلوّن ؛ وإنما ذهب قوم من أهل التشبيه والتجسيم إلى أنه نور ؛ فإذا أبصرته العيون وأدركته أبصرت شخصا نُورانيًا مضيئا ؛ لم يزيدوا على ذلك ، ولم يصرّحوا بإثبات اللون بهذه العبارة ؛ وإن كان كلّ مضىء ملوّنا .

* * *

النوع التاسع : فى أنه تعالى لا يشتهى ولا ينفر ؛ ذهب شيوخنا المتـكلّمون إلى أنه سبحانه لا يصحّ عليـه الشهوة والنُّفرة ؛ لأنهما إنما يصحّان على مايقبل الزيادة والنقصان بطريق الاغتذاء والنموّ ، والبارئ سبحانه وتعالى يتعالى عن ذلك ؛ وماعرفتُ لأحدٍ من الناس خلافا فى ذلك ؛ اللهم إلا أنْ يطلق هاتان اللفظتان على مسمّى الإرادة والـكراهيَة ؛ على سبيل المجاز .

* * *

النوع العاشر : فى أنّ البارئ تعالى غير متناهى الذات قالت المعتزلة : لما كان البارئ تعالى ليس بجسم ولا جسمانىّ ، وكانت النهاية من لواحق الأشياء ذوات المقادير ؛ يقال : هذا الجسم متناهٍ ، أى ذو طَرَفٍ .

قلنا : إن ذاتَ البارئ تعالى غيرُ متناهية ؛ لا على معنى أنّ امتداداته غير متناهٍ ؛ فإنه سبحانه ليس بذى امتدادٍ ، بل بمعنى أن الموضوع الذى يصدُق عليه النهاية ليس بمتحقّق فى حقه سبحانه ؛ فقلنا : إن ذاتَه غير متناهية ؛ كما يقول المهندس : إنّ النقطة غير متناهية ؛ لا على معنى أنّ لها امتدادا غير متناهٍ ، فإنها ليست بممتدّة أصلا ؛ بل على معنى أنّ الأمر

الذى تصدُق عليه النهاية ـ وهو الامتداد ـ لا يصدق عليها ؛ فإذن صدق عليها أنها غيرُ متناهية . وهذا قولُ الفلاسفة وأكثر المحققين .

وقالت الكرّامية : البارئ تعالى ذاتٌ واحدة منفردة عن العالَم قائمة بنفسها ، مباينة للموجودات ، متناهية فى ذاتها ؛ وإن كنا لا نطلق عليها هذا اللفظ لما فيه من إيهام انقطاع وجودها ، وتصرّم بقائها .

وأطلق هِشام بن الحكم وأصحابُه عليه تعالى القولَ بأنه متناهى الذات ؛ غير متناهى القدرة .

وقال الجاحظ : إن لى قوماً زعموا أنه تعالى ذاهبٌ فى الجهات الستّ ، التى لا نهايةَ لها .

***

النوع الحادى عشر : فى أنه تعالى لا تصحّ رؤيته . قالت المعتزلة : رؤية البارئ تعالى مستحيلة فى الدنيا والآخرة ؛ وإنما يصحّ أن يُرى المقابل ذو الجهة .

وقالت الكرّامية والحنابلة والأشعريّة : تصح رؤيتُه ويُرى فى الآخرة ؛ يراه المؤمنون ؛ ثم اختلفوا ، فقالت الكرّامية والحنابلة : يُرى فى جهة فوق ، وحكى عن مضر وكهمس وأحمد الجبى[1] أنهم أجازوا رؤيتَه فى الدّنيا ، وملامسته ومصافحته ؛ وزعموا أنّ المخلصين يعانقونه متى شاءوا ، ويسمّون الحبّية .

وحكى شيخنا أبو الحسين فى " التصفّح " عن أيوب السجستانىّ من المرجئة ، أن البارئ تعالى تصح رؤيته ولمسه .

وذهب قوم إلى أنهم لا يزالون يرون الله تعالى ، وأن الناس كلّهم كافرهم ومؤمنهم يرونه ؛ ولكن لا يعرفونه .

---

(١) كذا فى ا ، وفى الحاشية نقلا عن القاموس : أحمد بن عبد الله الجبى ، ويقال : الجبابى ، لبيعه الجباب ، محدث ، وفى ب : « الجمى »

وقال مَنْ ترفّع عن هذه الطبقة منهم : لا يجوز أن يُرى بعين خلقت للفناء ؛ وإنما يرى في الآخرة بعين خلقت للبقاء .

وقال كثير من هؤلاء : إن محمدا صلى الله عليه وآله رأى ربّه بعينيْ رأسه ليلة المعراج . ورووْا عن كعب الأحبار أنّ الله تعالى قسّم كلامه ورؤيته بين موسى ومحمد عليه السلام .

ورووْا عن المبارك بن فضالة أنّ الحسن كان يحلف بالله : : قد رأى محمدٌ ربه .

وتعلق كثير منهم بقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى[1]﴾ ، وقالوا : كلّم موسى عليه السلام مرتين ، ورآه محمد صلى الله عليه وآله مرتين .

وأنكر ابن الهيصم مع اعتقاده أقوالَ الكرّامية ذلك ، وقال : إنّ محمدا صلى الله عليه وآله لم يَرَهُ ، ولكنه سوف يراه في الآخرة .

قال : وإلى هذا القول ذهبتْ عائشة وأبو ذرّ وقتادة ؛ وقد روى مثله عن ابن عباس وابن مسعود .

واختلف من قال : إنه يُرى في الآخرة ؛ هل يجوز أن يراه الكافر ؟ فقال أكثرهم : إنّ الكفارَ لا يروْنه ؛ لأنّ رؤيته كرامة ، والكافر لا كرامةَ له . وقالت السالمية وبعض الحشويّة : إنّ الكفار يروْنه يوم القيامة ؛ وهو قول محمد بن إسحاق بن خزيمة ؛ ذكر ذلك عنه محمد بن الهيصم .

فأما الأشعريّ وأصحابه ؛ فإنهم لم يقولوا كما قال هؤلاء : إنه يُرى كما يُرى الواحد منّا ، بل قالوا : يُرى ؛ وليس فوقًا ولا تحتا ولا يمينا ولا شمالا ولا أماما ولا وراء ؛ ولا يرى كلّه ولا بعضه ؛ ولا هو في مقابلة الرائي ولا منحرفًا عنه ؛ ولا تصحّ الإشارة إليه إذا رُئِيَ ،

---

(١) سورة النجم ١٣

وهو[1] مع ذلك يرى ويبصر . وأجازوا أيضا عليه أن تُسمع ذاته ،وأن تشمّ وتذاق وتمسّ، لا على طريق الاتصال ، بل تتعلق هذه الإدراكات كلّها بذاته تعلقًا عاريًا عن الاتصال .

وأنكرت الكرّامية ذلك ولم يُجيزوا عليه إلا إدراك البصر وحدَه ، وناقضهم شيخنا أبو الحسين فى " التصفّح " وألزمهم أحد أمرين ؛إما نفى الجميع أو إثبات إدراكه من جميع الجهات ، كما يقوله الأشعرية .

وذهب ضرار بن عمرو ، إلى أنّ الله تعالى يُرى يوم القيامة بحاسّة سادسة لا بهذا البصر. وقيل ذلك عن جماعة غيره .

وقال قوم : يجوز أن يحوّل اللهُ تعالى قوّة القلب إلى العين ، فيُعلم الله تعالى بها ، فيكون ذلك الإدراك علما باعتبار أنه بقوّة القلب ، ورؤية باعتبار أنّه قد وقع بالمعنى الحالّ فى العيْن .

فهذه الأنواع الأحد عشر هى الأقوال والمذاهب التى يشتمل قوله عليه السلام بنفى التشبيه عليها ؛ وسيأتى من كلامه عليه السلام فى نفى التشبيه ماهو أشدّ تصريحًا من الألفاظ التى نحن فى شرحها .

الفصـــــل الخامس

فى بيان أن الجاحد له مكابر بلسانه ومثبت له بقلبه

وهو معنى قوله عليه السلام : « فهو الذى تَشهد له أعلام الوجود ، على إقرار قلب ذى الجحود » .

لا شبهة فى أنّ العلم بافتقار المتغيّر إلى المغيّر ضرورىّ ؛ والعلم بأنّ المتغير ليس هو المغيّر

---

(١) ب : « ومع ذلك » .

إما أن يكون ضروريا أو قريبا من الضروريّ ، فإذاً قد شهدت أعلام الوجود على أنّ الجاحد لإثبات الصانع ؛ إنما هو جاحد بلسانه لا بقلبه ؛ لأنّ العقلاء لا يجحدون الأوليات بقلوبهم ، وإن كابروا بألسنتهم ؛ ولم يذهب أحدٌ من العقلاء إلى نفي الصانع سبحانه .

وأمّا القائلون بأنّ العالم وجد عن طبيعة ، وأنّ الطبيعة هي المدبرّة له ، والقائلون بتصادم الأجزاء في الخلاء الذي لا نهاية له ؛ حتى حَصَل منها هذا العالم . والقائلون بأن أصل العالم وأساس بنيته هو النّور والظلمة ، والقائلون بأنّ مبادئ العالم هي الأعداد المجرّدة ، والقائلون بالهَيُولَى القديمة ؛ التي منها حَدَث العالم ، والقائلون بعِشْق النفس للهَيُولَى ؛ حتى تكونت منها هذه الأجسام ؛ فكلّ هؤلاء أثبتوا الصانع ، وإنما اختلفوا في ماهيته وكيفية فعله .

وقال قاضي القضاة : إن أحداً من العقلاء لم يذهب إلى نفي الصانع للعالم بالكلّية ، ولكن قوما من الورّاقين اجتمعوا ووضعوا بينهم مقالة ؛ لم يذهب أحد إليها ؛ وهي أنّ العالم قديم لم يزل على هيئته هذه ، ولا إله للعالم ولا صانع أصلا ؛ وإنما هو هكذا ما زال ، ولا يزال من غير صانع ولا مؤثر .

قال : وأخذ ابن الراونديّ هذه المقالة فنصرَها في كتابه المعروف بكتاب " التاج " قال : فأما الفلاسفة القدماء والمتأخّرون ، فلم ينفوا الصانع ؛ وإنما نفوْا كونَه فاعلا بالاختيار ؛ وتلك مسألة أخرى . قال : والقول بنفي الصانع قريب من القول بالسّفسطة ؛ بل هو هو بعينه ؛ لأنّ من شكّ في المحسوس أعذر ممّن قال : إن المتحركات تتحرك من غير محرك حرّكها .

وقول قاضي القضاة هذا ، هو محضُ كلام أمير المؤمنين عليه السلام وعينُه ، وليس قول الجاحظ هو هذا ، لأنّ الجاحظ يذهب إلى أنّ جميع المعارف والعلوم الإلهية ضرورية ، ونحن ما ادّعينا في هذا المقام إلا أنّ العلم بإثبات الصانع فقط هو الضروريّ ، فأين أحدُ القولين من الآخر !

(٥٠)

ومن خطبة له عليه السلام :

الأصْلُ :

إنّمَا بَدْءُ وُقُوعِ الفِتَنِ أَهْوَاءٌ تُتَّبَعُ ، وَأَحْكَامٌ تُبْتَدَعُ ، يُخَالَفُ فِيهَا كِتَابُ اللهِ ، وَيَتَوَلَّى عليها رِجَالٌ رِجَالًا ، عَلَى غَيْرِ دِينِ اللهِ ، فَلَوْ أَنَّ البَاطِلَ خَلَصَ مِنْ مِزَاجِ الْحَقِّ لَمْ يَخْفَ عَلَى الْمُرْتَادِينَ ؛ وَلَوْ أَنَّ الْحَقَّ خَلَصَ مِنْ لَبْسِ البَاطِلِ ، انْقَطَعَتْ عَنْهُ أَلْسُنُ الْمُعَانِدِين ، وَلَكِنْ يُؤْخَذُ مِنْ هَذَا ضِغْثٌ وَمِنْ هَذَا ضِغْثٌ ، فَيُمْزَجَانِ ، فَهُنَالِكَ يَسْتَوْلِي الشَّيْطَانُ عَلَى أَوْلِيَائِهِ ، وَيَنْجُو الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ اللهِ الْحُسْنَى .

الشَّرْحُ :

المرتاد : الطالب . والضِّغث من الحشيش : القبضة منه ، قال الله تعالى : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا ﴾[1] .

يقول عليه السلام : إنّ المذاهب الباطلة والآراء الفاسدة التي يفتتن الناس بها ، أصلها اتباع الأهواء ، وابتداع[2] الأحكام التي لم تعرف يخالف فيها الكتاب ، وتحمل العصبية والهوى على تولّي أقوام قالوا بها ، على غير وثيقة من الدّين . ومستندُ وقوع هذه الشبهات امتزاجُ الحقّ بالباطل في النّظر الذي هو الطريق إلى استعلام المجهولات ، فلو أنّ النظر تخلّص مقدماته وترتّب قضاياه من قضايا باطلة ، لكان الواقع عنه هو العلم المحض ، وانقطع عنه ألسن المخالفين ، وكذلك لو كان النظرُ تخلص مقدماته من قضايا صحيحة ، بأن كان كله مبنيًّا

(١) سورة ص ٤٤

(٢) كذا في ج ، وفي ا ، ب : « اتباع » .

على الفساد ، لظهر فسادُه لطلبة الحقّ ، وإنما يقع الاشتباه لامتزاج قضاياه الصادقة بالقضايا الكاذبة .

مثال ذلك احتجاجُ مَنْ أجاز الرؤية بأنّ البارئَ تعالى ذاتٌ موجودة، وكلّ موجود يصحّ أن يُرَى ، فإحدى المقدمتين حقّ ، والأخرى باطل ، فالتبس أمرُ النتيجة على كثير من الناس .

ومثال مايكون المقدّمتان جميعا باطلتين ، قول قوم من الباطنية : البارئُ لاموجود ولا معدوم ؛ وكلّ مالا يكون موجودا ولا معدوما يصحّ أن يكون حيا قادرا ، فالبارئُ تعالى يصحّ أن يكون حيًّا قادرا ؛ فهاتان المقدمتان جميعا باطلتان . لاجَرَم أنّ هذه المقالة مرغوبٌ عنها عند العقلاء !

ومثال ماتكون مقدّماته حقا كلّها: العالَم متغيّر ، وكلّ متغيّر ممكن ؛ فالعالم ممكن، فهذا مما لا خلافَ فيه بين العقلاء .

فإن قيل: فما معنى قوله عليه السلام : « فهنالك يستولى الشيطان على أوليائه ، وينجُو الّذين سبقتْ لهم من الله الحسنى » ، أليسَ هذا إشعاراً بقول الجبرِة وتلويحا به ؟

قيل : لا إشعار فى ذلك بالجبْر ، ومراده عليه السلام أنه إذا امتزج فى النظر الحقّ بالباطل، وتركبت المقدمات من قضايا صحيحة وفاسدة، تمكّن الشيطان من الإضلال والإغواء، ووسوس إلى المكلّف، وخيّل له النتيجة الباطلة ، وأماله إليها ، وزيّنها عنده، بخلاف ما إذا كانت المقدّمات حقا كلّها ، فإنه لا يقدِر الشيطانُ على أن يخيّل له مايخالف العقل الصريح ؛ ولا يكون له مجال فى تزيين الباطل عنده ، ألا ترَى أنّ الأوّليات لا سبيل للإنسان إلى جَحْدها وإنكارها ، لا بتخييل الشيطان ولا بغير ذلك !

ومعنى قوله : « على أوليائه » ، أى على مَنْ عنده استعداد للجهل ، وتمرّن على اتباع الهوى ، وزهد فى تحقيق الأمور العقلية على وجهها ، تقليداً للأسلاف ، ومحبّة لاتباع المذهب المألوف ، فذاك هو الذى يستولى عليه الشيطان ويضلّه ، وينجو الذين سبقت لهم من الله الحسنى ، وهم الذين يتّبعون محض العقل ، ولا يركنون إلى التقليد ، ويسلكون مسلك التحقيق ، وينظرون النظر الدقيق[1] ، يجتهدون فى البحث عن مقدّمات أنظارهم ، وليس فى هذا الكلام تصريح بالجبْر ، ولا إشعار به على وجه من الوجوه ، وهذا واضح .

وحمَل الراوندىّ قوله عليه السلام : « فلو أنّ الباطل خَلَص... » إلى آخره ، على أنّ المراد به نفى القياس فى الشرع ، قال : لأنّ القائسين يحملون المسكوت عنه على المنطوق ، فيمتزج المجهول بالمعلوم ، فيلتبس ويُظَنّ لامتزاج بعضه ببعض حقًّا ، وهذا غير مستقيم ، لأن لفظ الخطبة أنّ الحق يمتزج بالباطل ، وأصحاب القياس لا يسلمون أنّ استخراج العلّة من الحكم المعلوم باطل ، بل يقولون إنه حقّ ، وإن الدليلَ الدالّ على ورود العبارة بالقياس ، قد أمّنهم من كونه باطلا .

* * *

واعلم أنّ هذا الكلامَ الذى قاله عليه السلام حقّ إذا تأملته ، وإن لم تفسره على ماقدمناه من التفسير ، فإنّ الذين ضلّوا من مقلّدة اليهود والنصارى وأرباب المقالات الفاسدة من أهل الملّة الإسلامية وغيرها ، إنما ضلّ أكثرهم بتقليد الأسلاف ، ومَن يحسنُ الظنّ فيه من الرؤساء وأرباب المذاهب ، وإنما قلّدهم الأتباع ، لما شاهدوا من إصلاح ظواهرهم ، ورفضهم الدنيا وزهدهم فيها ، وإقبالهم على العبادة ، وتمسّكهم بالدّين ، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، وشدّتهم فى ذات الله ، وجهادهم فى سبيله ، وقوّتهم فى

---

(١) ا ، ج : « النظر التام » .

مذاهبهم ، وصلابتهم فى عقائدهم ، فاعتقد الأتباع والخلَف والقرون التى جاءت بعدهم أنّ هؤلاء يجب اتّباعهم ، وتحرُم مخالفتهم ، وأنّ الحق معهم ، وأنّ مخالِفَهُم مبتدع ضالّ ، فقلدوهم فى جميع مانقل إليهم عنهم ، ووقع الضلال والغلط بذلك ، لأنّ الباطل استتر وانغمر بما مازجه من الحقّ الغالب الظاهر المشاهد عِيانا ، أو الحكم الظاهر ، ولولاه لما تروّج الباطل ، ولا كان له قبول أصلا .



---

(٥١)

ومن كلام له عليه السلام لما غلب أصحاب معاوية أصحابَه عليه السلام على شريعة الفرات بصِفِّين ومنعوهم من الماء :

الأصل :

قَدِ اسْتَطْعَمُوكُمُ الْقِتَالَ ، فَأَقِرُّوا عَلَى مَذَلَّةٍ ، وَتَأْخِيرِ مَحَلَّةٍ ، أَوْ رَوُّوا السُّيُوفَ مِنَ الدِّمَاءِ تَرْوَوْا مِنَ الْمَاءِ ؛ فَالْمَوْتُ فِي حَيَاتِكُمْ مَقْهُورِينَ ، وَالْحَيَاةُ فِي مَوْتِكُمْ قَاهِرِينَ .

أَلَا وَإِنَّ مُعَاوِيَةَ قَادَ لُمَةً مِنَ الْغُوَاةِ ، وَعَمَّسَ عَلَيْهِمُ الْخَبَرَ ، حَتَّى جَعَلُوا نُحُورَهُمْ أَغْرَاضَ الْمَنِيَّةِ .

* * *

الشرح :

استطعموكم القِتال، كلمة مجازية ،ومعناها : طلبوا القتال منكم ؛ كأنه جعل القتال شيئا يُستطعم ، أى يُطلب أكله ، وفى الحديث : « إذا استطعمكم الإمام فأطعموه » ، يعنى إمام الصلاة ، أى إذا أُرتِجَ فاستفتحكم فافتحوا عليه . وتقول :فلان يستطعمنى الحديث ؛ أى يستدعيه مِنّى ويطلبه .

واللُّمَة ، بالتخفيف : جماعة قليلة .

وعمّس عليهم الخبر ؛ يجوز بالتشديد ، ويجوز بالتخفيف ، والتشديد يعطى الكثرة ويفيدها ؛ ومعناه أبهم عليهم الخبر ،وجعله مظلما.ليلٌ عَمَاس ،أى مظلم، وقد عمِس الليل نفسه

بالكسر ؛ إذا أظلم وعمّه غيره ، وعمّست عليه عَمْساً ، إذا أريته أنك لاتعرف الأمر وأنت به عارف .

والأغراض : جمع غَرَض وهو الهدف .

وقوله : « فأقرّوا على مذلّة وتأخير مَحَلّة » ، أى اثبتوا على الذلّ وتأخر المرتبة والمنزلة ، أو فافعلوا كذا وكذا .

ونحو قوله عليه السلام : « فالموت فى حياتكم مقهورين » قول أبى نصر بن نُباتة :

والحسينُ الذى رأى الموت فى العِـزِّ حياة والعيشَ فى الذّلّ قتلا

وقال التّهامىّ :

وَمَنْ فَاتَه نَيْلُ العُلَا بعُلُومِه وَأَقْلَامِه فَلْيَبْغِهَا بحُسامِهِ[1]

فوتُ الفتى فى العزّ مثلُ حياتِه وعِيشتُه فى الذّلّ مثلُ حِمامِه

* * *

[الأشعار الواردة فى الإباء والأنَف من احتمال الضيم]

والأشعار فى الإباء الأنَف من احتمال الضيْم والذلّ والتّحريض على الحرب كثيرة ؛ ونحن نذكر منها هاهنا طَرَفًا ؛ فمن ذلك قول عمرو بن بَرّاقة الهَمْدانىّ :

وَكَيفَ ينامُ اللّيلَ مَنْ جُلُّ مالِهِ حُسامٌ كلون الملح أبيضُ صارمُ[2]

كَذَبْتُمْ وبيتِ اللهِ لاتأخذُونَها مراغَمَةً مادامَ للسّيْفِ قائمُ

وَمَنْ يَطْلُبِ المَالَ المنّع بالقَنا يَعِشْ ماجِداً أو تخترِمْه الخوارم[3]

---

(١) ديوانه ٣٣

(٢) من أبيات له فى الأغانى ٢١ : ١١٣ ، ١١٤ (ساسى) .

(٣) الأغانى : « الخارم » .

ومثله :

ومن يطلبِ المالَ الممنَّعَ بالقَنَا يَعِشْ مَاجِداً أو يُوْدَ فيها يُمَارِسُ

وقال حرب بن مِسْعر :

عَطَفْتُ عَلَيْهِ المُهرَ عَطفَةَ باسِلٍ كَمِيٍّ ومَنْ لَا يَظْلِمِ النَّاسَ يُظْلَمِ
فَأَوجَرْتُهُ لَدْنَ الكُعُوبِ مُثَقَّفاً نَخَرّ صريعاً لليَدَيْنِ وللفَمِ

وقال الحارث بن الأرقم :

وَمَاضَاقَ صَدْرِي يَاسُلَيْمَى بِسُخْطِكُمْ وَلَكِنَّنِي فِي الحَادِثَاتِ صَلِيبُ
تَرُوكٌ لِدارِ الخَسْفِ والضَّيْمِ ، مُنْكِرٌ بَصِيرٌ بِفِعلِ المكرُماتِ أَرِيبُ
إِذَا سَامَنِي السُّلْطَانُ ذُلًّا أَبَيْتُهُ ولم أُعطِ خَسْفاً مَا أَقَامَ عَسِيبُ

وقال العباس بن مِرْداس السُّلَمِيّ :

بأبِي فَوارسَ لَا يَعْرَى صَوَاهِلُهَا أَنْ يَقْبَلُوا الخَسْفَ مِنْ مَلْكٍ وإنْ عَظُما
لَا والسيوفُ بأيدِينا مُجَرَّدَةً لَا كانَ مِنَّا غَدَاةَ الرَّوْعِ مُنْهَزِما

وقال وهب بن الحارث :

لَا تَحسبَنِّي كأقوامٍ عَبَثْتَ بِهِمْ لن يأنَفُوا الذُّلَّ حتى تَأْنَفَ الحُمُرُ
لاتُلقِيَنِّي قَذاةً لستُ فاعلَها واحذر شَبَاتِي فَقِدْماً يَنفَعُ الحَذَرُ
فقدْ عَلِمْتَ بأنِّي غَيْرُ مُهْتَضَمٍ حَتَّى يلوحَ بِبطنِ الرَّاحَةِ الشَّعَرُ

وقال المسيَّب بن عَلَس :

أَبْلِغْ ضُبَيْعَةَ أَنَّ البِلا دَ فيها لذي قُوَّةٍ مُغْضَبُ[1]

---

(١) ديوان الأعشين ٣٤٩ ، مع اختلاف فى الرواية

وقدْ يقعدُ القومُ فى دارهمْ · إذا لم يُضامُوا وإنْ أجْدَبُوا
وَيَرْتَحِلُ القومُ عِنْدَ الهوَا · نِ عَنْ دارِهِمْ بَعْدَ ما أخصبُوا
وَقدْ كَانَ سَامَةُ فى قَوْمِهِ · لَهُ مَطْعَمٌ وَلَهُ مَشْرَبُ
فَسامُوهُ خَسْفاً فَلَمْ يَرْضَهُ · وَفِى الأرْضِ عَنْ ضَيْمِهِمْ مَهْرَبُ

وقال آخر :

إنّ الهوانَ حِمارُ القومِ يَعْرِفُهُ · والحرُّ يُنكِرهُ والرَّسْلَةُ الأجُدُ[1]
وَلَا يُقِيمُ عَلَى خَسْفٍ يُرَادُ بِهِ · إلّا الأذَلّانِ عَيْرُ الحىِّ وَالْوَتِدُ[2]
هَذَا عَلَى الخسْفِ مَشْدُودٌ بِرُمَّتِهِ · وَذَا يُشَجُّ فَلَا يأوِى له أحَدُ[3]
فإنْ أقمْتُمْ عَلَى ضَيْمٍ يُرَادُ بِكُمْ · فإنّ رَحْلِى لَهُ والٍ وَمُعْتَمَدُ
وفى البلادِ إذا ما خفتُ بادرَةً · مكروهةً عن ولاةِ السُّوءِ مُفْتَقَدُ

وقال بعض بنى أسد :

إنّى امرؤٌ من بنى خُزَيْمة لا · أطعمُ خسفاً لناعِبٍ نَعَبَا
لستُ بمعطٍ ظُلامةً أبدا · عُجْماً ولا أتقى بها عَرَبَا

دخل مويلك السَّدوسىّ إلى البصرة يبيع إبلا ، فأخذ عامل الصدقة بعضها ، فخرج إلى البادية وقال :

ناقُ إنّى أرَى المُقامَ على الضَّيْـ · ـمِ عَظِيماً فى قُبَّةِ الإسْلَامِ
قَدْ أرانى وَلِى مِنَ العامِلِ النِّصْـ · ـفُ بِحَدِّ السِّنَانِ أوْ بالحُسَامِ

---

(١) المتلمس ، معاهد التنصيص ٢ : ٣٠٦ . الرسلة : الناقة السهلة السير . والأجد : الموثقة الخلق .
(٢) العير ، بفتح العين : الحمار ، وغلب على الوحشى ؛ والمراد به هنا الأهلى .
(٣) الرمة : القطعة من الحبل ، وأوى له ، أى رق .

وَوَثِقتَ بِالدُّنيَا وأَنـــتَ تَرَى جَمَاعَتَهَا شَتَاتَا
وَعَزَمتَ وَيكَ عَلَى الحَيَا ةِ وَطُولِهَا عَزماً بَتَاتَا
يَا مَنْ رَأَى أَبَوَيْهِ — فِيــمَنْ قَدْ رَأَى — كَانَا فَمَاتَا
هَل فِيهِمَا لَكَ عِبـــرَةٌ أَم خِلتَ أَنَّ لَكَ انفِلاتَا !
وَمَنِ الذِي طَلَبَ التَفَلُّـــتَ مِن مَنِيَّتِهِ فَفَاتَا !
كُلٌّ تُصَبِّحُهُ المَنِـــيَّةُ أَو تُبَيِّتُهُ بَيَاتَا

وله :

أَرَى الدُّنيَا لِمَنْ هِيَ فِي يَدَيهِ عَذَاباً ، كُلَّمَا كَثُرَت لَدَيهِ[1]
تُهِينُ المُــكرِمِينَ لَهَا بِصُغْرٍ وَتُــكْرِمُ كُلَّ مَنْ هَانَتْ عَلَيهِ
إِذَا استَغْنَيْتَ عَنْ شَيءٍ فَدَعْهُ وَخُــذْ مَا أَنْتَ مُحتَاجٌ إِلَيهِ

وله :

أَلَمْ تَرَ رَيْبَ الدَّهرِ فِي كُلِّ سَاعَةٍ لَهُ عَارِضٌ فِيــهِ المَنِيَّةُ تَلْمَعُ[2]
أَيَا بَانِيَ الدُّنيَا لِغَيرِكَ تَبتَنِي وَيَا جَامِعَ الدُّنيَــا لِغَيرِكَ تَجمَعُ
أَرَى المَرْءَ وَثَّاباً عَلَى كُلِّ فُرْصَةٍ وَلِلمَرءِ يَوماً لَا مَحَالَةَ مَصْرَعُ
يُنَازِلُ مَا لَا يَملِكُ المُلكَ غَيرُهُ مَتَى تَنقَضِي حَاجَاتُ مَنْ لَيسَ يَشبَعُ !
وَأَيُّ امرِئٍ فِي غَايَةٍ لَيسَ نَفسُهُ إِلَى غَايَةٍ أُخرَى سِوَاهَا تَطَلَّعُ !

وله :

سَلِ الأَيَّامَ عَنْ أُمَمٍ تَقَضَّتْ سَتُخْبِرُكَ المَعَالِمُ وَالرُّسُومُ[3]

---

(١) ديوانه ٢٨٨
(٢) ديوانه ١٤٤
(٣) ديوانه ٢٤٦

وإلا حُسامًا يَبْهَرُ العَيْنَ لَمْحُـهُ ... كصاعقةٍ فى عارضٍ قد تبَسَّمَا

* * *

[أباة الضيم وأخبارهم]

سيّد أهل الإباء ، الذى علّم الناس الحميّة والموت تحت ظلال السيوف ، اختياراً له على الدنيّة ، أبو عبد الله الحسينُ بن علىّ بن أبى طالب عليهما السلام ؛ عُرِض عليه الأمان وأصحابه ، فأنِفَ من الذّلّ ، وخاف من ابن زياد أن يناله بنوعٍ من الهوان ؛ إن لم يقتله ، فاختار الموت على ذلك .

وسمعت النقيب أبا زيد يحيى بن زيد العلوىّ البصرىّ ، يقول : كأنّ أبيات أبى تمام فى محمد بن حُميد الطائىّ[1] ما قيلت إلا فى الحسين عليه السلام :

وَقَدْ كَانَ فَوْتُ الموتِ سهلاً فَرَدَّهُ ... إليه الحفاظُ المُرُّ والخُلُقُ الوَعْرُ

ونفسٌ تعافُ الضَّيْمَ حتى كأنّه ... هو الكفرُ يومَ الرَّوْعِ أو دُونَهُ الكُفْرُ

فأثبتَ فى مُسْتَنْقَعِ الموتِ رِجْلَهُ ... وقال لها : من تحتِ أخْمصِكِ الحَشْرُ

تَرَدَّى ثيابَ الموتِ حُمْراً فما أتَى ... لَهَا الليلُ إلا وَهْيَ مِنْ سُنْدُسٍ خُضْرُ

لما فرّ أصحابُ مصعب عنه ، وتخلّف فى نفر يسير من أصحابه ، كسر جَفْنَ سيفه ، وأنشد :

فإنّ الأُلَى بالطّفّ مِنْ آلِ هاشمٍ ... تأسَّوْا فسَنُّوا للكِرامِ التّآسيا[2]

فعلم أصحابُه أنّه قد استقتل .

ومن كلام الحُسين عليه السلام يوم الطفّ ، المنقول عنه ، نقله عنه زينُ العابدين علىّ ابنُه عليه السلام : « ألا وإنّ الدعىّ ابن الدعىّ ، قد خيّرنا بين اثنتين : السَّلّة[3]

---

(١) ديوانه ٣٦٨ ـ طبع بيروت .

(٢) لسليمان بن قتة . الكامل ١ : ١٤٤ ؛ والطف : من ضاحية الكوفة ؛ كان فيها مقتل الحسين عليه السلام .

(٣) السل : انتزاعك الشىء وإخراجك إياه فى رفق ؛ وعند السلة ؛ أى عند استلال السيوف .

أو الذِّلّة، وهيهات مِنّا الذلة ! يأبى الله ذلك لنا ورسوله والمؤمنون ، وحجور طابت ، وحُجُزٌ طَهُرت[1] ، وأنوفٌ حَمِيّة ، ونفوس أبية » .

وهذا نحو قول أبيه عليه السلام ، وقد ذكرناه فيما تقدم : « إنّ امرأ أمكن عدوًّا من نفسه ، يعرُق لحمه ، ويفري جِلده ، ويهشِم عظمه ، لعظيمٌ عجزُه ، ضعيف ما ضُمّت عليه جوانح صدره ؛ فكن أنت ذاك إن شئت ؛ فأما أنا فدون أن أعطِيَ ذلك ضربٌ بالمشرفيّة تطير منه فَراش الهام ، وتطيح السواعد والأقدام » .

* **

وقال العباس بن مرداس السُّلَمِيّ :

مقال امرئٍ يُهدى إليك نَصيحةً ... إذا معشرٌ جادوا بعرضِك فابخَلِ[2]

وإن بَوّءوك منزلا غير طائلٍ[3] ... غليظاً فلا تنزل به وتحوّلِ

ولا تَطْعَمَنْ ما يعلِفونك إنّهم ... أتوك على قُرْبَاهُمُ بالمثمّلِ[4]

أراك إذاً قد صرتَ للقوم ناضحاً ... يقال له بالغَرْب أدْبِرْ وأقبِلِ[5]

فخُذْها فليست للعزيز بِخُطّةٍ ... وفيها مقامٌ لامرئٍ مُتذَلِّلِ

---

(١) الحجز : جمع حجزة ، حيث يثنى طرف الإزرار ، كناية عن العفة .

(٢) من أبيات في الحماسة ٢ : ١١ — بشرح التبريزي ، مطلعها :

أَلا أَبْلِـغْ أبا سَلْمَى رَسُولاً يَرُوعُهُ ... وَلَوْ حَلّ ذَا سِدْرٍ وأَهْلِي بِمَسْجَلِ

(٣) الحماسة : « مبركا غير طائل » .

(٤) قال التبريزي : المثمل : هو السم الذي قد خلط به ما يقويه ويهيجه ليكون أنفذ ، أي سقوك السم وإن كانوا أقرباءك فلا تغتر بهم وكن ذا أنفة » . وبعده في رواية التبريزي :

أبعد الإزارِ مُجْسَدًا لكَ شاهِدًا ... أتيتَ به في الدار لم يتزيّلِ

(٥) الناضح : البعير الذي يستقى عليه الماء ، قال التبريزي : « يقول : أبعد الإزار مخضوبا بالدم أتيت به في الدار شاهدا لما لهم ! فإن فعلت ذلك صرت كالناضح للقوم انقيادا لهم » .

وله أيضا :

فحاربْ فإنْ مولاكَ حارد نَصْرُهُ ... فَفِي السَّيف مولى نصرُهُ لا يحارِدُ[1]

وقال مالك بن حَرِيم الهَمْدانيّ :

وَكُنتُ إذا قومٌ غَزَوْنِي غزَوْتُهمْ ... فَهلْ أنَا فِي ذَا يَالَ هَمْدَانَ ظَالِمُ ![2]

مَتَى تَجْمَعِ القَلْبَ الذَّكِيَّ وَصارِماً ... وَأَنفاً حَمِيًّا تَجتنبْك المظالِمُ

وقال رُشَيْد بن رُمَيْض العنزيّ :[3]

باتوا نِياما وابنُ هند لم يَنَمْ ... بَاتَ يُقاسيها غُلامٌ كالزُّلَمْ[4]

خَدَلَّجُ السَّاقَيْن خَفَّاق القَدَمْ[5] ... قد لَفَّها اللَّيلُ بِسَوَّاقٍ حُطَمْ[6]

ليسَ براعِي إبلٍ وَلَا غَنَمْ ... وَلَا بجزَّارٍ عَلَى ظَهْرِ وَضَمْ[7]

* مَنْ يَلْقَنِي يُودِ كَمَا أُودَتْ إرَمْ *

وقال آخر :

وَلَسْتُ بمبتَاعِ الحَيَاةِ بِسُبَّةٍ ... وَلَا مُرتَقٍ مِنْ خَشْيَةِ الموتِ سُلَّمَا[8]

وَلَمَّا رأيتُ الوِدَّ لَيسَ بنافِعِي ... عَمَدْتُ إلى الأمرِ الَّذِي كانَ أحزَمَا

* * *

---

(١) ديوان الحماسة ٢ : ١٥ ـ بشرح التبريزى : وحارد نصره ؛ أى امتنع ؛ والمحاردة فى الأصل قلة اللبن ، واستعير هنا .

(٢) من قصيدة له فى الأغانى ٢١ : ١١٣ ، ١١٤ وحريم ، ضبطه البكرى فى اللآلى ٧٤٨ « بالحاء والراء المهملتين ، الحاء مفتوحة ، والراء مكسورة » ، وقال : « ومن روى حزيم ، بالزاى فقد صحف » .

(٣) ديوان الحماسة ١ : ٣٣٣ ـ بشرح التبريزى ؛ من وصف غارة .

(٤) الزلم : القدح . يقاسيها ، أى يعانى الغارة كيف يوقعها ويدبرها .

(٥) خدلج الساقين : ممتلئهما . خفاق القدم : سريع الخطو ؛ ضراب بها للأرض .

(٦) قد لفها ، أى الإبل ؛ وجمع الفعل لليل على المجاز . والحطم : الذى لا يبقى من السير شيئا ؛ والمعنى أنه جمعها برجل متناهى القوة ، عنيف السوق .

(٧) الوضم : كل ما قطع عليه اللحم .

(٨) للحصين بن حمام المرى ، المفضليات ٦٠ مع اختلاف فى الرواية .

ومن أباة الضيم يزيد بن المهلب ؛ كان يزيد بن عبد الملك يشنؤه قبل خلافته ؛ لأسباب ليس هذا موضع ذكرها ، فلما أفضَتْ إليه الخلافة ، خلعه يزيد بن المهلّب ، ونزع يده من طاعته ، وعلم أنّه إنْ ظَفِر به قتله وناله من الهوان ما القتل دونه ، فدخل البصرة ومَلَكَها عَنْوَةً ، وحبس عديّ بن أرطاة عامل يزيد بن عبد الملك عليها ، فسرّح إليه يزيد بن عبد الملك جيشاً كثيفا ، ويشتمل على ثمانين ألفا من أهل الشام والجزيرة ، وبعث مع الجيش أخاه مَسْلمة بن عبد الملك، وكان أعرَف الناس بقيادة الجيوش وتدبيرها، وأيمنَ الناس نَقِيبةً في الحرب ، وضمّ إليه ابنَ أخيه العبّاس بن الوليد بن عبد الملك، فسار يزيد بن المهلّب من البصرة ، فقدِم واسطَ ، فأقام بها أياما ، ثم سار عنها فنزل العَقْر[1]، واشتملت جريدة جيشه على مائة وعشرين ألفاً ، وقدِمَ مسلمة بجيوش الشام ، فلما تراءى العسكران ، وشبّت الحربُ ، أمرَ مسلمة قائدا من قُوّاده أن يحرق الجسور التي كان عَقَدها يزيد بن المهلّب فأحرقها ، فلما رأى أهلُ العراق الدخان قد علا انهزموا ، فقيل ليزيد ابن المهلّب : قد انهزم الناس ، قال : ومِمَّ انهزموا ؟ هل كان قتال ينهزم الناس مِنْ مثله ؟ فقيل له : إنّ مسلمة أحرَق الجسور فلم يثبتوا ، فقال : قبحهم الله! بقٌ دُخِّن عليه فطارا ثم وقف ومعه أصحابه ، فقال : اضربوا وجوهَ المنهزمين ، ففعلوا ذلك حتى كَثُروا عليه ، واستقبله منهم أمثال الجبال، فقال : دعوهم قبّحهم الله! غنمٌ عَدَا في نواحيها الذئب .وكان يزيد لا يحدّث نفسه بالفرار ، وقد كان أتاه يزيد بن الحكم بن أبي العاص الثقفيّ بواسط، فقال له :

فعِشْ مَلِكاً أو مُتْ كريما فإن تَمُتْ وسيفك مشهور بكفّك تُعْذَرِ

فقال : ما شعرت ، فقال :

---

(١) قال ابن خلكان : «هي عقر بابل ؛ وهي عند الكوفة بالقرب من كربلاء ؛ الموضع الذي قتل فيه الحسين رضي الله عنه » .

إن بنى مروان قد بادَ ملكُهُمْ   فإن كنت لم تشعر بذلك فاشعُرِ

فقال : أما هذا فنعم . فلما رأى يزيد انهزامَ أصحابه ، نزل عن فرسه ، وكسر جَفْن سيفه واستقتَل ، فأتاه آت فقال : إن أخاك حبيباً قد قُتِل، فزاده ذلك بصيرة فى توطينه نفسه على القتل ؛ وقال : لاخير فى العَيْش بعد حبيب ! والله لقد كنت أبغَضُ الحياةَ بعد الهزيمة ؛ وقد ازددتُ لها بغضا ؛ امضوا قُدُماً . فعلم أصحابه أنه مستميت ، فتسلّل عنه مَنْ يكره القتال ، وبَقِىَ معه جماعة خشنة ، فهو يتقدم كلما مرّ بخيل كشَفَها ، وهو يقصد مسلمة ابن عبدالملك لايريد غيره ، فلما دنا منه ، أدنَى مسلمةُ فرسَه ليركبَ، وحالت خيولُ أهل الشام بينهما ، وعطفت على يزيد بن المهلب ؛ فجالدم بالسيف مصلَتا[1] ؛ حتى قتل وحُمِل رأسُه إلى مسلمة ، وقتل معه أخوه محمد بن المهلب ؛ وكان أخوهما المفضّل بن المهلب ؛ يقاتل أهل الشام فى جهة أخرى ، ولا يعلمُ بقتل أخويه يزيد ومحمد ؛ فأتاه أخوه عبد الملك بن المهلب ، وقال له : ماتصنع وقد قتل يزيد ومحمد ، وقبلهما قتل حبيب ، وقد انهزم الناس!

وقد روى أنه لم يأته بالخبرِ على وجهه ، وخاف أن يخبره بذلك فيستقتل ويُقتل ،فقال له : إنّ الأمير قد انحدر إلى واسط ، فاقتصّ أثره ، فانحدر المفضّل حينئذ ، فلما علم بقتل إخوته ، حَلَف ألا يكلم أخاه عبد الملك أبدا : وكانت عين المفضّل قد أصيبت من قبل فى حرب الخوارج ، فقال : فضحنى عبد الملك فضحه الله ! ما عذرى إذا رآنى الناس فقالوا : شيخ أعور مهزوم ، ألا صدقنى فقتلت ! ثم قال :

وَلَاخيْرَ فِى طَعْنِ الصَّنَادِيدِ بِالْقَنَا   وَلَا فِى لِقَاءِ النَّاسِ بَعْدَ يَزِيدِ

فلما اجتمع مَنْ بقى من آل المهلب بالبصرة بعد الكسرة ، أخرجوا عدىّ بن أرطاة أمير البصرة من الحبس ، فقتلوه وحملوا عيالهم فى السفن البحرية ، ولجّجوا فى البحر ؛ فبعث إليهم مسلمة بن عبد الملك بعثا عليه قائد من قواده ، فأدركهم فى قَنْدَابيل[2] ؛ فحاربهم

---

(١) مصلتا ، أى مجردا من غمده .

(٢) قندابيل : مدينة بالسند .

وحاربوه ، وتقدّم بنو المهلب بأسيافهم ، فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم ، وهم : المفضّل بن المهلّب ، وزياد بن المهلب ، ومروان بن المهلب، وعبد الملك بن المهلب ، ومعاوية بن يزيد ابن المهلّب، والمنهال بن أبى عُيينة بن المهلب، وعمرو والمغيرة ابنا قبيصة بن المهلب؛ وحملت رءوسهم إلى مسلمة بن عبد الملك ؛ وفى أذن كلّ واحد منهم رقعة فيها اسمه ، واستؤسر الباقون فى الوقعة ، فحملوا إلى يزيد بن عبد الملك بالشام؛ وهم أحدَ عشر رجلا، فلما دخلوا عليه قام كُثيِّر بن أبى جمعة ، فأنشد :

حَلِيمٌ إذا ما نَالَ عَاقَبَ مُجْمِلاً ... أشدّ العقاب أو عفا لم يُثَرِّبِ

فعفواً أميرَ المؤمنين وحِسْبَــةً ... فمَا تَأْتِهِ مِنْ صَالِحٍ لك يكتبِ

أساءوا فإن تصفحْ فإنك قادرٌ ... وأفضل حلم حسبةً حلمُ مغضَبِ

فقال يزيد : أطّت [1] بك الرحم يا أبا صخر ! لولا أنهم قدَحوا فى الملك لعفوت عنهم ؛ ثم أمر بقتلهم فقتلوا ، وبقى منهم صبىّ صغير ، فقال : اقتلونى فلست بصغير، فقال يزيد بن عبد الملك : انظروا هل أنبت ! فقال : أنا أعلم بنفسى ، قد احتلمتُ ووطئت النساء فاقتلونى ؛ فلا خيرَ فى العيش بعد أهلى ! فأمر به فقتل .

قال أبو عبيدة معمر بن المثنّى : وأسماء الأسارى الذين قتلوا صبرا — وهم أحد عشر مُهَلَّبِيًّا : المبارك وعبـد الله والمغيرة والمفضّل والمنجاب ؛ بنو يزيد بن المهلب . ودُرَيد والحجاج وغسان وشبيب والفضل ؛ بنو المفضل بن المهلب لصلبه. والفضل بن قبيصة بن المهلب . قال: ولم يبق بعد هذه الوقعة الثانية لأهل المهلّب باقية إلا أبو عيينة بن المهلب. وعمر بن يزيد بن المهلب ، وعثمان بن المفضّل بن المهلب ، فإنهم لحقوا برِتْبيل [2] ، ثم أومِنُوا بعد ذلك .

* * *

---

(١) أطت بك الرحم : رقت وحنت .

(٢) رتبيل : من ملوك الترك .

وقال الرضيّ الموسويّ رحمه الله تعالى :

ألا لله بادرةُ الطِّلاَبِ ... وعزمٌ لا يُرَوَّعُ بالعتابِ[1]
وكلُّ مشمِّر البُرْدَين يهوي ... هُوِيَّ المصلِتات إلى الرقابِ
أعاتبهُ عَلَى بُعْدِ التنائي ... فيعذِلُني عَلَى قُرْبِ الإيابِ
رأيتُ العجزَ يخضعُ لِلَّيالي ... ويرضى عن نوائبها الغِضَابِ
وآمل أنْ تطاوِعني اللَّيالي ... وينشب في المُنَى ظفري ونابي
ولولا صولة الأقدارِ دُونِي ... هَجَمْتُ عَلَى العُلاَ مِنْ كلِّ بابِ

وقال أيضا :

لا يُبْدِ الهمومَ إلا غلامٌ ... يَرْكَبُ الهولَ والحسامُ رَدِيفُ[2]
ما يذِلُّ الزَّمانُ بالفقرِ حُرًّا ... كيفما كان فالشريفُ شريفُ

وقال أيضا رحمه الله تعالى :

وَلَسْتُ أضِلُّ في طُرُقِ المعالي ... وَنَارُ العِزِّ عاليـــةُ الشُّعَاعِ[3]
وَدُونَ المَجْدِ رَأْيٌ مُسْتَطِيلٌ ... وَبَاعٌ غَـــيْرُ مَجْبُوبِ الذِّرَاعِ
وَيُعْجِبُنِي البِعادُ كَأَنَّ قَلْبِي ... يحدِّث عن عديِّ بن الرِّقاعِ
فَرِدْ يَهْنِي العلاء بلا رقيبٍ ... وشمِّر في الأمورِ بلا نزاعِ
وَلَا تَغْرُرْكَ قَمْقَمَةُ الأعادي ... فذاك الصَّخر خَرَّ من اليَفَاعِ
وَنَحْنُ أحقُّ بالدُّنيا وَلَكِنْ ... تُخَيِّرَتِ القطوفُ عَلَى الوَسَّاعِ[4]

***

---

(١) ديوانه لوحة ٧٧ ، من قصيدة يفتخر ويمدح فيها آل البيت ويذكر قبورهم ويتشوقها .

(٢) ديوانه ، لوحة ١٨٩ .

(٣) ديوانه ، لوحة ٣٦ من قصيدة يمدح فيها أباه ويهنئه .

(٤) القطوف : الدابة البطيئة السير . والفرس الوساع : الجواد ذو السعة في خطوه .

وقال حارثة بن بدر الغُدانيّ :

أُهــانُ وأُقصَى ثم يَنتصحُونَني ۞ وَمَنْ ذَا الّذِي يُعطِي نصيحتَه قَسْرَا !

رأيتُ أكُفّ المُصلِتين عليكُمُ ۞ مِلاءً وكَفِّي من عطائكُمُ صِفْرَا

مَتَى تسألوني مَا عَلَيَّ وَتَمنعُوا الـ ۞ ذِي لِيَ ، لاأستطيعُ في ذلِكُمْ صَبْرَا

وقال بعض الخوارج :

تُعيِّرُني بالحرب عِرْسِي وَمَا دَرَتْ ۞ بأنّي لهـا في كل ما أمَرَتْ ضِدّ

لَحَا اللهُ قوماً يَقعُدونَ وَعندَهُمْ ۞ سُيُوفٌ ولم يعصب بأيديهمُ قِدّ

وقال الأعشى :

أبالموت خَشّتني عِبادٌ وإنّما ۞ رأيتُ منايا القوم يَسْعَى دليلها[1]

وما موتة إنْ مِتُّها غير عاجز ۞ بعارٍ إذا ما غالتِ النفسَ غولُها

وقال آخر :

فلا أسْمَعنْ فيكم بأمر هَضيمةٍ ۞ وضيمٍ ولا تسمعْ به هامتي بَعْدِي

فإنّ السنانَ يَركب المرءُ حَدّه ۞ من الضّيم ، أو يعدُو على الأسَدِ الوَرْدِ

ومثله :

إذا أنت لم تُنصِفْ أخاك وَجدْتَه ۞ على طرف الهِجْرانِ إن كانَ يَعقِلُ[2]

وَيَرْكَبُ حَدّ السّيفِ مِنْ أنْ تَضيمَهُ ۞ إذا لم يكن عن شَفْرَةِ السّيفِ مَعْدِلُ

---

(١) ديوانه ١٢٥ .

(٢) لمعن بن أوس ، ديوانه ٥٩ .

وقال آخر :

كَرِهُوا الموتَ فاسْتُبِيحَ حِمَاهُمْ ... وأقامُوا فعلَ اللئيمِ الذَّليلِ

أمن الموت تهربون فإنَّ الـ ... ـموتَ الذَّليلِ غيرُ جميلِ

وقال بشامة بن الغدير :

وإنَّ الَّتى سامَكُم قومُكُمْ ... هُمُ جعلُوها عليكم عُدُولا[1]

أخِزْىُ الحياةِ وكُرْهُ المماتِ ... فَكلاًّ أراهُ طَعَاماً وَبيلاَ

فإن لم يكن غيرُ إحداهما ... فسيرُوا إلى الموتِ سَيْراً جميلا

وَلَا تَقْعُدوا وَبِكُمْ مُنَّةٌ ... كَفَى بالحوادثِ للمرءِ غُولا

***

قال يزيد بن المهلّب فى حرب جُرجان لأخيه أبى عيينة : ماأحسنُ منظرٍ رأيتَ فى هذه الحرب ؟ قال : سيف بن أبى سَبْرة وبيضته ؛ وكان عبدُ الله بن أبى سَبْرة حَمَل على غلام تركىّ قد أفرج الناس له ، وصدوا عنه لبأسه وشجاعته ، فتضاربا ضَرْبَتَيْن ، فقتله ابن أبى سبرة بعد أن ضربه التركىّ فى رأسه ، فنشب سيفُه فى بيضة ابن أبى سَبْرة ، فعاد إلى الصفّ وسيفه مصبوغ بدم التركىّ وسيف التركى ناشب فى بيضته كجزء منها يَلْمع ، فقال الناس : هذا كوكب الذنب ، وعجبوا من منظره .

وقال هُدْبة بن خَشْرم :

وإنى إذ ماالموتُ لم يكُ دُونَهُ ... قِدَى الشبرِ أحمى الأنفَ أن أتأخَّرا[2]

ولكنّنِي أُعْطِى الحفيظَةَ حَقَّهَا ... فأعرِفُ معروفاً وأنكر منكرا

وقال آخر :

إنى أنا المرء لا يُبْقِى عَلَى تِرَةٍ ... ولا يقرّ على ضَيْمٍ إذا غُشِيا

(١) مختارات ابن الشجرى ١٦ ، المفضليات ٥٩

(٢) قدى الشبر : قدره ، والبيت فى اللسان (٢٠ : ٣٢) .

ألقى المنيةَ خَوْفاً أن يقال فتًى أمسى ـ وقد ثبت الصَّفان ـ منهزما

وقال آخر :

قَوِّضْ خيامَك والتمِسْ بَلَداً تنأى عن الغاشِيك بالظُّلْمِ
أو شُدَّ شدة بَيْهَسٍ فعسى أن يتَّقُوك بصفحة السِّلْمِ (١)

استنصر سبيع بن الخطيم التيميّ من بنى تيم اللات بن ثعلبة زيدَ الفوارس الضبيّ فنصره ، فقال :

نَبَّهتُ زيداً فلم أفْزَعْ إلى وَكَلٍ رثِّ السلاح ولا فى الحىّ مغمورِ
سالَتْ عليه شعابُ الحىِّ حين دَعَا أنصارَه بوجوهٍ كالدنانيرِ

وقال أبو طالب بن عبد المطلب :

كذبتم وبيت الله نُخْلِي مُحمَّداً ولما نطاعِنْ دونه ونُنَاضلِ (٢)
وَنَنْصُره حتى نُصَرَّعَ حوله ونَذْهَلَ عن أبنائنا والحلائلِ

* * *

لما برز علىّ وحمزةُ وعبيدة عليهم السلام يوم بَدْرٍ إلى عُتْبة وشيبة والوليد ، قَتَل علىّ عليه السلام الوليدَ ، وقتل حمزةُ شيبة، على اختلاف فى رواية ذلك : هل كان شيبة قِرْنَه أم عتبة ؟ وتجالَدَ عُبيدة وعُتْبة بسيفيهما، فجرحَ عُبيدةُ عُتْبة فى رأسه ، وقطع عُتبة ساق عُبَيدة، فكرّ علىّ وحمزة عليهما السلام على صاحبهما ، فاستنقذاه من عُتْبة ، وخبطاه بسيفيهما حتى قتلاه واحتملا صاحبَهما ، فوضعاه بين يدىْ رسول الله صلى الله عليه وآله فى العَرِيش ، وهو يجود بنفسه ، وإنّ مُخَّ ساقِه لَيسِيلُ ، فقال : يارسول الله ، لو كان أبو طالب حيًّا لعلم أنى أولى منه بقوله :

---

(١) البيهس : الشجاع .
(٢) ديوانه ١١٠ ، ١١١ مع اختلاف فى الرواية

كذَبتُم وبيتِ الله نُخلِي مُحمّداً ... ولمّا نطاعِنْ دُونَهُ ونُناضِلِ
وننصره حتى نصرَّعَ حولَه ... ونذهلَ عن أبنائنا والحلائلِ

فبكى رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقال : اللهم أنجِزْ لى ماوعدتنى ! اللهمّ إن تَهلِكْ هذه العصابة لاتُعبد فى الأرض » .

* * *

لما قدم جيش الحرّة إلى المدينة ، وعلى الجيش مُسلم بن عقبة المرىّ ، أباح المدينة ثلاثا ، واستعرض أهلها بالسيف جَزْراً كما يَجْزُرُ القصّاب الغنم ؛ حتى ساخت الأقدام فى الدّم ، وقتل أبناء المهاجرين والأنصار وذرية أهل بدر ، وأخذ البيعة ليزيد بن معاوية على كلّ من استبقاه من الصحابة والتابعين ؛ على أنّه عبدٌ قِنّ لأمـــير المؤمنين يزيد بن معاوية ؛ هكذا كانت صورة المبايعة يوم الحرّة ، إلا علىّ بن الحسين بن علىّ عليهم السلام ، فإنه أعظمه وأجلسه معه على سريره ، وأخذ بيعته على أنّه أخو أمير المؤمنين يزيد بن معاوية وابن عمه ، دفعا له عمّا بايع عليه غيره ، وكان ذلك بوصاةٍ من يزيد بن معاوية له ، فهرب علىّ بن عبد الله بن العباس رحمه الله تعالى إلى أخواله من كِنْدة ، فحمَوْه من مُسلم بن عقبة ، وقالوا : لايبايع ابنُ أختنا إلا على مابايع عليه ابنُ عمه علىّ بن الحسين ، فأبى مسلم ابن عقبة ذلك ، وقال : إنى لم أفعل مافعلت إلا بوصاةِ أمير المؤمنين ، ولولا ذلك لقتلتُه ، فإن أهل هذا البيت أجْدَرُ بالقتل ، أو لأخذت بيعتَه على ماأخذتُ عليه بيعة غيره . وسَفَر السُّفراء بينه وبينهم ، حتى وقع الاتفاق على أن يبايعَ ويقول : أنا أبايع لأمير المؤمنين يزيد بن معاوية ، وألتزم طاعته ، ولا يقول غير ذلك ؛ فقال علىّ بن عبد الله بن العباس :

أبى العباسُ رأسُ بنى قصىّ ... وأخوالِي المُلوك بَنُو وَليعَهْ
هُمُ منعوا ذِمارِى يوم جاءت ... كتائبُ مُسْرِفٍ وبَنُو اللَّكِيعَهْ

أراد بىَ التى لا عِزّ فيها فحالت دونه أيدٍ منيعهْ

مُسرِف كناية عن مُسلم ، وأم علىّ بن عبد الله بن العباس زُرعة بنت مشرّح بن معدى كربَ بن وليعة بن شُرَحْبيل بن معاوية بن كِنْدة .

قال الحصين بن الحمام :

وَلَسْتُ بمبتاعِ الحياةِ بِسُبّةٍ وَلا مُرْتَقٍ مِنْ خَشْيَةِ الموتِ سُلّمَا[1]

تأخرْتُ أستبقى الحياة فلم أجِدْ لنفسى حياةً مثلَ أن أتقدّما

فلسنا على الأعقاب تدْمى كلومُنا ولكن على أقدامِنا تقطُر الدّما

نفلّق هاماً من رجالٍ أعزّةٍ علينا ، وهمْ كانوا أعقّ وأظلَمَا

أبَى لابن سلمى أنه غيرُ خالد مُلاقِ المنايا أىّ صَرْفٍ تيَمّمَا

ابن سلمى يعنى نفسه ، وسَلمى أمه .

وقال الطرمّاح بن حكيم :

وَما مُنِعَتْ دارٌ ولا عزّ أهلُها مِنَ النّاسِ إلا بالقَنا والقنابل[2]

وقال آخر :

وإن التى حدثتها فى أنوفِنا وأعناقنا من الإباء كما هيا

وقال آخر :

فإنْ تَكُنِ الأيّام فينا تبدّلتْ ببؤسَى ونُعمى والحوادِثُ تفعَلُ[3]

فما ليّنتْ مِنّا قناةً صليبةً وَلا ذلّلتنا للتى ليس تجملُ

وَلكِنْ رَحلْنَاها نُفُوسا كريمةً تحمّل مالا يستطاع فتحمِلُ

---

(١) المفضليات ٦٨ ، ٦٩

(٢) ديوانه ١٠٩

(٣) لإبراهيم بن كنيف النبهانى ، ديوان الحماسة ١ ـ ٢٥١ ـ بشرح التبريزى .

وقال آخر :

إذا جانبٌ أعياكَ فاعمِد لجانبٍ فإنك لاقٍ في البلاد مُعوَّلا[1]

وقال أبو النشناش :

إذا المرءُ لم يَسْرَحْ سواماً ولم يُرِحْ سَوَاماً ولم تَعطِفْ عَلَيه أقارِبُهْ[2]

فَلَلْمَوتُ خيرٌ للفتى من قُعودِهِ عديماً ومِنْ مَوْلًى تَدِبُّ عَقارِبُهْ

ولم أرَ مثل المرءِ ضاجَمَهُ الفَتَى ولا كَسَوادِ الليل أخْفَقَ طالبُهْ

فَعِشْ معدِماً أوْمُتْ كريماً فإنَّنى أرى الموتَ لاينجُومن الموتِ هارِبُهْ

***

وفد يحيى بن عُرْوة بن الزُّبير عَلَى عبد الملك ، فجلس يوما على بابه ينتظر إذنَه ، فجرى ذِكرُ عبدالله بن الزُّبير ، فنال منه حاجب عبد الملك ، فلطَم يحيى وجهَه حتى أدمَى أنفه ، فدخل على عبد الملك ودمه يجرى من أنفه ، فقال : مَنْ ضربك ؟ قال : يحيى ابن عُرْوة ، قال : أدخله — وكان عبد الملك متكئا فجلس — فلما دخل قال : ما حمَلك على ما صنعت بحاجبي ؟ قال : ياأمير المؤمنين ، إن عمّى عبدَالله كان أحسنَ جواراً لعمتك منك لنا ، والله إن كان لَيُوصى أهلَ ناحيته ألّا يُسمِعوها قَذَعاً[3] ، ولا يذكروكم عندها إلا بخير ؛ وإن كان لَيقولُ لها : مَنْ سبَّ أهلكِ فقد سبَّ أهله ، فأنا والله المُعَمُّ المُخوَل ، تفرّقت العرب بين عمّى وخالى ، فكنت كما قال الأول :

يَدَاهُ أصابَتْ هذِهِ حَتْفَ هذِهِ فلم تجد الأخرى عليهـا مُقَدَّما

فرجع عبد الملك إلى متّكئه ، ولم يزل يُعرَف منه الزيادة فى إكرام يحيى بعدها .

---

(١) لجابر بن ثعلب الطائى ، ديوان الحماسة ١ : ٢٩٣ — بشرح التبريزى .

(٢) ديوان الحماسة ١ : ٢٠٢ — بشرح التبريزى

(٣) القذع : الفحش .

وأمّ يحيى هذه ابنة الحكم بن أبي العاص عمّة عبد الملك بن مروان .

وقال سعيد بن عمر الحرَشيّ أمير خراسان :

فلستُ لعامرٍ إنْ لَمْ تَرَوْني أمامَ الخَيْلِ أطعَنُ بالعوالي[1]

وأضرِبُ هامةَ الجبّارِ مِنهمْ بماضِي الغَرْبِ حُودِثَ بالصقالِ[2]

فما أنا في الحروب بمستكينٍ ولا أخشى مصاوَلةَ الرجالِ

أبَى لي وَالدي من كلّ ذمٍ وخالي حين يُذكَرُ خيرُ خالِ

***

قال عبدالله بن الزبير لمـا خطب حين أتاه نعي مُصْعَب : أما بعـد ؛ فإنه أتانا من العراق خبَرٌ أفرحَنا وأحزنَنـا ؛ أتانا خبرُ قتل المصعَب ؛ فأما الذي أحزَنَنا فلوعة يجِدُها الحميم عند فراق حميمه ؛ ثم يرعوي بعدها ذو اللُّبّ إلى حسن الصبر وكرم العزاء .

وأما الذي أفرَحَنا ، فإنّ ذلك كان له شهادة ، وكان لنا وله خِيرة ؛ إنا والله مانموت حبَجاً[3] كما يموت آل أبي العاص ؛ ما نموت إلا قتلاً قَعْصاً[4] بالرماح ، وموتا تحت ظلال السيوف ؛ فإنْ يهلك المصعب ؛ فإن في آل الزبير خَلَفاً .

وخطب مرة أخرى فذكره فقال : لودِدْت والله أنّ الأرض قاءتْني عنده حين لفظ غُصّته وقضَى نَحْبَه .

شعر :

خُذِيه فجُرِّيه ضِباعَ وأبشِري بلحمِ امرئٍ لم يَشهَدِ اليومَ ناصرُهُ

---

(١) العوالي : جمع عالية ؛ وهي أعلى القناة .

(٢) غرب السيف : حده ؛ ويقال : حادث السيف ؛ إذا جلاه ؛ وصقال السيف : جلاؤه .

(٣) الحبج : أن يأكل البعير لحاء العرفج فيرم بطنه سمنا وربما قتله ذلك ؛ وفي اللسان (٣ : ٤٨) . بعد أن ذكر كلام ابن الزبير : « يعرض ببني مروان لكثرة أكلهم وإسرافهم في ملاذ الدنيا ، وأنهم يموتون بالتخمة » وفي ج : « جنحا » .

(٤) القعص : الموت السريع ؛ ويقال : مات قعصا ؛ أي أصابته ضربة أو رمية فمات مكانه .

وقال الشدّاخ بن يعمُر الكِنانىّ :

قاتِلُوا القومَ يا خُزَاعَ ولا يَدْخُلْكُمْ مِنْ قِتَالِمْ فَشَلُ[١]

القوم أمثالكم لَهُمْ شَعَرٌ فى الرأس لا يُنشرون إنْ قُتلوا

وقال يحيى بن منصور الحنفىّ :

ولما نأتْ عنّا العشيرةُ كلها أنخنا فحالفْنا السيوفَ على الدَّهرِ[٢]

فما أسلمتنا عند يوم كريهةٍ ولا نحن أغضينا الجفُونَ على وِترِ

قيل لرجل شهد يوم الطّفّ مع عمر بن سعد : ويحك ! أقتلتُم ذريّةَ رسول الله صلى الله عليه وآله ! فقال : عَضَضْتَ بالجندَل ؛ إنك لو شهدت ما شَهِدْنا لفعلت ما فعلنا ، ثارت علينا عِصابة، أيديها فى مقابض سيوفها كالأسود الضارية تحطمُ الفرسان يمينا وشمالا، وتُلْقِى أنفسها على الموت ؛ لا تقبل الأمان ، ولا ترغب فى المال ، ولا يحول حائل بينها وبين الوُرُود على حياض المنية ، أو الاستيلاء على الملك ؛ فلو كففنا عنها رويدا لأتَتْ على نفوس العسكر بحذافيرها ؛ فما كنا فاعلين لا أمّ لك !

* * *

السخاء من باب الشجاعة ، والشجاعة من باب السخاء ؛ لأنّ الشجاعة إنفاق العمر وبذله فكانت سخاء ، والسخاء إقدام على إتلاف ما هو عَدِيل المهجة ؛ فكان شجاعة .

أبو تمام فى تفضيل الشجاعة على السخاء :

كَمْ بَيْنَ قَوْمٍ إنما نفقاتُهُمْ مالٌ وقومٍ يُنْفِقُون نُفُوسا[٣]

* * *

(١) ديوان الحماسة لأبى تمام ١ : ١٨٩ — بشرح التبريزى، والفشل : الجبن والضعف .

(٢) ديوان الحماسة — بشرح التبريزى ١ : ٣١٠

(٣) ديوانه ٢ : ٢٦٧

قيل لشيخنا أبي عبد الله البصريّ رحمه الله تعالى : أتجد فى النصوص ما يدلّ على تفضيل علىّ عليه السلام ؛ بمعنى كثرة الثواب لا بمعنى كثرة مناقبه ؛ فإنّ ذاك أمرٌ مفروغ منه ؟ فذكر حديثَ الطائر المشوىّ[1] ؛ وأنّ المحبّة من الله تعالى إرادة الثواب . فقيل له : قد سبقك الشيخُ أبو علىّ رحمه الله تعالى إلى هذا ؛ فهل تجدُ غير ذلك؟ قال : نعم قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾ ، فإذا كان أصل المحبة لمن ثبت كثبوت البنيان المرصوص ، فكل مَنْ زاد ثباته ؛ زادت المحبة له ؛ ومعلوم أن عليًّا عليه السلام ما فرّ فى زحفٍ قطّ ، وفرّ غيرُه فى غير موطن .

* * *

وقال أبو تمام :

السَّيفُ أصدقُ أنباءً من الكُتُبِ ... فى حدّه الحدُّ بينَ الجدِّ واللعبِ[2]

بيضُ الصفائحِ لا سُودُ الصحائفِ فى ... مُتونِهنّ جِلاءُ الشكّ والرِّيَبِ[3]

وَالعِلْمُ فى شُهُبِ الأرماحِ لامعةً ... بين الخميسَيْنِ لا فى السَّبْعةِ الشُّهُبِ[4]

وقال أبو الطيب المتنبى :

حَتّى رَجَعْتُ وَأقلامى قَوَائِلُ لى: ... المجدُ للسَّيفِ لَيْسَ المجدُ لِلقَلَمِ[5]

---

(١) يشير إلى ما رواه الترمذى فى باب المناقب (١٣ : ١٧٠) ، بسنده عن أنس بن مالك ، ولفظه : « كان عند النبى صلى الله عليه وسلم طير فقال : اللهم ائتنى بأحب خلقك إليك ؛ يأكل معى هذا الطير . فجاء على فأكل معه . وانظر الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٧

(٢) ديوانه ١ : ٤٥ ؛ من قصيدة يمدح بها المعتصم بالله ؛ ويذكر فتح عمورية ، وكان المنجمون قد حكموا أن المعتصم لا يفتح عمورية ؛ وراسلته الروم بأنا نجد فى كتبنا أنه لا تفتح مدينتنا إلا وقت إدراك التين والعنب ؛ وبيننا وبين ذلك الوقت شهور يمنعك من المقام فيهـا الثلج والبرد ، فأبى أن ينصرف وأكب عليها ففتحها ، فأبطل ما قالوا .

(٣) الصفائح : جمع صفيحة ؛ وهى الحديدة العريضة ؛ ويقال للسيف العريض كذلك .

(٤) يرد على المنجمين ما حكموا به ؛ لأن الظفر كان قبل حكمهم . ويعنى بشهب الأرماح أسنتها ، ويعنى بالسبعة الشهب الطوالع التى أرفعها زحل وأدناها القمر .

(٥) ديوانه ٤ : ١٠٩

اكْتُبْ بِنا أبداً بعد الكِتاب بِهِ ... فإنما نحن للأسْيافِ كالخَدَمِ
أسْمَعْتَنى وَدَوائى ما أشَرْتُ بِهِ ... فإنْ غَفَلْتُ فدائى قِلَّةُ الفَهَمِ
مَنِ اقْتَضَى بسوى الهندىِّ حاجَتَهُ ... أجاب كلَّ سؤالٍ عن «هَلٍ» بِلَمِ

* * *

قال عطاف بن محمد الألوسىّ :

أمكابِدَ الزَّفَرات مؤصَــــدة ... تلتذّ خوف القطع بالشَّلَلِ
صَرِّفْ همومَكَ تَنْتَدِبْ هِمَمًا ... فالسُّكْرُ يُعْقِبُ نشوةَ الثَّمِلِ
ولِلَيْلةِ الميـــلادِ مُفْرِحَةٌ ... تُنسى الحوامِلَ أشهرَ الحبَلِ
سِرْ فى البِلادِ تخوضها لُجَجاً ... فالدُّرّ ليس يُصابُ فى الوَشَلِ[1]
واجْعَل لصبْوَتِك الظُّبا سَكَنًا ... والدَّوْر أكواراً على الإبِلِ
والعيشُ والوطن المهد فى ... غَرَبِ الحُسام وغارِب الجَلِ
واشْدُدْ عَلَيْكَ وَخُذْ إليك وَدَعْ ... ضَعَةَ الخُمول وَفَتْرَةَ الكَسَلِ
وَارْمِ العُداةَ بِكُلِّ صائبَةٍ ... ما الرَّمْىُ مَوْقوفاً عَلَى ثُعَلٍ[2]
لاتَحْسَبِ النَّكَباتِ مَنقصةً ... قَدْ يُستجادُ السَّيفُ بالفَلَلِ

* * *

وقال عُرْوة بن الورد :

لحَا اللهُ صُعلوكاً إذا جَنّ ليلُهُ ... مُصافى المُشاشِ آلفاً كلَّ مَجْزَرِ[3]

---

(١) الوشل : الماء القليل .
(٢) ثعل : أبو حى من طيء ؛ اشتهروا بالرمى .
(٣) ديوانه ٩٣ (ضمن دواوين الشعراء الخمسة) . الصعلوك : الفقير ، والمصافى : من المصافاة ؛ وهى الاختيار والملازمة . والمشاش : العظم الممكن مضغه ، والمجزر : موضع نحر الإبل .

يَعُدُّ الغِنى مِنْ نَفسه كلَّ ليـــلَةٍ ... أَصَابَ قِراها مِنْ صَديق مُيَسَّر [١]

يَنَامُ عِشاءً ثمّ يُصْبِحُ نَاعِساً ... يحُتُّ الحَصا مِنْ جَنْبِهِ المتعفِّر [٢]

يُعــيــنُ نِسَاءَ الحيِّ ما يَستعِنَّهُ ... وَيُمْسِي طَلِيحاً كالبعير المحَسَّر [٣]

ولـكنَّ صُعْلُوكاً صَفِيحَةُ وَجْهِهِ ... كَضَوْء شِهاب القابس المُتَنَوِّر

مُطِلًّا عَلَى أعْدَائِهِ يَزْجُرُونَه ... بِسَاحَتِهِمْ زَجْرَ المَنِيحِ المُشَهَّر [٤]

وإن قَعَــدُوا لا يأمنون اقترابَه ... تَشَوُّفَ أهل الغائب المتنظِّر [٥]

فذلك إن يَلْقَ المنِيَّـــةَ يَلْقَهَا ... حَمِيداً وإن يَسْتَغْنِ يوماً فأجْــدِرِ

***

وقال آخر :

ولستُ بمولى سَوْءَةٍ أُدْعى لها ... فإنّ لسوآتِ الأمور مَواليا [٦]

وسِيانِ عِنْدِي أنْ أموتَ وأن أُرَى ... كبعضِ رجالٍ يُوطِنُونَ المخازيا

ولن يجدَ النّاسُ الصديقَ ولا العِدَا ... أديمى إذا عَدّوا أديمىَ وَاهيا

وإنّ نجاري يا ابن غَنْمٍ مُخالِفٌ ... نجارَ لئامٍ فابغِني مِن وَرَائيا [٧]

وَلَسْتُ بهيّابٍ لِمَنْ لا يهابُنى ... وَلَسْتُ أرَى للمرءِ ما لا يَرَى ليَا

إذا المرءُ لم يُحْبِبْكَ إلّا تكرُّهاً ... عِرَاضَ العَلُوقِ لم يكُنْ ذاكَ باقِيا [٨]

***

(١) الميسر : الذى قد نتج إبله فكثر خيره ؛ يقول : من صفات ذلك الصعلوك أنه إذا أصاب القرى فى كل ليلة من صديق غنى ؛ عد ذلك لنفسه غنى وخيرا .

(٢) يحت الحصا : يفركه ، والناعس : الذى يأتى عليه الصباح وهو ناعس لخموله وانحطاط همته .

(٣) البعير الطليح : المعي ؛ وكذلك المحسر .

(٤) أطل على أعدائه : أوفى عليهم . والمنيح والسفيح والوغد : قداح لا أنصباء لها ، وإنما يكثر بها القداح فهى تجال أبدا ، وتزجر حالا بعد حال ، فشبه الصعلوك به (من شرح التبريزى) .

(٥) الديوان : « فإن بعدوا يأمنون اقترابه » .

(٦) لطرفة الجذعى، ديوان الحماسة بشرح التبريزى ١ : ٣٨٩ ، مع اختلاف فى الرواية وترتيب الأبيات

(٧) النجار : الأصل .

(٨) العلوق: الناقة التى ترأم ولدها وتلحسه حتى يأنس بها، فإذا أراد ارتضاع اللبن منها ضربته وطردته.

نَهار بن توسعة فى يزيد بن المهلّب :

وَمَا كُنَّا نُؤَمِّلُ مِنْ أميرٍ ... كما كُنَّا نُؤَمِّلُ مِنْ يزيدِ

فأخطأ ظَنُّنَا فيه وَقِدْماً ... زَهِدْنا فى معاشرة الزَّهيدِ

إذا لم يعطِنا نصَفاً أميرٌ ... مشينا نحوه مَشْىَ الأسُودِ

* * *

كان هُدْبة اليشكرىّ - وهو ابن عمّ شوذب الخارجىّ اليشكُرىّ - شجاعا مقداما، وكان ابنُ عمه بِسْطام الملقب شوْذباً الخارج فى خلافة عمر بن عبد العزيز ويزيد بن عبد الملك ، فأرسل إليه يزيد بن عبد الملك جيشاً كثيفا فحاربه ، فانكشفت الخوارج ، وثبتَ هُدْبة وأبَى الفرار ، فقاتل حتى قُتل ، فقال أيوب بن خوْلىّ يرثيه :

فيَا هُدْبَ لِلْهَيْجا وَيَا هُدْبَ لِلنَّدَى ... وَيَا هُدْبَ لِلْخَصْمِ الألَدّ يُحَارِبُهْ(١)

وَيَا هُدْبَ كَمْ مِنْ مَلْحَمٍ قَدْ أجبْتَهُ ... وَقَدْ أسْلَمَتْهُ لِلرِّمَاحِ كَتَائِبُهْ(٢)

تَزَوَّدْتَ مِنْ دُنْيَاكَ دِرْعاً وَمِغْفَراً ... وَعَضْباً حُسَاماً لم تخنْكَ مَضَارِبُهْ(٣)

وَأجْرَدَ مَحْبُوكَ السَّرَاةِ كَأنَّهُ ... إذا انْقَضَّ وافى الرِّيش حُجْنٌ مَخَالِبُهْ(٤)

* * *

كانت وصايا إبراهيم الإمام وكتبه تَرِدُ إلى أبى مسلم بخراسان : إن استطعت ألا تدع بخُرسان أحداً يتكلّم بالعربية إلا وقتلته فافعل ، وأيّما غلام بلغ خمسة أشبار تتّهمه

(١) الأبيات مع ذكر الخبر مفصلا فى تاريخ الطبرى ٢ : ١٣٧٦ - ١٣٧٨ (طبع أوربا) .

(٢) الملحم : الذى أسر وظفر به أعداؤه ، وفى ج : « ملجم » تصحيف .

(٣) الطبرى : « تزود . . . لم تخنه » .

(٤) أجرد ، من وصف الفرس ، والجرد قصر شعر الجلد فيه ، وهو من الأوصاف المحمودة . السراة : الظهر ، ومحبوك السراة ، أى شديد الخلق . حجن مخالبه ، يريد صقرا ، والحجن . الاعوجاج .

فاقتله ؛ وعليك بمُضَر ؛ فإنهم العدُوّ القريب الدار ، فأبِدْ خَضْرَاءهم[1]، ولا تدَعْ على الأرض منهم ديّارا .

***

قال المتنبي :

لاَ يَسْلَمُ الشَّرَفُ الرَّفِيعُ مِنَ الأذَى حَتَّى يُرَاقَ عَلَى جَوَانِبِه الدَّمُ[2]

وله :

وَمَنْ عَرَفَ الأيَّامَ مَعْرِفَتِي بِهَا وَبِالنَّاسِ رَوَّى رُمْحَهُ غَيْرَ رَاحِمِ[3]

فَلَيْسَ بِمَرْحُومٍ إذَا ظَفِرُوا بِهِ وَلاَ فِي الرَّدَى الجاري عَلَيْهِمْ بآثِمِ

وقال المتنبي أيضا :

رِدِي حِيَاضَ الرَّدَى يَا نَفْسُ وَاطَّرِحِي حِيَاضَ خَوْفِ الرَّدَى لِلشَّاءِ والنَّعَمِ[4]

إنْ لَمْ أذَرْكِ عَلَى الأرْمَاحِ سَائِلَةً فَلاَ دُعِيتُ ابن أمِّ المَجْدِ والكَرَمِ

***

ومن أباة الضيم قُتيبة بن مسلم الباهليّ أمير خراسان وما وراء النهر ؛ لم يصنعْ أحدٌ صنيعه في فتح بلاد الترك ، وكان[5] الوليد بن عبد الملك أراد أن ينزع أخاه سليمان بن عبد الملك من العهد بعده ، ويجعلَه في ابنه عبد العزيز بن الوليد ، فأجابه إلى ذلك قُتيبة بن مسلم وجماعة من الأمراء ، فلما مات الوليد قبل إتمام ذلك ، وقام سليمان بالأمر بعده — وكان

---

(١) في الأساس : أباد الله خضراءهم ، أي شجرتهم التي تفرعوا منها .

(٢) ديوانه ٤ : ١٢٥

(٣) ديوانه ٤ : ١١٢

(٤) ديوانه ٤ : ٤٣

(٥) الطبري (حوادث سنة ٩١) .

قتيبةُ أشدّ الناس فى أمر سليمان وخلعِه عن العهد ـ علم أنه سيعزِله عن خراسان ويولّيها يزيدَ بن المهلبِ ، لودٍّ كان بينه وبين سليمان ، فكتب قتيبة إليه كتابا يهنئه بالخلافة ، ويذكُر بلاءه وطاعتَه لعبد الملك وللوليد بعده ، وأنه على مثل ذلك إن لم يعزله عن خُراسان ، وكتب إليه كتابا آخر يذكّره فيه بفتوحه وآثاره ، ونكايتِه فى الترك ، وعِظَم قدره عند ملوكهم ، وهيبة العجم والعرب له وعِظَم صيته فيهم ، ويذمّ آل المهلب ، ويحلف له بالله : لئن استعمل يزيد بن المهلب على خراسان ليخلعنّه ، وليملأنّها عليه خيلا ورَجلا ، وكتب كتابا ثالثا فيه خَلع سليمان ، وبعث بالكُتُب الثلاثة مع رجل من قومه من باهلة يثق به ، وقال له : ادفَعْ الكتاب الأول إليه ، فإن كان يزيدُ بن المهلب حاضراً عنده ، فقرأ الكتاب ثم دفعه إلى يزيد فادْفع إليه هذا الثانى ، فإن قرَأه وألقاه إليه أيضا فادفع إليه الثالث ؛ وإن قرأ الكتاب الأول ولم يدفعه إلى يزيد ؛ فاحتبس الكتابين الآخرين معك .

فقدِم الرسولُ على سليمان، ودخل عليه وعنده يزيدبن المهلّب ، فدفع إليه الكتاب الأول ، فقرأ وألقاه إلى يزيد ، فدفع إليه الكتابَ الثانى ، فقرأه وألقاه إلى يزيد أيضا ، فدفع إليه الكتاب الثالث، فقرأه وتغيّر لونه وطواه ، وأمسكه بيده ، وأمر بإنزال الرسول وإكرامه ، ثم أحضره ليلا ، ودفع إليه جائزته ، وأعطاه عَهْدَ قتيبة على خُراسان ، وكان ذلك مكيدةً من سليمان يسكنه ليَطمئنّ ثم يعزله ، وبعث مع رسوله رسولا ، فلما كان بحُلْوان بلغه خَلْعُ قتيبة سليمان بن عبد الملك ، فرجع رسول سليمان إليه ، فلما اختلفتِ العربُ على قتيبة حينَ أبدَى صفحته لسليمان ، وخلع رِبقَة الطاعة ، بايعوا وكيعَ بن أبى سود التميمىّ على إمارة خراسان ، وكانت أمراء القبائل قد تنكّرتْ لقتيبة لإذلاله إيام ، واستهانته بهم واستطالته عليهم ، وكرهوا إمارته ، فكانت بيعة وكيع فى أوّل الأمر

سرًّا ، ثم ظهر لقتيبة أمرُه ، فأرسل إليه يدعوه ، فوجده قد طلاَ رِجلَه بمَغرة[1] وعلّق في عنقه خَرَزاً ، وعنده رجلان يَرْقيَان رجلَه ، فقال للرسول: قد ترى ما برجلى ! فرجع وأخبر قتيبة ، فأعاده إليه ، فقال : قل له ليأتيني محمولا ، قال : لا أستطيع . فقال قتيبة لصاحب شرطته : انطلق إلى وكيع فأتنى به ؛ فإن أبَى فاضرِبْ عنقَه ، وأتِنى برأسه ، ووجّه معه خيلا . فقال وكيع لصاحب الشرطة: الْبَثْ قليلا تلحق الكتائب، وقام فلبس سلاحه ، ونادى في الناس فأتوه ، فخرج فتلقاه رجل ، فقال : ممن أنت ؟ فقال : من بني أسد ، قال : ما اسمُك ؟ فقال ضِرْغام ، فقال : ابن مَنْ ؟ قال : ابن لَيْث ، فتيمّن به وأعطاه رايته ، وأتاه الناس أرسالا من كل وجه ، فتقدّم بهم ، وهو يقول :

قَرْمٌ إذا حُمِّل مَكْرُوهَةً   شَدَّ الشَّرَاسِيفَ لَهَا والحَزِيمْ[2]

واجتمع إلى قتيبة أهلُه وثقاته ، وأكثرُ العرب ألسنتُهم له وقلوبهم عليه . فأمر قتيبة رجلا فنادى : أين بنو عامر ؟ وقد كان قتيبة جفَاهم في أيام سُلطانه ـ فقال له مُجْفر[3] ابن جزء الكلابيّ : نادِهم حيثُ وضعتَهم ، فقال قتيبة : أنشُدُكم الله والرحِم ـ وذلك لأن باهلة وعامراً من قيس عيلان ـ فقال مجفر : أنت قطعتَها، قال : فلكم العُتْبى، فقال مجفر : لا أقالنا الله إذا ، فقال قتيبة :

يا نَفْسُ صَبْراً عَلَى مَا كَانَ مِنْ أَلَمٍ   إذْ لم أجِدْ لِفُضُول العيش أقرانا

ثم دعا[4] ببرذون له مُدَرّب[5] ليركبه ، فجعل يمنعه الركوب حتى أعيا. فلما رأى ذلك

---

(١) المغرة : طين أحمر .

(٢) البيت في اللسان ١٥ : ٢١ ، من غير نسبة. القرم: السيد . والشراسيف : أطراف أضلاع الصدر التي تشرف على البطن . والحزيم : موضع الحزام من الصدر والظهر كله .

(٣) في الطبري : « عصن » .

(٤) في الطبري : « ودعا بعمامة ، وكانت أمه بعثت بها إليه : فاعتم بها ، وكان يعتم بها في الشدائد ، ودعا ببرذون . . . . » .

(٥) المدرب : المؤدب الذي ألف الركوب وعود المشي .

عاد إلى سريره فجلس ، وقال : دعوه ؛ فإنّ هذا أمرٌ يُراد . وجاء حيان النَّبَطِيّ - وهو يومئذ أمير الموالى ، وعدتهم سبعة آلاف ، وكان واجدا على قُتيبة - فقال له عبد الله بن مسلم أخو قتيبة : احمل ياحيان ، فقال : لم يأن بعد ، فقال له: ناولْنِي قوسك ، فقال حيان: ليس هذا بيوم قوس . ثم قال حيان لابنه : إذ رأيتَنى قد حوّلت قلنسوتى ، ومضيتُ نحو عسكر وكيع فمِلْ بمن معك من العجم إلىّ ، فلما حوّل حيان قلنسُوتَه ومضى نحو عسكر وكيع ، مالت الموالى معه بأسْرها ، فبعث قتيبة أخاه صالح بن مسلم إلى الناس ، فرماه رجلٌ من بنى ضَبّة فأصاب رأسه ، فحُمل إلى قتيبة ورأسه مائل ، فوضَعه على مصلّاه ، وجلس عند رأسه ساعة ، وتهايج الناسُ ، وأقبل عبد الرحمن بن مسلم أخو قتيبة نحوهم ، فرماه الغوغاء وأهلُ السوق فقتلوه ، وأشِير على قتيبة بالانصراف ، فقال: الموتُ أهونُ من الفرار . وأحرق وكيع موضعا كانت فيه إبل قُتيبة ودوابّه ، وزحَفَ بمن معه حتى دنا منه ، فقاتل دونه رجل من أهله قتالا شديدا ، فقال له قتيبة : انجُ بنفسك ، فإنّ مثلك يُضَنّ به عن القتل ، قال: بئسما جَزَيْتُك به أيها الأمير إذاً ، وقد أطعمتَنِى الجَرْدَق ، وألبستنى النُّمرق[1] . وتقدّم الناس حتى بلغوا فُسطاط قتيبة ، فأشار عليه نُصحاؤه بالهرب ، فقال : إذاً لست لمسلم بن عمرو ! ثم خرج إليهم بسيفه يجالدهم ، فجرح جراحات كثيرة ، حتى ارتُثّ[2] وسقط ، فأكبّوا عليه ، فاحتزّوا رأسه ، وقُتِل معه من اخوته عبد الرحمن ، وعبد الله وصالح ، والحصين ، وعبد الكريم ، ومسلم ؛ وقُتِل معه جماعة من أهلِه وعدّة مَنْ قتل معه من أهله وإخوته أحد عشر رجلا . وصعد وكيع بن أبى سود المنبر وأنشد :

* مَنْ يَنِكِ العَيْرَ يَنِكْ نَيّاكا *[3]

---

(١) الجردق : الرغيف ، معرب فارسيته : « كرده » . والنمرق : الميثرة .

(٢) ارتث ، بالبناء للمجهول : حمل من المعركة جريحا وبه رمق .

(٣) مثل ؛ قاله خضر بن شبل الخثعمى ، فى خبر ذكره صاحب مجمع الأمثال ٢ : ٣٠٥

إنّ قتيبة أراد قتلي ، وأنا قتّال الأقران ، ثم أنشد :

قَدْ جَرَّبُونِي ثُمَّ جَرَّبُونِي ... مِنْ غَلْوَتَيْنِ وَمِنَ الْمِئِينِ

حَتَّى إذا شبْتُ وَشَيَّبُونِي ... خَلَّوا عِنانى ثم سَيَّبُونِي[١]

حَذارِ منى وتنكّبونِي ... فإنّنى رامٍ لِمَنْ يَرْمِينِي

ثم قال : أنا أبو مطرّف ، يكررها مرارا ، ثم قال :

أنا ابنُ خِنْدِفَ تَنْمِيني قبائلُها ... للصالحات وَعَمّى قَيْسُ عَيْلَانَا

ثم أخذ بلحيته، وقال : إنّى لأقتلنّ ثم لأقتلنّ ولأصلبنّ ثم لأصلبنّ ؛ إن مَرْزُبَانكم[٢] هذا ابن الزانية ، قد أغلَى أسعاركم ؛ والله لئنْ لم يَصِرْ القفيز[٣] بأربعة دراهم لأصلبنّه ، صلّوا على نبيكم .

ثم نزل وطلبَ رأس قتيبة وخاتمه ، فقيل له : إنّ الأزد أخذته ؛ فخرج مُشْهِراً[٤] ، وقال : والله الذى لا إله إلّا هوَ لا أبرحُ حتى أوتى بالرأس ، أو يذهب رأسى معه ، فقال له الحُصَين بن المنذر : ياأبا مطرّف فإنك تؤتى به . ثم ذهب إلى الأزْد ، فأخذ الرأس وأتاه به ، فسيّره إلى سُليمان بن عبد الملك، فأدخِل عليه ومعه رءوس إخوته وأهله ، وعنده الهُذَيل ابن زُفَر بن الحارث الكلابىّ ، فقال :أساءك هذا ياهذيل؟ قال: لو ساءنى لساء ناسا كثيرا. فقال سليمان : ماأردت هذا كلّه ، وإنما قال سليمان ذلك للهُذيل ، لأنّ قيس عيّلان تجمع كِلاَبًا وباهلة ، قالوا : ماوَلِىَ خُراسان أحدٌ كقُتيبة بن مسلم ؛ ولو كانت باهلة فى الدناءة والضّعة واللؤم إلى أقصى غاية ، لكان لها بقتيبة الفَخر على قبائل العرب .

---

(١) أصله فى الدابة ، يقال : سيب الدابة ، إذا تركها تذهب حيث شاءت ، وفى تاريخ الطبرى :

حتّى إذا شبت وشيّبونى ... خلّوا عِنانى وتنكّبونى

وانظر أمالى القالى ١ : ٢٨٦

(٢) المرزبة : رياسة الفرس ، وهو مرزبانهم .

(٣) الطبرى : « والله ليصيرن القفيز فى السوق غدا بأربعة » .

(٤) أى مشهرا سيفه .

قال رؤساء خراسان من العجم لما قتِل قتيبة : يامعشرَ العرب ، قتلتم قتيبة ، والله لو كان مِنّا ثم مات لجعلناه فى تابوت ، فكنّا نستفتح به إذا غزَوْنا .

وقال الأصبهبذ[1] : يامعشر العرب ، قتلتم قُتيبة ويزيد بن المهلّب ، لقد جئتم شيئا إدًّا ! فقيل له : أيّهما كان أعظمَ عندكم وأهيبَ ؟ قال : لو كان قُتيبة بأقصى حُجْرةٍ[2] فى المغرب ، مكبّلا بالحديد والقيود ، ويزيد معنا فى بلدنا والٍ علينا ، لكان قتيبة أهيَبَ فى صدورنا وأعظم .

وقال عبد الرحمن بن جمانة الباهلىّ يرثى قُتيبة :

كأنّ أبا حفص قُتيبة لم يَسِرْ ... بجيشٍ إلى جيشٍ ولَمْ يَعلُ مِنبَرا

ولم تَخفِقِ الرّاياتُ والجيشُ حَوْلَهُ ... صُفوفًا ولم يشهد له الناسُ عَسْكَرا

دَعَتْهُ المنايا فاستجابَ لربّهِ ... ورَاحَ إلى الجنّات عفًّا مُطَهَّرا

فما رُزِئَ الإسلامُ بَعدَ محمدٍ ... بمثلِ أبى حَفْصٍ ، فَبَكّيهِ عَبْهَرا

عَبْهر : أمّ ولد له .

***

وفى الحديث الصحيح : « إنّ من خَيْرِ النّاسِ رَجُلًا ممسكا بعِنان فرسه فى سبيل الله ، كلّما سمع هَيْعَةً[3] طار إليها » .

كتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد : واعلم أنّ عليك عُيونًا من الله تَرْعاك وتَراك ، فإذا لقيت العدوّ ؛ فاحرِص على الموت تُوهَبْ لك الحياة ، ولا تغسّل الشهداء من دمائهم ؛ فإنّ دم الشهيد يكون له نورا يوم القيامة .

---

(١) الأصبهبذ فى الديلم : كالأمير فى العرب .

(٢) الحجرة : الناحية .

(٣) الهيعة : الصوت أو الصياح .

عمر : لا تزالون أصحاء ما نزعتم ونزوتم ؛ يريد : ما نزعتم في[1] القوس ، ونزوتم على الخيل .

بعض الخوارج :

وَمَنْ يَخْشَ أظفارَ المَنايا فإننا ... لَبِسنا لهنّ السابغاتِ مِنَ الصَّبْرِ
وإنّ كريهَ الموت عذبٌ مذاقُهُ ... إذا ما مزجناه بطيبٍ مِنَ الذِّكْرِ

حضّ منصور بن عمّار في قصصه على الغزْو والجهاد ، فطرِحتْ في المجلس صُرّة فيها شيء ، فَفُتِحَتْ فإذا فيها ضفيرتا امرأة ، وقد كتبت : رأيتك يابن عمّار تحضّ على الجهاد ، ووالله إني لا أملك لنفسي مالا ، ولا أملك سوى ضفيرتيّ هاتين ، وقد ألقيتُهما إليك ، فتالله إلا جعلتَهما قيْدَ فرسٍ غازٍ في سبيل الله ، فلعل الله أنْ يرحمني بذلك .

فارتجّ المجلس بالبكاء والضجيج .

• • •

لبعض شعراء العجم :

وَاسَوءتَا لامرِىءٍ شَبِيبَتُهُ ... في عُنفُوَانٍ وَمَاؤُهُ خَضِلُ !
رَاضٍ بِنَزْرِ المعاشِ مُضْطَهَدٍ ... عَلَى تراثِ الآباءِ يَتَّكِلُ
لاَ حَفِظَ اللهُ ذَاكَ مِنْ رَجُلٍ ... وَلاَ رَعاهُ ما أَطَّتِ الإبلُ
كلاَّ وَرَبِّي حَتَّى تكون فتًى ... قد نهكتْهُ الأسفارُ والرِّحَلُ
مُشَمِّراً يطلبُ الرِّياسةَ أوْ ... يُضرَبُ يَوْماً بِهُلْكِهِ المَثَلُ
حَتى مَتى تتبعُ الرِّجالَ وَلاَ ... تُتْبَعُ يوماً ، لأُمِّكَ الهَبَلُ !

• • •

---

(١) يقال : نزع في القوس نزعاً ، إذا جذب الوتر بالسهم .

عبد الله بن ثعلبة الأزدىّ :

فَلَئِن عَمِرتُ لأشفِيَنّ النفس من تلك المساعى

ولأعلِمَنَّ البَطن أنّ الزّادَ ليسَ بِمُستَطاعِ

أمّا النهارُ فقدْ أرى قومى بمرقبةٍ يَفاعِ[1]

فى قرّة هلكٍ وشفْ كٍ مثل أنيابِ الأفاعى[2]

تَرِدُ السِّباعُ مَعِى فتحسبنى السِّباعُ من السِّباعِ

* * *

مجير الجراد أبو حَنبل حارثة بن مرّ الطائىّ ، أجارَ جراداً نزل به ومنعَ مِن صيده، حتى طار من أرضه ، فسُمّىَ مجيرَ الجرادِ .

وقال هلال بن معاوية الطائىّ :

وبالجبلين لنا معقلٌ صَعَدْنا إليه بصُمّ الصِّعادِ

مَلَكْناهُ فى أولياتِ الزّما نِ مِن قبل نُوحٍ ومِن قبلِ عادِ

ومِنّا ابنُ مُرّ أبو حَنبَلٍ أجارَ من الناس رَجْلَ الجرادِ

وزيدٌ لَنا ولنا حاتمٌ غياث الورى فى السّنين الشداد

* * *

وقال يحيى بن منصور الحنفىّ :

ولمّا نأتْ عنّا العشيرةُ كلُّها أَنَخْنا فَحَالفْنا السُّيوفَ عَلى الدّهرِ[3]

فما أسلَمَتنا عِندَ يومِ كريهةٍ ولا نحنُ أغضَينا الجفونَ على وِترِ

---

(١) اليفاع : التل .

(٢) ما يصيب الإنسان من البرد .

(٣) ديوان الحماسة ٣٢٦ — بشرح المرزوقى .

وقال آخر :

أرقَّ لأرحام أراها قريبةً لحارِ بن كعب لا لجرم ورَاسِبِ [١]

وإنا نرى أقدامنا في نعالهم وآنفنا بين اللحى والحواجبِ

وإقدامنا يومَ الوغَى وإباءنا إذا ما أبَيْنا لا نُدِرّ لعاصِبِ

***

حاصرت الترك مدينة بَرْذَعة من أعمال أذْرَبيجان فى أيام هشام بن عبد الملك حصارا شديدا ، واستضعفتها وكادت تملكها ، وتوجّه إليها لمعاونتها سعيد الحرَشيّ من قِبَل هشام بن عبد الملك فى جُيوش كثيفة ، وعلم الترك بقربه منهم فخافوا ، وأرسل سعيد واحداً من أصحابه إلى أهل بَرْذعة سِرًّا يعرّفهم وصوله ، ويأمرهم بالصبر خوفا ألّا يدركهم ، فسار الرجلُ ، ولقيَه قومٌ من الترك ، فأخذوه وسألوه عن حاله ، فكتمهم فعذّبوه ، فأخبرهم وصدقهم فقالوا : إن فعلْتَ ما نأمُرك به أطلقناك ، وإلا قتلناك ، فقال : ماتريدون ؟ قالوا : أنت عارف بأصحابك ببرذعة وهم يعرفونك ، فإذا وصلتَ تحت السُّور فنادِهم : إنه ليس خَلْفى مَدَد ، ولا من يكشف ما بِكم ، وإنما بُعثت جاسوسا . فأجابهم إلى ذلك ، فلما صار تحت سورها ، وقف حيث يسمع أهلُها كلامه ، وقال لهم : أتعرفوننى؟ قالوا : نعم ، أنت فلان ابن فلان ، قال : فإنّ سعيداً الحرَشِيّ قد وصل إلى مكان كذا فى مائة ألف سيف ؛ وهو يأمرُكم بالصبر وحفظ البلد ، وهو مصبِحكم أو ممسّيكم ، فرفع أهل برذعة أصواتهم بالتكبير ، وقتلت الترك ذلك الرجل ، ورحلوا عنها ووصل سعيد فوجد أبوابها مفتوحة وأهلها سالمين .

وقال الراجز :

مَنْ كان ينوِى أهلَه فلا رَجَعْ فرّ من الموت وفى الموتِ وَقَعْ

---

(١) ديوان الحماسة ١ : ٣٢٨ بشرح المرزوقى ، ونسبها إلى بعض بنى عبس .

أشرف معاوية يوما فرأى عسكر علىّ عليه السلام بِصفّين فهاله ، فقال : مَنْ طلب عظيما خاطر بعظيمته .

وقال الكلحبَة :

إذَا المرْء لم يَغْش المكارِهَ أوشكت ... حِبالُ الهوينَى بالفتى أنْ تَقطَّعا[1]

***

ومن شعر الحماسة :

أقولُ لها وَقدْ طارَتْ شعَاعاً ... مِنَ الأبطالِ وَيْحَكِ لا تُرَاعِي[2]

فإنّكِ لَوْ سَألتِ بَقاء يَوْمٍ ... عَلَى الأجلِ الّذى لَكِ لم تُطَاعِي

فصبراً فى مجالِ الموتِ صَبْراً ... فمَا نَيْلُ الخلودِ بِمُسْتَطاعِ

وَلَا ثَوْبُ البقاء بِثَوْبِ عِزٍّ ... فيطوَى عَنْ أخى الخَنَعِ اليراعِ[3]

سَبيلُ الموتِ غَايَةُ كلّ حَيٍّ ... فداعيهِ لأهلِ الأرض دَاعِ

وَمَنْ لا يُغْتَبَطْ يَسْأمْ وَيَهْرَمْ ... وَتُسْلِمْهُ المنون إلى انقطاعِ

وما للمرء خَيْرٌ فى حياةٍ ... إذا ماعُدَّ مِنْ سَقَطِ المتاعِ

ومنه أيضا :

وفى الشرّ نجاةٌ حين لاَ يُنْجِيك إحْسَانُ[4]

ومنه أيضا :

وَلم تَدْرِ إنْ جِضْنا عَنِ الموت جَيْضَةً ... كَمِ العمرُ باقٍ والمدى مُتَطاوِلُ[5]

---

(١) المفضليات ٣٢

(٢) لقطرى بن الفجاءة . ديوان الحماسة — بشرح التبريزى ١ : ٩٦

(٣) أخو الخنع : الذليل . واليراع : الرجل الجبان ؛ كأنه لا قلب له ؛ تشبيها له بالقصبة الجوفاء .

(٤) للفند الزمانى ، ديوان الحماسة — بشرح التبريزى ١ : ٢٦

(٥) لجعفر بن علبة الحارثى ، ديوان الحماسة — بشرح التبريزى ١ : ٤٨ . جضنا : عدلنا وانحرفنا .

ومنه أيضا :

وَلَا يَكْشِفُ الغَمَّاءَ إِلا ابنُ حُرَّةٍ ... يَرَى غَمَراتِ الموتِ ثُمَّ يَزُورُها[1]

ومنه أيضا :

فَلَا تَحْسَبِي أَنِّي تَخَشَّعْتُ بَعْدَكُمْ ... لِشَيءٍ وَلَا أَنِّي مِنَ المَوْتِ أَفْرَقُ[2]

وَلَا أَنَّ نَفسِي يَزْدَهِيها وَعِيدُكُم[3] ... وَلَا أَنَّنِي بالمشي فى القَيْدِ أَخْرَقُ

ومنه أيضا :

سَأَغْسِلُ عَنِّي العارَ بالسَّيْفِ جالبًا ... عَلَيَّ قضاءُ اللهِ مَا كَانَ جالبا[4]

وأَذْهَلُ عن دارِي وأَجْعَلُ هَدْمَها ... لِعِرْضِيَ مِنْ باقى المَذَمَّةِ حاجبا

وَيَصْغُرُ فى عينى تلادِي إذا انْثَنَتْ ... يَمِينِي بِإِدراكِ الَّذِي كُنْتُ طالبا

فإنْ تَهْدِمُوا بالغدرِ داري فإنَّها ... تراثُ كريمٍ لَا يُبالى العواقبا

أخِي عَزَماتٍ لا يُطِيعُ على الذى ... يَهُمُّ بِهِ مِنْ مُفْظِعِ الأمرِ عاتِبا

إذا هَمَّ أَلْقَى بين عينيهِ عزْمَهُ ... ونَكَّبَ عن ذِكْرِ العواقبِ جانِبا

فَيالَرِزامٍ رَشِّحُوا بِي مُقَدَّمًا ... إلى الموت خوّاضا إليه السَّباسِبا

إذا هَمَّ لم تُرْدَعْ عَزِيمةُ هَمِّه ... ولم يأتِ ما يأتِي مِنَ الأَمْرِ هائِبا

وَلَم يَسْتَشِرْ فى أمره غَيْرَ نفسِه ... وَلَمْ يرضَ إلا قائمَ السيفِ صاحبا

ومنه أيضاً :

هُمَا خُطَّتا إِمَّا إِسارٌ وَمِنَّةٌ ... وإِمادمٌ ، والقتلُ بالحرِّ أجدرُ[5]

---

(١) لجعفر بن علبة أيضا ، ديوان الحماسة ـ بشرح التبريزى ١ : ٥٠

(٢) له أيضا ، ديوان الحماسة ـ بشرح التبريزى ١ : ٥٤ . (٣) وفى الشرح : ويروى «وعيدهم» .

(٤) لسعد بن ناشب ، ديوان الحماسة ـ بشرح التبريزى ١ : ٧٠

(٥) لتأبط شرا ، ديوان الحماسة ـ بشرح التبريزى ١ : ٧٨

ومنه أيضا :

وإنّا لقومٌ لا نرى القتل سُبّةً ... إذا ما رأتْهُ عامرٌ وسَلُولُ[1]

يقصِّر حبُّ الموتِ آجالَنا لنا ... وتكرهُهُ آجالُهم فتطولُ

وما مات منّا سيدٌ حتفَ أنفِه ... ولا طُلَّ منّا حيثُ كان قتيلُ

تسيلُ على حدِّ الظُّباتِ نفوسُنا ... وليستْ على غيرِ السُّيوفِ تسيلُ

ومنه أيضا :

لا يرْكَنَنْ أحدٌ إلى الإحجامِ ... يومَ الوغى متخوِّفًا لحِمام[2]

فلقدْ أراني للرِّماحِ دريئةً ... مِنْ عَنْ يميني تارةً وأمامِي

حتى خضَبْتُ بما تحدَّر مِنْ دَمِي ... أكنافَ سَرْجِي أو عِنانَ لجامِي

ثم انصرفتُ وقدْ أصبتُ ولم أُصَبْ ... جَذَعَ البصيرةِ قارِحَ الإقدامِ

ومنه أيضا :

وإنّي لدَى الحربِ الضَّروسِ موكَّلٌ ... بإقدامِ نفْسي لا أريدُ بقاءَها[3]

متى يأتِ هذا الموتُ لا تُلْفَ حاجةٌ ... لنفسِيَ إلا قد قضَيْتُ قضاءَها

* * *

كتب عبدُ الحميد بن يحيى عن مَرْوان بن محمد إلى أبي مسلم كتابًا ، حُمِل على جَمَلٍ لعِظَمه وكثرته . وقيل : إنّه لم يكن في الطول إلى هذه الغاية ، وقد حُمِل على جمل تعظيما لأمره ، وقال لمروان بن محمد : إنْ قرأه خاليا نَخِبَ[4] قلبه ، وإن قرأه في ملإٍ من

(١) للسموءل ، ديوان الحماسة ـ بشرح التبريزي ١ : ١١١

(٢) لقطري بن الفجاءة ، ديوان الحماسة ـ بشرح التبريزي ١ : ١٣٠

(٣) لقيس بن الحطيم ، ديوان الحماسة ـ بشرح التبريزي ١ : ١٨١

(٤) نخب : جبن .

أصحابه تُبطهم وتخذلهم ، فلما وصل إلى أبي مسلم أحرقه بالنار ولم يقرأه ، وكتب على بياض كان على رأسه وأعاده إلى مروان :

مَحَا السَّيْفُ أسطارَ البلاغة وانتحتْ   إليك ليوثُ الغاب من كلِّ جانب[1]

فإن تقدموا نُعمِلْ سيوفاً شحيذةً   يهون عليها العَتْبُ من كلِّ عاتب[2]

ويقال : إنّ أول الكتاب كان : لو أراد الله بالنملة صلاحا ، لما أنبتَ لها جناحا .

وكتب أبو مسلم إلى نصر بن سيّار ، وهو أول كتاب صَدَر عن أبي مُسلم إلى نَصْر ، وذلك حين لبس السواد ، وأعلن بالدّعوة في شهر رمضان من سنة تسع وعشرين ومائة: أما بعد فإن الله جلّ ثناؤه ذكر أقواماً فقال : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً ۝ اسْتِكْبَاراً فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إلا بِأَهْلِهِ ، فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾[3]

فلما ورد الكتابُ إلى نصر تعاظمه أمرُه ، وكَسَر له إحْدَى عينيه ، وقال : إنّ لهذا الكتاب لأخوات ، وكتب إلى مَرْوان يستصرخه ، وإلى يزيد بن هبيرة يستنجده ، فقعدا عنه حتى أفضى ذلك إلى خروج الأمر عن بني عبد شمس .

* * *

الرّضيُّ الموسويّ رحمه الله تعالى :

سَأَمْضِي لِلَّتِي لا عيبَ فيها   وإنْ لم أستفِدْ إلا عناء[4]

---

(١) انتحت : قصدت .

(٢) شحيذة : مسنونة .

(٣) سورة فاطر ٤٢ ، ٤٣ .

(٤) ديوانه لوحة ٧٥ — ٧٦

وأطلبُ غايةً إنْ طوّحَتْ بي أصابَتْ بِي الِحمامَ أو العَلاء

تَمَانِي مِنْ أباةِ الضيم آبٍ[1] أفاضَ علىّ تلك الكِبرياء

وَمِنّا كُلّ أغلبَ مُستميتٍ إذا أنتَ لَدَدْتَه بالذلّ قاء[2]

إذَا ماضِيمَ نَمّرَ صَفحَتَيه وَقامَ عَلَى بَرَائِنِهِ إباء[3]

ونأبى أنْ يُنال النَّصْف منا وأنْ نُعطى مقارِعَنا السَّواء

ولَوْ كان العِداء يسوغُ فينا لمَا سُمْنا الورى إلّا العَدَاء

وله :

سَيُعطِيكَ المهنّد ماتمنّى ويُعطيك المثقفُ ماتشاء[4]

وما ينجى من الغمرات إلا طِعانٌ أو ضِرابٌ أو رِماء

• • •

ومن أهل الإباء الذين كرهوا الدنيّة واختاروا عليها المنيّة ، عبدُ الله بن الزبير ، تفرّق عنه — لما حاربه الحجّاج بمكة ، وحصره في الحرم — عامّة أصحابه ، وخرج كثير منهم إلى الحجّاج في الأمان ؛ حتى حَمزَة وخُبَيْبٌ ابناه ، فدخل عبد الله على أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق ، وكانت قد كُفّ بصرُها ، وهي عجوز كبيرة ، فقال لها : خذلني النّاس حتى ولدي وأهلي ، ولم يبق معي إلامن ليس عنده من الدّفع أكثرُ من ساعة ، والقوم يُعطونني من الدّنيا ماسألتُ ، فما رأيك ؟ فقالت : أنت يابنيّ أعلمُ بنفسك ، إنْ كنت تعلم أنك على حقّ وإليه تدعو فامضِ له ، فقد قُتِل أكثرُ أصحابك ، فلا تمكّن من رقَبتك يتلاعب بها غِلمانُ بني أميّة ، وإن كنت إنما أردتَ الدنيا فبئس العبد أنت ! أهلكتَ

---

(١) الديوان : « تام » .

(٢) الأغلب : الشجاع ، وأصله في الأسد .

(٣) الصفحتان : جانبا العنق ، ونمرهما : جعلهما يشبهان صفحة النمر .

(٤) ديوانه لوحة ١٧٦

نفسك ، وأهلكت مَنْ قُتِل معك ، وإن كنت قاتلتَ على الحقّ ، فما وهنَ أصحابُك إلا ضعفت ، فليس هذا فعلَ الأحرار ولا أهلِ الدين . وكم خلودك فى الدّنيا ! القتلُ أحسن .

فدنا عبد الله منها فقبّل رأسها ، وقال : هذا والله رأيى ، والله ماركنتُ إلى الدنيا ولا أحببت الحياة فيها ، وما دعانى إلى الخروج إلا الغضبُ لله تعالى عزّ وجلّ أنْ تُستَحلّ محارمُه ، ولكننى أحببتُ أنْ أعلم رأيك ، فقد زِدْتِنى بصيرة ، فانظرى ياأماه ، إنى مقتول يومى هذا ، فلا يشتدُّ جزَعُك ، وسلِّمى لأمر الله ، فإنّ ابنَك لم يتعمّدْ إتيان منكر ، ولا عملا بفاحشة ، ولم يَجُرْ فى حكم الله ، ولم يظلِمْ مسلماً ولا معاهَدا ، ولا بلغنى ظلمٌ عن عامل من عُمّالى فرضيتُ به بل أنكرتُه ، ولم يكن شىء عندى آثرَ من رضا الله . اللهمّ إنى لا أقوله هذا تزكيةً لنفسى ، أنتَ أعلم بى ؛ ولكنّى أقولُه تعزيةً لأمى لتسلوَعنّى . فقالت : إنّى لأرجو من الله أن يكون عزائى فيك حَسَناً إن تقدمتَنى ؛ فاخرج لأنظُرَ إلى ماذا يصير أمرك ! فقال : جزَاكِ الله خيرا ياأمى ! فلا تَدَعى الدّعاء لى حيًّا وميتا . قالت : لا أدَعُه أبدا ، فمن قُتِل على باطلٍ فقد قتلت على حق ، ثم قالت : اللهم ارحمْ طولَ ذلك القيام فى الليل الطويل ، وذلك النحيبَ فى الظلماء ، وذلك الصوم فى هواجِر مكةَ والمدينة ، وبرّه بأبيه وبى ؛ اللهمّ إنى قد أسلمتُ لأمرك ، ورضيتُ بما قضيت فيه ، فأثِبْنى عليه ثوابَ الصابرين .

وقد رُوِىَ فى قصّة عبد الله مع أمّه أسماء رواية أخرى ، أنّه لما دخل عليها وعليه الدِّرْع والمِغْفر — وهى عمياء لا تبصر — وقف فسلّم ، ثم دنا فتناول يدَها فقبّلها ، قالت : هذا ودَاع فلا تَبْعُد ، فقال : نعم ، إنما جئتُ مودِّعا ، إنّى لأرى هذا اليوم آخرَ أيامى من الدنيا ، واعلمى ياأمّى أنى إذا قتلتُ فإنما أنا لحم لا يضرُّنى ماصنع بى ، فقالت : صدقت يابنىّ ! أتِمّ على بصيرتك ، ولا تمكّن ابن أبى عقيل مِنك ، ادنُ منى لأودّعك ، فدنا منها فقبّلته

وعانقته ، فوجدت مسّ الدّرْع ، فقالت : ماهذا صنع من يريد ماتريد . فقال: إنما لبسته لأشدّ منك ، قالت : إنه لايشدّ منى ، ثم انصرف عنها ، وهو يقول :

إنى إذا أعرفُ يومِى أصبرُ   إذْ بعضهم يعرف ثم ينكِرُ

وأقام أهلُ الشام على كل باب من أبواب الحرَم[1] رجالا وقائدا ، فكان لأهل حِمْص الباب الذى يواجه باب الكعبة ، ولأهلِ دمشق باب بنى شَيبة ، ولأهل الأردنّ باب الصّفا ، ولأهل فلسطين باب جُمَح ، ولأهل قِنّسْرِين باب بنى سَهْم . وخرج ابنُ الزبير فمرة يحمل هاهنا ومرة يحمل هاهنا ، وكأنه أسد لايُقدم عليه الرجال ، وأرسلتْ إليه زوجته: أأخرج فأقاتل معك ؟ فقال : لا ، وأنشد :

كُتِبَ القَتل والقِتالُ عَلَيْناَ   وعَلَى المُحْصَنَاتِ جَرُّ الذُّيولِ[2]

فلما كان الليل ، قام يصلّى إلى قريب السَّحَر ثم أغفى محتبيا بحمائل سيفه ، ثم قام فتوضأ وصلّى ، وقرأ ﴿ نَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ ، ثم قال بعد انقضاء صلاته: مَنْ كان عنى سائلا فإنى فى الرَّعِيل الأول ، ثم أنشد :

وَلَسْتُ بمبتاع الحياة بِسُبّةٍ   ولا مرتقٍ مِنْ خَشْيَةِ الموتِ سُلَّمَا[3]

ثم حَمَل حتى بلغ الحجون ، فرُمِىَ بآجرّة ، فأصابت وجهه فَدَمِى، فلما وجد سخونة الدم يسيل على وجهه ، أنشد :

وَلَسْنَا عَلَى الأعْقَابِ تَدْمَى كُلُومُنَا   وَلَكِنْ عَلَى أقْدَامِنا تَقْطُرُ الدِّمَا[3]

ثم حمل على أهل الشام فغاص فيهم ، واعتوروه بأسيافهم حتى سقط ، وجاء الحجاج

---

(١) كذا فى ج ، وهو الصواب ، وفى ب : « مكة »

(٢) ينسب إلى عمر بن أبى ربيعة ، ملحق ديوانه ٤٩٨ .

(٣) للحصين بن الحمام المرى ، من مفضليته ص ٦٤ — ٦٩

فوقف عليه وهو ميت ، ومعه طارق بن عمرو ، فقال : ما ولدت النساء أذكر من هذا ! وبعث برأسه إلى المدينة ، فنُصب بها ، ثم حمل إلى عبد الملك .

***

أبو الطيب المتنبي :

أطاعِنُ خَيلاً مِنْ فَوَارِسِها الدَّهْرُ وحيداً وما قولِي كَذا وَمَعِي الصَّبْرُ ! [1]

وأشجَعُ مِنِّي كلَّ يوم سَلَامَتِي وَمَا ثَبَتَتْ إلا وفى نفسها أمْرُ

تَمَرَّسْتُ بالآفاتِ حَــتَّى تركتُها تقولُ: أماتَ الموتُ ؟ أم ذُعِرَ الذُّعْرُ ؟

وَأَقْدَمْتُ إقدَام الأتى كأنّ لِي سِوَى مُهْجَتِي أو كان لِي عِنْدَها وِتْرُ [2]

ذَرِ النَّفسَ تأخذْ حَظَّها قَبلَ بَينها فمفترِقٌ جاران دارُهُما العمرُ !

ولا تَحسبنَّ المَجْدَ زِقًّا وقَينَةً فما المجدُ إلا السَّيفُ والفَتكَةُ البِكْرُ [3]

وَتَضرِيبُ هَامَاتِ الملوكِ وأنْ تُرَى لكَ الهَبواتُ السُّودُ والعسكر المَجْرُ [4]

وتَرْكُكَ فى الدُّنيا دَوِيًّا كأنما تداوَلَ سَمْــعَ المرءِ أنمُلُهُ العَشْرُ

***

وقال ابن حيّوس :

ولستُ كَمَنْ أخْفَى عَلَيه زمانه فظلّ عَلَى أحداثِهِ يتعتَّبُ [5]

تَلَذُّ لهُ الشكْوى وإن لم يُفِدْ بِهَا صَلاحاً كما يلتذّ بالحكِّ أجْرَبُ

ولـكننى أحمِي ذِمارِي بعزمـةٍ تنوبُ منابَ السَّيفِ والسَّيفُ مقضَبُ [6]

---

(١) ديوانه ١ : ١٤٨

(٢) فى الديوان : « إقدام الأتى » ، والأتى : السيل الذى لا يرده شىء .

(٣) القينة : المغنية . والزق : ظرف الخمر . والفتكة البـكر : التى لم يسبق إلى مثلها .

(٤) الهبوات : جمع هبوة ؛ وهى الغبرة العظيمة . والمجر : الجيش العظيم .

(٥) ديوانه ١ : ٣٥ .

(٦) المقضب : السيف القطاع .

وليس الفتى مَنْ لم تسم جسمَه الظُّبا ... ويُحْطَمُ فيه مِنْ قنا الخطِّ أكْعُبُ[1]

وله أيضا :

أخفق المترَف الجنوحُ إلى الخفـ ... ـضِ وفاز المخاطرُ المِقْدامُ[2]

وإذا ما السُّيوف لم تشهد الحر ... بَ فسيّانِ صارمٌ وكَهامُ

***

وممن تقبّل مذاهبَ الأسلاف فى إباء الضيم وكراهية الذلّ ، واختار القتلَ على ذلك وأن يموتَ كريما ؛ أبو الحسين زيد بن علىّ بن الحسين بن على بن أبى طالب عليه السلام ، أمه أم ولد ، وكان السببُ فى خروجه وخلعه طاعةَ بنى مروان ، أنه كان يخاصِم عبدَ الله بن حسن بن حسن بن علىّ بن أبى طالب عليه السلام فى صدقاتِ علىّ عليه السلام ، هذا يخاصِم عن بنى حسين ، وهذا عن بنى حسن ؛ فتنازعا يوماً عنـد خالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحكم أمير المدينة ، فأغلظ كلٌّ واحد منهما لصاحبِه ، فسُرَّ خالد بن عبد الملك بذلك ، وأعجبه سِبابهما ، وقال لهما حين سكتا : أغْدُوَا علىّ ، فلستُ بابن عبد الملك إنْ لم أفصِلْ بينكما غدا ، فباتت المدينة تَغْلِي كالمِرْجل ، فمن قائل يقول : قال زيد كذا ، وقائل يقول : قال عبدُ الله كذا ، فلما كان الغد جلس خالد فى المسجد ، وجَمع الناس ؛ فمن بين شامتٍ ، ومغموم ، ودعا بهما وهو يحبّ أن يتشاتما ، فذهب عبدُ الله يتكلّم ، فقال زيد : لا تعجل يا أبا محمد ، أعتقَ زيد ما يملك إن خاصمك إلى خالد أبدا ، ثم أقبل على خالد ، فقال له : أجَمعْتَ ذرّية رسول الله صلى الله عليه وآله لأمرٍ ما كان يجمعهم عليه أبو بكر ولا عمر ، فقال خالد : أما لهذا السفيه أحدٌ يكلّمه !

فتكلّم رجل من الأنصار من آل عمرو بن حَزْم ، فقال : يابن أبى تراب ، ويابن

---

(١) الديوان : « تسم جسمه » .
(٢) ديوانه ٢ : ٥٦٦ .

حسين السفيه ! أما ترَى عليك لوالٍ حقا ولا طاعة ! فقال زيد : اسكت أيها القحطانىّ، فإنّا لانجيب مثلَك ، فقال الأنصارىّ: ولمَ ترغبُ عنى ! فوالله إنّى لخيرٌ منك ، وأبى خير من أبيك ، وأمّى خير من أمك ! فتضاحك زيد ، وقال : يامعشرقريش ؛ هذا الدين قد ذهب ، أفذهبت الأحساب ! فتكلّم عبدالله بن واقد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، فقال : كذبتَ أيها القحطانىّ ، والله لَهُوَ خيرٌ منك نفسا وأباوأما ومَحْتِداً ، وتناوله بكلام كثير ، وأخذ كفاً من الحصا ، فضرب به الأرض ، وقال : إنه والله مالَنا على هذا من صبر ، وقام .

فقام زيد أيضا ، وشخص من فوره إلى هشام بن عبدالملك ، فجعل هِشامٌ لا يأذن له وزيدبرفع إليه القِصص، وكلّمارفع إليه قصة كتب هشام فى أسفلِها : ارجِعْ إلى أرضِك، فيقول زيد : والله لا أرجع إلى ابن الحارث أبدا . ثم أذن له بعد حَبْسٍ طويل وهشـام فى عِلّية له ، فرقىَ زيد إليها ، وقدأمر هشام خادما له أن يتبعه حيث لايراه زيد ،ويسمع ما يقول . فصعـد زيد ــ وكان بادنا ــ فوقف فى بعض الدرجة ، فسمعَه الخـادم ، وهو يقول : ماأحبّ الحياة إلا مَن ذلّ ! فأخبر الخادم هشاما بذلك ، فلما قعد زيد بين يدى هشام وحدّثه حلَف له على شىء ، فقال هشام :لاأصدّقك ، فقال زيد : إن الله لا يرفع أحداً عن أن يرضى بالله ، ولم يضع أحداً عن أن يرضى بذلك منـه . قال له هشام : إنه بلغنى أنك تذكر الخلافة وتتمنّاها ، ولستَ هناك ! لأنك ابنُ أمة ، فقال زيد : إنّ لك جوابا ، قال : تـكلّم ، قال : إنه ليس أحد أوْلَى بالله ، ولا أرفعَ درجة عنده من نبىّ ابتعثه ؛ وهوإسماعيل بن إبراهيم، وهو بن أمَة ، قد اختاره الله لنبوّته ، وأخرج منه خير البَشَرِ ، فقال هشام : فـما يصنعُ أخوكالبقرة ! فغضب زيد ، حتى كاديخرج من إهابِه، ثم قال : سمّاه رسول الله صلى الله عليه وآله الباقر وتسميه أنت البقرة ! لشدّ ما اختلفتما ! لتخالفنّه فى الآخرة ، كما خالفته فى الدنيا ، فيرد الجنة ، وترد النار .

فقال هشام : خُذُوا بيد هذا الأحمق المائق ، فأخرجوه ، فأخذ الغلمان بيده فأقاموه ، فقال هشام : احمِلوا هـذا الخائن الأهوج إلى عامله ، فقال زيد : والله لئن حملتَنى إليه لاأجتمع أنا وأنت حَيَّيْن ، وليموتَنّ الأعجل مِنّا . فأخرج زيد وأشخص إلى المدينة ، ومعه نفر يسيّرونه حتى طردُوه عن حدود الشام ، فلما فارقوه عَدَل إلى العراق ، ودخل الكوفة ، وبايعَ لنفسه ، فأعطاه البيعة أكثر أهلها ، والعاملُ عليها وعلى العراق يومئذ يوسف بن عمر الثقفيّ ، فكان بينهما من الحرب ماهو مذكور فى كتب التواريخ . وخذل أهلُ الكوفة زيدا ، وتخلّف معه ممّن تابعه نفر يسير ، وأبلى بنفسه بلاء حسناً وجهادا عظيما ، حتى أتاه سَهْم غربٍ[1] ، فأصاب جانب جَبْهته اليُسرى ، فثبت فى دماغه فحين نزع منه مات عليه السلام .

* * *

عنّف محمد بن عمر بن على بن أبى طالب عليه السلام زيداً لما خرج ، وحذّره القتل ، وقال له : إنّ أهل العراق خذَلوا أباك علياً وحسنا وحسينا عليهم السلام ؛ وإنك مقتول ، وإنهم خاذلوك ، فلم يَثْنِ ذلك عَزْمه وتمثّل :

بَكَرَتْ تُخَوِّفُنِي الْحُتُوف كأنني ... أصْبَحْتُ عَنْ غَرَضِ الْحُتوف بمعزِلِ[2]

فأجبتُها إنّ المنيّـة مَنْهَلٌ ... لابُـدّ أنْ أُسْقَى بِذَاكَ المَنْهَلِ

إن المنيّـــة لو تمثّل مُثّلَتْ ... مِثْلِى ، إذا نزلوا بضَيْقِ المَنزِلِ[3]

فاقْنَىْ حَيـاءَكِ لاأبالكِ واعلمى ... أنى امرؤ سأموت إنْ لم أُقتلِ[4]

* * *

(١) سهم غرب ، على الإضافة : لا يدرى راميه .

(٢) لعنترة ، ديوانه ٤٢ ، (من مجموعة العقد الثمين) .

(٣) فى الديوان : « ضنك المنزل » .

(٤) اقنى حياءك : الزميه .

العلوىّ البصرىّ صاحب الزّنج يقول :

وإذا تُنازِعُنِي أقولُ لهـا قَرِى ... مَوْتٌ الملوكِ عَلَى صُعُود المنبَرِ

ماقَدْ قَضَى سَيَكُونُ فاصطبِرِى له ... ولكِ الأمان مِنَ الّذِى لَمْ يُقْدَرِ

وقال أيضا :

إنى وقومىَ فى أنسابِ قَوْمِهِمُ ... كمسجدِ الخَيف فى بُحْبُوحة الخيفِ

ماعُلّقَ السيفُ مِنّـا بابن عاشرةٍ ... إلا وعزمتُه أمضَى من السَّيفِ

بعض الطالبيين :

وإنّا لتُصبحُ أسيـافُنا ... إذامااًنتُضِين لِيَوْم سَفُوكِ

مَنَابِرُهُنّ بطونُ الأكُفّ ... وأغمـادُهُنّ رءوس الملوكِ

بعض الخوارج يصف أصحابه :

وَهُمُ الأسودُ لدَى العَرِينِ بَسَالَةً ... وَمِنَ الخشُوعِ كَأَنَّهُمْ أحبَارُ

يمضُون قد كَسَرُوا الجُفُون إلى الدعا ... مُتَبَسِّمِينَ وفيهمُ استِبْشَـارُ

فـكأنما أعداؤهُمْ أحبـابُهُمْ ... فَرَحًا إذا خَطَرَ القَنـا الخطّارُ

يَرِدُون حَوْمَاتِ الحِمامِ وإنَّهـا ... تاللهِ عِنْـدَ نُفُوسِهِمْ لَصِغَـارُ

وَلَقَدْ مَضَوْا وأنا الحبيبُ إليهمُ ... وهُمُ لدىَّ أحبـــــةٌ أبْرَارُ

قَدَرٌ يخلِّفُنِي ويُمْضِيهِمْ به ... يالهفَ كيف يفوتنى المقدار !

وفى الحديث المرفوع « خُلُقان يحبّهما الله : الشجاعة والسخاء » .

* * *

كان بِشْر بن المعتمر من قدماء شيوخنا رحمه الله تعالى يقول بتفضيل علىّ عليه السلام

ويقول : كان أشجَعهم وأسخاهم ، ومنه سَرَى القولُ بالتفضيل إلى أصحابنا البغداديين قاطبة ، وفى كثير من البصريين .

دخل النَّضر بن راشد العبدىّ على امرأته فى حَرْب الترك بخراسان فى ولاية الجنيد ابن عبد الرحمن المرّىّ فى خلافة هشام بن عبد الملك ، والناس يقتتلون ، فقال لها : كيف تكونين إذا أُتيتِ بى فى لِبْدٍ قتيلا مُضرَّجا بالدماء ؟ فشقّت جيبَها ، ودعتْ بالويل ، فقال : حسبك ! لو أعولَتْ علىّ كلّ أنثى لعصيتُها شوقا إلى الجنة . ثم خرج فقاتل حتى قُتل ، وحمل إلى امرأته فى لِبْد ودمه يقطر من خلاله .

***

قال أبو الطيب المتنبىّ :

إذَا غامَرْتَ فى شَرَفٍ مَرُومِ ... فَلَا تَقْنَعْ بما دُونَ النُّجُومِ[1]

فطعمُ الموتِ فى أمرٍ حقيرٍ ... كطَعْمِ الموتِ فى أمرٍ عظيمِ

يَرَى الجُبَناء أنّ الجُبْنَ حَزْمٌ ... وتِلْكَ خَدِيعَةُ الطَّبْعِ اللَّئيمِ

وكلّ شجاعةٍ فى المرءِ تُغْنِى ... ولا مثلَ الشّجاعةِ فى الحكيمِ

وقال :

إذا لم تجِدْ ما يَبتُرُ الفَقْرَ قاعداً ... فقمْ واطلبِ الشىءَ الذى يَبْتُرُ العُمْرَا[2]

وقال :

أَهُمُّ بشىءٍ والليالى كأنّها ... تُطارِدُنى عن كَوْنِه وأُطارِدُ[3]

وَحِيداً من الخلّان فى كلّ بلدةٍ ... إذا عَظُمَ المطلوبُ قَلَّ المساعِدُ

***

(١) ديوانه ٤ : ١١٩

(٢) ديوانه ٢ : ١١٤

(٣) ديوانه ١ : ٢٧٠

قيل لأبي مسلم في أيام صباه : نراك تنظر إلى السماء كثيراً كأنك تسترق السمع ، أو تنتظر نزولَ الوحي ؟ قال : لا ، ولكن لي همة عالية ، ونفس تتطلع إلى معالى الأمور ، مع عيش كعيش الهمَج والرَّعاع ، وحال متناهية في الاتّضاع . قيل : فما الذي يَشفي علّتك ، ويُرْوِي غُلتك ؟ قال : المُلْك ، قيل : فاطلب الملك ، قال : إن المُلْك لا يطلب هكذا . قيل : فما تصنع وأنت تذوب حَسَراً[1] ، وتموت كمدا ؟ قال : سأجعل بعض عقلي جَهْلا ، وأطلب به مالا يطلب إلا بالجهل ، وأحرس بالباقي مالا يحرس إلا بالعقل ، فأعيش بين تدبيرِ ضِدَّيْن ، فإن الخمول أخو العُدْم ، والشهرة أخت الكون .

***

قال ابن حَيُّوس :

أمواتُهُمْ بالذِّكْرِ كالأحياء ... وحيُّهمْ فَضْلٌ عَلَى الأحْيَاءِ[2]

نَزَلُوا عَلَى حُكْمِ المروءةِ وامتطَوْا ... بالبأسِ ظَهْرَ العِزَّةِ القَعْسَاءِ

والعزّ لا يَبْقَى لغير معوَّدٍ ... أن يكشف الغمّاء بالغَمَّاءِ

لا تحسَبِ الضَّراء ضَرّاء إذا ... أفضَتْ بصاحِبها إلى السَّرّاءِ

وقال :

وهي الرياسةُ لا تبوحُ بسرِّها ... إلا لأرْوَعَ لا يُبَاح ذِمارُهُ[3]

يَحْمى حِمَاهُ قَلْبُهُ ولسانُهُ ... وتذودُ عنـــه يمينُهُ ويسارُهُ

لا العذلُ ناهِيه ، ولا الحِرْصُ الّذِي ... أمَرَ النُّفُوسَ بِشُحِّها أمّارُهُ

فليعلمِ الساعي ليبلغ ذَا المـدى ... أنّ الطريق كثيرةٌ أخطارُهُ

***

(١) يقال حسر عليه حسراً وحسرة ، أي تلهف .

(٢) ديوانه ١ : ١٢ ـ ١٩ (٣) ديوانه ١ : ٢٩٨ ـ ٢٩٩

كان ثابت قُطْنة فى خيل عبد الله بن بِسْطام فى فتح شكند من بلاد الترك فى أيام هشام بن عبد الملك ، فاشتدّت شوْكةُ الترك ، وانحاز كثيرٌ من المسلمين واستؤسر منهم خَلق ، فقال ثابت : والله لاينظرُ إلىّ بنو أمية غداً مشدوداً فى الحديد ، أطلُب الفداء؛ اللهمّ إنِّى كنتُ ضيف ابن بِسْطام البارحة ، فاجعلنى ضيفَك الليلة ، ثم حمل وحمل معه جماعة ، فكسرتْهم الترك ، فرجع أصحابُه وثبت هو ، فَرُمِىَ بِرْذَوْنُه فشبّ ، وضربه فأقدم ، فصرِع ثابت وارْتُثّ ، فقال: اللهم إنّك استجبْتَ دعوتى وأنا الآن ضيفك ، فاجْعَلْ قِرَاىَ الجنة ؛ فنزل تركىّ فأجهز عليه .

* * *

قال يزيد بن المهلّب لابنه خالد ، وقد أمّره على جيش فى حَرْب جرجان : يابنىّ ، إن غُلِبْتَ على الحياة فلا تُغْلَبَنّ على الموت ، وإياك أنْ أراك غداً عندى مهزوما !

عن النبى صلى الله عليه وسلّم : « الخيرُ فى السّيف ، والخير مع السيف ، والخير بالسيف » ، كما يقال : المنيّة ولا الدنيّة ، والنار ولا العار ، والسيف ولا الحَيْف .

قال سيفُ بن ذى يَزَن لأنوشِرْوان حين أعانه بوَهْرز الديلمىّ ومن معه : أيها الملك، أين تقع ثلاثة آلاف من خمسين ألفا ؟ فقال : ياأعرابىّ ، كثيرُ الحطَب يكفيه قليل النار .

* * *

لما حبَس مَرْوان بن محمد إبراهيم الإمام خرج أبو العباس السّفّاح ، وأخوه أبو جعفر، وعبد الوهاب ومحمد ابنا إبراهيم الإمام ، وعيسى وصالح وإسماعيل وعبد الله وعبد الصمد أبناء علىّ بن عبد الله بن العباس ، وعيسى بن موسى بن محمد بن علىّ بن عبد الله ابن العباس ، ويحيى بن جعفر بن تمام بن العباس ، من الحُمَيْمَة من أرض السَّراة ، يطلبون الكوفة ، وقد كان داود بن علىّ بن عبد الله بن العباس وابنُه موسى بن داود بالعراق ، فخرجا يطلبان الشام ، فتلقّاهما أبو العباس وأهلُ بيته بدُومة الجَندَل ، فسأله داودُ عن

خروجهم ، فأخبروه أنهم يريدون الكوفة ليظهروا بها ، ويدعوا إلى البيعة لأبي العباس . فقال : ياأبا العباس ، يظهر أمرك الآن بالكوفة ، ومروان بن محمد شيخ بني أمية بحرّان مُطِلّ على العراق في جيوش أهل الشام والجزيرة ، ويزيد بن عمر ابن هبيرة شيخ العرب بالعراق في فرسان العرب ! فقال : ياعمّ مَنْ أحبّ الحياة ذلّ ، ثم تمثل بقول الأعشى :

فما ميتة إن مِتُّها غَيْرَ عاجزٍ بعارٍ إذا ما غالَتِ النَّفسَ غُولُها(١)

فقال داود لابنه موسى : صدقَ ابن عمّك ، ارجع بنا معه ، فإمّا أن نهلك أو نموت كراما .

وكان عيسى بن موسى يقول بعد ذلك إذا ذكر خروجهم من الحُمَيْمَة يريدون الكوفة : إن ثلاثة عشر رجلا خرجوا من ديارهم وأهليهم يطلبون ماطلبنا لعظيمة هِمَمُهم ، كبيرة نفوسهم ، شديدة قلوبهم .

***

أبو الطيب المتنبي :

وإذا كانَتِ النُّفوسُ كِبَاراً تَعِبَتْ في مُرَادِهَا الأجْسَامُ(٢)

وله :

إلى أيّ حينٍ أنت في زِيّ مُحْرِمٍ وحَتّى مَتى في شِقْوَةٍ وإلى كَمِ(٣)

وإلّا تَمُتْ تحتَ السُّيوفِ مكرّماً تَمُتْ وتقاسي الذُّلّ غير مُكَرّمِ

فثِبْ واثقا بالله وَثْبَةَ ماجِدٍ يَرَى الموْتَ في الهيجا جَنَى النَّحْلِ في الفَمِ

---

(١) ديوانه ١٢٥ .
(٢) ديوانه ٣ : ٣٤٠
(٣) ديوانه ٤ : ٣٢

وقال آخر :

إنْ تَقْتُلُونى فآجالُ الرِّجالِ كَما ... حُدِّثْتُ قَتْلٌ وما بالقَتْلِ مِنْ عَارِ
وإن سلِمْتُ لوقتٍ بعــده فعسى ... وكلّ شىء إلى حَــدٍّ ومِقْدَارِ

* * *

خطب الحجاجُ ، فشكا سوء طاعة أهل العراق ، فقام إليه جامع المحاربىّ ، فقال : أيها الأمير ، دَعْ مايباعِدُهم منك إلى ما يقرّبُهم إليك ، والتمس العافية ممّن دونك تُعْطَها ممّن فوقك ، فلو أحبُّوك لأطاعوك ؛ إنهم ماشنئوك بنسبك ولا لبأوك ،ولـكن لإيقاعك بعدَ وعيدِك ، ووعيدِك بعد وَعْدِك .

فقال الحجاج : ماأرانى أرُدّ بنى اللكيعة[1] إلى طاعتى إلا بالسيف ، فقال جامع : أيّها الأمير ، إنّ السيف إذا لاقى السيفَ ذهب الخيار ، فقال الحجاج : الخيار يومئذ لله ، قال : أجل ، ولـكنك لاتدرى لمن يجعله الله ، فقال : ياهناه ، إيهاً فإنك من مُحارب ، فقال جامع :

وَلِلحَرْبِ سُمِّينا فكُنّا مُحارباً ... إذا ما القنا أمْسَى مِنَ الطَّعنِ أحْمَرا

* * *

ومن الشعر الجيد فى تحسين الإباء والحميّة والتّحريض على النهوض والحرْب وطلب المُلك والرياسة ، قصيدة عُمارة اليمنىّ شاعر المصريين فى فخر الدين توران شاه بن أيوب ، التى يغريه فيها بالنُّهوض إلى اليمن ، والاستيلاء على مُلْكها ، وصادفت هذه القصيدة محلًّا قابلا ، ومَلَكَ توران شاه اليمن بما هزّت هـذه القصيدة من عطفه ، وحركت من عزمه ، وأولها :

---

(١) اللكيعة : الأمة اللئيمة .

العِلم مُذ كانَ محتاجٌ إلى العَلَمِ   وَشفرةُ السَّيفِ تستغني عَنِ القَلَمِ (١)
وَخيرُ خيلِكَ إنْ غامرتَ في شَرَفٍ   عَزمٌ يفرِّق بين السّاقِ والقَدَمِ
إنّ المعـــالي عَروسٌ غيرُ واصلةٍ   مالم تخلَّق رِداءيها بنَضحِ دَمِ
تَرَى مَسامِعَ فَخرِ الدِّينِ تَسمَعُ ما   أملاهُ خاطرُ أفكارِي عَلَى قَلَمِي
فإنْ أصبتُ فلي حظُّ المصيبِ وإنْ   أخطأتُ قَصدَكَ فاعذرني وَلَا تَلُمِ
كم تترك البيضَ في الأجفانِ ظامئةً   إلى الموارِدِ في الأعنـاقِ والقِمَمِ
ومقلةَ المجدِ نحو العزم شاخِصَـةً   فاترك قعودكَ عن إدراكها وَقُمِ
فعمّك الملكُ المنصور سوّمهـا   من الفُرَاتِ إلى مصرٍ بلا سأمِ
واخلقْ لنفسِكَ أمراً لاتضافُ به   إلى سواكَ ، وأورِ النـارَ في العَلَمِ
وانهَ المشيرين إنْ لجّتْ نصيحتهمْ   أولا ، فأنم على العُميانِ بالصَّمَمِ
واعزِمْ وَصَمِّمْ فقد طالتْ وقد مُجَّتْ   قضيةٌ لفظتهـــا ألسنُ الأمَمِ
فربّ أمرٍ يهـابُ النّاسُ غايتهُ   والأمرُ أهونُ فيـه مِنْ يدٍ لِفَمِ
فكيفَ إن نهضتَ فيما هممتَ به   أسدٌ نسير من الخطّيِّ في أجَمِ
لا يدركُ المجـدَ إلّا كلّ مقتحمٍ   في مَوجِ ملتطمٍ أو فوجِ مُضطَرِمِ
لا ينقض الخطوة الأولى بثانيةٍ   ولا يفكّر في العُقبى مِنَ النَّدَمِ
كأنمـــا السَّيفُ أفتاهُ بقتلهمُ   في فتحِ مكّةَ حلَّ القتل في الحرمِ
ولم يراعُوا لعثمانٍ ولا عمرٍ   ولا الحُسَيْنِ ذمامَ الأشهرِ الحُرُمِ
فما ترومُ سوى فتحٍ صوارِمُه   يُضحكْنَ في كلِّ يومٍ عابسَ البُهَمِ
حتى كأنّ لسانَ السّيفِ في يده   يروي الشريعةَ عن عادٍ وعَنْ إرَمِ

(١) النكت العصرية ٣٥٢ .

هذا ابن تومرتَ قد كانتْ بدايته فيما يقول الورَى لحـا على وَضَمِ
وقد ترقّى إلى أنْ صار طالِعُهُ من الكواكب بالأنفاس والكَظَمِ
وكان أوّلُ هذا الدين مِنْ رجل سعى إلى أن دَعَوْهُ سيّدَ الأممِ

ـ كذب ، لم يظهر الدين الحنيف المقدّس على الأديان بسعى البشر؛ بل بالتأييد الإلهى، والسر الربانىّ ، صلوات الله وسلامه على القائم به ، والمتحمّل له ـ

والبدرُ يبدُو هلالا ثم يكشف بالأ أنوارِ ما سترته شَمْلَةُ الظُّلَمِ
والغيثُ فهْو كما قد قيل أوّله قَطْرٌ وبدء خراب السّد بالعَرِم
تَنْمُو قوى الشيء بالتّدريج إن رزقت لُطفاً ويقوى شرارُ النار بالضَّرَمِ
حاسِبْ ضميرَك عن رأى أتاكَ وَقُلْ نصيحة وَرَدَتْ من غيرِ مُتَّهَمِ
أقسمت ما أنتَ ممّنْ جُلُّ هِمّتِه ما راقَ من نعم أورقَ مِنْ نِعمِ
وإنمـــا أنت مرجوٌّ لواحدةٍ يبنى بها الدهر مجداً غيرَ مُنهدِمِ
كأننى بالليـــالى وهى هاتِفَةٌ قد صمّ سمع رجال دُونَها وعَمِى
وبالعلا كلمـــا لاقتك قائلة أهلا بِمُنْشِرِ آمالى مِنَ الرِّمَمِ

***

ومن أباة الضَّيْم الذين اختارُوا القتلَ على الأسر ، والموت على الدنيّــة ، مُصْعب بن الزبير ، كان أميرَ العراقين من قِبَل عبدالله بن الزبير ، وكان قد كَسَر جيوش عبد الملك مِرارا ، وأعياهُ أمره ؛ فخرج إليه من الشام بنفسه ، فلِيمَ فى ذلك ، وقيل له : إنّك تغرّر بنفسك وخلافتِك ، فقال: إنه لايقوم لحرْب مُصْعَبٍ غيرى ؛ هذا أمر يحتاج إلى أن يقومَ به شجاع ذُو رأى ، وربّما بعثت شجاعا ولا رَأْى له ، أو ذا رَأْيٍ ولا شجاعة عنـده ، وأنا بصير بالحرب ، شجاع بالسيف ؛ فلمــا أجمع على الخروج إلى حرب مُصْعب ، جاءته

امرأته عاتِـكة بنت يزيد بن معاوية ، فالتزمته ، وبكت لفراقه ، وبكى جواريها حولها، فقال عبد الملك : قاتل الله ابن أبى جُمْعة[1] ! كأنه شاهد هذه الصورة حيث يقول :

إذا مَا هَمّ بالأعداء لَمْ يَثْنِ عَزْمَهُ   حَصَانٌ عَلَيْهَا نَظْمُ دُرٍّ يَزِينُها
نَهَتْهُ فَلَمَّا لم تَرَ النَّهْيَ عاقَهُ   بَكَتْ فَبَكَى مِمَّا عَرَاها قَطِينُها

فسار عبدُ الملكِ حتى إذا كان بمَسْكِن من أرض العراق ، وقد دنا منه عَسْكر مصعب ، تقاعد بمُصعب أصحابُهُ وقُوّاده وخذلوه ، فقال لابنه عيسى : الحقْ بمكة فانج بنفسك ، وأخبر عمّك عبد الله بما صنع أهلُ العراق بى ، ودعنى فإنى مقتول ، فقال : لاتتحدّث نساء قريش أنى فررت عنك ، ولكن أقاتل دونك حتى نقتل ، فالفرار عار، ولا عار فى القتل ، ثم قاتل دونه حتى قُتِل . وخفّ مَنْ يحامى عن مُصعب من أهل العراق ، وأيقن بالقتل ، فأنفذ عبد الملك إليه أخاه محمد بن مروان ، فأعطاه الأمان وولاية العراقين أبدا مادام حيًّا ، وألف ألف درهم صلة ، فأبى وقال : إنّ مثلى لاينصرف عن هذا المكان إلا غالبا أومقتولا ، فشدّ عليه أهل الشام ورموه بالنَّبل فأثخنوه ، وطعنه زائدة ابن قيس بن قدامة السعدىّ ، ونادى : ياثارات المختار ! فوقع إلى الأرض ، فنزل إليه عبد الملك بن زياد بن ظَبْيان ، فاحتزّ رأسه ، وحمله إلى عبد الملك .

لما حُمِل رأسُ مصعب إلى عبد الملك بكى وقال : لقد كان أحبَّ الناس إلىّ وأشدّهم مودّة لى ، ولكن الملك عقيم .

كتب مصعب إلى سُكَيْنة بنت الحسين عليه السلام ، وكانت زوجته لما شخص إلى حرب عبد الملك وهى بالكوفة بعد ليال من فراقها :

وكان عزيزاً أن أبيتَ وبينَنا   حِجابٌ فقد أصبحتِ مِنّى عَلَى عَشْرِ

---

(١) هو كثير بن عبد الرحمن بن أبى جمعة .

وأبكاهمـــا والله للعين فاعلِي ... إذا ازددت مثليها فَصِرتُ عَلَى شَهْرِ
وأنــكَى لقلبِي منهمـــا اليومَ أنني ... أخاف بألّا نلتقي آخر الدهرِ

ثم أرسل إليها وأشخصها ، فشهدتْ معه حربَ عبد الملك ، فدخل عليها يوم قُتِل ، وقد نزع ثيابه ثم لَبِس غُلالة ، وتوشّح بثوب واحد ، وهو محتضِنٌ سيفه ، فعلمتْ أنه غيرُ راجع ، فصاحت : واحزناه عليك يامصعب ! فالتفت إليها ، وقال : إنّ كل هذا فى قلبك ! قالت : وما أخفى أكثر . قال : لو كنت أعلم هذا لـكان لى ولك شأن ، ثم خرج فلم يرجع .

فقال عبد الملك يوما لجلسائه : مَنْ أشجعُ الناس ؟ فقالوا : قطرىّ ، شبيب ، فلان وفلان ، قال عبد الملك : بل رجل جَمَع بين سُكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة ، وأمَة الحميد بنت عبدالله بن عامر بن كريز ، وقُلابة ابنة زبّان بن أنيف الـكلبىّ سيد العرب ، وولىَ العراقين خمس سنين ، فأصاب كذا وكذا ألف درهم ، وأعطِي الأمان على ذلك كلّه وعلى ولايته وماله فأبى ، ومشى بسيفِه إلى الموت حتى قُتِل ، ذاك مصعب بن الزبير ، لا مَنْ قطع الجسور مرة ها هنا ومرة ها هنا !

سُئِل سالم بن عبد الله بن عمر ، أىّ ابنَيِ الزبير أشجع ؟ فقال : كلاهما جاءه الموت ، وهو ينظر إليه .

لما وضِع رأس مصعب بين يدى عبد الملك أنشد :

لقد أرْدَى الفوارسُ يومَ حِسْيٍ ... غُلاماً غيرَ مَنّـــاعِ المتاعِ[1]
ولا فرحٍ بخيرٍ إنْ أتاه ... وَلَا هَلِعٍ من الحَدَثان لاعِ
ولا وقّافةٌ والخيل تَرْدِي ... ولا خالٍ كأنبوبِ اليَرَاعِ

(١) من أبيات نسبها ابن الشجرى فى أماليه ٨٠ إلى طفيل الغنوى .

كان ابن ظبيان ، يقول : ماندِمْتُ على شيء نَدَمي على ألّا أكونَ لمّا حمَلت إلى عبد الملك رأسَ مصعب فسجَد قتلتُه في سَجْدَته ، فأكون قد قتلت مَلِكَي العرب في يوم واحد .

قال رجل لعبدالله بن ظَبْيان : بماذا تحتجّ عند الله عزّ وجلّ غداً ، وقد قتلتَ مصعبا؟ قال : إن تُركت أحتجّ كنت أخطبَ من صعصعة بن صوحان !

كان مصعب لما خرج إلى حرب عبد الملك سأل عن الحسين بن على عليه السلام ، وكيف كان قتله ؟ فجعل عروة ابن المغيرة يحدّث عن ذلك ، فقال متمثلا بقول سليمان بن قَتّة :

وإنّ الأُلَى بالطَّفّ من آل هاشمٍ   تأسَّوْا فسَنُّوا للكرامِ التأسّيا[1]

قال عُروة : فعلمت أن مصعبا لا يفرّ .

لما كان يوم السَّبَخة ، وعسكر الحجاج بإزاء شَبيب ، قال له الناس : أيها الأمير ، لو تنحّيت عن هذه السَّبخة ، فإنها منتنة الريح ! قال : ماتنحُونَنِي — والله — إليه أنتن ؛ وهل ترك مصعب لكريم مَفَرّا ! ثم أنشد قول الكَلْحَبَة :

إذَا المَرْءُ لَمْ يَغْشَ الكَرِيهةَ أوْشَكَتْ   حِبالُ الهُوَيْنى بالفتى أنْ تَقطَّعا[2]

***

وروى أبو الفرج في كتاب « الأغاني »[3] : خطبة عبدالله بن الزبير في قتل مُصعب برواية هي أتمّ مما ذكرناه نحن فيما تقدم ، قال : لما أتى خبرُ المصعَب إلى مكة ، أضرب عبد الله بن الزبير عن ذكره أياما ؛ حتى تحدث به جميعُ أهلِ مكة في الطريق ، ثم صعد المنبر فجلس عليه مَليًّا لا يتكلم ، فنظر الناس إليه ؛ وإن الكآبة على وجهه لبادية ؛ وإنّ

---

(١) اللسان ١٨ : ٣٢

(٢) المفضليات ٣٢

(٣) الأغاني ١٧ : ١٦٦ (ساسي) ، عيون الأخبار ٢ : ٢٤٠ مع اختلاف في الروايات .

جبينه ليرشَح عرقا،فقال واحد لآخر: ماله لايتكلم ؟ أتراه يهابُ النطق ! فوالله إنه لخطيب. فما تراه يهاب ؟ قال : أراه يريد أن يذكر قتل المُصعب سيّد العرب ، فهو يفظِع بذلك . فابتدأ فقال : الحمدُ لله الذى له الخلق والأمر ، مِلك الدنيا والآخرة ، يعِزّ مَنْ يشاء ، ويُذِل مَنْ يشاء ؛ ألا إنّه لايذِلّ مَنْ كان الحق معه وإن كان مفردا ضعيفا ، ولا يعزّ من كان الباطل معه ؛ وإن كان ذا عدد وكثرة . ثم قال : أتانا خبرٌ من العراق ، بلد الغدر والشقاق ، فساءنا وسرّنا ؛ أتانا أن مُصعبا قتل رحمه الله ؛ فأما الذى أحزننا من ذلك فأنّ لفراقِ الحميم لَذْعة ولوعة ، يجدها حَمِيمُه عند المصيبة،ثم يرعوى ذو الرأى والدِّين إلى جميل الصبر . وأمّا الذى سرّنا منه ؛ فأنّ قتلَه كان له شهادة ؛ وإن الله جاعلٌ لنا وله فى ذلك الخِيرة . ألا إنّ أهلَ العراق باعُوه بأقلّ الأثمان وأخسرِها ، وأسلموه إسلام النَّعم المخطَّمة [1] فقتل ؛ وإن قُتِل لقد قُتِل أبوه وعمّه وأخوه [2] ، وكانوا الخيارَ الصالحين ؛ وإنّا والله مانموت حَتْف آنافنا ، مانموت إلا قتلا قتلا ، وقَعْصا [3] قَعْصاً ، بين قِصَد [4] الرماح،وتحت ظلالِ السيوف ؛ ليس كما تموت بنو مروان [5]؛ والله ماقتِل منهم رجل فى جاهلية ولا إسلام ؛ وإنما الدنيا عاريّة من الملِك القهار الذى لا يزول سلطانه ، ولا يَبيد مُلكه ، فإن تقبل الدنيا علىّ لا آخذها أخذ اللئيم البَطِر ، وإن تدبِرْ عَنّى لا أبكِي عليها بكاء الخرِف [6] المُهْتَر . ثم نزل .

* * *

---

(١) المخطمة : من قولهم خطم البعير بالخطام إذا جعله على أنفه ، والخطام : ماوضع على أنف البعير ليقتاد به .

(٢) قتل أبوه عبد الله بن الزبير يوم الجمل ، قتله عمرو بن جرموز فى صلاته بوادى السباع . وعمه عبد الرحمن بن العوام بن خويلد ، قتل يوم اليرموك وأخوه المنذر بن الزبير قتل يوم الحرة .

(٣) القعص : الموت السريع ؛ ويقال : مات قعصا ؛ أى أصابته ضربة أو رمية فمات فى مكانه .

(٤) القصدة : القطعة مما يكسر ، وجمعه قصد .

(٥) كذا فى جميع الأصول ، ويرى السيد جاسم أنها « بنو أبى العاص » .

(٦) الخرف : من فسد عقله من الكبر ، وكذلك المهتر .

وقال الطِّرِمّاح بن حَكيم ، وكان يرى رأي الخوارج :

وإني لَمُقتادٌ جَوادِي فقاذفٌ ... به وبِنفسي اليوم إحدى المتالفِ (١)

لأ كسِبَ مالا أو أأوب إلى غِنًى ... مِنَ الله يكفيني عِداةَ الخلائفِ (٢)

فيارَبِّ إن حانت وفاتي فلاتكنْ ... على شَرْجَعٍ يُعلَى بخُضْرِ المطارفِ (٣)

ولكنّ قبري بطن نَسْرٍ مَقيلُه ... بجوِّ السماء في نسور عَوَاكِفِ

وأمسي شهيدا ثاوياً في عِصابة ... يُصابون في فجٍّ من الأرض خائفِ

فوارسُ أشتاتٌ يؤلّف بينهُمْ ... هُدَى الله نزّالُونَ عِندَ المواقِفِ

قال ابن شُبْرُمة : مررت يوماً في بعض شوارع الكوفة ، فإذا بنعشٍ حوله رجال ، وعليه مُطرف خَزّ أخضر ، فسألت عنه فقيل : الطِّرِمّاح ، فعلمت أنّ الله تعالى لم يَستجِب له .

• • •

وقال محمد بن هانئ :

ولم أجِدِ الإنسانَ إلا ابنَ سَعْيِهِ ... فمَنْ كَانَ أسْعَى كَانَ بالمَجْد أجْدَرَا (٤)

وبالهمّة العلياء يَرْقَى إلى العُلَا ... فمن كَانَ أعْلى هِمّةً كَانَ أظْهَرَا

وَلَمْ يتأخّرْ مَنْ أرَادَ تَقَدُّمًا ... وَلَمْ يَتقَدّمْ مَنْ أرَادَ تَأخُّرا

الرضيّ الموسويّ رحمه الله تعالى :

وَمَنْ أخّرَتْهُ نَفْسُهُ مَاتَ عاجِزاً ... وَمَنْ قَدّمَتْهُ نَفْسُه مَاتَ سَيّدَا (٥)

---

(١) ديوانه ١٥٥ والأغاني ١٢ : ٤٤ ، والشعر والشعراء ٥٧٠ والقود : نقيض السوق ؛ فهو من أمام .
(٢) الخلائف : جمع خليفة ؛ وهو السلطان .
(٣) الشرجع : النعش . وفي الديوان : « أذا العرش إن حانت » .
(٤) ديوانه ٣٦٢
(٥) ديوانه ١٢٧ (طبعة نخبة الأخبار) .

وله رحمه الله :

مَامُقامِى عَلَى الْهوَانِ وَعِنْدِى مِقْـــوَلٌ صَارِمٌ وَأَنفٌ حَمِىٌ (١)
وإباء محلّق بى عَنِ الضَّيْـــمِ كَمَا زَاغَ طائرٌ وَحْشِىٌ

أبو الطيب المتنبي :

تقُولِينَ مَافِي النَّاسِ مِثلُكَ عاشِقٌ جِدِى مِثْلَ مَنْ أحببتهُ تجِدِى مثلِي (٢)
محبٌ كَنَى بالبيض عَنْ مُرْهَفَاتِهِ وبالْحُسْنِ فى أجسامِهِنّ عَن الصَّقْلِ (٣)
وبالسُّمْرِ عَنْ سُمْرِ القنا غيْرَ أننِي جنَاها أحِبائِى وأطرافُهَا رُسْــلِي
عَدِمْتُ فؤاداً لم يَبِتْ فيــه فَضْلَةٌ لغــيرِ ثنايا الغُرِّ والحدَقِ النُّجْلِ
تُريدِينَ إدراكَ المعـالِى رَخيصَـةً وَلَا بُدَّ دُونَ الشَّهْدِ مِنْ إبَرِ النَّحْلِ

ابن المبارية : الهِمَمُ العَلِيّة ، والمُهَجُ الأبية ، تقرب المنية ، منك أو الأمنية .

•••

أبو تمام :

فتَى النَّكَبَاتِ مَنْ يأوى إذا مَا قطفْنَ بِهِ إلى خُلُقٍ وســـاعِ (٤)
يثيرُ عَجَاجَةً فِي كُلِّ فَجٍّ يَهِيمُ بهـــا عَدِىٌ بن الرِّقَاعِ (٥)
يَخُوضُ مَعَ السِّبَــاعِ الماء حَتَّى لَتَحْسِبُه السِّبَاعُ من السِّبَاعِ (٦)

---

(١) ديوانه ٥٤٦ (مطبعة نخبة الأخبار) . (٢) ديوانه ٣ : ٢٨٩ مع اختلاف فى الرواية .
(٣) البيض : النساء . والمرهفات : السيوف .
(٤) ديوانه ٢ : ٣٣٦ .
(٥) يشير إلى ما ذكره عدى بن الرقاع فى حمار وأتان :

يتنازعان من الغُبَارِ مُلَاءَةً فى الأرض منشؤها ، هما نسجاها
تطوى إذا فرعا بلادا حزنةً وإذا أصابا سَهْـــلَةً نشراها

(٦) رواية الديوان : « أبن مع السباع الماء حتى » .

فَلَبُّ العَزْمَ إن حاولتَ يوماً ... بأنْ تَستطيع غَيْرَ المستطاعِ
فلَمْ ترْكَبْ كناجيةِ المهارِي ... وَلَمْ ترْكِبْ هُمُومَكَ كالزِّمَاعِ

وله أيضا :

إنَّ خَيْراً مما رأيتُ من الصَّفْـ ... ـحِ عن النَّائِبـات والإغماضِ (١)
غُرْبَةٌ تَقتدِي بغُربة قَيْـ ... ـسِ بن زُهَيْرٍ والحارثِ بن مُضاضِ (٢)
غرَضَيْ نَكْبَتين ما فتئا رأ ... يا تخافا عليه نكثَ انتقاضِ
مَنْ أبَنَّ البُيوتَ أصبح في ثَوْ ... بٍ مِنَ العَيْشِ لَيْسَ بالفَضْفَاضِ (٣)
صَلَتَانٌ أعداؤه حَيْثُ حَلُّوا ... في حديثٍ من ذِكْرِهِ مُسْتَفاضِ (٤)
وَالفَتى مَنْ تعرّقته اللَّيالي ... والفيافي ، كالحَيَّةِ النَّضْنَاضِ (٥)
كلُّ يَوْمٍ له بصَرْفِ اللَّيالي ... فتْكَةٌ مِثْلُ فتْكةِ البرَّاضِ (٦)

وله أيضا :

إنْ ترَيْني ترَيْ حُساماً صَقيلاً ... مَشْرَفيّاً مِنَ السُّيُوفِ الحِدادِ
ثانيَ اللَّيْـلِ ثالثَ البيد والسَّيْـ ... ـرِ نَديمَ النُّجُومِ تِرْبَ السُّهادِ

أخذ هذا اللفظ أبو عُبادة البحتريّ فقال :

يا نديمَيّ بالسَّواجِيرِ من شَمْـ ... ـسِ بن عمرو وبُحتر بن عَتود (٧)

---

(١) ديوانه ٢ : ٣٠٩

(٢) قيس بن زهير العبسي ؛ بعد حربه ذبيان تنقل في البلاد ؛ وفي آخر عمره لقيه رجل فسأله عن خبره فلما علم أنه قاتل حذيفة وحمل ابنى بدر قتله . والحارث بن مضاض الجرهمي ، كان رئيسا بمكة أيام كان بها قومه ، ويقال : إن خزاعة أجلتهم عنها ؛ وهو القائل :

كأن لم يكن بينَ الحجونِ إلى الصَّفا ... أنيسٌ ولم يَسْمُر بمكةَ سامِرُ

(٣) يقال : أبن بالموضع إذا أقام به .

(٤) الصلتان : الماضي في أمره .

(٥) الحية النضناض : التي لا تستقر في مكان . تعرقته الليالي : أخذت ما عليه من اللحم .

(٦) البراض بن قيس الكناني ، قتل عروة الرحال في غير حرب ، فجر ذلك حرب الفجار بين قيس وكنانة .

(٧) ديوانه ١ : ٢٠٥ . وفي الديوان : « ود بن معن »

اطلبا ثالثاً سواى فإنّى ... رابعُ العِيس والدُّجى والبِيدِ
لستُ بالعاجز الضّعيف ولا القا ... ئل يوماً إنّ الغنَى بالجُدود
وإذا استصعبتْ مقادة أمرٍ ... سهّلته أيدى المهارِى القُودِ

***

وقال الرضىّ رحمه الله تعالى :

ولم أرَ كالرَّجاء اليومَ شيئاً ... تَذِلُّ لَهُ الجماجمُ والرقابُ[1]
وَبَعضُ العُذْمِ مأْثُرَةٌ وَفخرٌ ... وَبَعْضُ المالِ مَنْقَصةٌ وَعَابُ
بَنَانِى والعِنانُ إذا نَبَتْ بِى ... رُبَا أرضٍ ، وَرِجْلِى والرِّكابُ
وَقَدْ عَرَفَتْ تَوَقُّلِىَ اللّيالِى ... كمَا عَرَفَتْ تَوَقُّلِىَ العِقابُ[2]
لأمْنَعَ جَانِباً وَأُفِيدَ عِزّاً ... وَعِزُّ المَوْتِ مَاعَزَّ الجَنَابُ
إذا هَوْلٌ دَعَاكَ فَلَا تَهبْهُ ... فَلَمْ يَبْقَ الّذِينَ أبَوْا وَهَابُوا
كُلَيْبٌ عَافَصَتْهُ يَدٌ وأوْدَى ... عُتَيْبَةُ يَوْمَ أقْعَصَهُ ذُؤَابُ[3]
سَواءٌ مَنْ أقلّ التُّرْبَ مِنّا ... وَمَنْ وَارَى مَعَالِمَهُ التُّرابُ
وَإنّ مُزايِلَ العَيْشِ اعْتِبَاطاً ... مُساوٍ لِلّذِينَ بَقُوا وَشَابُوا
وَأوّلُنَا العَنَاءُ إذَا طَلَعْنَا ... إلى الدنيا ، وآخِرُنا الذَّهابُ
إلى كم ذا التردّد فى الأمانى ... وكم يُلْوِى بِنَاظِرِىَ السَّرابُ !
وَلا نَقْعٌ يُثَارُ وَلَا قَتَامٌ ... وَلَا طَعْنٌ يُشَبُّ وَلَا ضِرَابُ

(١) ديوانه لوحة ٧٩.

(٢) التوقل : الصعود . والعقاب : جمع عقبة ؛ وهى المرتقى الصعب فى الجبل ونحوه .

(٣) عافصته : صرعته ، وكليب هو كليب وائل ، وأراد باليد جساس بن مرة الذى قتله . وأودى : هلك . وعتيبة هو ابن الحارث بن شهاب كان فارس بنى تميم قتله ذؤاب بن ربيعة الأسدى . وأقعصه : قتله قتلا سريعاً .

وَلَا خَيْلٌ مُعَقَّــدَةُ النَّوَاصِي ... يَمُوجُ عَلَى شَـكَائِمِها اللُّعابُ
عَلَيْهَا كُلُّ مُلْتَهِبِ الحَوَاشِي ... يُصِيبُ مِنَ العَدُوِّ وَلَا يُصَابُ
سَأَخْطُبُهَا بِحَدِّ السَّيْفِ فِعــلاً ... إِذَا لَمْ يُغْنِ قَوْلٌ أَو خِطَابُ
وآخُذُها وإنْ رَغِمَتْ أُنوفٌ ... مغالبــةً وإنْ ذَلَّتْ رِقَابُ

* * *

قعد سليمان بن عبدالملك يَعرِض وَيفرِض ، فأقبل فتًى من بنى عبس وَسيم ، فأعجبه ، فقال : ما اسمك ؟ قال : سليمان ، قال : ابن مَنْ ؟ قال : ابنُ عبد الملك ، فأعرض عنه ، وجعل يَفرِض لمن دونه ، فعلم الفتى أنه كره موافقة اسمه واسم أبيه ، فقال : يا أمير المؤمنين لا عدمتَ اسمك ، ولا شَقِيَ اسمٌ يوافق اسمك ! فافرِضْ ، فإنما أنا سيفٌ بيدك ، إن ضربتَ به قطعت ، وإن أمرتنى أطعت ، وسهمٌ فى كنانتك ، أشتدّ إن أرسِلت ، وأنفذُ حيث وجِّهت . فقال له سليمان ، وهو يَرُوزه [1] ويختبره : ماقولك يافتى ، لو لقيتَ عدوا ؟ قال: أقول : حسبي الله ونعم الوكيل . قال سليمان : أكنت مكتفيا بهذا لو لقيت عدوك دون ضرب شديد ! قال الفتى : إنما سألتنى يا أمير المؤمنين : ما أنت قائل فأخبرتك ، ولو سألتنى : ما أنتَ فاعل لأنبأتك ؛ إنه لو كان ذلك لضربتُ بالسيف حتى يتعقّف ؛ ولطعنتُ بالرمح حتى يتقصّف ، ولعلمتُ إن ألِمْت فإنهم يألمون ، ولرجوت من الله مالا يرجون . فأعجب سليمان به وألحقه فى العطاء بالأشراف ، وتمثّل :

إذا ما اتّقى اللهَ الفتى ثم لم يكنْ ... عَلَى أهلِهِ كَلًّا فقــد كَمُلَ الفَتى

---

(١) يروزه : يختبره ويجربه .

الدمر تحت قوله : « ثم لم يكن على أهله كلاً » ، يقال في المثل : « لا تكن كَلًّا على أهلك فتهلك » .

عديّ بن زيد :

فَهَلْ مِنْ خالدٍ إمّا هَلَكْنَا ۞ وَهلْ بِالْموتِ يالَلنّاسِ عَارُ[1]

* * *

الرضيّ الموسويّ رحمه الله تعالى :

إذَا لَمْ يَكُنْ إلا الحِمَامُ فإنّني ۞ سأُكْرِمُ نَفْسِي عَنْ مَقَالِ اللّوائمِ[2]

وَألْبَسُها حَمْراءَ تَضْفُو ذُيُولُهَا ۞ من الدم بُعْداً عنْ لِبَاسِ المَلَاوِمِ

فَمِنْ قَبلُ مَا اخْتَار ابنُ الأشْعَثِ عَيْشَهُ ۞ عَلَى شَرَفٍ عَالٍ رفيعِ الدّعَائمِ

فطار ذَمِيماً قَدْ تقلَّدَ عارَها ۞ بِشَرِّ جَنَاحٍ يومَ دَيْرِ الجَمَاجِمِ[3]

وَجَاءَهُمُ يَجْرِي البَرِيدُ بِرَأْسِهِ ۞ وَلَمْ يغْنِ إيغَالٌ به في المَزَاتمِ

وَقَدْ حاصَ مِنْ خَوْفِ الرّدَى كلَّ حَيْصَةٍ ۞ فلم ينجُ والأقدارُ ضَرْبَةُ لَازِمِ[4]

وَهَذا يَزيدُ بنُ المُهلّبِ نافَرَتْ ۞ به الذُّلَّ أعراقُ الجُدود الأكارِمِ[5]

فَقَالَ وقَدْ عَنّ الفِرارُ أو الرّدَى : ۞ لَحا اللهُ أخزَى ذُكْرَةً في المَوَاسِمِ

وَمَا غَمَرَاتُ الموتِ إلّا انْغِمَاسَةٌ ۞ ولا ذِي المنايا غيرُ تَهْوِيمِ نَائمِ

---

(١) شعراء النصرانية ٤٥٦

(٢) ديوانه لوحة ١١٠

(٣) وقعة دير الجماجم كانت بين الحجاج الثقفي وعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، انتهت بقتل ابن الأشعث سنة ٨٣

(٤) حاص ، أي حاد وذهب بعيدا .

(٥) يزيد بن المهلب بن أبي صفرة ، من أمراء الدولة الأموية وقوادها ، قتله يزيد بن عبد الملك في خبر مشهور سنة ١٠٢

رأى أنّ هذا السّيفَ أهونُ مَحْمَلا | من العارِ يَبقَى وَسْمُه فى الخلاطِمِ
وما قَلّدَ البيضَ المباتيرَ عُنْقَهُ | سوى الخوفِ مِنْ تقليدها بالأداهِمِ
فماتَ الدّنايا وامتطى الموتَ شامخاً | بمارتِ عِزٍ لايذلُّ لخاطِمِ
وقدْ حلَقتْ خوفَ الهوانِ بمُصْعبٍ | قوادمُ آباه كرامِ المقادمِ
عَلَى حِينَ أعطَوْهُ الأمانَ فعافَهُ | وَخُيّرَ فاختارَ الرّدى غيرَ نادِمِ
وَفى خِدْرِهِ غرّاه مِنْ آلِ طلحةٍ | عَلاقَةُ قَلْبٍ للنّديمِ المُخالمِ [1]
تُحبّبُ أيّامَ الحياةِ وإنّها | لأعْذَبُ مِنْ طَعْمِ الخلودِ لطاعمِ
فَفارَقهما والمُلكَ لمّا رآهما | يجُرّانِ إذلالَ النّفوسِ الكرائمِ
وَلَمّا ألاحَ الْخوْفَزانُ مِن الرّدَى | حَذَاهُ المخَازِى رُمْحُ قَيْسِ بنِ عاصِمِ
وَغادَرَها شَنْعاءَ إنْ ذُكِرَتْ لهُ | مِنَ العارِ طَاطا رأسَ خَزيانَ واجِمِ
كذاكَ مُنِي بَعْدَ الفرارِ أمَيّةٌ | بِشَقْشَقَةٍ لَوثَاءَ مِنْ آلِ دَارِمِ
وَسَلْ لماسَلّ الحُسامَ ابنُ مَعْمَرٍ | فَكَرّ عَلَى أعقابِ نابٍ بصارمِ
يُرَدّدُ ذِكْرى كلِّ نَجْدٍ وَغائرٍ | وَأَلْجَمَ خوفَ كلِّ باغٍ وظالمِ
وَهَدّدَنى الأعداءُ فى المُهْدِلِمِ يَجِنْ | نُهوضى وَلَمْ تُقْطَعْ عقودُ تمائمى
وَعِنْدِىَ يَوْمٌ لَوْ يَزيدُ وَمُسْلمٌ | بَدَا لهما لاسْتَصْغَرا يَوْمَ وَاقِمِ
عَلَى العزْمُتْ لاميتَةً مُسْتَكينةً | تُزِيلُ عنِ الدُّنيا بِشَمِّ المَراغِمِ
وَخاطِرْ على الْجُلّى خِطارَ ابنِ حُرّةٍ | وإنْ زاحَمَ الأمرُ العظيمُ فَزَاحِمِ

***

(١) هى عائشة بنت طلحة ؛ كانت زوجا لعبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر ؛ ولما هلك تزوجها مصعب بن الزبير ؛ فقتل عنها ، والخالة : المصادقة والمغازلة .

ومن أباةِ الضَيْم ومُؤثرِى الموت على الحياة الذليلة محمد وإبراهيم ، ابنا عبد الله ابن الحسن بن الحسن بن علىّ بن أبى طالب عليه السلام . لما أحاطتْ عساكر عيسى ابن موسى بمحمد وهو بالمدينة ، قيل له : انجُ بنفسك ، فإنّ لك خيلاً مُضمَّرة[1] ونجائب سابقة[2] ، فاقعد عليها ، والتحق بمكة أو باليمن . قال : إنى إذاً لعبد ا وخرج إلى الحرب يباشرها بنفسه وبمواليه ، فلما أمسى تلك الليلة وأيقن بالقتل ، أشير عليه بالاستتار ، فقال: إذَنْ يستعرض عيسى أهلَ المدينة بالسيف،فيكونُ لهم[يوم] كيوم الحرّة، لا والله لا أحفظُ نفسى بهلاك أهل المدينة، بل أجعل دمى دون دمائهم. فبذل له عيسى الأمانَ على نفسه وأهله وأمواله ، فأبى ونَهَدَ[3] إلى الناس بسيفه ، لا يقاربه أحد إلا قتله ، لا والله ما يبقِى شيئا ؛ وإنّ أشبَه خَلق الله به فيما ذُكِر هو حمزة بن عبد المطلب . ورُمِى بالسّهام ، ودَهَمته الخيل ، فوقف إلى ناحية جدار ، وتحاماه الناس فوجد الموت ، فتحامل على سَيْفِه فكسره ؛ فالزيدية تزعم أنه كان سيفَ رسول الله صلى الله عليه وآله ذا الفقار .

وروى أبو الفرج الأصفهانىّ فى كتاب " مقاتل الطالبيين " أن محمداً عليه السلام ، قال لأخته ذلك اليوم : إنى فى هذا اليوم على قِتال هؤلاء ، فإن زالت الشمس ، وأمطرت السماء فإنى مقتول ، وإن زالت الشمس ولم تُمْطر السماء ، وهبّت الريح ، فإنى أظفر بالقوم ، فأجّجى التنّانير ، وهيّئى هذه الكتب ـ يعنى كتب البيعة الواردة عليه من الآفاق ـ فإن زالت الشمس ، ومطرت السماء فاطْرَحِى هذه الكتب فى التنانير ، فإن قدرتم على بَدَنى

---

(١) ضمر الخيل ؛ إذا ربطها وأكثر ماءها وعلفها حتى تسمن ؛ ثم قلل ماءها وعلفها مدة ؛ ثم ركضها فى الميدان حتى تهزل ؛ ومدة التضمير عند العرب أربعون يوما .

(٢) الخيل السوابق : المجلية فى الجرى .

(٣) يقال نهد لعدوه ؛ إذ برز لقتاله وصمد له .

فخذوه ، وإن لم تقدروا على رأسى فخذوا سائر بدنى ، فأتُوا به ظُلّة بنى بلية[1] على مقدار أربعة أذرع أو خمسة منها ؛ فاحفروا لى حفيرة ، وادفنونى فيها . فمطرت السماء وقت الزوال ؛ وقتل محمد عليه السلام ؛ وكان عندهم مشهوراً أنّ آية قَتل النفس الزكيّة أن يسيل دم بالمدينة حتى يدخل بيت عاتكة ، فكانوا يعجبون كيف يسيل الدم حتى يدخل ذلك البيت ! فأمطرت السماء ذلك اليوم ، وسال الدم بالمطر حتى دخل بيت عاتِكة ، وأخذ جسده، فحُفر له حفيرة فى الموضع الذى حَدّه لهم ، فوقعوا على صخرة فأخرجوها، فإذا فيها مكتوب: « هذا قبر الحسن بن علىّ بن أبى طالب عليه السلام » ، فقالت زينب أخت محمد عليه السلام: رحم الله أخى ، كان أعلم حيث أوصى أن يدفن فى هذا الموضع[2] .

***

وروى أبو الفرج ، قال : قَدِم على المنصور قادم، فقال: هَرب محمد ! فقال له : كذبْت ! إنا أهلَ البيت لا نفرّ .

***

وأما إبراهيم عليه السلام ، فروى أبو الفرج عن المفضّل بن محمد الضبىّ ، قال [3] : كان إبراهيم بن عبدالله بن الحسن متوارياً عندى بالبَصْرة ، وكنت أخرُج وأتركه ، فقال لى: إذا خرجتَ ضاق صدرى ، فأخرج إلىّ شيئا من كتبك أتفرّج به ؛ فأخرجت إليه كتباً من الشعر، فاختارَ منها القصائد السبعين التى صدّرْت بها كتاب '' المفضليات '' ، ثم أتممت عليها باقىَ الكتاب .

فلما خرج خرجت معه ؛ فلما صار بالمِرْبدِ ، مِرْبد سليمان بن علىّ ، وقف عليهم ، وأمّنهم واستَسْقى ماء ، فأُتِىَ به فشرب ، فأخرج إليه صبيان من صبيانهم فضمّهم إليه ،

---

(١) مقاتل الطالبيين : « بنى نبيه » .

(٢) مقاتل الطالبيين ٢٧١ ، ٢٧٢

(٣) ورد الخبر مختصرا فى مقاتل الطالبيين ٣٣٨ ، ٣٣٩ .

وقال: هؤلاء والله مِنّا ونحن منهم ؛ لحمنا ودمنا ؛ ولكن آباءهم انتزَوا على أمرنا ، وابتزُّوا حقوقنا ؛ وسفكوا دماءنا ، ثم تمثل :

مَهْلًا بَنِى عَمِّنا ظُلامَتَنا ... إنّ بنا سَورةً من القَلَقِ[1]

لِمثلكُم تَحْمِلُ السيوفَ وَلَا ... تُغْمَزُ أحسابُنَا مِنَ الرّقَقِ

إنّى لَأُنْمِي إذا انتميتُ إلى ... عِزٍّ عَزِيزٍ وَمَعْشَرٍ صُدُقِ

بِيضٍ سِبَاطٍ كأنّ أعْيُنَهُمْ ... تُكْحَلُ يومَ الهِيَاجِ بالعَلَقِ

فقلت له : ما أجودَ هذه الأبيات وأفحلها ! فلِمَنْ هي ؟ فقال : هذه يقولها ضِرار ابن الخطّاب الفِهْرِىّ يومَ عبرَ الخندق على رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ وتمثل بها علىّ ابن أبى طالب يوم صِفّين ، والحسين يوم الطّفّ ، وزيد بن على يوم السَّبَخَة ، ويحيى بن زيد يوم الجوزجان ؛ فتطيّرتُ له من تمثُّله بأبيات لم يتمثل بها أحد إلا قُتِل . ثم سرنا إلى باخَمْرَى ، فلما قرب منها أتاه نعىُ أخيه محمد ، فتغيّر لونه وجَرِض بريقه ، ثم أجهش باكيا ، وقال : اللهم إن كنت تعلم أنّ محمداً خرج يطلب مرضاتك ، ويؤثر أن تكون كلمتك العليا ، وأمرُك المتبع المطاع ؛ فاغفر له وارحمه ، وارض عنه ، واجعل ما نقلتَه إليه من الآخرة خيرا مما نقلتَه عنه من الدنيا ؛ ثم انفجر باكيا ثم تمثّل :

أبا المَنازِلِ يا خيرَ الفوارس مَنْ ... يُفْجَعْ بمثلك فى الدّنيا فقَدْ فُجِعا[2]

الله يعلمُ أنى لو خشيتُهُم ... أو آنسَ القلبُ من خوفٍ لهم فَزَعا

لم يقتلوك ولم أُسلِم أخى لهمُ ... حتّى نعيش جميعا ، أو نموت معا

قال المفضّل : فجعلت أعزّيه وأعاتبه على ما ظهر من جزَعه ، فقال : إنى والله فى هذا ، كما قال دُرَيد بن الصِّمَّة :

---

(١) من أبيات فى حماسة ابن الشجرى ١٦ ، والأغانى ١٧ : ١٨ (ساسى) ، مع اختلاف فى ترتيب الأبيات وعددها وروايتها .

(٢) الأبيات لراسم بن خثرم يرثى هدبة ، الأغانى ٢١ : ١٧٧ .

يقولُ ألا تَبكى أخاكَ وقدْ أرَى ... مكانَ البُكا، لكن بُنيتُ على الصّبرِ (١)

لمقتلِ عبدِ الله والهالكِ الذى ... على الشّرَف الأعلى قتيلِ أبى بكرِ

وعبدٍ يغوث تحجل الطّير حَوْلَهُ ... وجلّ مصاباً جَثْوُ قبرٍ على قبرِ

فإمّا ترينا لا تزال دماؤنا ... لدى واترٍ يَسْعَى بها آخرَ الدّهرِ

فإنّا لَلَحمُ السّيف غيرَ نكيرةٍ ... ونُلْحِمهُ طوراً، وليس بذى نُكْرِ

يُغار علينا واترين فيُشتفَى ... بنا إنْ أُصِبْنا أو نُغيرُ على وِتْرِ

بذاك قَسَمْنا الدهر شطرين بيننا ... فما ينقضى إلا ونحنُ على شَطْرِ

قال المفضّل : ثم ظهرت لنا جيوش أبى جعفر مثل الجراد ، فتمثّل إبراهيم عليه السلام قوله :

إن يقتلونىَ لا تُصِبْ أرماحهمْ ... ثأرى ويسعى القوم سَعْياً جاهِدَا

نبئت أنّ بنى جَذيمة أجمعت ... أمرا تدبِّره لتقتلَ خالدَا

أرى الطريق وإن رُصِدْتُ بضيقه ... وأنازِلُ البطَلَ الكَمِيّ الحارِدا

فقلت له : مَنْ يقول هذا الشعر يابن رسول الله ؟ فقال : يقوله خالد بن جعفر ابن كلاب يوم شِعْب (٢) جبَلة ؛ وهذا اليوم الذى لقيَتْ فيه قيس تميما . قال: وأقبلت عساكر أبى جعفر ، فطعن رجلا وطعنه آخر ، فقلت له : أتُباشر القتال بنفسك ! وإنما العسكر منوط بك ؛ فقال : إليك يا أخا بنى ضَبّة ، فإنى لكما قال عُويف القوافى :

ألمّتْ سُعادُ وإلمامُها ... أحاديث نفسٍ وأحلامُها

مُحَجّبةٌ من بَنى مالك ... تَطَاوَلُ فى المجدِ أعلامُها

---

(١) ديوان الحماسة ــ بشرح التبريزى ٢ : ٣٠٩ مع اختلاف فى الرواية وعدد الأبيات .

(٢) لعامر وحلفائهم من عبس، على تميم وحلفائهم من ذبيان وأسد وغيرهما. الأغانى ١٠ : ٣٣ (ساسى).

وإنّ لنا أصــلَ جُرثومةٍ ... تَرُدُّ الحوادثَ أيامُهـــا

تَرد الـكتيبــة مفلولةً ... بها أفْنُها وبها ذَامُهـــا

والتحمت الحربُ واشتدّت، فقال: يامفضّل، احكنى بشىء؛ فذكرتُ أبياتاً للعويفِ القوافى لما كان ذكره هو من شعره، فأنشدته:

ألا أيُّها الناهِى فَزارَةَ بَعْدَما ... أجدّتْ لسيرٍ، إنّما أنتَ ظالِمُ

أبى كلُّ حُرٍّ أن يبيت بوِتْرِه ... وتمنع منه النوم إذ أنت نائمُ

أقول لفتيانٍ كرامٍ تَرَوّحُوا ... على الجُرْدِ فى أفواهِهِنّ الشّكائمُ

قفوا وقفةً من يَحْىَ لا يُخْزَ بعدها ... ومَنْ يُخْتَرَمْ لا تتبعْهُ اللوائمُ

وهل أنت إن باعدتَ نفسك عنهمُ ... لتسلمَ فيما بعـــد ذلك سالمُ

فقال: أعدْ، وتبينت من وجهه أنه يستقتل، فانتبهت وقلت: أو غير ذلك؟ فقال: لا، بل أعد الأبيات، فأعدتها، فتمطّى فى ركابيه فقطعهما، وحمل فغاب عنّى؛ وأتاه سهم عائر فقتله؛ وكان آخر عهدى به عليه السلام.

قلت: فى هذا الخبر مايحتاج إلى تفسير؛ أما قوله [1]:

* إن بنا سورةً من الغَلَقِ *

فالغلق: الضّجَر وضيق الصدر والحدّة، يقال: احتدّ فلان فنشب فى حِدّته وغلِق.

والسَّوْرة: الوثوب، يقال: إن لغضبه لسورة، وإنه لسوّار، أى وثّاب معربد. وسَوْرة الشراب: وثوبه فى الرأس؛ وكذلك سَوْرة السمّ، وسورة السلطان: سطوته واعتداؤه.

وأما قوله: «لمثلكم نحمل السيوف» فمعناه أنّ غيركم ليس بكفء لنا لنحمل له السُّيوفَ وإنما نحملها لكم، لأنّكم أكفاؤنا، فنحن نحاربكم على الملك والرياسة؛ وإنْ كانت أحسابُنا واحدة، وهى شريفة لا مغمَزَ فيها.

---

(١) ص ١٠٩

والرَّقق ، بفتح الراء : الضعف ؛ ومنه قول الشاعر :

• لم تلق في عظمها وَهْناً وَلَا رَقَقاً •

وقوله :

• تُكحَل يوم الهياج بالعلَقِ •

فالعلَق الدم ؛ يريد أنّ عيونَهم حُمْر لشدّة الغيظ والغضب ؛ فكأنها كُحِلَتْ بالدم .

وقوله : « لكن بنيت على الصبر »، أي خُلقت وبنيت بِنْيَة تقتضي الصبر . والشرف الأعلى : العالي، وبنو أبي بكر بن كلاب، من قَيْس عيلان ، ثم أحد بني عامر بن صعصعة.

وأما قوله[1]:

• إن يَقْتلوني لا تُصِبْ أرماحُهم •

فمعناه أنّهم إن قتلوني ثم حاولوا أن يصيبوا رجلا آخر مثلي يصلح أن يكون لي نظيرا؛ وأن يجعل دمه بَواء لدمي، وسَعَوا في ذلك سَعْياً جاهداً ، فإنهم لم يجدوا ولم يقدروا عليه .

وقوله : « أرمي الطريق ... » البيت ، يقول : أسلك الطريق الضّيق ، ولو جعل عَلَيّ فيه الرَّصَد لقتلي .

والمارد : المنفرد في شجاعته ؛ الذي لا مثل له .

* * *

[غلبة معاوية على الماء بصفين ثم غلبة عليّ عليه بعد ذلك]

فأما حديث الماء وغَلَبُ أصحابِ معاوية على شَرِيعة الفرات بصِفين ، فنحن نذكره من كتاب " صفين " لنصر بن مزاحم .

قال نصر : كان[2] أبو الأعور السُّلَميّ على مقدّمة معاوية ، وكان قد نَاوَش مقدّمة

(١) ص ٣١٠ . (٢) ص ١٧٥ ومابعدها .

عليّ عليه السلام وعليها الأشتر النَّخَعِيّ مناوشةً ليست بالعظيمة؛ وقد ذكرنا ذلك فيما سَبَق من هذا الكتاب ، وانصرف أبو الأعور عن الحرب راجعاً ، فسبق إلى الماء فغلب عليه في الموضع المعروف بقُناصرين[1] الى جانب صِفّين ، وساق الأشتر يتبعه ، فوجده غالبا على الماء؛ وكان في أربعة آلاف من مستبصِري[2] أهل العراق، فصدَموا أبا الأعور وأزالوه عن الماء ، فأقبل معاوية في جميع الفَيْلق بقضّه وقَضِيضه ، فلما رآهم الأشتر انحاز إلى عليّ عليه السلام ، وغلب معاويةُ وأهلُ الشام على الماء ، وحالوا بين أهل العراق وبينه؛ وأقبل عليّ عليه السلام في جُموعه ، فطلب موضعاً لعسكره ، وأمرَ النّاسَ أن يضعوا أثقالهم؛ وهم أكثر من مائة ألف فارس ، فلما نزلوا تسرّع فوارس من فوارس عليّ عليه السلام على خيولهم إلى جهة معاوية يتطاعنون ويرمون بالسهام ، ومعاوية بَعْدُ لم ينزل ، فناوشهم أهلُ الشام القتال ، فاقتتلوا هَوِيًّا .

قال نصر : فحدّثني عمر بن سعد ، عن سعد بن طَريف ، عن الأصبغ بن نُباتة : فكتب معاوية إلى علي عليه السلام : عافانا الله وإياك .

ما أحسن العدلَ والإنصاف مِنْ عَمَلِ ... وأقبحَ الطَّيْش ثم النَّفْش في الرَّجُلِ

وكتب بعده :

اربِطْ حِمَارَكَ لا تَنْزِعْ سويته ... إذاً يُرَدُّ وقَيْدُ العَيْرِ مَكْرُوبُ[3]

ليست ترى السَّيدُ زيدًا في نفوسهمُ ... كما يراه بنـــو كُوزٍ ومرهوب

إن تسألوا الحقَّ نُعْطِ الحقَّ سائلَه ... والدِّرْع مُحْقَبَـةٌ والسَّيف مقروبُ

أو تأنفـــونَ فإنّا مَعْشَرٌ أُنُفٌ ... لا نطعَم الضيم إن السّمّ مشروب[4]

---

(١) قناصرين : موضع بالشام . (القاموس) .

(٢) صفين : « متبصري أهل العراق » .

(٣) الأبيات لعبد الله بن عنمة الضبي ؛ وهي في المفضليات ٣٨٢ ؛ مع اختلاف في الرواية .

(٤) المفضليات : « لا نطعم الذل » .

فأمر عليٌّ عليه السلام أن يُوزِع[1] الناس عن القتال ، حتى أخذ أهل الشام مصافهم ثم قال : أيُّها الناس ، إنّ هذا موقفٌ ، مَنْ نَطِف[2] فيه نَطِف يوم القيامة ، ومن فَلَج فيه فلجَ يوم القيامة ، ثم قال لما رأى نزول معاوية بصفين :

لقد أتانا كاشراً عن نابِهِ   يُهَمِّطُ النّاسَ على اعتزابِهِ[3]

* فليأتينا الدّهرُ بما أتَى بِهِ *

قال نصر : وكتب علي عليه السلام إلى معاوية جواب كتابه ، أما بعد :

فإنّ لِلحَرْب عُرامـاً شَرَرا   إنّ عليهـا قائداً عَشَنْزَرا[4]

يُنْصِفُ مَنْ أحْجَر أوْ تَنَمَّرا   عَلَى نواحِيها مِزَجًّا زَمْجَرَا

* إذا وَنين ساعةً تَغَشْمَرا[5] *

وكتب بعده .

ألمْ تَرَ قَوْمِي إنْ دَعَاهُمْ أخوهمُ   أجابُوا ، وإنْ يَغضَبْ على القَوْمِ يَغضَبُوا

هُمُ حِفظوا غيبي كما كُنْتُ حافظاً   لقومِيَ أُخرَى مثلهـا إن يُغَيَّبُوا

بنو الحربِ لم تقعدْ بهم أُمّهاتُهُمْ   وآباؤُهمْ آباءُ صِـدْقٍ فأنْجَبُوا

قال : قد تراجع النّاس كلٌّ من الفريقين إلى معسكرهم ، وذهب شبابٌ من الناس إلى أن يستقوا فمنعهم أهلُ الشام .

* * *

قلت : في هذه الألفاظ ماينبغي أن يشرح .

---

(١) يوزع الناس : يكفون . وفي صفين : « توزعوا عن القتال حتى تأخذ أهل المصاف مصافهم » .
(٢) نطف : اتهم بريبة .
(٣) يهمط الناس : يقهرهم .
(٤) العشنزر : الشديد .
(٥) تغشمر : تنمر ووثب .

قوله : « فاقتتلوا هَوِيًّا » ، بفتح الهاء ، أى قطعة من الزمان ، وذهب هَوِىٌّ من الليل ، أى فريق منه .

والنَّفْش : كثرة الكلام والدعاوى ، وأصله من نفش الصوف .

والسَّوِيّة : كساء محشوّ بثُمام ونحوه ، كالبرذعة . وكَرَب القَيْد ، إذا ضيّقه على المقيّد ، وقَيْد مكروب ، أى ضيق ؛ يقول : لا تنزع برذعة حارك عنه واربطه وقَيّده ، وإلا أعيد إليك وقيْده ضيّق . وهذا مثل ضَرَبه لعلىّ عليه السلام ، يأمره فيه بأن يردَعَ جيشه عن التسرّع والعجلة فى الحرب .

وزيد المذكور فى الشعر ، هو زيد بن حصين بن ضرار بن عمرو بن مالك بن زيد ابن كعب بن بجالة بن ذُهْل بن مالك بن بكر بن سعد بن ضَبّة بن أدّ بن طابخة ابن إلياس بن مضر بن نزار بن معدّ بن عدنان ؛ وهو المعروف بزيد الخيل ، وكان فارسهم. وبنو السِّيد من ضَبّة أيضا ؛ وهم بنو السِّيد بن مالك بن بكر بن سعد بن ضبّة بن أُدّ ابن طابخة . . . إلى آخر النسب ، وبنو السِّيد بنو عم زيد الفوارس ؛ لأنه من بنى ذُهل ابن مالك ، وهؤلاء بنو السِّيد بن مالك ، وبينهم عداوة النسب ؛ يقول : إن بنى السِّيد لا يرون زيدا فى نفوسهم كما تراه أهله الأدْنَوْن منه نَسَبًا ، وهم بنو كوز وبنو مرهوب ؛ فأما بنو كوز فإنهم بنو كوز بن كعب بن بجالة بن ذهل بن مالك ، وأما بنو مَرْهوب ، فإنّهم بنو مَرهوب بن عبيد بن هاجر بن كعب بن بجَالة بن ذُهْل بن مالك ؛ يقول : نحن لا نعظم زيدا ولا نعتقد فيه من الفضيلة مايعتقده أهله وبنو عمه الأدْنَوْن ؛ والمثل لعلىّ عليه السلام ؛ أى نحن لا نرى فى علىّ مايراه أهلُ العراق من تعظيمه وتبجيله .

وقوله :

* والدِّرْعُ مُحْقَبَةٌ والسَّيْفُ مَقْرُوبُ *

أى والدرع بحالها فى حِقابها ، وهو مايشدّ به فى غلافها ، والسيف بحاله أى فى قرابه ،

وهو جَفْنه ؛ يقال : حقبت الدرعَ وقربت السيف ؛ كلاهما ثلاثيان ، يقول : إن سألتم الحق أعطيناكموه من غير حاجة إلى الحرب ؛ بل نجيبكم إليه والدّروع بحالها لم تلبس ، والسيوف فى أجفانها لم تشهر .

وأما إثبات النون فى « تأنفون » فإنّ الأصوب حذفُها لعطف الكلمة على المجزوم قبلها ؛ ولكنه استأنف ولم يعطف ، كأنه قال : أو كنتم تأنفون ؛ يقول : وإن أنِفتم وأبيتم إلا الحرب ؛ فإنا نأنف مثلكم أيضا ، لا نطعم الضيم ولا نقبله . ثم قال : إنّ السمّ مشروب ؛ أى أنّ السمّ قد نشربه ولا نشرب الضيم ؛ أى نختار الموت على الضيم والذلة . ويروى :

وإنْ أنفتم فإنا معشر أُنُفٌ لا نَطْعَمُ الضيم إن الضَّيْمَ مرهوب

والشعر لعبد الله بن عَنَمة الضبيّ ؛ من بنى السِّيد ، ومن جملته :

وقد أرُوح أمامَ الحىّ يقدُمنى صافِى الأديم كُمَيْتُ اللَّوْن مَنْسُوبُ[1]

مُحنَّبٌ مثل شاةِ الرَّبْلِ مُحْتَفِزٌ بالقُصْرَيَيْنِ عَلَى أولاه مَصْبُوبُ[2]

يَبُذُّ ملجَمَهُ هادٍ له تَلَعٌ كأنه من جُذوع العين مَشْذُوبُ

فذاكَ ذُخرى إذا ما خيلهمْ رَكَضَتْ إلى المثُوَّبِ أومَقَّاء سُرْحُوبُ[3]

فأما قولهعليه السلام : « هذا موقفٌ مَنْ نَطِف فيه نَطِف يوم القيامة » ، أى مَنْ تلطخ

(١) من هذه القطعة أبيات ، نسبها أبو عبيدة فى كتاب الخيل إلى يزيد بن عمرو الحنفى .

(٢) المحنب من الخيل : المعطف العظام ، وهو مدح فى الخيل . والربل : نبت . ويحتفز : يجتهد فى مد يديه . والقصريان : ضلعان يليان الترقوتين . وقوله : « على أولاه مصبوب » ، يقول : يجرى على جريه الأول لا يحول عنه ؛ كذا فسره صاحب اللسان (٧ : ٣٠٣) .

(٣) المقاء من الخيل : الواسعة الأرفاغ . والسرحوب : الطويلة على وجه الأرض ؛ ورواية البيت فى كتاب الخيل .

فذاك عندى إذا ما خيلهمْ رُكِبَت إلى المثوب أو شقّاء سُرْحوبُ

فيه بعيب من فِرار أو نكول عن العدوّ . يقال : نَطِف فلان بالكسر ؛ إذا تدنس بعيب . ونَطُفَ أيضا إذا فسد ؛ يقول : مَنْ فسدت حاله اليوم فى هذا الجهاد فسدت حاله غدا عند الله .

قوله : « مَنْ فَلَج فيه » بفتح اللام ، أى مَنْ ظهر وفاز ، وكذلك يكون غدا عند الله ، يقال ؛ فَلَج زيدٌ على خصمه ، بالفتح ، يفلُج ، بضمّ اللام ؛ أى ظهرتْ حجته عليه ، وفى المثل : من يأت الحَكَم وحده يَفْلُج .

قوله : « يهمّط الناس » ؛ أى يقهرهم ويخبطهم ، وأصله الأخذ بغير تقدير .

وقوله : « على اعتزابه » أى على بعده عن الإمارة والولاية على الناس . والعُرَام ، بالضم : الشَّرَاسة والمَوَج . والعشزر : الشديد القوىّ .

وأحجر : ظلم الناس حتى ألجأهم إلى أن دخلوا حجرهم أو بيوتهم . وتَنَمّر ، أى تنكر حتى صار كالنّمر ؛ يقول : هذا القائد الشديد القوىّ ينصف مَنْ يظلم الناس ويتنكّر لهم ، أى ينصف منه ، فحذف حرف الجر كقوله : ﴿ وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَه ﴾ ، أى من قومه .

والمِزَجّ ، بكسر الميم : السريع النفوذ ، وأصله الرمح القصير ، كالمِزْراق .

ورجل زمجر ، أى مانع حوزته ، والميم زائدة . ومن رواها « زَمْخَرا » بالخاء ، عنى به المرتفع العالى الشأن ، وجعل الميم زائدة أيضا ، من زَخَر الوادى ، أى علا وارتفع .

وغَشْمَر السيل : أقبل ، والغشمرة : إثبات الأمر بغير تثبيت ، يقول : إذا أبطأنَ ساقهنّ سَوْقًا عنيفا .

والأبيات البائية لربيعة بن مقروم الطائىّ .

* * *

قال نصر : حدّثنا عمر بن سعد ، عن يوسف بن يزيد ، عن عبد الله بن عوف بن

الأحمر ، قال : لما [1] قدمنا على معاوية وأهلِ الشام بصِفِّين ، وجَدْناهم قد نَزَلُوا منزِلًا اختاروه مستويا بساطا واسعاً ، وأخذوا الشَّرِيعة فهي في أيديهم ؛ وقد صفَّ عليها أبو الأعور الخيلَ والرَّجَّالة،وقدم الرَّامية ومعهم أصحابُ الرِّماح والدَّرَق ، وعلى رءوسهم البِيض ، وقد أجمعوا أن يمنعونا الماء ، ففزِعْنا إلى أمير المؤمنين عليه السلام فأخبرناه بذلك ، فدعا صَعْصَعَةَ بن صُوحان فقال : ائت معاوية وقلْ له : إنا سِرْنا إليك مسيرَنا هذا وأنا كَرِهٌ لقتالكم [2] قبل الإعذار إليكم ، وإنَّك قدّمت خيلك ، فقاتلتنا قبل أنْ نقاتلك ، وبدأتنا بالحرب ؛ ونحن مِمّن رأينا الكَفَّ حتى ندعوكَ ونحتجَّ عليك ؛ وهذه أُخرَى قد فعلتموها،قد حُلْتُم بين النّاس وبين الماء ؛ فخلِّ بينهم وبينه حتى ننظر فيما بيننا وبينكم ؛ وفيما قدمنا له وقدمتم له ؛ وإنْ كان أحبَّ إليك ، أن ندع ماجئنا له ، وندعَ الناس يقتتلون حتى يكونَ الغالب هو الشارب ، فَعَلْنا .

فلما مضى صعصعة برسالتِه إلى معاوية ، قال معاوية لأصحابه : ماترون ؟ فقال الوليد ابن عُقْبة : امنعهم الماء كما منعوه ابن عفان ، حَصَرُوه أربعين يوما يمنعونه بَرْد الماء ولين الطعام ، اقتلْهم عطشاً ، قتلهم الله !

وقال عمرو بن العاص : خَلِّ بين القوم وبين الماء ؛ فإنهم ان يعطشوا وأنت رَيّان ، ولكن لغير الماء فانظر فيما بينك وبينهم .

فأعاد الوليد مقالتَه .

وقال عبد الله بن سَعيد بن أبي سَرْح — وكان أخا عثمان من الرضاعة — : امنعْهم الماء إلى الليل؛فإنهم إن لم يقدروا عليه رجعوا ، وكان رجوعُهم هزيمتَهم ، امنعهم الماء،منعَهم

---

(١) كتاب صفين المنقرى ١٧٩ ، ١٨٠ .
(٢) صفين : « وأنا أكره قتالكم » .

الله يوم القيامة ! فقال صعصعة بن صُوحان : إنما يمنعه الله يوم القيامة الفَجَرة الكفرة ، شَرَبة الخمر ؛ ضَرْبك وضَرْب[1] هذا الفاسق ـ يعني الوليد بن عقبة .

فتواثبوا إليه يشتمونه ويتهدّدونه ، فقال معاوية : كُفّوا عن الرجل؛ فإنما هو رسول.

قال عبد الله بن عوف بن أحمر : إن صعصعة لمّا رجع إلينا حدّثنا بما قال معاوية ، وما كان منه ومارده عليه ؛ قلنا : وماالذي ردّه عليك معاوية ؟ قال : لما أردتُ الانصراف من عنده ، قلت : ماترد عليّ ؟ قال: سيأتيكم رأيي ، قال : فوالله ماراعنا إلا تسوية الرجال والصّفوف والخيل ؛ فأرسل إلى أبي الأعور : امنعهم الماء ؛ فازدلفنا والله إليهم ، فارتمينا واطّعنّا بالرماح ، واضطربنا بالسيوف ، فطال ذلك بيننا وبينهم حتى صار الماء في أيدينا ؛ فقلنا : لا والله لانسقيهم. فأرسل إلينا عليّ عليه السلام أن خذوا من الماء حاجتكم، وارجعوا إلى معسكركم ، وخلّوا بينهم وبين الماء ، فإن الله قد نصركم عليهم بظلمهم وبغيهم .

***

وروى نصر بن محمد بن عبد الله ، قال : قام[2] ذلك اليوم رجل من أهل الشام من السّكون ، يعرف بالشّليل[3] بن عمر إلى معاوية ، فقال :

اسمع اليوم مايقُول الشّليلُ ... إنّ قولي قولٌ له تأويلُ

امنع الماء من صحاب عليّ ... أن يذوقوه، فالذّليل ذليلُ

واقتُل القوم مِثلَ ماقُتِل الشيـ ... ـخ صدًى فالقصاصُ أمرٌ جميل[4]

إنّنا والذى تُساق له البُدْ ... نُ هَدَايَا كأنهنّ الفيُول[5]

[لو عليّ وصحبه وردوا المـا ... ء لما ذقتموه حتى تقولوا][6]

---

(١) ضربك ، أي مثلك .

(٢) صفين ١٨١ (٣) صفين : « السليل » .

(٤) صفين : « ظما والقصاص أمر جميل » .

(٥) صفين : « هدايا لنحرها تأجيل » .

(٦) تكملة من صفين .

قَدْ رَضِينا بأمرِكُمْ وعلينا ... بَعْدَ ذاكَ الرِّضا جِلادٌ ثَقِيلُ
فامْنَعِ القوم ماءكُمْ ، ليس لِلقَوْ ... مِ بقاء وإن يكنْ فقليل

فقال معاوية: أمّا أنت فندرِي ماتقول — وهو الرأى — ولكنّ عمراً لايدرى .فقال عمرو : خلِّ بينهم وبين الماء ؛ فإن عليا لم يكن ليظمأ وأنت ريّان ، وفى يده أعنّة الخيل، وهو ينظر إلى الفرات حتى يشرب أو يموت ، وأنت تعلم أنّه الشجاع المُطْرِق [ومعه أهل العراق وأهل الحجاز][1] ، وقد سمعته أنا مرارا وهو يقول : لو استمكنتُ من أربعين رجلا [2] يعنى فى الأمْر الأول[2] !

* * *

ورَوَى نَصْر ، قال : [3] لما غَلَبَ أهلُ الشام على الفُرات ، فرِحُوا بالغَلبة ، وقال معاوية : ياأهلَ الشام ؛ هذا والله أولُ الظَّفَر ، لاسَقَانى الله ولا أبا سفيان إن شربوا منه أبدا حتى يُقتَلوا بأجمعهم عليه ؛ وتباشر أهلُ الشام ، فقام إلى معاوية رجُلٌ من أهل الشام همْدانىّ ، ناسِكٌ يتألّه ويكثر العبادة، يعرف بمَعرّى بن أقبل ، وكان صديقالعمرو ابن العاص وأخا له ، فقال : يامعاوية ، سبحان الله ! لأنْ سبقتُمُ القومَ إلى الفرات فغلبتُموهم عليه ، تمنعونهم الماء ! أمَا والله لوسبقُوكم إليه لسقوْكُم منه. أليس أعظم ماتنالون من القوم أنْ تمنعوهم الفرات فينزلوا على فُرْضَةٍ أخرى ويجازوكم بما صنعتم ! أما تعلمون أنّ فيهم العبد والأمة والأجير والضعيف ، ومَنْ لاذنب له . هذا والله أول الجوْر ! لقد شجّعتَ الجبان ، و نَصرْتَ المرتاب ، وحَمَلت من لا يريد قتالك على كتِفَيْك . فأغلظ له معاوية ، وقال لعمرو : اكفِنِى صديقك . فأتاه عمرو فأغلظ له ، فقال الهمدانىّ فى ذلك شعرا :

لعمر أبى معاويةَ بن حربٍ ... وعَمْـــرٍو ، ما لدائهما دَوَاءُ

(١) تكملة من صفين .
(٢-٢) فى صفين : « فذكر أمراً ؛ يعنى لو أن معى اربعين رجلا يوم فتش البيت — يعنى بيت فاطمة »
(٣) صفين ١٨٢ .

سِوَى طَعْنٍ يحارُ العقل فيهِ وضربٍ حينَ تختلطُ الدِّماء
ولست بتابعٍ دينَ ابنِ هندٍ طَوَالَ الدهر ما أرسَى حِرَاء
لَقَدْ ذهبَ العِتاب فلا عتابٌ وَقَدْ ذهبَ الوَلاء فلا وَلاء
وقولى فى حوادث كلّ خطب[1]: على عمرو وصاحبه العَفَاء
الا لله دَرُّك يابنَ هند لَقَدْ بَرِح الخفاء فلا خَفَاء![2]
أتحمون الفرات على رجالٍ وفى أيديهمُ الأسلُ الظِّمَاء
وَفى الأعناقِ أسيافٌ حِدَادٌ كأنّ القومَ عندَهُمُ نِسَاء
أترجُو أنْ يجاوركُمْ علىّ بلاَ ماء وللأحزابِ ماء
دعاهم دعوةً فأجاب قومٌ كجُرْبِ الإبْل خالَطها الهِناء

قال: ثم سار الهمدانىّ فى سواد الليل حتى لحق بعلىّ عليه السلام.

***

قال:[3] ومكث أصحابُ على عليه السلام بغير ماء، واغتمّ علىّ عليه السلام بما فيه أهل العراق:

قال نصر: وحدّثنا محمد بن عبد الله، عن الجرجانىّ، قال: لما اغتم علىّ بما فيه أهلُ العراق من العطش، خرج ليلا قبل رايات مذحِج، فإذا رجل ينشد شعرا:

أيمنعُنا القومُ ماء الفُراتِ وَفِينا الرِّمَاحُ وَفينا الحَجَفْ[4]
وَفينا الشّوازبُ مِثْل الوَشِيجِ وَفينا السُّيُوفُ وَفينا الزَّغَفْ[5]

(١) صفين: «كل أمر».
(٢) برح الخفاء بكسر الراء وفتحها، أى ظهر ما كان خافيا.
(٣) صفين ١٨٣، ١٨٤
(٤) الحجف: جمع حجفة؛ وهى الترس من جلود الإبل يطارق بعضها فى بعض.
(٥) الشوازب: الخيل الضامرة؛ والوشيج فى الأصل: شجر الرماح؛ ويريد به هنا الرماح؛ شبهها الخيل فى ضمرها. والزغف: الدروع الواسعة.

وَفِينَا عَلِيٌّ لَهُ سَوْرَةٌ ... إِذَا خَوَّفُوهُ الرَّدَى لَمْ يَخَفْ

وَنَحْنُ الَّذِينَ غَدَاةَ الزُّبَيْرِ ... وَطَلْحَةَ خُضْنَا غِمَارَ التَّلَفْ(١)

فَمَا بِالُنَا أَمْسِ أُسْدَ العَرِينِ ... وَمَا بِالُنَا اليَوْمَ شَاءَ النَّجَفْ(٢)

فَمَا لِلْعِرَاقِ وَمَا لِلْحِجَازِ ... سِوَى الشَّامِ خَصْمٌ فَصُكُّوا الهَدَفْ(٣)

وَثُورُوا عَلَيْهِم كَبُزْلِ الجِمَالِ ... دُوَيْنَ الذَّمِيلِ وَفَوْقَ القَطَفْ(٤)

فَإِمَّا تَفُوزُوا بِمَاءِ الفُرَاتِ ... وَمِنَّا وَمِنْهُمْ عَلَيْهِ جِيَفْ

وَإِمَّا تَمُوتُوا عَلَى طَاعَةٍ ... تُحِلُّ الجِنَانَ وَتَحْبُو الشَّرَفْ

وَإِلَّا فَأَنْتُمْ عَبِيدُ العَصَا ... وَعَبْدُ العَصَا مُسْتَذَلٌّ نَطِفْ(٥)

قال : فحرّك ذلك عليًّا عليه السلام ، ثم مضى إلى رايات كِنْدة ، فإذا إنسانٌ يُنْشِد إلى جانب منزل الأشعث ، وهو يقول :

لَئِنْ لَمْ يُجَلِّ الأَشْعَثُ اليَوْمَ كُرْبَةً ... مِنَ المَوْتِ فِيهَا لِلنُّفُوسِ تَعَنُّتُ(٦)

فَنَشْرَبَ مِنْ مَاءِ الفُرَاتِ بِسَيْفِهِ ... فَهَبْنَا أُنَاسًا قَبْلَ ذَاكَ فَمُوِّتُوا(٧)

فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَجْمَعْ لَنَا اليَوْمَ أَمْرَنَا ... وَتَنْضُ الَّتِي فِيهَا عَلَيْكَ المَذَلَّةُ(٨)

---

(١) يشير إلى وقعة الجمل ، والغمار : جمع غمرة ؛ وهى الشدة .

(٢) العرين : مأوى الأسد ، والشاء : جمع شاة ، والنجف : الحلب الجيد حتى ينفض الضرع ، ويقال: انتجفت الغنم ؛ إذا استخرجت أقصى ماق الضرع من لبن ، والبيت من شواهد الكافية ؛ على أن «أسد العرين » و « شاء النجف » حالان ؛ إما على تقدير مثل ؛ وإما على تقديرهما بوصف . وانظر خزانة الأدب للبغدادى ١ : ٥٢٨ ، والمسعودى ٢ : ٣٨٥

(٣) صكوا : اضربوا ، وفى صفين : « سوى اليوم يوم » .

(٤) الذميل والقطف : ضربان من السير . والبازل : البعير الذى انشق نابه بدخوله فى التاسعة ، وجمعه بزل . وفى صفين : « فدبوا إليهم » .

(٥) عبيد العصا ؛ أى أذلاء . والنطف : المعيب .

(٦) فى المسعودى ٢ : ٣٨٥ « تقلت » .

(٧) صفين والمسعودى : « كانوا موتوا » .

(٨) صفين : « وتلق التى فيها عليك التشتت »

فَمَنْ ذَا الَّذِى تُثْنَى الخناصِرُ بِاسْمِهِ   سِوَاكَ ؛ وَمَنْ هــذا إليه التَّلفتُ !
وَهَلْ مِنْ بقاء بَعْــدَ يوم وَلَيْلَةٍ   نَظَلّ خُفوتاً وَالْعَدُوّ يُصَوِّتُ !(١)
هَلُمّوا إلى مَاء الفُرَاتِ وَدُونَهُ   صُدُورُ العَوالى وَالصَّفيحُ المشتّتُ
وَأنتَ امرؤٌ مِنْ عُصْبَةٍ يَمَنيَّــةٍ   وكلّ امرئٍ من سِنْخِهِ حِين يَنْبُتُ(٢)

قال : فلمـا سمع الأشعث قولَ الرجل ، قام فأتى عليا عليـه السلام ، فقال : ياأميرَ المؤمنين ، أيمنعُنا القوم ماء الفُرات ، وأنت فينا ، والسيوفُ فى أيدينا ! خلِّ عنّا وعن القوم ، فوالله لا نرجعُ حتى نرِدَه أو نموت ؛ وَمُرِ الأشترَ فليعلُ بخَيله ، ويقفَ حيث تأمره . فقال علىّ عليه السلام : ذلك إليكم .

فرجع الأشعثُ فنادى فى النّاس : مَنْ كان يريد الماء أو الموت فميعاده موضع كذا؛ فإنّى ناهض . فأتاه اثنا عشر ألفا من كِنْدة وأفناء قَحْطان ، واضعى سيوفهم على عواتقهم، فشدّ عليـه سلاحه(٣) ونهضَ بهم ؛ حتى كاد يخالط أهل الشام ، وجعل يُلْقى رمحه ، ويقول لأصحابه : بأبى وأمّى أنتم ! تقدموا إليهم قابَ رُمحى(٤) هذا ؛ فلم يزل ذلك دأبَه؛ حتى خالط القوم ، وحسر عن رأسه ، ونادى : أنا الأشعث بن قيس ! خَلّوا عن المـاء . فنادى أبو الأعور : أما [والله](٥) حتى لاتأخذَنا وإياكم السيوفُ . فقال الأشعث :

---

(١) صفين : « عطاشا والعدو يصوت » .
(٢) السنخ : الأصل ، وفى صفين : « من غصنه » .
(٣) صفين : وشد عليه سلاحه ، وهو يقول :

مِيعادُنَا اليومَ بيَاضُ الصُّبْحِ   هَلْ يَصْلُحُ الزّادُ بِغيرِ مِلْحِ !
لالا ، ولَا أمْرٌ بغيرِ نُصْحِ   دِبُّوا إلى القَوْمِ بِطَعْنٍ سَمْحِ
مثـلَ العَزَالِى بطعانٍ نَفْحِ   لَاصُلْحَ لِلْقَوْمِ، وَأيْنَ صُلْحِى !
* حَسْبِى مِنَ الإقْحَامِ قَابُ رُمحِ *

(٤) قاب رمحى : قدر رمحى .
(٥) من صفين .

قد والله أظنّها دَنَتْ منّا ومنكم . وكان الأشتر قد تعالى بخيله حيث أمره علىّ ، فبعث إليه الأشعث: أقحِمِ الخيلَ ؛ فأقحمَها حتى وضعت سنا بِكَها فى الفرات ، وأخذت أهلَ الشام السيوف ، فولوا مدبرين .

* * *

قال نصر : [1] وحدثنا عمرو بن شمرٍ، عن جابر ، عن أبى جعفر وزيد بن الحسن ، قال: فنادى الأشعث عَمرو بن العاص ، فقال : ويحك يا بنَ العاص ! خَلِّ بيننا وبين الماء ، فوالله لئن لم تفعل لتأخذُنا وإيّاكم السيوف ؛ فقال عمرو : والله لانخلّى عنه حتى تأخذَنا السيوف وإياكم ، فيعلمَ ربُّنا: أيّنا أصبرُ اليوم . فترجّل الأشعث والأشتر ، وذوُو البصائر من أصحاب علىّ عليه السلام ، وترجّل معهما اثنا عشر ألفا، فحملوا على عمرو وأبى الأعور ومَنْ معهما من أهلِ الشام ، فأزالوهم عن الماء ، حتى غمست خيلُ علىّ عليه السلام سنابكها فى الماء .

قال نصر : فروى عمر بن سعد أنّ عليًّا عليه السلام قال ذلك اليوم : هذا يوم نصرتم فيه بالحمِيّة [2] .

* * *

قال نصر : وحدثنا عمرو بن شمر ، عن جابر ، قال : [3] سمعت تميمًا الناجىّ يقول : سمعت الأشعث يقول : حال عمرو بن العاص بيننا وبين الفُرات ، فقلت له : ويحك ياعمرو ! أما والله إن كنتُ لأظنّ لك رأيا ؛ فإذا أنت لاعقلَ لك . أترانا نخلّيك والماء؟ تَرِبَتْ يداك [4] ! أماعلمتَ أنّا معشر عرب ! ثكلتك أمُّك وهبلتك ! لقد رُمتَ أمرا عظيما . فقال لى عمرو : أما والله لتعلمَنّ اليومَ أنّا سَنَفِى بالعهد ، ونُحْكِم العَقْد ، ونلقاكم

---

(١) صفين ١٨٧
(٢) صفين ١٨٧
(٣) صفين ١٨٩ ، ١٩٠.
(٤) صفين : « يداك وفك »

بصبر وجِدّ . فنادى به الأشتر : يابنَ العاص ؛أمَا والله لقد نزلنا هذه الفُرْضة ، وإنالنريد القتال على البصائر والدين ، وما قِتالُنا سائر اليوم إلّا حَمِيّة .

ثم كبَّر الأشتر وكبّرنا معه وحَمَلنا ، فما ثار الغُبار حتى انهزم أهل الشام .

قالوا : فَلَقِيَ عَمْرو بن العاص بعد انقضاء صِفّين الأشعث ، فقال له : ياأخا كِنْدَة ، أما والله لقد أبصرت صواب قولك يوم الماء ، ولكن كنت مقهوراً على ذلك الرأى ، فكابرتُك بالتهدّد والوعيد ، والحرب خُدْعة .

قال نصر : ولقد كان من رأى عَمْرو التَّخلِيَةُ بين أهل العراق والماء . ورجع معاوية بأخَرة إلى قوله بعد اختلاط القوم فى الحرب ؛ فإن عَمْراً ـ فيما روينا ـ أرسل إلى معاوية: أنْ خَلِّ بين القوم وبين الماء ، أترى القوم يموتون عطشا وهم ينظرون إلى الماء ! فأرسل معاوية إلى يزيد بن أسد القسرىّ : أن خَلِّ بين القوم وبين الماء ياأبا عبد الله ، فقال يزيد ـ وكان شديدَ العثمانية ـ : كلّا والله لنقتلنّهم عطشا كما قتلوا أمير المؤمنين .

***

قال : فحدثنا عمرو بن شمر ، عن جابر، قال : خطب علىّ عليه السلام يوم الماء فقال: « أمّا بعد ؛ فإنّ القوم قد بَدَءوكم بالظلم ، وفاتحوكم بالبغى ، واستقبلوكم بالعدوان ، وقد استطعموكم القتال حيث منعوكم الماء ، فأقِرّوا على مذلّة وتأخير مهلة ..... » الفصل إلى آخره .

قال نصر :وكان[1] قد بلغَ أهلَ الشام أنّ عليّا عليه السلام جعل للناس إن فتح الشام أن يَقْسِم بينهم التبر والذهب ـ وهما الأحمران ـ وأنْ يعطِىَ كلّاً منهم خمسمائة كما أعطاهم بالبصرة ، فنادى ذلك اليوم منادى أهل الشام : ياأهل العراق ؛ لماذا نزلتم بعَجاج

---

(١) صفين ١٨٧ ، ١٨٨ .

من الأرض ! نحن أزْدُ شَنُوءة لاأزْدُ عمان ، ياأهلَ العراق :

لاخَمْسَ إلا جَنْدَلُ الأحرَّين[1] والخمسُ قَدْ تُجشِّمُكَ الأمرَّيْن[2]

* * *

قال نصر : فحدّثنى عمرو بن شمر ،عن إسماعيل السّدىّ ، عن بكر بن تغلب ، قال : حدّثنى[3] مَن سَمع الأشعث يوم الفُرات ـ وقد كان له غَنَاء عظيم مِنْ أهل العراق ، وقَتَل رجالاً من أهل الشام بيده ، وهو يقول : واللهِ إنْ كنتُ لَـكارِهاً قتال أهلِ الصلاة ، ولـكن معى مَنْ هو أقْدَمُ منّى فى الإسـلام ، وأعلم بالـكتاب والسّنة ، فهو الّذى يَسْخَى بنفسه .

* * *

(١) لا خمس ، أراد لا خمسمائة . والجندل : الحجارة والأحرين : جمع حرة ، وهى الحجارة السوداء .

(٢) الأمرين : الشر والأمر العظيم ، وفى اللسان (٥ : ٢٥٢) بعـد شرح كلـة « الأحرين » : أنشد ثعلب لزيد بن عتاهية التيمى ، وكان زيد المذكور لما عظم البلاء بصفين قد انهزم ولحق بالـكوفة ، وكان على رضى الله عنه قد أعطى أصحابه يوم الجمل خمسمائة من بيت مال البصرة ، فلما قدم زيد على أهله قالت له ابنته : أين خمس المائة ؟ فقال :

إنّ أباكِ فرّ يوم صِفّينْ لما رأى عكّا والأشعريينْ

وقيس عيلان الهوازنّيينْ وابن نميرٍ فى سراة الـكنديّينْ

وذا الـكَلاَع سيّد اليمانينْ وحابساً يستنّ فى الطائيّينْ

قال لنفس السوء: هل تفرينْ؟ لاخمس إلا جندل الأحرّينْ

والخمس قد جشمنك الأمرّينْ جَمْزاً إلى الـكوفة من قنّسرِينْ

ويروى : « قد تجشمك » ، و « قد يجشمنك » . وقال ابن سيده : معنى « لاخمس » ماورد فى حديث صفين أن معاوية زاد أصحابه يوم صفين خمسمائة ، فلما التقوا بعد ذلك قال أصحاب على رضى الله عنه :

* لاخَمْس إلا جندل الأحرّين *

أرادوا : لا خمسمائة .

(٣) صفين ١٩١ ـ ١٩٢

قال نصر : وحمل [1] ظَبْيان بن عُمارة التميمىّ على أهل الشام ، وهو يقول :

هَلْ لَكَ ياظَبْيَانُ مِنْ بَقَاء   فى سَاكِنى الأرْضِ بِغَيْرِ ماء؟
لاَ وإلهِ الأرْضِ والسّماء   فاضْرِبْ وُجُوهَ الغُـدُرِ الأعداء
بالسَّيفِ عِنْدَ حَمَسِ الهيجَاء [2]   حَتى يجيبُوك إلى السَّوَاء

قال : فضَرَبهُمْ والله حتى خَلَّوْا له الماء .

***

قال نصر : ودعا [3] الأشتر بالحارث بن همام النَّخَعىّ ، ثم الصُّهبانىّ ، فأعطاه لواءه ، وقال له : ياحارث ، لولا أنى أعلم أنك تصبر عند الموت لأخذت لوائى منك ، ولم أحْبُك بكرامتى ، فقال : والله يامالك لأسُرَّنك أو لأموتنّ ، فاتّبِعنى . ثمّ تقـدّم باللواء وارتجز ، فقال :

يَاأخَا الخَيْراتِ ياخَـيرَ النَّخَعْ   وَصَاحِبَ النَّصْرِ إذا عَمَّ الفَزَعْ
وكاشِفَ الخَطْبِ إذا الأمْرُ وَقَعْ   مَاأنتَ فى الحرْبِ العَوانِ بالجَذَعْ [4]
قد جَزِعَ القومُ وعُمُّوا بالجزَعْ   وجُرِّعُوا الغيظ وغَصُّوا بالجُرَعْ
إنْ تَسقنا المـاء فليست بالبِدَعْ   أو نعطش اليوم فجُنـد مُقتطَعْ

* مَا شِئْتَ خُذْ مِنْها وَمَا شِئْتَ فَدَعْ *

فقال الأشتر : ادنُ منّى ياحارث ؛ فدنا منه فقبّل رأسه ، فقال : لايتْبَعْ رأسَه اليومَ إلا خَيْرٌ ؛ ثم صاح الأشتر فى أصحابه : فدتـكمْ نفسى اشُدّوا شِدّةَ المحرَجِ الرّاجى للفرَجِ ، فإذا نالتـكم الرماح فالتووا فيها ، فإذا عضتـكم السيوف فليعضّ الرجلُ على نواجذه ، فإنه أشد لشئون [5] الرأس ؛ ثم استقبلُوا القومَ بِهَامِكم .

---

(١) صفين ١٩٢ .
(٢) الحمس : الشدة فى القتال ، وفى صفين : « حمس الوغاء » .
(٣) صفين ١٩٣ ، والمسعودى ٢ : ٣٨٦
(٤) الحرب العوان : التى قوتل فيها مرة بعد مرة ؛ كأنهم جعلوا الأولى بكرا . والجذع : الصغير السن .
(٥) الشئون هنا : جمع شأن ؛ وهو موصل قبائل الرأس .

قال : وكان الأشتر يومئذ على فرس له مخذوف[1] أدْم ، كأنه حَلَكُ الغُراب ، وقتل بيده مِنْ أهل الشام من فرسانهم وصناديدهم سبعة : صالح بن فيروز العكّى ، ومالك بن أدهم السَّلمانىّ ، ورياح بن عَتيك الغسانىّ ، والأجلح بن منصور الكِندىّ — وكان فارس أهل الشام — وإبراهيم بن وضّاح الجُمحِىّ ، وزامل بن عبيد الحزامىّ ، ومحمد ابن روضة الجمحىّ .

قال نصر : فأول قتيل قتله الأشتر بيده ذلك اليوم صالح بن فيروز ، ارتجز على الأشتر وقال له :

يا صاحبَ الطِّرْفِ الحصان الأدْهَمِ — أقْدِمْ إذا شئت علَيْنا أقْدِمِ
أنا ابنُ ذى العزِّ وذِى التَّكرُّمِ — سَيِّدُ عَكٍّ كُلُّ عَكٍّ فاعلَمِ

قال : وكان صالح مشهوراً بالشدّة والبأس ، فارتجز عليه الأشتر ، فقال له :

أنا ابنُ خيرِ مَذْحِجٍ مركَبا — وخَيْرُها نَفْساً وأمّا وأَبا
آليتُ لا أرجعُ حتى أضرِبَا — بسيفىَ المصقولِ ضَرْباً مُعْجِبا

ثم شدّ عليه فقتله ، فخرج إليه مالك بن أدهم السَّلمانىّ — وهو من مشهوريهم أيضا ، فحمَلَ على الأشتر بالرمح ، فلما رَهِقَه[2] التوى الأشتر على فرسه ومارَ السنان[3] فأخطأه ، ثم استوى على فرسه ، وشدّ على الشامىّ فقتله طعْناً بالرمح ، ثم قتل بعده رياح بن عقيل[4] وإبراهيم بن وضاح ، ثم برز إليه زامل بن عَقِيل — وكان فارسا — فطعن الأشترَ في موضع الجَوْشن[5] فصرَعه عن فرسه ، ولم يصب مقتلا ، وشدّ عليه الأشتر بالسيف راجلا فكشف قوائم فرسه ، وارتجز عليه فقال :

(١) المخذوف : المقطوع الذنب .
(٢) رهقه : غشيه .
(٣) مار السنان : اضطرب .
(٤) سفين : « رياح بن عتيك »
(٥) الجوشن : الصدر .

لَا بُدَّ مِنْ قَتلِي أَوْ مِنْ قَتْلِكَا   قتلتُ منكم أَرْبعًا من قبلكا[1]

* كلّهم كانوا حُمَاةً مِثْلَكَا *

ثم ضربه بالسيف وهما راجلان فقتله ، ثم خرج إليه محمد بن روضة ، فقال ، وهو يضرب فى أهل العراق ضَرْبًا منكرا :

ياساكِنِي الكُوفةِ ياأهلَ الفتنْ   ياقاتِلى عُثمانَ ذَاكَ المُؤتَمَنْ

أورث قلبي قتله طُولَ الحزَنْ   أضربُكم وَلَا أرى أبا حَسَنْ !

فشدّ عليه الأشتر فقتله ، وقال :

لايبعِد اللهُ سِوَى عُثْمَانَا   وَأَنْزَلَ اللهُ بِكُمْ هَوَانا

* وَلَا يُسَلِّى عَنكُمُ الأحزَانَا[2] *

ثم برز إليه الأجلح بن منصور الكِندى — وكان من شجعان العرب وفُرسانها — وهو على فرَس له اسمه لاحق ، فلما استقبله الأشتر ، كره لقاءه واستحيا أن يرجعَ عنه ، فتضاربا بسيفيهما ، فسبقه الأشتر بالضّرْبة فقتله ، فقالت أخته ترثيه :

ألا فابْكِي أخا ثِقَةٍ   فقَدْ واللهِ أبْكِينا

لقتلِ الماجدِ القَمْقَا   م لا مِثْلَ له فينا[3]

أتانَا اليومَ مقتلُه   فقد جُزّتْ نَوَاصِينَا

كريمٌ ماجِدُ الجدّ   نِ يَشْفِي مِنْ أعادِينَا

شفانا اللهُ من أهل الـ   ـعراقِ فقد أبادُونَا

أمَا يخشَوْنَ رَبّهُمُ   ولَمْ يرعَوْا له دِينا !

---

(١) صفين : « قتلت خمسة »

(٢) بقية الرجز كما فى صفين :

مخالفٌ قَدْ خالَفَ الرّحمَانا   نَصَرْتموهُ عابداً شيطانا

(٣) القمقام : السيد الكثير العطاء .

قال : وبلَغ شعرُها عليًّا عليه السلام ، فقال : أما إنهُنّ ليس بمَلْكهنّ ما رأيتم من الجزَع ، أما إنهم قد أضرُّوا بنسائهم ، فتركوهنّ أيامَى حزَانى[1] بائسات . قاتل الله معاوية ! اللهم حَمّله آثامهم وأوزَارا وأثقالا مع أثقاله ! اللهم لا تعفُ عنه !

***

قال نصر : وحدثنا[2] عمرو بن شمر، عن جابر ، عن الشعبيّ ، عن الحارث بن أدهم، وعن صعصعة ، قال: أقبل الأشترُ يوم الماء ، فضرب بسيفه جمهورَ أهل الشام حتى كشفهم عن الماء ، وهو يقول :

لَا تَذْكُروا مَاقَدْ مَضَى وَفَاتَا ... وَاللهِ رَبِّى البَاعِثِ الأَمْوَاتَا

مِنْ بَعْدِ ماصاروا كَذَا رُفَاتَا[3] ... لأُورِدَنّ خَيْلِىَ الفُرَاتَا

* شُعْثَ النّواصى أو يقالَ ماتا *

قال :وكان لواء الأشعث بن قيس مع معاوية بن الحارث، فقال له الأشعث: لله أبوك! ليست النَّخَع بخير مِنْ كِنْدة ، قَدِّم لواءك فإنّ الحظّ لمن سبق . فتقدم لواء الأشعث ، وحملت الرجال بعضُها على بعض ، وحمل فى ذلك اليوم أبو الأعور السلَمى؛ وحمل الأشترُ عليه ، فلم ينتصف أحدُهما من صاحبه ، وحمل شُرحبيل بن السِّمط على الأشعث ، فكانا كذلك ، وحمل حَوْشب ذو ظليم على الأشعث أيضا ، وانفصلا ولم ينلْ أحدهما من صاحبه أمرا ، فما زالوا كذلك حتى انكشفَ أهلُ الشام عن الماء ، وملك أهلُ العراق المشرَعة .

***

قال نصر : فحدّثنا محمد بن عبد الله ، عن الجرجانى ، قال : قال[4] عمرو بن العاص لمعاوية لما ملك أهلُ العراق الماء : ماظنّك يامعاوية بالقوم إن منعوك اليوم الماء كما منعتَهم

---

(١) صفين : « خزايا » .

(٢) صفين ٢٠١

(٣) صفين : « صدى فراتا » .

(٤) صفين ٢٠٨

أمس ! أتراك تضاربهم عليه كما ضاربوك عليه ! ماأغنى عنك أن تكشف لهم السوءة .
فقال معاوية : دع عنك مامضى ، فما ظنك بعلىّ ؟ قال : ظنى أنه لايستحل منك مااستحللت منه ، وأنّ الذى جاء له غير الماء . قال : فقال له معاوية قولا أغضبه ، فقال عمرو :

أمرتُكَ أمراً فسخفتَـــهُ ... وخالفنى ابن أبى سَرْحَهْ[1]

وأغمضتَ فى الرّأى إغماضةً ... ولم ترَ فى الحرب كالفُسْحَهْ

فكيفَ رأيتَ كِباشَ العِراقِ ... ألم ينطحوا جَمْعَنا نَطْحَهْ !

فإن ينطحونا غداً مثلها ... تَكُنْ كالزبيرىّ أو طَلْحَهْ

أظنّ لها اليومَ مابعدَها ... وميعادُ مابيننا صُبْحَهْ

وإن أخروها لِمَا بَعْدَها ... فقد قدّموا الخبطَ والنّفْحَهْ

وقد شرب القومُ ماءَ الفراتِ ... وَقَلّدَكَ الأشترُ الفَضْحَهْ

قال نصر : فقال أصحاب علىّ عليه السلام له : امنعهم الماء يا أمير المؤمنين كما منعوك . فقال : لا ، خلّوا بينهم وبينه ، لا أفعل مافعله الجاهلون ، سنعرض عليهم كتابَ الله ، وندعوهم إلى الهدى ، فإن أجابوا ؛ وإلا ففى حَدّ السيف مايغنى إن شاء الله .

قال : فوالله ماأمسى الناس حتى رأوا سُقاتهم وسقاةَ أهل الشام وَرواياهم وروايا أهل الشام يزدحمون على الماء ، مايؤذِى إنسانٌ إنسانا .

(١) يريد بابن أبى سرحة عبد الله بن سعد بن أبى سرح .

(٥٢)[*]

ومن خطبة له عليه السلام، وقد تقدم مختارها برواية، ونذكر ما نذكره هنا برواية أخرى، لتغاير الروايتين:

الأصْلُ:

أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ تَصَرَّمَتْ وَآذَنَتْ بِانْقِضَاء، وَتَنَكَّرَ مَعْرُوفُهَا وَأَدْبَرَتْ حَذَّاء، فَهِيَ تَحْفِزُ بِالْفَنَاءِ سُكَّانَهَا، وَتَحْدُو بِالْمَوْتِ جِيرَانَهَا، وَقَدْ أَمَرَّ فِيهَا مَا كَانَ حُلْواً، وَكَدِرَ مِنْهَا مَا كَانَ صَفْواً، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا سَمَلَةٌ كَسَمَلَةِ الْإِدَاوَةِ، أَوْ جُرْعَةٌ[1] كَجُرْعَةِ الْمَقْلَةِ، لَوْ تَمَزَّزَهَا الصَّدْيَانُ لَمْ يَنْقَعْ.

فَأَزْمِعُوا عِبَادَ اللهِ الرَّحِيلَ عَنْ هَذِهِ الدَّارِ الْمَقْدُورِ عَلَى أَهْلِهَا الزَّوَالُ، وَلَا يَغْلِبَنَّكُمْ فِيهَا الْأَمَلُ، وَلَا يَطُولَنَّ عَلَيْكُمْ فِيهَا[2] الْأَمَدُ. فَوَاللهِ لَوْ حَنَنْتُمْ حَنِينَ الْوُلَّهِ الْعِجَالِ، وَدَعَوْتُمْ بِهَدِيلِ الْحَمَامِ، وَجَأَرْتُمْ جُؤَارَ مُتَبَتِّلِي الرُّهْبَانِ، وَخَرَجْتُمْ إِلَى اللهِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ؛ الْتِمَاسَ الْقُرْبَةِ إِلَيْهِ فِي ارْتِفَاعِ دَرَجَةٍ عِنْدَهُ، أَوْ غُفْرَانِ سَيِّئَةٍ أَحْصَتْهَا كُتُبُهُ، وَحَفِظَتْهَا رُسُلُهُ لَكَانَ قَلِيلاً فِيمَا أَرْجُو لَكُمْ مِنْ ثَوَابِهِ، وَأَخَافُ عَلَيْكُمْ مِنْ عِقَابِهِ.

وَبِاللهِ لَوِ انْمَاثَتْ قُلُوبُكُمْ انْمِيَاثاً، وَسَالَتْ عُيُونُكُمْ ـ مِنْ رَغْبَةٍ إِلَيْهِ أَوْ رَهْبَةٍ مِنْهُ ـ دَماً، ثُمَّ عُمِّرْتُمْ فِي الدُّنْيَا ـ مَا الدُّنْيَا بَاقِيَةٌ ـ مَا جَزَتْ أَعْمَالُكُمْ ـ وَلَوْ لَمْ تُبْقُوا شَيْئاً مِنْ جُهْدِكُمْ ـ أَنْعُمَهُ عَلَيْكُمُ الْعِظَامَ، وَهُدَاهُ إِيَّاكُمْ لِلْإِيمَانِ.

(*) انظر الخطبة رقم ٢٨ الجزء الثاني ص ٩١

(١) مخطوطة النهج: «وجرعة».

(٢) كلمة «فيها» ساقطة في مخطوطة النهج.

الشرح

تصرّمت: انقطعت وفنيت. وآذنت بانقضاء : أعلمت بذلك ، آذنته بكذا، أى أعلمه.

وتنكّر معروفها : جُهِل منها ما كان معروفا .

والحذّاء : السريعة الذهاب، ورحِم حذاء : مقطوعة غير موصولة .ومن رواه «جذّاء» بالجيم ، أراد منقطعة الدّرّ والخير .

وتحفز بالفناء سكانها: تُعجلهم وتسوقهم. وأمَرّ الشىء: صار مُرّا. وكدر الماء، بكسر الدال ، ويجوز كدُر بضمها . والمصدر من الأوّل كدَراً ، ومن الثانى كدُورة .

والسَّمَلة ، بفتح الميم : البقيّة من الماء تَبقى فى الإناء .

والمَقْلة ، بفتح الميم وتسكين القاف : حصاة القَسْم التى تلقى فى الماء ليعرف قَدْر ما يُسقى كلّ واحد منهم ؛ وذلك عند قلة الماء فى المفاوز ، قال :

قَذَفُوا سَيِّدَهُمْ فى ورطة   قَذْفَكَ المَقْلَةَ وَسْطَ المعتَرَكْ[1]

والتمزّز : تمصّص الشراب قليلا قليلا . والصديان : العطشان .

ولم ينقع : لم يَرْو ؛ وهذا يمكنُ أن يكونَ لازما ، ويمكن أن يكونَ متعدِّيًا ، تقول : نقع الرجل بالماء ، أى روى وشفى غليله، ينقع . ونقع الماء الصدىَ ينقع، أى سكّنه .

فأزمعوا الرحيل ، أى اعزموا عليه، يقال: أزمعت الأمر، ولا يجوز أزمعت على الأمر؛ وأجازه الفرّاء .

قوله : « المقدور على أهلها الزوال » ، أى المكتوب ، قال :

واعلم بأنْ ذَا الجلال قد قَدَرْ   فى الصحف الأولى الذى كان سُطِرْ

---

(١) اللسان ١٤ : ١٥٠ ، ونسبه إلى يزيد بن طعمة الخطمى .

أى كتب. والوُلّه المجال : النُّوق الوالهة الفاقدة أولادَها ، الواحدة مُجول، والوَلَه: ذهاب العقل وفقد التمييز .

وهديل الحمام : صوت نوحه . والجؤار : صوت مرتفع. والمتبتّل : المنقطع عن الدنيا. وانماث القلب ، أى ذاب .

وقوله : « ولو لم تبقوا شيئا من جُهْدكم » اعتراض فى الكلام .

وأنعمه ، منصوب لأنه مفعول « جزت » .

***

وفى هذا الكلام تلويح وإشارة إلى مذهب البغداديّين من أصحابنا فى أنّ الثواب على فعل الطاعة غير واجب ؛ لأنه شكر النعمة، فلا يقتضى وجوبَ ثواب آخر ؛ وهو قوله عليه السلام : « لو انماثت قلوبكم انمياثا .... » ، إلى آخر الفصل .

وأصحابنا البصريون لا يذهبون إلى ذلك، بل يقولون: إنّ الثواب واجب على الحكيم سبحانه ، لأنه قد كلّفنا ما يشقّ علينا ، وتكليف المشاقّ كإنزال المشاقّ ، فكما اقتضت الآلام والمشاقّ النازلة بنا من جهته سبحانه أعواضاً مستحقّة عليه تعالى عن إنزالها بنا، كذلك تقتضى التكليفات الشاقة ثوابا مستحَقًّا عليه تعالى عن إلزامه إيانا بها ، قالوا : فأما ما سلف من نعمه علينا فهو تفضّل منه تعالى ، ولا يجوز فى الحكمة أن يتفضّل الحكيم على غيره بأمر من الأمور ، ثم يُلزمه أفعالا شاقة ويجعلها بإزاء ذلك التفضّل ؛ إلا إذا كان فى تلك الأمور منافع عائدة على ذلك الحكيم، فكان ما سلَف من المنافع جاريا مجرى الأجرة ؛ كمن يدفع درهما إلى إنسان ليَخيط له ثوبا، والبارئ تعالى منزّه عن المنافع ؛ ونعمه علينا منزهة أن تجرى مجرى الأجرة على تكليفنا المشاقّ .

وأيضا فقد يتساوى اثنان من الناس فى النعم المنعَم بها عليهما ، ويختلفان فى التكاليف،

فلو كان التكليف لأجل ما مضى من النعم لوجب أن يقدر بحسبها . فإن قيل : فعلَى ماذا يُحمل كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، وفيه إشارة إلى مذهب البغداديين ؟

قيل: إنه عليه السلام لم يصرح بمذهب البغداديين ؛ ولكنه قال : لو عبدتموه بأقصى ماينتهى الجُهْد إليه ماوفّيتم بشكر أنعمه ؛ وهذا حقٌّ غيرُ مختلف فيه، لأنّ نعم البارئ تعالى لاتقوم العباد بشكرها، وإن بالغوا فى عبادته والخضوع له والإخلاص فى طاعته؛ ولا يقتضى صدق هذه القضية وصحتها صحةَ مذهب البغداديين فى أنّ الثواب على الله تعالى غيرُ واجب؛ لأنّ التكليف إنما كان باعتبار أنه شكر النعمة السالفة .

***

[ما قيل من الأشعار فى ذمّ الدنيا]

فأما ما قاله الناس فى ذمّ الدنيا وغرورها وحوادثها وخطوبها وتنكّرها لأهلها ، والشكوى منها، والعتاب لها والموعظة بها، وتصرمها وتقلّبها، فكثير؛ من ذلك قول بعضهم :

هىَ الدُّنيَا تَقُولُ بملْء فِيهـا ... حَذَارِ حَذَارِ مِنْ بَطْشِى وَفَتْكِى[1]

فلا يغرزكُم حُسْنُ ابتسامى ... فَقَوْلِى مُضْحِكٌ والفعل مُبْكِ

وقال آخر :

تنحَّ عَنِ الدُّنيَا وَلَا تَطْلُبَنَّهـا ... وَلَا تَخْطُبَنْ قَتَالةً مَنْ تُنَاكِحُ

فَلَيْسَ بَفِى مَرْجُوُّهَا بِمَخُوفهـا ، ... وَمَكْرُوهُها إمّا تأمّلتَ رَاجِحُ

لَقَدْ قال فيهـا القائلون فأكْثَرُوا ... وَعِندِى لها وصفٌ لعَمْرُك صَالِحُ

سُلافٌ ، قُصَاراها ذُعَافٌ ، ومركبٌ ... شهِىٌّ إذا استلذذته فهو جَامِحُ

وَشَخْصٌ جَمِيلٌ يُعْجِبُ النَّاسَ حُسْنُه ... ولكنْ له أفعـالُ سُوءٍ قبائحُ

---

(١) لأبى الفرج الساوى ، معاهد التنصيص ٤ : ٢٤١ .

وقال أبو الطيّب :

أبداً تسترِدّ ما تَهبُ الدُّنيا فيا ليتَ جُـودَها كانَ بُخلا [1]
وهى معشوقةٌ على الغَدرِ لا تحـفظُ عهدًا ولا تتمّ وصَلا
كلُّ دمعٍ يسيلُ منها عليها وبفكّ اليدَينِ عنها تُخلّى
شِيَمُ الغانياتِ فيها ولا أدْ رِى لذا أنّثَ اسمَها الناسُ أم لا

وقال آخر :

إنّما الدّنيا عَوارٍ والعوارِى مُستَرَدّة [2]
شدّةٌ بعد رَخاء ورخاء بعد شِدّة

وقال محمد بن هانئ المغربىّ :

وما النّاسُ إلّا ظاعِنٌ فمودِّعٌ وثاوٍ قريحُ الجفنِ يبكى لراحلِ [3]
فما الدّهرُ إلّا كالزمانِ الّذى مضى ولا نحنُ إلّا كالقرونِ الأوائلِ
نُساقُ من الدُّنيا إلى غيرِ دائمٍ ونبكى من الدنيا على غيرِ طائلِ
فما عاجلٌ نَرجوه إلّا كآجلٍ ولا آجلٌ نخشاهُ إلّا كعاجلِ

وقال ابن المظفّر المغربىّ :

دُنياكَ دارُ غُرورٍ ونعمـةٌ مُستَعارَهْ
ودارُ أكْلٍ وشُربٍ ومَكْسَبٍ وتِجارَهْ
ورأسُ مالِكَ نَفْسٌ نخفْ عليها الخسارَهْ

---

(١) ديوانه ٣ : ١٣١
(٢) محاضرات الأدباء ٢ : ١٢٦ من غير نسبة .
(٣) ديوانه ٥٨٧ (طبعة المعارف)

ولا تَبغِهَا بأكلٍ وطيب عَرْفٍ وَشارَهْ
فإنَّ مُلْكَ سليما نَ لايفى بشرارَهْ

•••

وقال أبو العتاهية :

ألا إنما التقوى هِيَ البرُّ والكَرَمْ وَحُبُّكَ للدُّنيا هو الفَقرُ والعَدَمْ[1]
وَليس عَلَى عَبْدٍ تَقِيٍّ غضاضَةٌ إذا صَحَّحَ التَّقوى وإن حاكَ أو حَجَمْ[2]

وقال أيضاً :

تَعلَّقْتَ بآمالٍ طوالٍ أيَّ آمالِ
وأقبلْتَ على الدُّنيا مُلِحّاً أيَّ إقبالِ
أيا هذا تجهَّزْ لِفراقِ الأهل والمالِ
فلا بدَّ مِنَ الموتِ عَلَى حالٍ مِنَ الحالِ

وقال أيضاً :

سَكَنٌ يَبقَى لَهُ سَكَنُ ما بهذا يُؤذِنُ الزَّمَنُ[3]
نَحنُ فى دارٍ يُخَبِّرُنا بِبلاها ناطقٌ لَسِنُ
دارُ سُوءٍ لم يدم فَرَحٌ لامرئٍ فيها وَلَا حَزَنُ
فى سبيلِ الله أنفُسُنا كُلُّنا بالموتِ مُرتَهَنُ
كلُّ نفسٍ عِندَ مَوتتها حَظُّها مِن مالِها الكَفَنُ
إنَّ مالَ المرءِ ليس له مِنهُ إلا ذِكرُهُ الحَسَنُ

---

(١) ديوانه ٢٤٣
(٢) ديوانه ٢١٣
(٣) ديوانه ٢٠٢

وقال أيضاً :

أَلا إنّنا كلّنا بائِدُ ... وأيّ بني آدمٍ خالدُ ؟ (١)

وَبدؤهُمُ كانَ مِنْ رَبّهِمْ ... وَكُلٌّ إلى رَبّهِ عائِدُ

فواعجباً كيفَ يَعصِي الإلـ ... ـهَ أمْ كيفَ يَجحَدُهُ الجاحِدُ

وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ ... تَدُلُّ على أنّه الواحِدُ

وقال الرضي المُوسَوِيّ :

يا آمنَ الأيامِ بادِرْ صَرْفَها ... واعْلَمْ بأنّ الطالِبينَ حِثاثُ (٢)

خُذْ مِنْ تُراثِكَ ما استطَعْتَ فإنّما ... شُرَكاؤكَ الأيّامُ والوُرّاثُ

لَمْ يَقْضِ حَقَّ المالِ إلّا مَعْشَرٌ ... نَظَرُوا الزّمانَ يَعيثُ فيه فعاثُوا

تَحْثُو على عَيْبِ الغنيّ يَدُ الغِنَى ... وَالفَقْرُ عَنْ عَيْبِ الفَتَى بَحّاثُ

المالُ مالُ المرءِ ما بلَغَتْ به الشّهَواتُ أو دُفِعَتْ به الأحداثُ

ما كانَ مِنْهُ فاضِلاً عَنْ قُوتِهِ ... فَلْيَعْلَمَنّ بأنّه مِيراثُ

مالي إلى الدنيا الدنيّةِ حاجةٌ ... فَلْيَجْنِ ساحِرَ كَيدِها النّفّاثُ

طَلّقتُها ألفاً لأُحسِمَ داءَها ... وطلاقُ مَنْ عَزَمَ الطّلاقَ ثَلاثُ

وَثَباتُها مَرْهُوبَةٌ، وَعِداتُها ... مَكذوبَةٌ، وحِبالُها أنكاثُ

أُمُّ المصائبِ لا تزالُ تَرُوعُنا ... مِنْها ذُكُورُ حوادِثٍ وإناثُ

إنّي لأعجَبُ للذينَ تَمَسّكوا ... بِحبائلِ الدّنيا، وَهُنّ رِثاثُ

كنزوا الكُنوزَ وأعقَلوا شَهَواتِهِم ... فالأرضُ تَشْبَعُ والبُطُونُ غِراثُ

أتَراهُمُ لَمْ يَعْلَمُوا أنّ التّقى ... أزوادُنا، وديارُنا الأجداثُ !

---

(١) ديوانه ٦٩

(٢) ديوانه لوحة ١٢٣ ، وفيه : « يا آمن الأقدار »

وقال آخر :

هـذه الدنيا إذا صرفت وجهها لم تنفع الحيلُ
وإذا ما أقبلت لِمَ بصرته كيف يفتعلُ
وإذا ما أدبرت لِذكي غاب عنه السهلُ والجبلُ
فهي كالدولابِ دائرةٌ ترتقي طوراً وتستفلُ
في زمانٍ صار ثعلبهُ أسداً واستذأب الحملُ
فالذنابي فيه ناصيةٌ والنواصي خُشّعٌ ذُلُلُ
فاصبري يانفسُ واحتملي إنّ نفسَ الحرّ تحتملُ

وقال أبو الطيب :

نُعِدُّ المشرفيّةَ والعوالي وتقتلنا المنونُ بلا قتالِ[1]
ونرتبطُ السوابقَ مقرباتٍ وماينجين من خببِ الليالي[2]
ومَنْ لَمْ يعشقِ الدنيا قديماً ولكنْ لاسبيلَ إلى الوصالِ !
نصيبُك في حياتك من حبيبٍ نصيبُكَ في منامك من خيالِ
رماني الدهرُ بالأرزاء حتى فؤادي في غشاء من نبالِ
فصرتُ إذا أصابتني سهامٌ تكسرتِ النصالُ على النصالِ
وهانَ فما أبالي بالرزايا لأني ما انتفعتُ بأنْ أبالي
يُدفّن بعضُنا بعضاً ويمشي أواخرُنا على هامِ الأوالي
وكم عينٍ مقبّلةِ النواحي كحيلٍ في الجنادلِ والرمالِ

---

(١) ديوانه ٣ : ٨ ، المشرفية : السيوف ، والعوالي : الرماح .
(٢) المقربات من الخيل : الكرام التي تربط لكرامتها على أصحابها .

وَمُمْضٍ كانَ لا يُنْفِى لخطبٍ   وبالٍ كان يُفكِرُ فى الهُزَالِ

***

وقال أبو العتاهية فى أرجوزته المشهورة فى ذم الدنيا وفيها أنواع مختلفة من الحكمة :

مَازَالَتِ الدُّنيا لنَا دَارَ أذَى   ممزوجَةَ الصَّفْوِ بألوانِ القَذَى (١)

الخيرُ والشرُّ بِها أزْوَاجُ   لِذَا نِتَاجٌ ، ولِذا نِتَاجُ

مَنْ لَكَ بالمحْضِ ولَيسَ محْضُ   يَخْبُثُ بعضٌ ويَطِيبُ بعْضُ

لِكلِّ إنسانٍ طَبِيعَتَانِ   خَيْرٌ وشرٌّ وَهُمَا ضِدَّانِ

والخيرُ والشرُّ إذا ماعُدّا   بينهما بَوْنٌ بعيدٌ جِدّا

إنَّك لَوْ تَسْتَنْشِقُ الشَّحِيحَا   وَجَدْتَهُ أنْتَنَ شىءٍ رِيحا

حَسْبُك مِمَّا تَبْتَغِيهِ القُوتُ   ما أكْثَرَ القُوتَ لِمَنْ يَمُوتُ !

الفَقْرُ فِيمَا جاوَزَ الكَفافا   مَنِ اتَّقَى اللهَ رَجَا وخافا

هِىَ المقادِيرُ فَلُمْنِى أوْ فَذَرْ   إنْ كنتُ أخطأْتُ فَمَا أخطا القَدَرْ

لِكلِّ مَايُؤذِى وإنْ قلَّ ألَمْ   ماأطْوَلَ اللَّيْلَ عَلَى مَنْ لَمْ يَنَمْ !

ما انتفعَ المرءُ بمثلِ عَقْلِهِ   وَخَيْرُ ذُخْرِ المرءِ حُسْنُ فِعلِهِ

إنَّ الفسادَ ضِدُّهُ الصلاحُ   وربَّ جِدٍّ جَرَّهُ المُزاحُ

مَنْ جَعَلَ النَّمامَ عَيْناً هَلَكَا   مُبلغكَ الشرَّ كباغِيهِ لَكَا

إنَّ الشَّبابَ وَالفَرَاغَ وَالجِدَهْ   مَفْسَدَةٌ للمرءِ أىَّ مَفْسَدَهْ

يُنْبِيكَ عَنْ كُلِّ قبيحٍ تَرْكُهُ   قَدْ يُوهِنُ الرأْىَ الأصِيلَ شَكُّهُ

ماعَيْشُ مَنْ آفَتُهُ بَقاؤُهُ   نَغّصَ عَيْشاً نَاعِماً فَنَاؤُهُ (٢)

---

(١) ديوانه ٣٤٦ مع اختلاف فى ترتيب الأبيات .

(٢) الديوان : « بقاؤه » ، « فناؤه » .

يارُبَّ مَنْ أسخطَنا بِجُهْدِهِ ... قَدْ سَرَّنا اللهُ بِغَيْرِ حَمْدِهِ

ماتَطلُعُ الشَّمسُ وَلَا تَغيبُ ... إلّا لأمْرٍ شأنُهُ عَجيبُ

لِكلِّ شيءٍ قَدَرٌ وَجَوْهَرُ ... وَأوْسَطٌ وَأصغَرٌ وَأكْبَرُ

وَكُلُّ شيءٍ لاحِقٌ بجوهرِهِ ... أصغَرُهُ متَّصِلٌ بأكبَرِهِ

مَن لَكَ بِالمَحْضِ وَكُلٌّ مُمْتَزِجْ ... وَسَاوِسٌ فِي الصَّدْرِ مِنكَ تَعتَلِجْ

عجبتُ واستغرقني السُّكوتُ ... حتى كأنّي حائرٌ مَبهُوتُ

إذا قَضَى اللهُ فكيف أصنَعُ ... والصَّمْتُ إن ضاق الكلامُ أوسَعُ

وقال أيضاً :

كلٌّ عَلَى الدُّنيا لَهُ حِرْصُ ... والحادِثاتُ لَنا بِها قَرْصُ [(١)]

وكأنَّ مَنْ وارَوْه في جَدَثٍ ... لم يَبْدُ مِنهُ لناظرٍ شَخصُ

يَهوَى مِن الدُّنيا زِيادَتَها ... وزِيادةُ الدُّنيا هِي النَّقصُ

لِيَدِ المَنِيَّةِ في تَلَطُّفِها ... عَن ذُخرِ كلِّ نَفيسةٍ فَحصُ

وقال أيضاً :

أبْلَغَ الدَّهرُ فِي مواعظِه بَلْ ... زادَ فِيهِنَّ لِي مِن الإبلاغِ [(٢)]

أيَّ عَيشٍ يكونُ أطيبَ من عيشٍ ... كفافٍ قوتٍ بِقَدْرِ البَلاغِ

غصبتني الأيّام أهلي ومالي ... وشبابي وصحّتي وفَراغي

صَاحِبُ البَغْيِ لَيس يَسْلَمُ مِنهُ ... وَعَلَى نفسِهِ بَغَى كُلُّ باغِ

رُبَّ ذِي نعمة تَعرّض مِنها ... حائلٌ بينَهُ وبَينَ المساغِ

***

---

(١) ديوانه ١٣٦ .

(٢) ديوانه ١٦٤ .

وقال ابن المعتز :

حَمداً لِرَبِّى وَذمًّا للزَّمَانِ فَمَا | أقلَّ فِي هَـذِهِ الدُّنيَا مَسَرَّاتِى !
كفت يَدِى أملِى عن كلِّ مُطّلَبٍ | وَأغلقَتْ بَابَهَا مِنْ دُونِ حاجَاتى

وله أيضاً :

ألستَ ترى يا صاحِ ما أعجبَ الدَّهرَا | فذمًّا لهُ ، لَـكِنْ لِلخالِقِ الشُّـكرَا
لقَدْ حَبّبَ الموتَ البقاء الَّذِى أرَى | فَيَا حَبّذَا مِنّى لِمَنْ سَـكَنَ القَبْرَا
وَسُبْحانَ رَبّى راضياً بقضـائِهِ | وَكَانَ اتّقائى الشرَّ يُغْرِى بِيَ الشَّرّا

وله :

قُلْ لدنياكَ : قدْ تمـكّنتِ منّى | فافعَلِي ما أرَدْتِ أن تفعلِي بى
واخرقِى كيفَ شئتِ خَرْقَ جَهُولٍ | إن عندى لكِ اصطبارَ لَبِيبِ

وقال أبو العلاء المعرّى :

والدهرُ إبْرَامٌ ونقضٌ وَتَفْـ | ـرِيق وَجَمْعٌ وَنَهَارٌ وَلَيْلْ[1]
لو قالَ لى صاحبه سمّـــــهِ | ما جزت عن ناجية أو بديلْ

وقال آخر :

والدَّهرُ لا يبقَى عَلَى حالَةٍ | لا بُدَّ أنْ يُدْبِرَ أوْ يُقْبِلاَ

وقال أبو الطيب :

ما لى وللدُّنيا طلابى نجومُها | وَمَسْعَاىَ مِنْهَا فى شدوقِ الأرَاقِمِ[2]

---

(١) سقط الزند ١٦١ .
(٢) ديوانه ٤ : ١١١ . الاراقم : الحيات .

وقال آخر :

لَعَمْرُكَ ما الأيامُ إلّا مُعارةٌ   فما اسْطَعْتَ مِنْ مَعْرُوفِها فتزوّدِ

وقال آخر :

لَعَمْرُكَ ما الأيام إلا كما ترى   رزيّةُ مالٍ ، أو فِراقُ حَبيب

الوزير المهلبيّ :

ألا مَوْتٌ يُباعُ فأشْـتريهِ   فهذا العَيْشُ ما لا خَيْرَ فيهِ[1]

ألا رَحِمَ المهيمنُ نَفْسَ حُرٍّ   تصدّقَ بالمماتِ عَلَى أخيهِ

وله :

أشكو إلى الله أحداثاً من الزّمنِ   تَبْرِينَنِي مثل بَرْى القِدح بالسَّفَنِ

لَمْ يَبْقَ بالعيشِ لى إلا مرارتُه   إذا تَذَوّقتُهُ ، والحلو مِنْه فِنِي

لا تَحْسَبَنْ نِعَماً سَرّتكَ صُحْبتُها   إلا مفاتيحَ أبوابٍ من الحَزَنِ

عبيد الله بن عبد الله بن طاهر :

ألا أيُّها الدّهرُ الذى قَدْ مللتُهُ   سألتُكَ إلا ما سَلَبْتَ حَياتى

فقد وجلالِ الله حَبَّبْتَ جاهِداً   إلىّ ـ عَلَى كُرْهِ المماتِ ـ مماتِى

وله :

ألَمْ تَرَ أنّ الدّهرَ يَهْدِمُ ما بَنَى   وَيَسْلُبُ ما أعْطى وَيفسِدُ ما أسْدَى

فَمَنْ سَرّهُ ألّا يرَى ما يَسُـوءهُ   فَلَا يَتّخِـذْ شيئاً يخافُ لَهُ فَقْدَا

البحتريّ .

كأنّ اللّيالى أغرِيَتْ حادِثاتُها   بِحُبِّ الّذِى تأبَى ، وبغضِ الّذِى تَهْوَى[2]

---

(١) ابن خلكان ١ : ١٤٢

(٢) ديوانه ١ : ١٠

وَمَنْ عرَفَ الأيَّامَ لَمْ يرَ خَفْضَها   نعيما ولم يعدُدْ مضرَّتَها بَلْوَى

أبو بكر الخوارزمىّ :

مَا أثقلَ الدّهْرَ عَلَى مَنْ رَكِبَهْ
حَـدَّثَنى عَنْهُ لِسَانُ التَّجْرِبَهْ
لا تَشْـكُرِ الدّهْرَ لخير سَبَّبَهْ
فإنّه لم يتعمَّـــــــدْ بالهِبَهْ
وإنمـــــا أخطأ فيكَ مَذْهَبَهْ
كالسَّيْلِ قَدْ يَسْقِى مَكانًا أخْرَبَهْ
والسُّمَّ يَسْتَشْفِى به مَنْ شَرِبَهْ

وقال آخر :

يَسْعَى الفَتَى فى صَلَاحِ العَيشِ مُجْتَهِداً   والدَّهْرُ مَا عَاشَ فى إفسادِهِ سَاعِى

آخر :

يَغُرّ الفَتَى مَرُّ الليالى سَلِيمَةً   وَهُنَّ بِهِ عَمَّا قَلِيـــلٍ عَوَاثِرُ

آخر :

إذا مَا الدَّهْرُ جَرَّ على أُنَاسٍ   كَلاكِلَهُ أَنَاخَ بآخَرِينَا
فَقُلْ للشَّامِتِينَ بِنا أفِيقُوا   سَيَلْقَى الشَّامِتُونَ كَمَا لَقِينا

آخر :

قُلْ لِمَنْ أنـكَرَ حَالاً مُنـكَرَهْ   وَرَأَى مِنْ دَهْرِهِ مَاحَيَّرَهْ
لَيْسَ بالمنـكَرِ مَا أنـكَرْتَهُ   كُلُّ مَنْ عَاشَ رَأَى مَالَمْ يَرَهْ

ابن الرومىّ :

سَكَنَ الزَّمانُ وَتَحْتَ سَكْنَتِهِ   دَفْعٌ مِنَ الحَرَكَاتِ والبَطْشِ

كَالأُفْعُوَانِ تَرَاهُ مُنْبَطِحاً بِالأَرْضِ ثُمَّ يَثُورُ لِلنَّهْشِ

أبو الطيب :

إنَّا لَفِي زَمَنٍ تَرْكُ القَبِيحِ بِهِ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ إِحْسَانٌ وَإِجْمَالُ[1]

ذِكْرُ الفَتَى عُمْرُهُ الثَّانِي وَحَاجَتُهُ مَا قَاتَهُ ، وَفُضُولُ العَيْشِ أَشْغَالُ

وقال آخر :

جَارَ الزَّمَانُ عَلَيْنَا فِي تَصَرُّفِهِ وَأَيُّ حُرٍّ عَلَيْهِ الدَّهْرُ لَمْ يَجُرِ !

عِنْدِي مِنَ الدَّهْرِ مَالَوْ أَنَّ أَيْسَرَهُ يُلْقَى عَلَى الفَلَكِ الدَّوَّارِ لَمْ يَدُرِ

آخر :

هَذَا الزَّمَانُ الَّذِي كُنَّا نُحَاذِرُهُ فِيمَا يُحَدِّثُ كَعْبٌ وَابْنُ مَسْعُودِ

إِنْ دَامَ هَذَا وَلَمْ تَعْقُبْ لَهُ غِيَرٌ لَمْ يُبْكَ مَيْتٌ ، وَلَمْ يُفْرَحْ بِمَوْلُودِ

آخر :

يَا زَمَاناً أَلْبَسَ الأَحْرَارَ ذُلًّا وَمَهَانَهْ

لَسْتَ عِنْدِي بِزَمَانٍ إِنَّمَا أَنْتَ زَمَانَهْ

أَجُنُونٌ مَا نَرَاهُ مِنْكَ يَبْدُو أَمْ مَجَانَهْ !

الرضيّ الموسويّ :

تَأْبَى اللَّيَالِي أَنْ تُدِيمَا بُؤْساً لِخَلْقٍ أَوْ نَعِيمَا[2]

وَالمَرْءُ بِالإِقْبَالِ يَبْـ لُغُ وَادِعاً خَطَراً جَسِيمَا

فَإِذَا انْقَضَى إِقْبَالُهُ رَجَعَ الشَّفِيعُ لَهُ خَصِيمَا

---

(١) ديوانه ٣ : ٢٨٧

(٢) ديوانه لوحة ٦٤

وَهُوَ الزَّمَانُ إِذَا نَبَا سَلَبَ الَّذِى أَعْطَى قَدِيمَا
كَالرِّيحِ تَرْجِعُ عَاصِفاً مِنْ بَعْدِ مَا بَدَأَتْ نَسِيمَا

أبو عثمان الخالدىّ :

أَلِفْتُ مِنْ حَادِثَاتِ الدهرِ أَكْبَرَهَا فَمَا أُعادى عَلَى أحداثها الصُّغَرِ
تَزِيدُنِى قَسْوَةُ الأيامِ طِيبَ ثنا كأنَّنِى المِسْكُ بين الفِهْرِ والحَجَرِ

السرىّ الرّفّاء :

تَنَكَّدَ هذا الدَّهْرُ فيما يَرُومُهُ عَلَى أنه فيما تُحَاذِرُهُ نَدْبُ [1]
فَسَيْرُ الذى تَرْجُوهُ سيرٌ مقيَّدٌ وَسيرُ الذى تَخْشَى غَوَائِلَهُ وَثْبُ

ابن الرومىّ :

ألا إنَّ فى الدنيا عجائبَ جَمَّةً وأَعْجَبُها ألا يشيبَ وليدُهَا
إذا ذلَّ فى الدُّنيا الأعِزَّاء واكتَسَتْ أذلَّتُها عِزًّا وساد مَسُودُهَا
هُنَاكَ فَلَا جَادَتْ سماء بصَوْبِهَا وَلَا أمرَعَتْ أرضٌ ، ولا اخضرّ عُودُها
أرى النّاسَ مخسوفاً بهم غيرَ أنهم على الأرضِ لم يُقلبْ عَلَيْهِم صَعِيدُهَا
وَمَا الخَسْفُ أن يُلْقَى أسافلُ بلدةٍ أعالِيَها ؛ بل أن يَسُودَ عَبِيدُهَا

السرى الرفاء :

لَنَا من الدَّهرِ خَصْمٌ لَا نُطَالِبُهُ فما على الدَّهرِ لَوْ كَفَّتْ نوائبُهُ [2] !
يَرْتَدُّ عَنْهُ جريحاً مَنْ يُسالِمُهُ فكيفَ يَسْلَمُ مِنْهُ مَنْ يُحَارِبُهُ !
وَلَوْ أمِنتُ الَّذِى تَجْنِى أراقِمُهُ عَلَىَّ هانَ الَّذِى تَجْنِى عَقَارِبُهُ

---

(١) ديوانه ٣٦
(٢) ديوانه ٥٤ ، وفيه : « خصم لا نغالبه » .

أبو فراس بن حمدان :

تَصَفَّحتُ أحوالَ الزَّمانِ ولَمْ يكُنْ ... إلى غيرِ شاكٍ للزَّمانِ وُصولُ[1]

أكلَّ خليلٍ هكذا غيرُ منصفٍ ... وكلُّ زمانٍ بالكرام بخيلُ !

ابن الرومي :

رَأيتُ الدَّهرَ يَرفعُ كلَّ وَغْدٍ ... وَيخفِضُ كلَّ ذِي شِيَمٍ شَرِيفَهْ

كَمِثلِ البَحرِ يَغرَقُ فيه حَيٌّ ... وَلَا يَنفكُّ تَطفُو فيه جِيفَهْ

أو الميزان يخفِضُ كلَّ وافٍ ... وَيَرفَعُ كلَّ ذي زِنَةٍ خَفِيفَهْ

ابن نُباتة :

وأصغرُ عيبٍ في زَمانِك أنَّه ... به العِلمُ جَهلٌ ، والعفافُ فُسُوقُ

وَكَيفَ يُسَرُّ المرءُ فيه بمَطْلَبٍ ... وما فيه شيءٌ بالسرور حَقِيقُ !

***

أبو العتاهية :

لِتَجذِبُنِّي يَدُ الدُّنيا بِقُوَّتِها ... إلى المنايا ، وإنْ نازَعتُها رَسَنِي[2]

لِلّه دُنيا أُناسٍ دائبينَ لَها ... قَد ارتَعَوا في رِياضِ الغَيِّ والفِتَنِ

كسائماتٍ رِواعٍ تبتغي سِمَناً ... وحَتفُها لَوْ دَرَتْ فِي ذَلِكَ السِّمَنِ

وله أيضا :

أَنَساكَ مَحْياكَ المَماتا ... فطَلَبْتَ في الدُّنيا الثَّباتا[3]

---

(١) ديوانه ٣١٥ (نشرة سامي الدهان) .

(٢) ديوانه ٢٨٨

(٣) ديوانه ٥٣

وقال يزيد بن مفرّغ الحميرى :

لاذعرتُ السّوامَ فى فَلَقِ الصُّبْـ ـحِ مُغيراً وَلَا دُعيتُ يَزِيدَا [١]

يَوْمَ أُعْطى مِنَ المَخَافَةِ ضَيْماً والمنايا يَرْصُـدْنَنى أنْ أحيدَا [٢]

وقال آخر :

لا تحسبينى يا أما مة عاجِزاً دَنِساً ثِيَابُهْ

إنى إذا خفتُ الموا نَ مُشَيَّعٌ ذُلُلٌ رِكابُهْ [٣]

مثله قول عنترة :

ذُلُلٌ رِكَابِى حَيْثُ شئتُ مُشايِعى لُبِّى وأحْفِزُهُ برأيٍ مُبْرَمِ [٤]

وقال آخر :

أخَشْيَةَ الموتِ دَرَّ دَرُّكُمُ أعطيتم القومَ فوقَ ما سألوا

إنّا لَعَمْرُ الإله تأبى الذى قا لوا ولمّا تَقَصَّفُ الأسَلُ

نَقْبَلُ ضَيْماً وَنَحْنُ نَعْرِفُهُ ما دام مِنّا بِظَهْرِها رَجُلُ

وقال آخر :

وَرُبَّ يومٍ حَبَسْتُ النَّفْسَ مُكْرَهَةً فيه لأكْبِتَ أعداءً أحاشِيها

آبى وآخذُ من أشياء آخُذُها رَثّ القُوى ، وضعيفُ القومِ يُعْطِيها

مثله للشدّاخ :

أبَيْنَا فلا نُعْطِى مليكاً ظُلَامَةً ولا سُوقةً إلا الوَشيجَ المُقَوَّما [٥]

---

(١) السوام : الإبل الراعية .

(٢) يرصدننى : يراقبننى .

(٣) المشيع : الشجاع .

(٤) من المعلقة ٢٠٠ — بشرح التبريزى . ذلل : جمع ذلول ؛ وهو من الإبل وغيرها ضد الصعب ؛ والمشايع : الشجاع ؛ مثل المشيع ؛ كأن قلبه لا يخذله فهو يشيعه . وأحفزه : أدفعه . والمبرم : المحكم .

(٥) يعنى بالوشيج الرمح .

تَرُومُ الخُلْدَ فى دارِ التَّفانى وكَمْ قدْ رامَ قَبلكَ ما تَرُومُ !
لأمرٍ ما تصرّمتِ الليالى وأمرٍ ما تقلّبتِ النُّجومُ
تنامُ ولَمْ تَنَمْ عنكَ المنايا تَنَبَّهْ لِلمَنِيَّةِ يا نَئومُ
إلى دَيّانِ يومِ الدِّين نَمضى وعِنْدَ اللهِ تجتمعُ الخُصومُ

• • •

حسبنا الله وحده ، وصلواته على خيرته من خلقه سيدنا محمد وآله الطاهرين .

• • •



تم الجزء الثالث

ويليه الجزء الرابع وأوله فى ذكر يوم النحر وصفة الأضحية

فهرس الخطب

	صفحة
٤٤ ـ من كلامه عليه السلام لما هرب مصقلة بن هبيرة الشيبانى إلى معاوية	١١٩
٤٥ ـ من خطبة له فى الزهد وتعظيم الله وتصغير أمر الدنيا	١٥٦
٤٦ ـ من كلامه عند عزمه على المسير إلى الشام	١٦٥
٤٧ ـ من كلامه فى ذكر الكوفة	١٩٧
٤٨ ـ من خطبة له عند المسير إلى الشام أيضاً	٢٠٢
٤٩ ـ من خطبة له فى تمجيد الله سبحانه وتحميده	٢١٦
٥٠ ـ من خطبة له يصف فيها وقوع الفتن	٢٤٠
٥١ ـ من كلام له لما غلب أصحاب معاوية أصحابه على شريعة الفرات بصفين ومنعوهم من الماء	٢٤٤
٥٢ ـ من خطبة له فى وصف الدنيا	٣٣٢

فهرس الموضوعات

	صفحة
بقية ردّ المرتضى على ما أورده القاضى عبد الجبار من الدفاع عن عثمان	٤ – ١١
ذكر المطاعن التى طُعن بها على عثمان والردّ عليها	١١ – ٦٩
بيعة جرير بن عبدالله البجلىّ لعلىّ	٧٠ – ٧٣
بيعة الأشعث لعلىّ	٧٣ – ٧٤
دعوة علىّ معاوية إلى البيعة والطاعة وردّ معاوية عليه	٧٤ – ٩١
أخبار متفرقة	٩١ – ١١٥
مفارقة جرير بن عبدالله البجلىّ لمعاوية	١١٥ – ١١٧
نسب جرير وبعض أخباره	١١٧ ، ١١٨
نسب بنى ناجية	١٢٠ – ١٢٢
نسب علىّ بن الجهم وطائفة من أخباره وشعره	١٢٢ – ١٢٦
نسب مصقلة بن هبيرة	١٢٧
خبر بنى ناجية مع علىّ	١٢٧
قصة الخرّيت بن راشد الناجى وخروجه على علىّ	١٢٨ – ١٥١
فصل بلاغىّ فى الموازنة والسجع	١٥٣ ، ١٥٤
نبذ من كلام الحكماء فى مدح القناعة وذم الطمع	١٥٤ – ١٦٤
أدعية علىّ عند خروجه من الكوفة لحرب معاوية	١٦٦ – ١٦٩
كلام لعلىّ حين نزل كربلاء	١٦٩ – ١٧١
كلامه لأصحابه وكتبه إلى عماله	١٧١ – ١٨٦
كتاب محمد بن أبى بكر إلى معاوية وجوابه عليه	١٨٨ – ١٩٠
فصل فى ذكر فضل الكوفة	١٩٨ ، ١٩٩

صفحة

أخبار عليّ في جيشه وهو في طريقه إلى صفين ٢٠٢

فصول في العلم الإلهي ٢١٧

الفصل الأول في الكلام على كونه تعالى عالما بالأمور الخفية ٢١٨ — ٢٢١

الفصل الثاني في تفسير قوله عليه السلام : « ودلت عليه أعلام الظهور » ٢٢١ ، ٢٢٢

الفصل الثالث في أن هويته تعالى غير هوية البشر ٢٢٢ ، ٢٢٣

الفصل الرابع في نفي التشبيه عنه تعالى ٢٢٣ — ٢٣٨

الفصل الخامس في بيان أن الجاحد مكابر بلسانه ومثبت له بقلبه ٢٣٨ ، ٢٣٩

الأشعار الواردة في الإباء والأنف من احتمال الضيم ٢٤٥ — ٢٤٩

أباة الضيم وأخبارهم ٢٤٩ — ٣١٢

غلبة معاوية على الماء بصفين ثم غلبة علي عليه بعد ذلك ٣١٢ — ٣٣١

ما قيل من الأشعار في ذم الدنيا ٣٢٥ — ٣٤٩